د. عمار علي حسن

فرسان العشق الإلهي

الدار المصرية اللبنانية

فرسان العشق الإلهي

د. عمار علي حسن

الدار المصرية اللبنانية

حسن، عمار علي.
فرسان العشق الإلهي / عمار علي حسن .- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
552 ص؛ 20 سم.
تدمك: 5 - 865 - 427 - 977 - 978
1- التصوف الإسلامي.
أ - العنوان 260
رقم الإيداع: 22308 / 2013

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: ربيع أول 1435 هـ - يناير 2014م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في
هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا
أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

استهلال

تفيض سطور هذا الكتاب بعشق لا يدانى، كبير وعريض على اتساع الكون، عميق وراسخ كالجبال الرواسي، لا يخبو نوره، ولا ينتهي عطاؤه، ولا تنضب مواجيده وأذواقه، ولا تتراخى مقاماته وأحواله. إنه العشق الذي ذاقه كبار العابدين والزاهدين، وهبّت نسماته على كل من اقتربوا منهم، وحاولوا أن يتشبّهوا بهم، وخلّوا وراء ظهورهم منافع الدنيا الزائلة، وأطلقوا أرواحهم لتبحث عن الحب العظيم، الذي لا يتهادى إلا لأصحاب القلوب الرقيقة، والنفوس الطيبة، والعقول المتوقدة، والبصائر النيرة.

إنها سطور عشق صنعتها أقوال وأفعال مَنْ وصفهم مريدوهم بالأقطاب والأبدال والأنجاب. سكنات وحركات، همسات وصرخات. تفكير وتعبير وتدبير، شكّل جانبا لا يمكن إهماله من الحضارة الإسلامية على امتداد تاريخها. وهي سطور أوجدتها معالم الشريعة وأنوار الحقيقة، اللتان تقاربتا وتباعدتا وتماهتا في تصنيف عجيب، أثار جدلا لن ينتهي، لكنه أنتج معرفة لا يمكن إنكار فضل حضورها.

إنها رحلات المتصوفة المسلمين الكبار، من المنشأ والمسار إلى المآل... رحلات صانعها ودافعها ورافعها العشق الإلهي، الذي لن يبور ما دام للبشر قلوب تنبض، ونفوس تطيب.

إنها صور قلمية أو تراجم أو ملامح ذاتية لرموز التصوف وشيوخه الكبار، الذين شكلوا كتيبة عريضة من فرسان المحبة، والتسامح، والزهد، والولاية، والمعرفة الحدسية على مدار التاريخ الإسلامي.

ولم أشأ أن أرتبهم زمنيا، بل رتبتهم أبجديا، فنصوصهم تتجاوز زمن كتابتها، وأحوالهم تتجدد مع العارفين والواصلين من أولياء الله الصالحين.

فيا مَنْ لا تعرف، ويا مَنْ تجحد أو تكابر، ويا مَنْ تحاول أن تهتدي إلى دروب السالكين، تعالوا لتروا، قفوا لتتعلموا، اصغوا لتتدبروا، واعلموا أن الكون الفسيح مفعم بأسرارٍ لا تنتهي، ومكنون على خبايا سيحاول الإنسان اكتشافها تباعا حتى ينقضي أجله، بل حتى يطوي اللهُ السماء ويكوّر الأرض، ويجعل الجبال كالعِهْن المنفوش.

لقد حاولت في سرد هذه الشخصيات أن أتْبع منهجا واحدا، وسعيت إلى أن أدقق النظر، وأزن المعنى، حتى نحيط خبرا بكل الآراء والمواقف حول الشخصية التي نعرضها. آراء ومواقف المادحين والقادحين. فلا إجماع على أحد. ولا كرامة لنبي في وطنه. والتاريخ اختيار. وما يكتب عن إنسان، صغر أو كبر، في أي زمان وأي مكان لا يخلو من هوى، ولا ينجو أحيانا من ضعف.

إن شخصيات هذا الكتاب نشرت الجزء الأول منها صحيفة «المصري اليوم» تباعا في شهر رمضان لسنة 1432هـ،2011م، ثم نشرت صحيفة «الوطن» الجزء الثاني منها في رمضان لسنة 1434هـ، 2013م، فلاقت صدى واسعا بين القراء، وتتبعها كثيرون حسبما أخبروا مؤلفها، أو علقوا عليها، أو أحاطوا المسؤولين عن الجريدة بها خبرا. وطالب هؤلاء جميعا بأن تنتظم هذه الحلقات في كتاب، حتى تسهل قراءتها. وها نحن نلبي طلبهم، بجمعها بين دفتي كتاب واحد، مع ذكر المصادر والمراجع والأسانيد التي تم الاستفادة منها في رسم ملامح تلك الشخصيات الصوفية الشهيرة، وهو ما كان من الصعب عرضه أو وضعه على صفحات الجريدة.

وقد نُشرت هذه الشخصيات، وتابعها الناس في وقت فارق من تاريخ مصر والعرب؛ إذ نشرت في مصر عقب انقضاء الموجة الأولى من ثورتنا العظيمة، وقت أن أطلت علينا رؤوس دينية جامدة خامدة، ادعت امتلاك الحقيقة، وظنت أنها هي التجسيد والتمثيل الأساسي والوحيد للإسلام، وقصرت

لقب «العلماء» على حفنة من رجالها يحفظون بعض الكتب القديمة، يُقدسون مؤلفيها من البشر، ويعتقدون أنها العلم الصرف، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكم آلمنا أن يُطلق لفظ «العالِم» على أهل الرواية لا أهل الدراية، وعلى الحفظة لا على الفاهمين الناقدين المبدعين.

ظهرت هذه الشخصيات، وكم كانت حاجة الناس إليها؛ ليعرفوا أن تاريخ الإسلام غني بشخصيات أعظم بكثير من هؤلاء الحفظة المنغلقين، الذين يركزون على المنظر لا المخبر، والمظهر لا الجوهر، إنهم هؤلاء الذين حبسوا الإسلام العظيم في مجموعة من الأمور الشكلية العابرة، ووظفوه في قضية الصراع على السلطة والثروة، وهاهو هذا الكتاب يضعهم في حجمهم الطبيعي، دون أن يذكر ذلك صراحة.

لقد هاتفني أحد القراء وقت نشر هذه الحلقات، وهو رجل ذو مكانة، وقال: كم أبكيتني، وجعلتني أعرف أن تاريخ الإسلام فيه من هم أعظم من المتنطعين الذين «يُصدّعون» رؤوسنا بأقوال مكرورة معلبة جاهزة لا روح فيها ولا حرارة، رغم الصراخ والضجيج والعجيج.

ورغم هذه الحماسة وذلك الجيشان الرهيب فإنني توخيت الموضوعية بقدر ما استطعت، وأنا أتمثل الحكم الخالدة التي تقول:

«الحق كالزيت يطفو دائما».

«الحقيقة ثورية بطبعها».

«يُعرف الرجال بالحق ولا يُعرف الحق بالرجال».

« الحكمة ضالة المؤمن فأنى وجدها فهو أولى بها».

إبراهيم بن أدهم

سلطان الزاهدين الذي اتّفق الجميع عليه

أطلق عليه الناس لقب: «سلطان الزاهدين». متفق على ورعه وزهده ونبل مقصده وحسن سيرته لدى الفرق والجماعات والتيارات الإسلامية كافة. كان يبحث عن الحلال عملًا وطعامًا، ويعد هذا الأمر جوهر العبادة. ترك وراءه أقوالا مأثورة ومواعظ محفورة في قلوب العارفين.

هو إبراهيم بن منصور بن يزيد بن جابر التميمي البلْخي، ويُكنَّى بأبي إسحق. مسقط رأسه كَوْرَة بلخ في خُراسان، ولد في مكة حين كان أبوه يحج مع زوجته وهي حُبلى، وقيل إنها طافت به على الخلق في الحرم، وطلبت من كل مَنْ رأته أن يدعو الله له أن يكون صالحًا. وقد كان الأب من الأثرياء، فعاش ابنه في كنفه حياة رخية مترفة، وكان مشغولًا في مقتبل حياته بالصيد.

ويقال إنه خرج ذات يوم في رحلة صيد راكبًا فرسه، وكلبه معه، فسمع هاتفًا يقول له: «ليس لهذا خُلقت ولا بذا أمرت». وتكرر النداء مرات عدة، فأيقن أنه هاتف من السماء، فأوقف فرسه، وصادف راعيًا لأبيه، فأخذ جبته ولبسها، وأعطاه ثيابه وقماشه وفرسه وترك طريقته، ثم قال: «والله لا عصيت الله بعد يومي إذا ما عصمني ربي»، ثم بدأ رحلته إلى الله بطلب العلم والغوص في قيعان الزهد البعيدة، فذهب إلى مكة وصحب سُفيان الثوري، والفُضَيْل بن عياض، وتعلم منهما الكثير، ثم عاد إلى الشام، وشارك في الجهاد، ورابط على الثغور، واستقر زمنًا في البصرة، وذاع صيته بين الناس.

وتُنقل هذه الحكاية عنه بطريق إبراهيم بن بشار الذي قال: قلت لإبراهيم ابن أدهم: «كيف كان بدءُ أمرك؟ قال: غير ذا أولى بك. قلت: أخبرني لعل الله أن ينفعنا به يومًا. قال: كان أبي من الملوك المياسير، وحبب إلينا الصيد، فركبت، فثار أرنب أو ثعلب، فحركتِ فرسي، فسمعت نداءً من ورائي: ليس لذا خلقت، ولا بذا أمرت. فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أرَ أحدًا، فقلت: لعن الله إبليس، ثم حركت فرسي، فأسمع نداءً أجهر من ذلك: يا إبراهيم! ليس لذا خلقت، ولا بذا أُمرت فوقفت أنظر فلا أرى أحدًا، فقلت: لعن الله إبليس، فأسمع نداءً من قربوس سرجي بذاك، فقلت: أنبهت، أنبهت، جاءني نذير، والله لا عصيت الله بعد يومي ما عصمني الله، فرجعت إلى أهلي، فخليت فرسي، ثم جئت إلى رعاة لأبي، فأخذت جبة كساء، وألقيت ثيابي إليه، ثم أقبلت إلى العراق، فعملت بها أيامًا، فلم يصفُ لي منها الحلال، فقيل لي: عليك بالشام، وقال الخادم: أنت تحرس فاكهتنا، ولا تعرف الحلو من الحامض؟ قلت: والله ما ذقتها. فقال: أتراك لو أنك إبراهيم بن أدهم، فانصرف، فلما كان من الغد، ذكر صفتي في المسجد، فعرفني بعض الناس، فجاء الخادم ومعه عنق من الناس، فاختفيت خلف الشجر، والناس داخلون، فاختلطت معهم وأنا هارب.

وقيل إنه كان يلبس فروًا بلا قميص، وفي الصيف شقتين بأربعة دراهم: إزار ورداء، ويصوم في الحضر والسفر، ولا ينام الليل، وكان يتفكر، ويقبض أصحابه أجرته، فلا يمسها بيده، ويقول: كلوا بها شهواتكم، وكان يطحن بيد واحدة مدّين من القمح.

شهد لابن أدهم كثيرون، وتحدثوا عن مآثره، فقال البخاري: قال لي قتيبة: إبراهيم بن أدهم تميمي يروي عن منصور، وقال النسائي: هو ثقة مأمون، أحد الزهاد. وقال عنه يونس البلخي: كان من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم. وفي «رسالة القشيري»، قال: ورأى في البادية رجلًا، علّمه الاسم الأعظم فدعا به، فرأى الخضر، وقال: إنما علّمك أخي داود. وقال عنه عبد الله بن المبارك: وله فضل في نفسه، صاحب سرائر، وما رأيته يظهر تسبيحًا، ولا شيئًا من الخير، ولا أكل مع قوم أبدًا، إلا كان آخر مَنْ يرفع يده. وقال أبو نعيم: سمعت سفيان يقول: كان إبراهيم ابن أدهم يشبه إبراهيم الخليل، ولو كان في الصحابة، لكان رجلًا فاضلًا. وقال بشر الحافي: ما أعرف عالمًا إلا وقد أكل بدينه، إلا وهيب بن الورد، وإبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط، وسلم الخواص.

لم يكن ابن أدهم متواكلًا، يميل إلى العبادة على حساب العمل، بل كان يأكل من عمل يده. فقد عمل أجيرًا لدى أصحاب المزارع، يحصد لهم الزروع، ويقطف لهم الثمار ويطحن الغلال، ويحمل

الأحمال على كتفيه، ويحرس البساتين، وكان سخيًّا لا يحتفظ بشيء من أجره بل ينفقه على أصحابه وذوي الحاجة مكتفيًا بأبسط طعام، الذي كان غالبًا ما يكون الخبز والماء.

وفي هذا، سمعه أحد أصحابه ذات مرة وهو يقول: ذهب السخاء والكرم والجود والمواساة، مَنْ لم يواس الناس بماله وطعامه وشرابه فليواسهم ببسط الوجه والخلق الحسن. إياكم أن تكون أموالكم سببًا في أَن تتكبروا على فقرائكم، أو سببًا في ألا تميلوا إلى ضعفائكم، وألا تبسطوا إلى مساكينكم.

كان نشيطًا في عمله، يُحكى عنه أنه حصد في يوم من الأيام ما يحصده عشرة رجال، وفي أثناء حصاده كان ينشد قائلًا: «اتَّخِذِ اللهَ صاحبًا... ودَعِ النَّاسَ جانبًا».

ويروي بقية بن الوليد، يقول: دعاني إبراهيم بن أدهم إلى طعامه، فأتيته، فجلس ثم قال: كلوا بسم الله، فلما أكلنا، قلت لرفيقه: أخبرني عن أشد شيء مرَّ بك منذ صحبته. قال: كنَّا صباحًا، فلم يكن عندنا ما نفطر عليه، فأصبحنا، فقلت: هل لك يا أبا إسحاق أن تأتي الرَّسْتن، وهي بلدة بالشام كانت بين حماة وحمص، فنكري أنفسنا مع الحصَّادين؟ قال: نعم. قال: فاكتراني رجل بدرهم، فقلت: وصاحبي؟ قال: لا حاجة لي فيه، أراه ضعيفًا. فما زلت بالرجل حتى اكتراه بثلثي درهم، فلما انتهينا، اشتريت من أجرتي طعامي وحاجتي، وتصدقت بالباقي، ثم قربت الزاد، فبكى إبراهيم ابن أدهم، وقال: أما نحن فاستوفينا أجورنا، فليت شعري أوفينا صاحبه حقه أم لا؟ فغضبت، فقال: أتضمن لي أنّا وفيناه، فأخذت الطعام فتصدقت به.

ويُروى أنه ادّخر من عمله عشرين دينارًا ودخل إلى بلدة أذنة، ومعه صاحب له. فأراد أن يحلق ويحتجم، فجاء إلى حجَّام، فحقره الحجام وصاحبه، وقال: ما في الدنيا أحد أبغض إليَّ من هؤلاء! أما وجدوا غيري!» فقضى شغل غيرهما، وأعرض عنهما. ثم قال: أي شيء تريدان؟ فقال إبراهيم: «أحتجم وأحلق». ففعل به، وأما صاحبه فقال له: لا أفعل ذلك! لتهاونه بهما، ثم أعطاه إبراهيم الذي كان معه، فقال له صاحبه: «كيف ذاك!» فقال: اسكت لئلا يحتقر فقيرًا بعده.

كذلك رُوي أنه كان يعمل في الحصاد وحفظ البساتين وغير ذلك، وينفق على مَنْ في صحبته من الفقراء وكان يعمل نهاره، ويجتمعون ليلًا إلى موضع، وهم صيام، وكان إبراهيم يبطئ في رجوعه من عمله. فقالوا ليلة: «هلمّ نسبقه حتى لا يبطئ»، ففعلوا وناموا. فجاء إبراهيم، فظن أنهم لم يجدوا طعامًا، فأصلحه لهم، فانتبهوا وقد وضع شيبته في النار، وينفخ بها، فقالوا له في ذلك، فرد عليهم: «ظننت أنكم نمتم جوعى لأجل العدم، فأصلحت لكم ذلك!»، فقال بعضهم لبعض: انظروا ما الذي عملنا، وما الذي يعاملنا به.

وركب مرة البحر، فهاج عليهم، فلفَّ رأسه في عباءة ونام. فقيل له: ما ترى ما نحن فيه من الشدة! فقال: ليس هذا شدة! الشدة الحاجة إلى الناس. ثم قال: اللهم أريتنا قدرتك، فأرنا لطفك.

ومن القصص التي تُروى دومًا على المنابر أن أهل البصرة جاءوا يومًا وقالوا له: يا إبراهيم إن الله تعالى يقول في كتابه: «ادعوني أستجب لكم»، ونحن ندعو الله منذ وقت طويل فلا يستجيب لنا؟! فقال لهم إبراهيم ابن أدهم: يا أهل البصرة، ماتت قلوبكم في عشرة أشياء، فلم يُستجب لدعائكم: عرفتم الله، ولم تؤدوا حقه، وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به، وادعيتم حب رسول الله عليه الصلاة والسلام وتركتم سنته، وادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه، وقلتم: نحب الجنة ولم تعملوا لها، وقلتم: نخاف النار ورهنتم أنفسكم بها، وقلتم: إن الموت حق ولم تستعدوا له، واشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم، وأكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها، ودفنتم موتاكم، ولم تعتبروا بها.

أما هو فقد كان مستجاب الدعاء. فذات يوم كان في سفينة مع أصحابه، فهاجت الرياح، واضطربت السفينة، فبكوا، فقال إبراهيم: يا حي حين لا حي، ويا حي قبل كل حي، ويا حي بعد كل حي، يا حي، يا قيوم، يا محسن يا مُجْمل قد أريتنا قدرتك، فأرنا عفوك. فبدأت السفينة تهدأ، وظل إبراهيم يدعو ربه

ويُكثر من الدعاء. وكان أكثر دعائه: اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك. وكان يقول: ما لنا نشكو فقرنا إلى مثلنا ولا نسأل كشفه من ربنا. وكان يقول لأصحابه إذا اجتمعوا: ما على أحدكم إذا أصبح وإذا أمسى أن يقول: اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واحفظنا بركنك الذي لا يُرام، وارحمنا بقدرتك علينا، ولا نهلك وأنت الرجاء.

وكان يتوجَّه إلى الناس ويقول لهم: «خالفتم الله فيما أنذر وحذَّر، وعصيتموه فيما نهى وأمر، وإنّما تحصدون ما تزرعون، وتجنون ما تغرسون، وتكافؤون بما تفعلون، وتُجزوْنَ بما تعملون، فاعلموا إن كنتم تعقلون، وانتبهوا من رقدتكم لعلكم تفلحون، الحذر الحذر!! الجدّ الجدّ!! كونوا على حياء من الله، فوالله لقد ستر وأمهل وجاد فأحسن».

عُرف عن ابن أدهم شدة التواضع، وكان يقول: إياكم والكبر والإعجاب بالأعمال، انظروا إلى مَنْ دونكم، ولا تنظروا إلى مَنْ فوقكم، مَنْ ذلَّل نفسه، رفعه مولاه، ومَنْ خضع له أعزَّه، ومَنِ اتقاه وقاه، ومَنْ أطاعه أنجاه.

كان ابن أدهم يوقن دومًا أن باب التوبة مفتوح، لكنه مشروط، فها هو يقول: مَنْ أراد التوبة، فليخرج من المظالم، وليدع مخالطة الناس، وإلا لم ينل ما يريد. ويقول أيضًا: وأي دين لو كان له رجال! من طلب العلم لله، كان الخمول أحب إليه من التطاول، والله ما الحياة بثقة، فيرجى نومها، ولا المنية بعذر، فيؤمن عذرها، ففيم التفريط والتقصير والاتكال والإبطاء؟ قد رضينا من أعمالنا بالمعاني، ومن طلب التوبة بالتواني، ومن العيش الباقي بالعيش الفاني.

وكان في هذا يقول أيضًا: لا تُنال جنته إلا بطاعته، ولا تُنال ولايته إلا بمحبته، ولا تُنال مرضاته إلا بترك معصيته، فإن الله تعالى قد أعدَّ المغفرة للأوابين، وأعدَّ الرحمة للتوابين، وأعدَّ الجنة للخائفين، وأعدَّ الحور للمطيعين، وأعدَّ رؤيته للمشتاقين، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: 82].

وقد أتِي إليه رجل فقال: يا أبا إسحاق إني مسرف على نفسي، فاعرض عليَّ ما يكون لها زاجرًا ومستنقذًا. فقال إبراهيم: إن قبلت خمسَ خصالٍ، وقدرت عليها لم تضرك المعصية. قال: هاتِ يا أبا إسحاق. قال: أما الأولى: فإذا أردت أن تعصي الله تعالى، فلا تأكل من رزقه.

قال: فمن أين آكل، وكل ما في الأرض رزقه؟

قال: يا هذا! أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتعصيه؟

قال: لا... هاتِ الثانية.

قال: وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئًا من بلاده؟

قال: هذه أعظم، فأين أسكن؟

قال: يا هذا! أفيحسن بك أن تأكل رزقه، وتسكن بلاده، وتعصيه؟

قال: لا... هاتِ الثالثة.

قال: وإذا أردت أن تعصيه، وأنت تأكل رزقه، وتسكن بلاده، فانظر موضعًا لا يراك فيه فاعصه فيه؟

قال: يا إبراهيم! ما هذا؟ وهو يطَّلع على ما في السرائر؟

قال: يا هذا! أفيحسن بك أن تأكل رزقه، وتسكن بلاده، وتعصيه وهو يراك ويعلم ما تجاهر به وما تكتمه؟

قال: لا... هاتِ الرابعة.

قال: فإذا جاءك الموت ليقبض روحك، فقل له: أخرني حتى أتوب توبة نصوحًا، وأعمل لله صالحًا.

قال: لا يُقبل مني.

قال: يا هذا! فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب، وتعلم أنه إذا جاءك لم يكن له تأخير، فكيف ترجو وجه الخلاص؟

قال: هاتِ الخامسة.

قال: إذا جاءك الزبانية يوم القيامة، ليأخذوك إلى النار، فلا تذهب معهم.

قال: إنهم لا يدعونني، ولا يقبلون مني.

قال: فكيف ترجو النجاة إذن؟

قال: يا إبراهيم، حسبي، حسبي، أنا أستغفر الله وأتوب إليه.

فكان لتوبته وفيًّا، فلزم العبادة، واجتنب المعاصي حتى فارق الدنيا.

وقد قيل له أوصِنا بما ينفعنا فقال: إذا رأيتم الناس مشغولين بأمر الدنيا فاشتغلوا بأمر الآخرة. وإذا اشتغلوا بتزيين ظواهرهم فاشتغلوا بتزيين بواطنكم. وإذا اشتغلوا بعمارة البساتين والقصور فاشتغلوا بعمارة القبور. وإذا اشتغلوا بخدمة المخلوقين فاشتغلوا بخدمة رب العالمين. وإذا اشتغلوا بعيوب الناس فاشتغلوا بعيوب أنفسكم. واتخذوا من الدنيا زادًا يوصلكم إلى الآخرة فإنما الدنيا مزرعة الآخرة.

وعن هذا المعنى يروي إبراهيم بن بشَّار قائلًا: أمسينا مع إبراهيم ليلة، ليس لنا ما نفطر عليه، فقال: يا ابن بشار! ماذا أنعم الله على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة، لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة، ولا حج، ولا صدقة، ولا صلة رحم! لا تغتم، فرزق الله سيأتيك، نحن -والله- الملوك الأغنياء، تعجلنا الراحة، لا نبالي على أي حال كنا إذا أطعنا الله. ثم قام إلى صلاته، وقمت إلى صلاتي، فإذا برجل قد جاء بثمانية أرغفة، وتمر كثير، فوضعه، فقال: كُلْ يا مغموم. فدخل سائل، فأعطاه ثلاثة أرغفة مع تمر، وأعطاني ثلاثة، وأكل رغيفين. وكنت معه، فأتينا على قبر مسنم، فترحم عليه، وقال: هذا قبر حميد بن جابر، أمير هذه المدن كلها، كان غارقًا في بحار الدنيا، ثم أخرجه الله منها. بلغني أنه سُرَّ ذات يوم بشيء، ونام، فرأى رجلًا بيده كتاب، ففتحه، فإذا هو كتاب بالذهب: لا تؤثرنَّ فانيًا على باقٍ، ولا تغترنَّ بملكك، فإن ما أنت فيه جسيم لولا أنه عديم، وهو ملك لولا أن بعده هُلْك، وفرح وسرور لولا أنه غرور، وهو يوم لو كان يوثق له بغد، فسارع إلى أمر الله، فإن الله قال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]. فانتبه فزعًا، وقال: هذا تنبيه من الله وموعظة. فخرج من ملكه، وقصد هذا الجبل، فعبد الله فيه حتى مات.

ولإبراهيم بن أدهم مواعظ معروفة، ومحفورة في قلوب الزاهدين. ومنها: «ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغض حبيبك، ذمَّ مولانا الدنيا فمدحناها، وأبغضها فأحببناها، وزهّدنا فيها فآثرناها ورغبنا في طلبها، وعدكم خراب الدنيا فحصنتموها، ونُهيتم عن طلبها فطلبتموها، وأنذرتم الكنوز فكنزتموها دعتكم إلى هذه الغرارة دواعيها، فأجبتم مسرعين مناديها، خدعتكم بغرورها وفتنتكم فأنفذتم خاضعين لأمنيتها، تتمرغون في زهواتها وتتمتعون في لذاتها، وتتقلبون في شهواتها وتتلوثون بتبعاتها، تنبشون بمخالب الحرص عن خزائنها، وتحفرون بمعاول الطمع في معادنها، وتبنون بالغفلة في أماكنها، وتحصّنون بالجهل في مساكنها، وأنتم غرقى في بحار الدنيا، حيارى تتمتعون في لذاتها وتتنافسون في غمراتها، فمن جمعها ما تشبعون، ومن التنافس منها ما تملّون، كذبتكم والله أنفسكم وغرّتكم ومنّتكم الأماني، وعللتكم بالتواني حتى لا تعطوا اليقين من قلوبكم والصدق من نياتكم، وتتنصتون إليه من مساوئ ذنوبكم وتعصونه في بقية أعمالكم أما سمعتم الله تعالى يقول في محكم كتابه:

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 28].

كذلك كانت له أقوال مشهورة، منها:

- الفقر مخزون في السماء، يعدل الشهادة عند الله، لا يعطيه إلا لمن أحبه.

- على القلب ثلاثة أغطية: الفرح، والحزن، والسرور. فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، الحريص محروم. وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط، والساخط معذب. وإذا سررت بالمدح فأنت معجب، والعجب يحبط العمل. ودليل ذلك قول القرآن: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: 23].

- قلة الحرص والطمع تورث الصدق والورع، وكثرة الحرص والطمع تكثر الهم والجزع.

- كل سلطان لا يكون عادلًا فهو واللص سواء، وكل عالم لا يكون تقيًّا فهو والذئب سواء، وكل من ذلَّ لغير الله، فهو والكلب سواء.

- إنما يتم الورع بتسوية كل الخلق في قلبك، والاشتغال عن عيوبهم بذنبك، وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جليل، فكر في ذنبك وتب إلى ربك ينبت الورع في قلبك واقطع الطمع إلا من ربك. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37].

- إذا كنت بالليل نائمًا وبالنهار هائمًا وفي المعاصي دائمًا فكيف تُرضي من هو بأمورك قائمًا، ثم أنشد:

قُمِ اللَّيلَ يا هذا لعلَّـكَ تـرشُدُ

إلى كَمْ تنام الليلَ والعمرُ يَنْفَد

أراكَ بطولِ الليلِ - ويحك - نائمًا

وغيرك في محـرابه يتهجدُ

بحزم وعزم واجــتهاد ورغبة

ويعلم أن الله ذا العرش يُعبدُ

أترقد يا مغرورُ والنارُ تــوقدُ

فلا حرها يطفا ولا الجمر يخمدُ

فيا راكب العصيان ويحك خَلِّهـا

ستحشر عطشانًا ووجهك أسودُ

توفي ابن أدهم سنة 162هـ وهو مرابط في إحدى جزر البحر المتوسط، ولما شعر بدنوِّ أجله قال لأصحابه: أوتروا لي قوسي. فأوتروه. فقبض على القوس ومات وهو قابض عليها يريد الرمي بها، وقيل إنه مات في حملة بحرية على البيزنطيين، ودُفن في مدينة جبلة على الساحل السوري، وأصبح قبره مزارًا، وجاء في معجم البلدان أنه مات بحصن سوقين ببلاد الروم.

وذاعت شهرة ابن أدهم في شتى أرجاء العالم الإسلامي، فنجد أخبارًا لسيرته وقصصًا حوله، وخصوصًا في الهند وملاوي وإندونيسيا وغيرها.

ويرصد الباحث ياسر ماري الكتابات التاريخية المتناثرة في مسجد إبراهيم بن أدهم، الذي بُني على ما يبدو سنة 994هـ، فعلى الحائط الخارجي لغرفة الضريح إلى يمين الباب، لوحة مكتوب عليها:

قد نال إبراهيم من ربِّه

ما نال أدهم من قبله

ناس تأتي إلى بابه

ويُطعمون الطعام على حبِّه

أما اللوحة الثانية، فتقع في الجدار الشرقي المجاور لغرفة الضريح، ونَصُّ الكتابة فيها:

بحمد اللّه والهادي المعظَّم

وأسرار الولي طرز معلّم

تكمّل ذا البنا في خير عام

ومتولّي المقام رقى مكرّم

وعبد القادر الراجي ثوابا

وغفرانا له واللّه أعلم

برمْضانَ المعظِّم جاء تاري-

-خ إتم-امٍ لإبراهيمَ أدهم

أما اللوحة الثالثة، فتقع في الجدار الشمالي، ونصّ الكتابة فيها:

وفي عام تسعين مع تسعمئة

وأربع سنين قد مضين تمام

مقام ابن أدهم قدّس اللّه سرّه

تكمّل في خير وحسن ختام.

إبراهيم الخوَّاص

شاعر الصوفيَّة المتوكل دوما

أحد كبار شعراء الصوفية، ممَّن أبدعوا قصائد تتهادى إلى الجميع من دون عنت ولا عناء. فيها ما يخاطب الوجدان، بقدر ما تنطوي على أفكار يقبلها العقل، وإن كانت غالبيتها تدور حول الزهد. وقد بلغ في التصوّف شأنًا إلى درجة أن كثيرين كانوا يعدّونه أحد أقران الجنيد والنوري، نظرًا لما كان له في التوكُّل والرياضة الروحية حظ كبير، وهو ما يدل عليه قوله الأثير: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن الكريم بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرّع عند السَّحر، ومجالسة الصالحين».

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخوَّاص، أخذ عن أحمد المرواني أبي القاسم وصحب أبا عبد الله المغربي، ومن مريديه أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي الشعراني وزين الدين القزويني. وقد سمي الخواص نسبة إلى الأخوص، وربما إحالة إلى عمله بصناعة الخوص. ولد في مدينة سامراء العراقية، وعرف بكثرة الحج إلى مكة؛ إذ قال: «سلكت البادية إلى مكة سبعة عشر طريقًا، منها: طريقٌ من ذهب! وطريقٌ من فضّة».

شهد للخواص كثيرون، منهم ممشاذ الدينوري، الذي قال: كنت يومًا في مسجدي بين النائم واليقظان، فسمعت هاتفًا يهتف: إن أردت أن تلقى وليًّا من الأولياء فامضِ إلى تلّ التوبة. فقمت وخرجت، فإذا أنا بثلج عظيم، فذهبت إلى تلّ التوبة، فإذا إنسان قاعد مربعَ على رأس التلّ وحوله خالٍ من الثلج قدر موضع خيمةٍ، فتقدمت إليه، فإذا هو إبراهيم الخوّاص، فسلّمت عليه وجلست إليه، فقلت: بماذا نلت هذه المنزلة؟ فقال: بخدمة الفقراء.

وقال منصور بن الحربي: سمعت عمر بن سنان يقول: «اجتاز بنا إبراهيم الخواص، فقلنا له: حدثنا بأعجب ما رأيته من أسفار، فقال: لقيني الخضر عليه السلام فسألني الصحبة فخفت أن يفسد عليَّ توكلي بسكوني إليه ففارقته».

وقيل إن الخواص كان يحمل دومًا إبرة وخيوطًا وركوة ومقراضًا، فقيل له: يا أبا إسحاق لِمَ تحمل هذا وأنت تمنع من كل شيء؟ فقال: مثل هذا لا ينقض التوكل؛ لأن الله سبحانه و تعالى فرض علينا فرائض، والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد فربما يتخرق ثوبه فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته فتفسد عليه صلاته، وإذا لم يكن معه ركوة تفسد عليه طهارته، وإذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط فاتهمه في صلاته.

ويروى أنه سمع ذات يوم صوتَ لهوٍ ومجونٍ وعبثٍ ينبعث من أحد البيوت فهمَّ بنصح أهله فتوجه إليه وإذا بكلب شرس يعترضه فعاد من حيث أتى وهو مطأطئ الرأس، ودخل المسجد وصلى، ثم خرج وعاود المحاولة فلم يجد للكلب أثرًا. فلما اقترب من باب البيت خرج إليه شاب مشرق الوجه مبتسمًا وهو يرحب به معتذرًا: لو أرسلت في طلبي لأتيتك ولك عليَّ عهد الله إلا أعود لما يزعجك أبدًا، ووفى الشاب بعهده. ولما سُئل إبراهيم: ما منعك من الدخول المرّة الأولى؟ قال: لو كانت نيتي في المرة الأولى خالصة لما اعترضني شيء فكان عليّ أن أصححها ففعلت واستغفرت ربي فوفّقت لما أريد.

وقال همّام بن الحارث: سمعت إبراهيم الخوّاص، يقول: ركبت البحر، وكان معي في المركب رجلٌ يهوديٌّ فتأمّلته أيَّاما كثيرةً لا أراه يذوق شيئًا ولا يتحرّك ولا ينزعج من مكانه ولا يتطهّر ولا يشتغل بشيءٍ وهو ملتفٌّ بعباءٍ، مطروحٌ في زاويةٍ، ولا يفاتح أحدًا، ولا ينطق، فسألته وكلّمته فوجدته مجرَّدا متوكّلا يتكلّم فيه بأحسن كلام ويأتي بأكمل بيان، فلمّا أنس بي وسكن إليّ قال لي: يا أبا إسحاق، إن كنت صادقًا فيما تدّعيه فالبحرَ بيننا حتّى نعبر إلى السّاحل، وكنّا في اللّجج، فقلت في نفسي: واذلاه إن تأخّرت عن هذا الكافر، فقلت له: قم بنا فما كان بأسرع بأن زجّ بنفسه في البحر، ورميت بنفسي خلفه، فعبرنا جميعًا إلى السّاحل فلمّا خرجنا قال: يا إبراهيم، نصطحب على شريطة ألا نأوي المساجد ولا البيع ولا الكنائس ولا العمران فنعرف، فقلت: لك ذلك حتّى أتينا مدينةً فأقمنا على مزبلةٍ ثلاثة أيّام فلمّا كان يوم الثّالث أتاه كلبٌ في فمه رغيفان فطرحهما بين يديه وانصرف، فأكل ولم يقل لي شيئًا، ثمّ

أتاني شابٌّ ظريفٌ نظيفٌ حسن الوجه والبزّة، طيّب الرّائحة، ومعه طعامٌ نظيفٌ في منديلٍ فوضعه بين يديّ وقال لي: كُلْ. وغاب عنّي فلم أرَ له أثرًا، فقلت لليهوديّ: هلمّ، فلم يفعل ثمّ أسلم وقال لي: يا إبراهيم، أصلنا صحيحٌ إلا أنّ الّذي لكم أحسن وأصلح وأظرف، وحسن إسلامه وصار أحد أصحابنا المتحقّقين بالتّصوّف.

وكان العلم والمعرفة من القضايا الرئيسة التي شغلت الخواص، وكانت له فيها أقوال مأثورة. وقد عرَّف العلم تعريفًا مختلفًا ولافتًا في آن؛ إذ لخّصه كله في كلمتين: «لا تتكلف ما كفيت، ولا تضيع ما استكفيت». واعتبر أن «العالِم ليس بكثرة الروايات، إنما العالم من اتبع العلم واستعمله، واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم». وكان يقول: علم العبد بقرب العبد قيام الله على العبد يوحشه من الخلق ويقيم له شاهد الأنس بالله، وعلم العبد بأنّ الخلق مسلّطون مأمورون يزيل عنه خوفهم ويقيم في قلبه خوف المسلّط لهم». وفي هذا مدح الخواص أربعة هم: عالمٌ مستعملٌ لعلمه، وعارفٌ ينطق عن حقيقة فعله، ورجلٌ قائمٌ للّه بلا سببٍ، ومريدٌ ذاهبٌ عن الطّمع. وكان يقول: «لا يحسن هذا العلم إلا لمن يعبر عن وجده وينطق به فعله».

وبالطبع كان الخواص يتحدث في الغالب الأعم عن المعرفة الحدسية، وهو مما يدل عليه قوله: «علامة حقيقة المعرفة بالقلب خلع الحَوْل والقوّة، وترك التّملّك مع الله في شيءٍ من ملكه، ودوام حضور القلب بالحياء من الله، وشدّة انكسار القلب من هيبة الله، فهذه الأحوال دلائل المعارف والحقيقة فمن لم يكن على هذه الأحوال فإنّما هو على الأسماء والصّفات».

كان «التوكل» القيمة الرئيسة الكامنة في أقوال الخواص وأفعاله. وقد حصلت له حوادث علمته أن يتوكل على الله، فقد روي عنه أنه قال: لقيت غلامًا في التيه كأنه سبيكة فضة، فقلت: إلى أين يا غلام؟ فقال: إلى مكة حرسها الله، فقلت: هل تسير بلا زاد ولا راحلة ولا نفقة ؟ فقال لي: يا ضعيف اليقين، الذي يقدر على حفظ السموات والأرض، ألا يقدر أن يوصلني إلى مكة المكرمة بلا علاقة؟ قال: فلما دخلت مكة المكرمة، حرسها الله، فإذا أنا به في الطواف.

وثمة حكاية أخرى تسند هذا المسار، تروى عن الخوّاص، إذ قال: طلبت المعاش لأكل الحلال، فاصطدت السمك، وذات يوم وقعت في الشبكة سمكة فأخرجتها وطرحت الشبكة في الماء فوقعت فيها سمكة أخرى فرميت بها ثم عدت، فهتف بي هاتف: لم تجد معاشًا إلا أن تأتي مَنْ يذكرنا فتقتلهم، قال: فكسرت القصبة وتركت الصيد.

وفي التوكل كان الخواص يقول: «العارف بالله يحمله الله بمعرفته، وسائر النّاس تحملهم بطونهم ومن نظر الأشياء بعين الفناء كانت راحته في مفارقتها، ولم يأخذ منها إلا لوقته». وكان يقول أيضًا: «الرّزق ليس فيه توكّل إنّما فيه صبرٌ حتّى يأتي الله به في وقته الّذي وعد وإنّما يقوى صبر العبد على قدر معرفته بما صبر له أو لمن صبر عليه، والصّبر يُنال بالمعرفة وعلى الصّابر حمل مؤونة الصّبر حتّى يستحقّ ثواب الصّابرين؛ لأنّ الله تعالى جعل الجزاء بعد الصّبر، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: 124]. فالجزاء إنّما وقع له عليه السّلام بعد ما أتمّ حمل البلوى. وقال كذلك: «من صح توكله في نفسه صح توكله في غيره».

كان الخواص ينظر إلى «التّوكّل» بوصفه قيمة مركبة، تقوم على ثلاث درجاتٍ هي: الصّبر والرّضا والمحبّة؛ لأنّه إذا توكّل وجب عليه أن يصبر على توكّله بتوكّله لمن توكّل عليه وإذا صبر وجب عليه أن يرضى بجميع ما حكم عليه وإذا رضي وجب عليه أن يكون محبًّا لكلّ ما فعل به موافقةً له.

سُئل الخواص ذات يوم عن التوكل فأطرق ساعة ثم قال: إذا كان المُعطي هو المانع فمن يعطي، وراح يتلو الآية الكريمة التي يقول فيها رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: 217]. ثم قال: ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله ومن

تعلق بغير الله أو سكن إلى علمه وعقله ودوائه وتمائمه واعتمد على حوله وقوته وَكَلَهُ الله إلى ذلك وخذله.

وقال الحسين بن منصور لإبراهيم الخواص: ماذا صنعت في هذه الأصفار وقطع هذه القفار؟ قال: بقيت في التوكل أصحح نفسي عليه. فقال الحسين: أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد.

عُني الخواص بتربية المريدين، وكانت لديه تقوم على الإخلاص وصفاء القلب. وكان من عادته أن يخوض مع المريد في كل رياضة كان يأمره بها كيلا يخطر بباله أن الشيخ يأمره بما لم يفعل فينفره ذلك من رياضته.

اعتبر الخواص أن الحركة للمريدين طهارةٌ، ولسائر النّاس إباحةٌ، وللمخصوصين عقوبةٌ لهم إذا مالوا إلى ما فيه الحظّ لأنفسهم؛ لأنّ الأسباب إنّما تبطئ على العارفين وتمتنع عن الحركة إليهم لما فيهم من الحركة إليها، فإذا فنيت آثارها تحرّكت إليهم وأقبل الملك بكلّيّته عليهم، وكفى بالثّقة باللّه مع صدق الانقطاع إليه حياطةً من العبد لنفسه وأهله وولده، وكلّ مريدٍ يتوجّه إلى اللّه وهموم الأرزاق قائمةٌ في قلبه فإنّه لا يفلح ولا ينفذ في توجّهه.

ركَّز الخواص أكثر على أهمية الفقر في هذه التربية. وكان يُعرِّف الفقر بأنه: «ترك الشكوى، وإظهار أثر البلوى». وكان الفقر لديه يقي النفس من كثرة الوساوس. والفقير لديه هو مَنْ ضعّف بدنه لكن قويت معرفته وصح توكله، والفقير «يعمل على إدراك حقيقة الإيمان وبلوغ ذروته، أما الغنيّ فيعمل على نقصانٍ في إيمانه وضعفٍ من معرفته، والفقير يفتخر باللّه عزّ وجلّ ويصول به، والغنيّ يفتخر بالمال ويصول بالدّنيا، والفقير يذهب حيث شاء، والغنيّ مقيَّد مع ماله، والفقير يكره إقبال الدّنيا، والغنيّ يحبّ إقبالها، والفقير فوق ما يقول والغنيّ دون ما يقول، والنّاس رجلان: رجلٌ، وعبدٌ، فالرّجل مهمومٌ بتدبير نفسه متعوبٌ بالسّعي في مصلحته، والعبد طرح نفسه في ظلّ الرّبوبيّة وكان من حيث العبوديّة وعلى قدر حسن قبول العبد عند الله تكون معونة الله له، والمتوكّلون الواثقون بضمانه غابوا عن الأوهام وعيون النّاظرين، فعظم خطر ما أوصلهم إليه وجلّ قدر ما حملهم عليه وعظمت منزلتهم لديه، فيا طيب عيشٍ لو عقل، ويا لذّة وصلٍ لو كشف، ويا رفعة قدرٍ لو وصف».

عدَّد الخوّاص في تبيان صفات الفقراء، وهي أنّهم كانوا بوعد الله مطمئنّين، من الخلق آيسين، عداوتهم للشّياطين، كانوا من حيث الحقّ في الأشياء خارجين، وكانوا على الخلق مشفقين، وكانوا لأذى النّاس محتملين، وكانوا لمواضع العداوة لا يدعون النّصيحة لجميع المسلمين، وكانوا في مواطن الحقّ متواضعين، وكانوا بمعرفة الله مشتغلين، وكانوا الدّهر على طهارةٍ، كان الفقر رأس مالهم، وكانوا في الرّضا فيما قلّ أو كثر وأحبّوا أو كرهوا عن الله واحدًا.

والفقير لدى الخواص، هو من كانت أوقاته مستويةً في الانبساط لفقره، صائنًا له محتاطًا لا تظهر عليه فاقةٌ، ولا تبدو منه حاجةٌ، أقلّ أخلاقه الصّبر والقناعة، راحته في القلّة، وتعذيبه في الكثرة، مستوحشٌ من الرّفاهات، متنعِّم بالخشونات، فهو بضدّ ما فيه الخليقة يرى ما هو عليه معتمده، وإليه مستراحه ليس له وقتٌ معلومٌ، ولا سببٌ معروفٌ، فلا تراه إلا مسرورًا بفقره، فرحًا بضرّه، مؤنته على نفسه ثقيلةٌ وعلى غيره خفيفةٌ، يعزّ الفقر ويعظّمه ويخفيه بجهده ويكتمه، حتّى عن أشكاله يستره، قد عظمت من اللّه تعالى عليه فيه المنّة، وجلّ قدرها في قلبه من نعمةٍ فليس يريد بما اختار اللّه له بدلا ولا يبغي عنه حولا.

قال الخواص: «لا يصحّ الفقر للفقير حتّى تكون فيه خصلتان هما: الثّقة باللّه، والشّكر للّه فيما زوي عنه ممّا ابتلى به غيره من الدّنيا. ولا يكمل الفقير حتّى يكون نظر اللّه له في المنع أفضل من نظره له في العطاء، وعلامة صدقه في ذلك أن يجد للمنع من الحلاوة ما لا يجد للعطاء، لا يعرفه غير بارئه الّذي خصّه بمعرفته وأياديه فهو لا يرى سوى مليكه، ولا يملك إلا ما كان من تمليكه، فكلّ شيءٍ له

تابعٌ، وكلَ شيءٍ له خاضعٌ».

حضّ الخواص على الصبر، ورآه الثبات مع الله سبحانه وتعالى وتلقي بلائه بالرحب والدعة. وفي هذا قال: «مَنْ لم يصبر لم يظفر، وإنّ لإبليس وثاقين ما أُوثق بنو آدم بأوثق منهما: خوف الفقر والطّمع». وكان ينشد في هذا:

صبرت على بعض الأذى خوف كله

ودافعت عن نفسي لنفسي فعزت

وجرعتها المكروه حتى تدربت

ولو جرعته جملة لاشمأزت

ألا رُبَّ ذل ساق للنفس عزة

ويارُبَّ نفس بالتذلل عزت

إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى

إلى غير من قال: «اسألوني» فشُلَّت

سأصبر جهدي إن في الصبر عزة

وأرضى بدنيائي، وإن هي قلَّت

وكان الخواص يردف الصبر بالشكر، فها هو ينشد قائلًا:

أنا حامد، أنا شاكر، أنا ذاكر

أنا جائع، أنا ضائع، أنا عاري

هي ستة وأنا الضمين لنصفها

فكن الضمين لنصفها يا باري

مدحي لغيرك لهب نار خضتها

فأجر عبيدك من لهيب النار.

وإلى جانب التوكل والصبر، عاش الخواص أحوال المتصوفة الأخرى، ومنها الزهد، والمراقبة، والمحبة، والصمت، والجوع، وله في هذا أقوال معروفة. ففي الزهد قال: «من لم تبكِ الدنيا عليه لم تضحك الآخرة إليه، والإنسان في خلقه أحسن منه في جديد غيره، والهالك حقًّا من ضل في آخر سفره وقد قارب المنزل».

أما المراقبة فهي لديه: «خلوص السرّ والعلانية لله عزّ وجل من الداخل ومن الخارج». والمحبة: «هي محو الإرادات وإحراق جميع الصفات والحاجات وإغراق نفسه في بحر الإشارات». وكان يقول: «إن الله يحب ثلاثًا ويبغض ثلاثًا، فأما ما يحب: فقلة الكلام، وقلة النوم، وقلة الأكل، وأما ما يبغض: فكثرة الكلام، وكثرة الأكل، وكثرة النوم».

كذلك أوضح: «من أراد الله لله بدّل له نفسه، وأدناه من قربه. ومن أراده لنفسه أشبعه من جنانه، وأرواه من رضوانه». وكان ينشد:

عليلٌ ليس يبرئه الدّواء

طويل الضر يفنيه الشفاء

سرائره بوادٍ ليس تبدو

خفيٌّات إذا برح الخفاء

وقيل إن الخواص كان في أيامه الأخيرة يرفع أكفه بالضراعة لله تعالى، ويقول باكيًا: «يا رب كبرت وقد ضعف جسمي، وقلت عبادتي، فأعتقني بفضلك من النار؛ فإني لا أقدر على أن أمكث فيها لحظة».

مرض الخوّاص، وذات مرة كان يقوم إلى الماء ليتوضأ ويعود إلى المسجد ليصلي ركعتين، وكرر هذا مرات، وفي إحداها فاضت روحه، سنة 291هـ، ودفن في بغداد داخل ضريح الجنيد، كما تقول بعض الروايات.

ابن خفيف الشيرازي

جسر بين العرب والفرس

والمتصوّفة والسلفيّة

شيخ إقليم فارس ورأس الصوفية في زمانه، أنجب تلامذة الإمام أبو الحسن الأشعري. عبّدت حياته الطويلة وأفكاره العميقة وإبداعاته، شعرًا ونثرًا، جسرًا بين أهل السنة والجماعة والمتصوفة من ناحية، وبين العرب والفرس من ناحية أخرى. فحين يتحدث الإيرانيون عما أضافه الفرس الأقدمون إلى الحضارة الإسلامية يأتي ذكر الشيرازي، وحين يتطرّق بعض الفقهاء إلى الصوفية المعتدلين يذكره أيضًا، وهو في النهاية إحدى ثمار الحضارة الإسلامية الرحبة الواسعة المتسامحة، التي رفعت شعار: «الحكمة ضالة المؤمن، فأنَّى وجدها فهو أولى بها».

ولد أبو عبد الله محمد بن خفيف بن إسفكشاذ الضبي الفارسي الشيرازي سنة 261هـ من أم نيسابورية، في مدينة شيراز. كان أبوه رجلًا ثريًّا، لكنه ترك الحياة المنعمة واختار الزهد، وهذا ما يصفه التاج السبكي في قوله: «كان ابن خفيف أحد أولاد الأمراء، فتزهد حتى قال: كنت أذهب وأجمع الخرق من المزابل وأغسله وأصلح منه ما ألبسه». واتخذ الشيرازي الجريري وابن عطاء صديقين له، فكانا بالغي التأثير على فكره ومسلكه.

شهد للشيرازي علماء كثر؛ إذ وصفه الذهبي في «سير أعلام النبلاء» بأنه الشيخ الذي «جمع بين العلم والعمل وعلو السند والتمسك بالسنن، ومُتّع بطول العمر في الطاعة».

ونقل ابن عساكر في «تبيين كذب المفتري» وصف حسين السلمي للشيرازي بأنه كان في زمنه «شيخ المشايخ وتاريخ الزمان، لم يبقَ للقوم أقدم منه سنًّا ولا أتم حالًا ووقتًا، صحب رويمًا والجريري وابن العباس ابن عطاء ولقي الحسين بن منصور وهو أحد أعلم المشايخ بعلوم الظاهر متمسكًا بعلوم الشريعة من الكتاب والسنة وهو فقيه على مذهب الشافعي».

أما التاج السبكي فوصفه في طبقاتـه بأنه «شيخ المشايخ، وذو القدم الراسخ في العلم والدين، كان سيدًا جليلًا وإمامًا حفيلًا، يستمطر الغيث بدعائه، ويؤدب المصر بكلامه، أحد أعلم المشايخ بعلوم الظاهر وممن اتفقوا على عظيم تمسكه بالكتاب والسنة، وكانت له أسفار وبدايات، وأحوال عاليات ورياضات، وصحب من أرباب الأحوال أحبارًا وأخيارًا، وشرب من منهل الطريق كاسات كبارًا، وسافر مشرقًا ومغربًا، وصابر النفس حتى انقادت له فأصبح مبني الثناء عليها معربًا، صبر على الطاعة لا يعصيه فيه قلبه، واستمر على المراقبة شهيد عليه ربه، وجَنْب لا يدري القرار، ونفس لا تعرف المأوى إلا البيداء ولا المسكن إلا القفار... بلغ ما لم يبلغه أحد من الخلق في العلم والجاه عند الخاص والعام، وصار أوحد زمانه مقصودًا من الآفاق مفيدًا في كل نوع من العلوم مباركًا على من يقصده، رفيقًا بمريديه يبلغ كلامه مراده». وقال عنه أيضًا: «صنَّف من الكتب ما لم يصنفه أحد، وعُمِّرَ حتى عمَّ نفعه».

كذلك روى ابن باكويه أن ابن خفيف نظر يومًا إلى ابن مكتوم وجماعة يكتبون شيئًا فقال: «ما هذا؟ قالوا: نكتب كذا وكذا، قال: اشتغلوا بتعلم شيء ولا يغرنكم كلام الصوفية، فإني كنت أخبئ محبرتي في جيب مرقعي والورق في حجر سراويلي وأذهب في الخفية إلى أهل العلم، فإذا علموا بي خاصموني وقالوا لا يفلح، ثم احتاجوا إليَّ».

لكن ابن الجوزي، هجاه وذكر عنه في كتابه الموسوم بـ «تلبيس إبليس» حكايات تدل على أنه كان يذهب مذهب الإباحية.

إضافة إلى أبي الحسن الأشعري، تفقَّه الشيرازي على يد علماء كثيرين من بينهم أبي العباس بن سريج، وروى الحديث النبوي عن حماد ابن مدرك ومحمد بن جعفر التمار والحسين المحاملي وجماعة. وثمة من تحدث عنه مثل: أبو الفضل الخزاعي، الحسن بن حفص الأندلسي، إبراهيم بن الخضر الشياح، القاضي أبو بكر الباقلاني، ومحمد بن عبد الله ابن باكويه، وغيرهم.

وأثمرت رحلة التعلم هذه عددًا من مؤلفات ومصنفات كثيرة، من بينها: «آداب المريدين، اختلاف

الناس في الروح، جامع الإرشاد، الجمع والتفرقة، الفصول في الأصول، فضل التصوف، الاستدراج والاندراج، الاستذكار، الإعانة، الاقتصاد، السماع، المعتقد الكبير، شرح الفضائل، اللوامع، المنقطعين، المفردات، بلوى الأنبياء، الرد والألفة».

وثمة مصنفات أخرى مثل: «مسائل علي بن سهل، الرد على ابن رزمان، الرد على ابن سالم، الجوع وترك الشهوات، معرفة الزوال، أسامي المشايخ، المعراج، المنهج في الفقه».

كان الشيرازي يرعى السنة، ويكره شطحات المتصوفة. بداية كان يدافع عن الحلاج، كلما ذكر أمره أمامه، فلما أنشد الأخير: «عقد الخلائق في الإله عقائدا... وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه»، قال ممتعضًا: «لعن الله مَنْ قال هذا».

وروى الشيرازي أحاديث كثيرة وتفاسير منسوبة إلى الرعيل الأول من الإسلام. ومن الأمثلة على ذلك:

- أخبرنا أبو عبد الله الشيرازي، أخبرنا أبو بكر الجرجرائي، حدثنا أبو أحمد البصري قال: حدثني الحسين بن معاذ، حدثني سليمان بن داود، حدثنا الحكم بن ظهير، عن السدي: عن أبي مالك الغفاري غزوان الكوفي في قوله سلام على آل ياسين، قال هو محمد، و آله أهل بيته.

- أخبرنا أبو عبد الله الشيرازي، أخبرنا أبو بكر الجرجرائي، حدثنا أبو أحمد البصري، حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا أيوب بن سليمان، حدثنا محمد بن مروان، عن الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: وأما قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 28]. قال: نزلت هذه الآية في ثلاثة من المسلمين وهم المتقون الذين عملوا الصالحات، وفي ثلاثة من المشركين وهم المفسدون الفجار، فأما الثلاثة من المسلمين فعلي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب، وهم الذين بارزوا يوم بدر، فقتل علي الوليد، وقتل حمزة عتبة، وقتل عبيدة شيبة.

- أخبرنا أبو عبد الله الشيرازي، أخبرنا أبو بكر الجرجرائي، حدثنا أبو أحمد البصري قال: حدثني عمرو بن محمد بن تركي، حدثنا محمد بن الفضل، حدثنا محمد بن شعيب، عن قيس بن الربيع، عن منذر الثوري، عن محمد ابن الحنفية، عن علي كرم الله وجهه في قوله تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر: 29]. قال: أنا ذلك الرجل السليم لرسول الله .

- أخبرنا أبو عبد الله الشيرازي، أخبرنا أبو بكر الجرجرائي، حدثنا أبو أحمد البصري قال: حدثني أحمد بن محمد بن عمر بن يونس قال: حدثني بشر ابن المفضل النيسابوري قال: حدثني عيسى بن يوسف الهمداني، عن أبي الحسن علي بن يحيى، عن أبان بن أبي عياش، عن أبي الطفيل، عن علي قال: والذي جاء بالصدق رسول الله، وصدق به أنا، والناس كلهم مكذبون كافرون غيري وغيره.

- حدثنا أبو عبد الله الشيرازي قال: حدثنا أبو بكر الجرجاني قال: حدثنا أبو أحمد البصري قال: حدثنا محمد بن سهل قال: حدثنا زيد بن إسماعيل مولى الأنصار قال: حدثنا محمد بن أيوب الواسطي قال: حدثنا سفيان ابن عيينة، عن جعفر بن محمد الصادق، عن آبائه عليهم السلام: لما نصب رسول الله عليا يوم غدير خمَّ وقال: من كنت مولاه، طار ذلك في البلاد فقدم على النبي النعمان بن الحرث الفهري فقال: أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وأمرتنا بالجهاد والحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها، ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه. فهذا شيء منك؟ أو أمر من عند الله؟ فقال: والله الذي لا إله إلا هو أن هذا من الله.

كان أبو الحسن الأشعري نقطة التحول الرئيسة في حياة الشيرازي. وقد رواها كل من ضياء الدين الرازي أبو الإمام الفخر الرازي في كتابه «غاية المرام في علم الكلام»، والتاج السبكي في طبقاته،

وحكاها الشيرازي بأسلوب غارق في البلاغة، يعتمد على السجع المصفى: «دعاني أرب، ولوع ألب، وشوق غلب، وطلب يا له من طلب، أن أحرك نحو البصرة ركابي، في عنفوان شبابي، لكثرة ما بلغني، على لسان البدوي والحضري، من فضائل شيخنا أبي الحسن الأشعري، لأستسعد بلقاء ذلك الوحيد، وأستفيد مما فتح الله تعالى عليه من ينابيع التوحيد... وصلت إلى البصرة التي وجدتها على ما وصفت لي من الجمال والنظافة ورحابة صدور أهلها، وفيما أنا أدور وأبحث عمن يرشدني إلى الشيخ أبي الحسن، التقيت رجلًا بهي المنظر بين جماعة من أصحابه، فارتحت إليه وعزمت على أن أكلمه فسلمت عليه ورد عليَّ السلام، وكلَّمني بأجزل الكلام وألطفه، فسألته عن الإمام الأشعري فقال لي: وماذا تريد منه؟ قلت: قد بلغني ذكره وعلمه فتقت لأن ألقاه وأستفيد من علمه. قال: عد إليَّ غدًا باكرًا إلى هذا الموضع فأدلك عليه، فأتيت في اليوم التالي فلقيته في المكان عينه ينتظرني فسلم عليَّ ورددت عليه، ثم مضى وأنا أتبعه حتى دخل دارًا قد حضر فيها جماعة من الناس قد تسارعوا إلى الباب يستقبلونه بالترحاب والتعظيم، وقدموه إلى صدر المجلس ينتظرون حتى بدأ الشيخ يتكلم بلسان يفتق الشعور ويفلق الصخور، وألفاظ أرق من أديم الهواء وأعذب من زلال الماء، ومعانٍ ذات بيان، فكان إذا أوجز أعجز، وإذا أسهب أذهب، فلم يدع مشكلة إلا أزالها ولا فسادًا إلا أصلحه، وسط حيرة الحاضرين وتعجبهم من كلامه، عندها سألت بعض الحاضرين: مَنْ هذا الذي كان يتكلم بكلام لم أسمع مثله؟ قال: هو الباز الأشهب ناصر الحق وقامع البدعة، إمام الأمة وقوام الملة أبو الحسن الأشعري، فسرحت وأمعنت النظر في توسمه وتوقد جذوته، فإذا به يخرج من المجلس فتبعته فنظر إليَّ وقال: يا فتى كيف وجدت أبا الحسن؟ فقلت:

ومسْجل مثل حد السيف منصلتٍ

تَزِلُّ عن غربه الألباب والفكرُ

طعنت بالحجة الغراء جيلهُمُ

ورمح غيرك منه العي والحصَرُ

لا قام ضدك ولا قعد جدك، ولا فُضَّ فوك ولا لحقك من يقفوك، فوالذي سمك السماء وعلم آدم الأسماء، لقد أبديت اليد البيضاء، وسكنت الضوضاء وكشفت الغماء، ولحنت الدهماء وقطعت الأحشاء، وقمعت البدع والأهواء، بيد أنه قد بقي لي سؤال، فقال: اذكره، قلت: رأيت الأمر لم يجر على النظام؛ لأنك لم تفتتح كلامك بالدليل، فقال: إني في الابتداء لا أذكر الدليل ولا أشتغل بالتعليل، حتى إذا ذكر الخصم ضلالته وأفرد شبهته، أنص حينها على الجواب بالدليل والبرهان... فتعلقت بأهدابه لخصائص آدابه، ونافست في مصافاته لنفائس صفاته، ولبثت معه برهة أستفيد منه في كل يوم نزهة، وأدرأ عن نفسي للمعتزلة شبهة. ثم ألفيت مع علو درجته وتفاقم مرتبته، يقوم بتثقيف أوده مِن كَسْب يده، من اتخاذ تجارة العقاقير معيشة، والاكتفاء بها عيشة، اتقاء للشبهات وإبقاء على الشهوات، رضى بالكفاف وإيثارًا للعفاف».

روى ابن عساكر في كتابه «تبيين كذب المفتري» عن ابن خفيف الشيرازي قوله: «كنت في ابتدائي بقيت أربعين شهرًا أفطر كل ليلة بكف باقلاء، فمضيت يومًا وافتصدت فخرج من عرقي شبيه ماء اللحم وغشي عليَّ فتحير الفصَّاد وقال: ما رأيت جسدًا بلا دم إلا هذا».

وفي كتاب السير للذهبي قول ابن باكويه في ابن خفيف: «سمعت ابن خفيف يقول: كنت في بدايتي ربما أقرأ في ركعة واحدة عشرة آلاف ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1] وربما كنت أقرأ في ركعة القرآن كله». كذلك ذكر: «ما وجبت عليَّ زكاة الفطر أربعين سنة مع ما لي من القبول العظيم بين الخاص والعام». وسُئل عن القرب فأجاب: «قربك منه تعالى بملازمة الموافقات». ودخل عليه فقير ذات يوم وقال له: «بي وسوسة»، فردّ الشيخ: «عهدي بالصوفية يسخرون من الشيطان».

تنسب إلى ابن خفيف الشيرازي كرامات عدة، من بينها ما أورده التاج السبكي في الطبقات، وهي أنه ناظر يومًا بعض البراهمة، فقال له البرهمي: «إن كان دينك حقًّا فتعالَ أصبر أنا وأنت عن الطعام أربعين يومًا»، فأجابه ابن خفيف فعجز البرهمي عن إكمال المدة المذكورة، وأكملها ابن خفيف وهو طيب مسرور.

ورد في «الطبقات» أيضًا أن برهميًّا آخر ناظره ثم دعاه إلى المكوث معه تحت الماء مدة، فمات البرهمي قبل انتهاء المدة وصبر الشيخ إلى أن انتهت، وخرج سالـمًا لم يظهر عليه تغير.

أوضح الذهبي في «سير أعلام النبلاء» أن ابن خفيف كان يعاني من وجع في الخاصرة، إذا أصابه أقعده عن الحركة، فكان إذا نودي بالصلاة يُحمل على ظهر رجل، فقيل له: «لو خففت على نفسك»، أجاب: «إذا سمعتم: حيّ على الصلاة ولم تروني في الصف فاطلبوني في المقبرة».

وذكر الصفدي في «الوافي» والذهبي أيضًا، إضافة إلى صاحب «كشف الظنون» أن الشيرازي تُوفي سنة ثلاثمئة وإحدى وسبعين للهجرة. وعلى رغم اختلاف المؤرخين على تاريخ ميلاده، فإن ثمة تحديدًا لموعد وفاته. وهنا أشار الذهبي: «يقال إنه عاش مئة سنة وأربع سنين، وانتقل إلى رحمة الله تعالى في ليلة الثالث من شهر رمضان سنة إحدى وسبعين وثلاثمئة. والأصح أنه عاش خمسًا وتسعين سنة».

وفور انتشار نبأ احتضاره تداعى الناس إلى بيته، والتفوا حول سريره، والأسى يكسو ملامحهم، وظلوا على حالهم هذه حتى فارقت روحه جسده، فقاموا وحملوه إلى مثواه الأخير، وقبل أن يُوارى الثرى صلوا عليه مرات عدة، يحصيها البعض بأنها وصلت إلى مئة مرة.

ابن سبعين

قنطرة صوفية وفلسفية

بين الشرق والغرب

أحد أعمدة الفلسفة الإسلامية، وجسر واصل بين الشرق والغرب، اختلف أرباب القلم على فكره، واتفق كثير من الناس على زهده، ورصد المؤرخون معاركه مع الفقهاء، وتتبعوا رحلات هروبه منهم، فانضم إلى قافلة «المطاردين» في تاريخ المسلمين، لكنه ظل حتى الرمق الأخير مُصرًّا على ما جادت به قريحته، وما أهداه إليه وجدانه، وعاشت سيرته، وبقي لنا ما خطه بنانه.

هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الأشبيلي المرسي، لقبه البعض بـ «قطب الدين»، لكن الكل يجمع على أنه أحد فلاسفة المتصوفة المتميزين. ولد سنة 614هـ في عهد ملوك بني هود برقوطة في مرسية من أعمال الأندلس، لأسرة ثرية من أعيان البلاد، وقضى معظم شبابه هناك، حيث تعلم اللغة العربية وآدابها، واهتم بدراسة المنطق والفلسفة، ثم أخذ التصوف عن أبي إسحق الدهاق، وسلك الطريقة الصوفية الشوذية المنسوبة إلى أبي عبد الله الشوذي.

وقد ظهرت علامات النبوغ على ابن سبعين مبكرًا؛ إذ ألَّف كتابه «بد العارف» وهو لم يتجاوز خمسة عشر عاما، رغم ما يحويه من حديث عميق حول صنائع علمية وعملية وأمور سنية. وبمرور الوقت صار شيخ الطريقة الصوفية السبعينية، واشتهر بابن سبعين؛ لأنه كان يسمي نفسه «ابن دارة» والدارة في الحساب تقابل حرف الـ (ع) وهو يقابل رقم (70) وفق علم الحروف، الذي كتب عنه إخوان الصفا وذكره ابن خلدون في مقدمته ذائعة الصيت.

وقد عاش ابن سبعين مطاردًا؛ إذ لجأ في مقتبل حياته إلى مدينة سبتة، بعد أن ضايقه فقهاء الأندلس، وفي هذه المدينة المغربية الساحرة عشقته امرأة وطلبت منه أن يتزوجها، فتردد، ثم قبل بعد أن اشترط عليها أن تقوم ببناء زاوية له في حديقتها، عاش فيها عشر سنوات، وألف بها أهم كتبه ومنها «بد العارف» و«الرسائل».

وفي المغرب التي انتقل إليها وهو دون العشرين، التفَّ كثيرون حول ابن سبعين، وراحوا ينهلون مما لديه من تصوف وفلسفة، ويحكون عن زهده ونهمه إلى العلم، مما أوغر عليه صدور الفقهاء، فرموه بالكفر، وسعوا لدى ابن خلاص حاكم سبتة كي يطرده فاستجاب لهم، فرحل إلى بجاية، ولم يَسْلَمْ فيها من مؤامرات ومكائد الفقهاء أيضًا، فخرج من المغرب بأسره، بعد أن قضى فيه ربع قرن.

ويقال إن سبب اتهامه بالكفر عبارة قال فيها: «لقد تحجَّر ابن آمنة واسعًا بقوله لا نبي من بعدي» وقالوا إنه ينكر «النبوة الخاتمة» أو يراها «أمرًا كسبيًّا»، لكن هناك مَنْ يؤكد أن هذا الاتهام اختلقه كارهوه؛ لأنه كان يعظِّم النبوة، ويؤمن بالرسول الكريم وما جاء به، وأن رسائله تبرهن على هذا بما لا شك فيه.

ورحل ابن سبعين إلى مصر، ومكث بها مدة قصيرة؛ لأنها كانت طريقه إلى مكة، التي دخلها عام 652هـ، واستقر بها، وصار أستاذًا لأميرها أبي محمد بن أبي سعد، الذي قرَّبه إليه بعد أن عوفي على يديه من مرض ألَمَّ به. ومنح علم ابن سبعين وورعه منزلة له عند الناس، فاحترموه، وعرفوا قيمته ومكانته، وأخذوا عنه، ونسبوا إليه كثيرًا من الأقوال، واقتدوا به في كثير من الأعمال، بعد أن تمكن من إعلان مذهبه في «وحدة الوجود»، ودعا إليه بلسانه، وكتب عنه مصنفات عديدة. وهنا يقول المناوي واصفًا حال ابن سبعين في هذه المرحلة: «شاع ذكره وعظم صيته وكثرت أتباعه على رأي أهل الوحدة المطلقة، وأملى عليهم كلامًا على رأي الاتحادية، وصنف في ذلك أوضاعًا كثيرة وتلقوها عنه وبثوها في البلاد شرقًا وغربًا».

ولم يكن موقف الحنابلة منه في مكة مختلفا عن نظرائهم في المغرب، فقد اعترض عليه قطب الدين القسطلاني وخرج غاضبا من مكة ليقيم في مصر، ولولا حماية الأمير له لفتك به الحنابلة.

ولم يكن ابن سبعين يقف عاجزًا أمام الفقهاء، متلقيا طعناتهم في صمت، بل كان يقاومهم بنقد مسلكهم وطريقتهم وأقوالهم وأفعالهم، حيث اتهمهم بإفساد «الشريعة»، التي هي حق في نظره، عبر آراء

وذرائع وفتاوى وأحكام يستخرجها ويقدمها على أنها تطابق الشرع، مع أنها قد تختلف عنه في كثير من الأمور. كما انتقد التقليد الأعمى للفقهاء، الذي يجعلهم يقيسون اليوم على الأمس، ويبحثون عن المشكلات الآنية بحلول ماضية، مدعين أن ما يقدمونه هو ترجمة أمينة لما يريده القرآن والسنة، مع أنها هي في حقيقتها آراؤهم التي نَفّرت الناس من الشريعة، وصدتهم عنها. وهنا يقول ابن سبعين: «وأما الفقيه فهو صالح الأصل، فاسد الفرع، صادق الجنس، كاذب النوع، يتكلم من عند نفسه، ويقيس اليوم بأمسه، ويفتي السائل، ويترك نفسه في رتبة المسؤول، يزعم أنه يفهم كلام الرسل وخير الرسل، ويعلل دينه ويتممه برأيه واجتهاده، ويعطل قوله على خبر الذي أخرجه من عباده، ويدفع اليقين بالجهل، ويفعل فعل أبي جهل، يحجب نور الله عن عباده بالفروع المعللة، ويتصرف فيهم بغير الكتب المنزلة، ويصد الناس عن موارد الشريعة وريحانها، ويحضهم على حميمها وغسلينها».

وفي سعيه إلى إبداع جديد هاجم ابن سبعين الكثيرين من فلاسفة المسلمين لاسيما الفارابي وابن سيناء، ورأى أنهما يقلدان أرسطو طاليس تقليدًا أعمى، ووضع فلسفته الخاصة التي يجب أن يصل فيها القائل بـ «وحدة الوجود» إلى رتبة المحقق، ويلم بـ «علم التحقيق» الذي يحوز صاحبه كل الكمالات الوجودية والذوقية. وبذا نظر كثيرون إلى فلسفته تلك بأنها تمثل أحد المنعطفات الفكرية والإضافات المهمة التي زادت البحث الفلسفي ضمن إطار الدين عمقًا واتساعًا.

وكانت شهرة ابن سبعين قد أخذت دفعة قوية، لاسيما في أُورُبَّا، حين كتب رسالته «المسائل الصقلية» بتكليف من سلطان الدولة الموحدية عبد الواحد الرشيد، وهي تحوي إجابات على أسئلة أرسلها فريدريك الثاني ملك النورمانديين في مملكة صقلية إلى علماء الدولة بأسرها، نظرا لما كان عليه المسلمون وقتها من تقدم في العلوم والمعارف. وقيل إن رُسل فريدريك جابوا بلدان عديدة وعرضوا أسئلتهم على علماء كثيرين، فعجزوا عن إجابتها إلى أن أرشدهم الناس إلى ابن سبعين وقالوا لهم: إنه قادر على أن يلبي طلبكم. وبالفعل وجدوا لديه ما أرادوا، وعادوا إلى ملكهم بتلك الرسائل التي ما إن قرأها بابا الفاتيكان حتى قال: «ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله من ابن سبعين».

والمسألة الأولى في «المسائل الصقلية» عن العالم: هل هو قديم أو محدث؟ والثانية: ما هو العلم الإلهي؟ وما هي مقدماته الضرورية إن كانت له مقدمات؟ وما المقصود منه؟ والثالثة عن ماهية المقولات وكيف يتصرف بها في أجناس العلوم حتى يتم عددها؟ وإن كان عددها عشر، فهل يمكن أن تكون أقل من هذا؟ وهل على النقيض يمكن أن تكون أكثر؟ وكيف نبرهن على أي من الاختيارين؟ والمسألة الرابعة عن النفس: ما الدليل على بقائها وما طبيعتها؟ وفي أي أمر خالف الإسكندر الأفروديسي أرسطوطاليس؟

وقد مدح هذه الرسالة ابن الخطيب وقال عن صاحبها كلاما إيجابيا، وكذلك المقري في «نفح الطيب» مادحا عمقها وإحاطتها، لكن كارهيها وكارهي صاحبها كثر، أولهم ابن خلدون الذي طالب بحرق كتاب «بد العارف» لابن سبعين، إلى جانب كتابَي «الفتوحات المكية» لابن عربي، و«خلع النعلين» لابن قصي. أما ابن تيمية، فقد كتب رسالة مضادة أسماها «بغية المرتاد أو السبعينية»، واتهمه ابن الأثير صاحب «الكامل في التاريخ» بأنه «كان يلبس على الأغبياء من الفقراء والأمراء والأغنياء»، بل وصل الأمر بإبراهيم الآبلي الذي عاش في القرن الثامن الهجري، وأخذ عنه ابن خلدون الكثير في المسائل الشرعية والعقلية، أن يساوي بين «المدرسة السبعينية» واقتحام التتار لبغداد وإسقاط الخلافة العباسية، وانتشار تعاطي الحشيش، ويقول إنها الكوارث الثلاث التي عرفها القرن السابع.

ولم يقتصر أعداء ابن سبعين على أمثاله من أرباب القلم بل إن بعض أصحاب السلطان قد عادوه، في مطلعهم الظاهر بيبرس الذي ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج وقت أن كان ابن سبعين يحل بها، وراح يسأل عنه ويسعى وراءه، لكن شريف مكة أخفاه عنه، وكان من أماكن اختبائه غار حراء، الذي نزل فيه الوحي على الرسول محمد عليه الصلاة والسلام. كما طلبه وزير المظفر ملك اليمن وكان

حنبليا، وأخذ يبحث عنه في لهفة ويعد الكمائن لاصطياده.

وعلى يد ابن سبعين ومحيي الدين ابن عربي انتقلت قضية «وحدة الوجود» من بلاد المغرب والأندلس إلى المشرق الإسلامي. ويلخص د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني أستاذ الفلسفة الذي تولى منصب شيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر في تسعينيات القرن العشرين فكرة ابن سبعين تلك بقوله: «يمد ابن سبعين في مذهبه في الوحدة المطلقة إلى مجالات أخرى من البحث الفلسفي، فهو يرى النفس والعقل مثلًا لا وجود لهما بذاتيهما، وإنما وجودهما من الواحد، والواحد لا يتعدى، فهما لا يخرجان عن قضية الوجود الواحد، والأخلاق عنده ملونة بلون الوحدة المطلقة، فالخير، واللذة، والسعادة في التحقق بهذه الوحدة، والخير والشر لا فرق بينهما من حيث الحقيقة الوجودية؛ لأن الوجود قضية واحدة، وهو الخير المطلق، فمن أين يتأتى الشر في الوجود؟ أضف إلى ذلك أن ابن سبعين يرى أن المحقق لا يطلق عليه سعيد؛ لأنه عين السعادة، وعين الخير، وعين الوجود». ويرى البعض أن الرجل سعى إلى إثبات الوحدانية المطلقة لله في إطار تصور وجودي يرفض أي اثنينية أو تقسيم في الوجود».

وعن الله تعالى يقول ابن سبعين في نظريته تلك: «إن عرفته في كل شيء عين كل شيء لا الصورة المتعينة لم تجهله في صورة أصلًا، ولم تكن ممن يتجلى له في غير الصور التي يعرفها يتعوذ منه، حتى يتجلى له في الصورة التي يعرفها فيتبعه وهذا وإن كان من السعداء فهو بعيد من أهل العلم بالله جدًّا، وأي معرفة لمن يعرف المطلق مقيدًا بصورة ما فهذا إلى الجهل أقرب منه إلى العلم... وأين هذا المقام من مقام من رآه مذ عرفه في كل شيء عين كل شيء سوى تقيد الشيء وتعينه بأنه هذا، فإنه لا تجوز إليه الإشارة لأنه لم تقيده صورة قَطّ، فمن عرفه كما قلنا ورآه في كل شيء لم ينسه قَطّ».

وعند مناقشة رؤية ابن سبعين لا بد من الالتفات إلى مسألتين: الأولى أن الوحدة التي نادى بها هي ذلك المعنى الفلسفي الذي يمثل «الصدور الفيضي»، وتنطلق من أن وجود الحق هو الثابت ابتداءً، وأنه مادة كل شيء، والخلق منبثق منه فائض عنه. والثانية أنه يكتب بأسلوب فلسفي غامض.

فقد كانت لابن سبعين طريقة مختلفة في الكتابة، تنطوي على غموض، وتستغلق في كثير من مواضعها على أفهام العابرين. فكلامه كان مفككًا، أو غير متماسك، مشبع بالإشارات والرموز والألغاز والتكرار. وهي حالة يلخصها لنا القاضي الكبير ابن دقيق العيد بقوله: «جلست مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب الظهر وهو يسرد كلامًا تعقل مفرداته، ولا تعقل مركباته». ويمكن أن نضرب على هذا مثلا في تلك العبارة التي وردت في رسالة «الألواح» حيث قال: «علمه في الإنسانية إنسان، وفي ح ح، وفي ن ن، وفي ج ج، وفي علالمية علم، وفي العاقلية عقل».

ويمكن في هذا المقام اختيار بعض مقولاته لتقديم دليل على ما ورد سابقا، وكذلك معرفة جوانب من فلسفة ابن سبعين، فها هو يخاطب تلميذه في الرسالة النورية قائلا: «وجميع ما توجه الضمير إليه اذكره به ولا تُبال، وأي شيء يخطر ببالك سمِّه به، من اسمه، كيف يُخص بأسماء منحصرة؟ هيهات! الله لا اسم له إلا الاسم المطلق أو المفروض، فإن قلت: نسميه بما سمى به نفسه أو نبيه، يقال لك: مَنْ سمَّى نفسه (الله) قال لك: أنا كل شيء، وجميع من تنادي أنا. وقد يصعب عليك هذا فعسى أن تسلم أنه معك بالعلم والفعل، فإذا سلمت هذا تسلم أن الذي استجاب لك هو الوجود، فإذا سلمت ذلك فعجل بذلك، ولا تكن كذلك فما يحق لك ذلك؛ يا هالك يا مالك انظر من حالك وقل بعد ذلك: يا حق يا أبد يا راحم يا أحد يا أكبر يا واجب الوجود، الذي الوجود ووحدته واحد، يا ماهية كل ماهية، يا آنية كل آنية.. لا شيء عندي إلا أنت.. لأن الكذب لا يجوز على الله ولا مع الله، ولا شيء أكذب من لسان الإضافة، ولا شرك أقبح من شركها... ولا يعتبر المحقق في ذلك إلا الله، وبد البد، والهو هو».

ويقول في «رسالة الإحاطة»: «رَبٌّ مالك وعبد هالك، ووهم حالك، وحق سالك، وأنتم ذلك! اختلط

في الإحاطة الزوج مع الفرد، واتحد فيه النجو مع الورد، واتفق فيه السَّقر مع القَر، وبالجملة السبت هو يوم الأحد، والموحد هو عين الأحد، ويوم الفرض هو يوم العرض، والذاهب من الزمان هو الحاضر، والأول في العيان هو الآخر، والباطن في الجَنَان هو الظاهر، والمؤمن في الجِنان هو الكافر، والغني هو الولي، والفقير هو الغني، وهذه وحدات حكمية، لا أحداث وهمية».

ويقول في أحد فصول «بد العارف»: «يا هذا، غُضّ بصر إدراكك عن غير الله، ثم قل لنفسك: ياخسيسة المنزلة، متى ثبت سواه؟ حتى تستريبي فيه وتغضي بصرك عنه! هو الله.. فلا هو إلا هو ولا يمكن غير ذلك».

ويقول في إحدى رسائله: «واضرب عن الوهم والحِسّ والخيال والعادة، واخرج عن لواحقك ومحمولك وموضوعك... واطلب واحدك بوحدتك، واخرج عن وترك الخاص بك كما خرجت عن شفعك التابع لك، حتى يبقى الواحد».

ويقول أيضًا: «الله فقط، الله المستعان والمستعين، والإعانة معنى فيه في كونه معينًا ومستعينًا، والحمد لله في الأزل والأبد ولي المجد، ومن هو بهما عين الحامد والحمد... ولا حول ولا قوة إلا بالساري بذاته في أفعاله عن أسمائه بصفاته، أحب فتسمى بالحي، وأحاط فتسمى بالعالم... هو عين كل ظاهر، فحقَّ له أن يتسمى بالظاهر، وهو معنى كل معنى فحق له أن يتسمى بالباطن».

وعبر ابن سبعين عن رؤيته تلك شعرًا في بعض كتاباته منشدًا:

كم ذا تموّه بالشعبين والعلم

والأمر أوضح من نار على علم

وكم تعبر عن سلع وكاظمة

وعن زرود وجيران بذي سلم

ظللت تسأل عن نجد وأنت بها

وعن تهامة هذا فعل متهم

في الحي حي سوى ليلى فتسأله

عنها سؤالك وهم جر للعدل.

ويقول في قصيدة أخرى:

ليس مَنْ فوه بالوصل له

مثل مَنْ سير به حتى وصل

لا ولا الواصل عندي كالذي

قرع الباب وللدار دخل

لا ولا الداخل عندي كالذي

سارروه وهو للسر محل

لا ولا من سارروه كالذي

صار إياهم فدع عنك العلل

فمحوه عنه فيهم فانمحى

ثم لما اثبتوه لم يزل

ذاك شيء علق القلب به

لو تجلى ذاك للخلق قتل.

ويقول التفتازاني مدافعًا عنه: إن ابن سبعين فيلسوف صوفي أندلسي له خطره في تاريخ الحياتين العقلية والروحية في الإسلام، وهو أبرز ممثل لمذهب الوحدة الوجودية المطلقة، وقد شغل أذهان المسلمين من خصومه وأنصاره بما صنف من مصنفات وبما أذاع من آراء في الأندلس والمغرب والحجاز ومصر زمنا طويلًا، واختلف الناس فيه من الكفر إلى القطبانية، وحاز بذلك شهرة عظيمة في العالم الإسلامي قَلَّ أن تتهيأ لغيره من الفلاسفة والصوفية. ومن أبرز ما يميز ابن سبعين أنه كان مفكرًا نقادة، استوعب كثيرًا من الآراء والفلسفات الإسلامية وغير الإسلامية، ونقدها نقدًا يدل على ذكائه وفطنته، وله بهذا أهميته في نقد المذاهب الفلسفية في تاريخ الفلسفة الإسلامية، ومهما كانت آراؤه التي ذهب إليها، فإنه مع ذلك فيلسوف صوفي مسلم مؤمن، ورائده كما يقول عن نفسه، أن يؤيد الشريعة ويدافع عن السنة، وأن يكشف للناس أسرارهما، وبذلك تكون آراؤه من قبيل اجتهاد المسلم في فهم أمور دينه».

وترك ابن سبعين مؤلفات عديدة منها: «الحروف الوضعية في الصور الفلكية»، و«شرح كتاب إدريس»، و«بد العارف»، وهناك رسائل مثل: «الكلام على المسألة الصقلية»، و«رسالة النصيحة النورية»، و«الرسالة الفقيرية»، و«الرسالة القوسية»، و«الحكم والمواعظ»، و«رسالة في أنوار النبي وأنواعها»، و«الألواح المباركة»، و«الرسالة الرضوانية»، و«رسالة في عرفة»، و«عهد ابن سبعين»، و«رسالة خطاب الله بلسان نوره»، و «حكم القصص»، و«الكلام على الحكمة»، و«الرسالة الإصبعية».

توفي ابن سبعين سنة 669هـ. ويقول أبرز المؤرخين مثل ابن كثير وابن الخطيب والتنبكي وابن العماد وابن تغري بردي الأتابكي والغبريني إن موته كان طبيعيا، إلا أن هناك روايات أخرى تقول إنه قد نُحر أو انتحر بقطع شريان يده، مثلما يذكر ابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات»، لكن هذه الرواية تنسب إلى كارهي الرجل وخصومه، الذين أرادوا الإساءة إليه. وتوجد رواية تبين أن وزير المظفر تمكن من الوصول إليه، ودسَّ له السم. ويحلو لبعض المعاصرين أن يميلوا لرواية الانتحار ليستعملوها تعبيرًا عن «انتحار الفلسفة الإسلامية» بعد رحيل ابن سبعين، أو يستخدموها في البرهنة على أن الرجل سعى بقتل نفسه إلى «الفناء عن نفسه والاستغراق في ربه والاتحاد به»، أو أنه أقبل على فعل وجودي بحت.

ابن عطاء الله السكندري

صاحب الحكم والمصنفات

والفيوضات الروحية

واسطة عقد بين قطبين كبيرين، وأحد كبار مؤسسي التجربة الصوفية المصرية، ناظَر ابن تيمية، فكان بليغ البيان، قوي الحجة. برع في صياغة الحكمة وصناعتها، وكانت مناجاته لله سبحانه وتعالى فيوضات روحية، تلهج بها قلوب الذاكرين، إلى أيامنا تلك، وهي تحمل من القيم والمعاني والتجلّيات ما يضمن لها أن تبقى على ألسنة المريدين قرونًا طويلة.

هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عيسى بن عطاء الله السكندري، ينتسب إلى قبيلة جذام التي قدمت إلى مصر عقب الفتح الإسلامي وقطنت الإسكندرية.

ولد سنة 1260هـ، وتلقى منذ نعومة أظافره العلوم الشرعية واللغوية، وكان مشروع فقيه كبير ينكر على المتصوفة الكثير من أفكارهم وممارساتهم، لكن حياته تغيرت وسارت في الطريق المغاير بعدما التقى شيخه وأستاذه أبو العباس المرسي، الذي ترك في قلبه وعقله علامة لا تمحى، عندما صار من طليعة مريديه.

كان جد ابن عطاء لوالده فقيها كبيرًا، أخذ عنه حفيده الكثير، ثم راح يتدرّج في العلم، لاسيما بعد انتقاله من العداء للصوفية إلى الانغماس فيها، وكان نابهًا تقيًّا، فتنبأ له المرسي بأن يكون له باع طويل في مسيرة التصوف، فقال له يوما: «الزم، فوالله لئن لزمت لتكونن مُفتيًا في المذهبين»، قاصدًا بذلك مذهب «أتباع الشريعة» و«أصحاب العلم اللدني» من الصوفية. وقد تحقق ذلك فعلًا إذ صار ابن عطاء أحد أركان الطريقة الشاذلية الصوفية التي أسسها الشيخ أبو الحسن الشاذلي عام 1248هـ وخَلِيفتُه أبو العبَّاس المرسي عام 1287هـ. وقد أصبح السكندري أستاذًا يؤخذ عنه ويتتلمذ المريدون عليه، ومنهم أعلام مثل ابن المبلق السكندري، وتَقي الدين السبكي شيخ الشافعية.

ترك السكندري الكثير من الكتب والمصنفات، بعضه طمره النسيان وضاع، وبعضه بقي شاهدًا على فلسفة صاحبه وتقواه. من بين هذه الكتب «لطائف المنن» الذي أفرده في سرد مناقب الشيخين أبي العباس المرسي وأبي الحسن الشاذلي وشرحها، و«القصد المجرّد في معرفة الاسم المفرد»، و«عنوان التوفيق»، و«تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس»، و«مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح»، لكن أهمها وأخلدها «الحكم العطائية»، التي انتشرت وذاعت وترجمت إلى اللغات الأجنبية وكتبت الشروح لها. وقد انكبَّ عليها العلماء قديمًا وحديثًا وجعلوها منطلقًا لدروسهم التي تشدّ إليها الناس بنورانيتها وإشراقاتها، وما زال بعضها يدرّس في كليات جامعة الأزهر إلى اليوم، لكن، للأسف القليل منها مطبوع فيما تاه أغلبها على رفوف المكتبات العامة والخاصة، ينتظر من يحققه ويقدمه إلى الناس المتعطشين إلى ما يغذي الروح، ويجعل النفس تهيم عشقًا بالله تعالى.

ومن بين هذه الحكم المتداولة:

- أَرِحْ نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك.

- تشَوُّفك إلى ما بَطُنَ فيك من العيوب خيرٌ مِن تشوُّفِك إلى ما حُجِبَ عنك من العيوب.

- من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل.

- الحقُّ ليسَ بمحجوب، وإنما المحجوبِ أنتَ عن النظرِ إليه؛ إذ لو حَجبهُ شيءٌ لستره ما يحجبه، ولو كان له ساترٌ لكان لوجوده حاصر، وكلُّ حاصرٍ لشيءٍ فهو له قاهرٌ.

- إذا لم تُحْسِن ظنَّكَ به، لأجلِ حُسنِ وصْفِه، فَحَسِّن ظنَّك بهِ لأجل معاملته معك، فهل عَوَّدَكَ إلاَّ حسنًا؟ وهل أسدى إليك إلاَّ مِنَنًا؟

- لا تطلب منه أن يخرجك من حال ليستعملك فيما سواه؛ فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج.

- خَفْ من وجودِ إحسانهِ إليك، ودوامِ إساءتِك معهُ أنْ يكون ذلك استدراجًا لك.

- من علامات موت القلب عدمُ الحزنِ على ما فاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلتَهُ من وجود الزلاَّت.

-لا يعظُمُ الذنبُ عندك عظمةً تصدُّك عن حسنِ الظنِّ بالله تعالى، فإنَّ مَن عرفَ ربَّهُ استصغرَ في جنبِ كرمِهِ ذنبَه.

- أصل كل معصية وشهوة الرضا عن النفس وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه فأي علم لعالم يرضى عن نفسه؟

- اجتهادُك فيما ضُمِنَ لك، وتقصيرُك فيما طُلِبَ منك، دليلٌ على انطِماسِ البصيرةِ منك.

- ما نفَعَ القلبَ شيءٌ مثل عُزلةٍ يدخلُ بها ميدان فكرة.

- ما قلّ عمل برز من قلب زاهد ولا كثر عمل برز من قلب راغب.

- ما بَسَقتْ أغصانُ ذلٍّ إلاَّ على بذرِ طمَع.

- مَنْ لم يشكر النِعمَ فقد تعرَّضَ لزوالها، ومن شكرها فقد قيَّدها بعِقالها.

- مَنْ رأيتَهُ مُجيبًا عن كلِّ ما سُئلَ، ومُعبِّرًا عن كلِّ ما شهِد، وذاكِرًا كلَّ ما علِم، فاستدل بذلك على وجودِ جهلِه.

- لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلّك على الله مقاله.

- لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله.

- لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده ويحتقر عندك وجوده.

- متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك.

- ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك بالذنب فكان سببًا في الوصول.

- العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان.

- متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به.

- الأنوار مطايا القلوب والأسرار.

- أنت حرّ مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت له طامع.

- رُبَّ معصية أورثت ذلًّا وانكسارًا خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا.

كان السكندري يناجي ربه بدعوات ومناشدات صافية راقية، تعدّ قطعًا من الأدب الصوفي الرفيع، ومنها تلك المناجاة التي تقول:

إلـهي: كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك؟ كلما أيستني أوصافي أطمعتني مننك..

إلـهي: هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدلّ عليك، اهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك..

إلـهي: علّمني من علمك المخزون، وصنّي بسر اسمك المصون، بك أنتصر فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، وإياك أسأل فلا تخيّبني، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني، ولجنابك أنتسب فلا

تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني..

إلـهي: أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووجدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجئوا إلى غيرك.

إلـهي: كيف يرجى سواك، وأنت ما قطعت الإحسان؟ وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟ يا من أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين، ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين، أنت الذاكر من قبل الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستعرضين..

ومن الأمور التي يدوم ذكرها للسكندري، هي تلك المناظرة التي انعقدت بينه وبين الفقيه الكبير والشهير ابن تيمية، والتي نقلها ابن كثير وابن الأثير. يقال إن ابن تيمية كان منفيًّا بالإسكندرية، ثم عفا عنه السلطان فجاء إلى القاهرة وذهب ليصلي المغرب بالأزهر خلف السكندري، الذي فوجئ به، فهنأه بسلامة الوصول وقال له:

- أعاتب أنت عليّ يا فقيه؟

فقال ابن تيمية:

- أعرف أنك ما تعمدت إيذائي ولكنه الخلاف في الرأي على أن كل من آذاني فهو منذ اليوم في حلّ مني.

فسأله ابن عطاء الله:

- ماذا تعرف عني؟

- أعرف عنك الورع، وغزارة العلم، وحدّة الذهن، وصدق القول، وأشهد أني ما رأيت مثلك في مصر ولا في الشام حبًّا لله، أو فناءً فيه، أو انصياعًا لأوامره ونواهيه، ولكنه الخلاف في الرأي، فماذا تعرف عني أنت؟ هل تدعي عليّ بالضلال إذ أنكرت الاستغاثة بغير الله؟

فقال ابن عطاء الله له:

- أما آن لك يا فقيه أن تعرف أن الاستغاثة هي الوسيلة والشفاعة، وأن الرسول يُستغاث به ويُتوسل به ويُستشفع به؟

فقال ابن تيمية:

- أنا في هذا أتبع السنّة الشريفة، فقد جاء في الحديث الصحيح: «أُعطيت الشفاعة» وقد أجمعت الآثار في تفسير الآية الكريمة: ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: 79]، على أن المقام المحمود هو الشفاعة، والرسول □ لما ماتت أم سيدنا علي رضي الله عنهما دعا لها الله على قبرها: «الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسّع مدخلها بحق نبيّك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين»، فهذه هي الشفاعة، أما الاستغاثة ففيها شبهة الشرك بالله تعالى، وقد أمر الرسول □ ابن عمه عبد الله بن العباس ألا يستعين بغير الله.

فقال له ابن عطاء الله:

- أصلحك الله يا فقيه، أما نصيحة الرسول □ لابن عباس فقد أراد منه أن يتقرب إلى الله بعلمه لا بقرابته من الرسول، وأما فهمك أن الاستغاثة استغاثة بغير الله فهي شرك، فمَنْ مِنَ المسلمين الذين يؤمنون بالله ورسوله يحسب أن غيره تعالى يقضي ويقدّر ويثيب ويعاقب، فما هي إلا ألفاظ لا تؤخذ

على ظاهرها، ولا خوف من الشرك لنسد إليه الذريعة، فكل من استغاث الرسول فهو إنما يستشفع به عند الله مثلما تقول أنت: أشبعني هذا الطعام، فهل الطعام هو الذي أشبعك؟ أم الله عز وجل هو الذي أشبعك بالطعام؟ وأما قولك إن الله عزّ وجلّ نهانا أن ندعو غيره، فهل رأيت من المسلمين أحدًا يدعو غير الله؟ إنما نزلت هذه الآية في المشركين الذين كانوا يدعون آلهتهم من دون الله، إنما يستغيث المسلمون النبي بمعنى التوسل بحقه عند الله، والتشفع بما رزقه الله من شفاعة. أما تحريمك الاستغاثة لأنها ذريعة إلى الشرك فإنك كمن أفتى بتحريم العنب لأنه ذريعة إلى الخمر، أو نخصي الذكور غير المتزوجين سدًّا للذريعة إلى الزنا.

وضحك الشيخان، ثم قال ابن عطاء الله:

- أنا أعلم ما في مذهب شيخكم الإمام أحمد من سعة، وما لنظرك الفقهي من إحاطة وسدّ الذرائع. ويتعين على مَنْ هو في مثل حذقك وحدّة ذهنك وعلمك باللغة أن يبحث عن المعاني المكنونة الخفية وراء ظاهر الكلمات، فالمعنى الصوفي روح، والكلمة جسد، فاستقصِ ما وراء الجسد، لتدرك حقيقة الروح.

وتذكّر ابن عطاء آراء ابن تيمية في محيي الدين بن عربي والشاذلي، فقال له:

- إنك اعتمدت في حكمك على ابن عربي نصوصًا قد دسّها عليه خصومه، أما سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام، فإنه لما فهم كتابات الشيخ وحلّ رموزها وأسرارها وأدرك إيحاءاتها، استغفر الله عما سلف منه وأقرّ بأن ابن عربي إمام من أئمة الإسلام. وأما كلام الشاذلي ضد ابن عربي فليس أبو الحسن هو الذي قاله بل أحد تلامذته من الشاذلية، وهو لم يقله في الشيخ ابن عربي بل قاله في بعض المريدين الذين فهموا كلامه على غير وجهه.

ثم سأله ابن عطاء الله:

- ما رأيك في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟

فأجاب ابن تيمية:

- يقول النبي : «أنا مدينة العلم وعلي بابها» وهو المجاهد الذي لم يبارز أحدًا إلا وغلبه، فمن للعلماء والفقهاء من بعده أن يجاهدوا في سبيل الله باللسان والقلم والسيف جميعًا. وكان رضي الله عنه أقضى الصحابة وكلماته سراج منير.

فقال ابن عطاء الله:

- فهل يُسأل علي عن بعض من شايعوه فقالوا إن جبريل أخطأ فجاء بالرسالة محمدًا بدلًا من علي؟ أو عن الذين زعموا أن الله حلّ في جسده فصار الإمام إلهًا؟ ألم يقاتلهم ويقتلهم؟ أما أفتى بقتلهم أينما ثقفوا؟

فقال ابن تيمية:

- خرجت لقتالهم في الجبل بالشام منذ أكثر من عشرة أعوام.

واستمر ابن عطاء الله يسأل ابن تيمية عما فعله بعض أتباعه من كبس الدور، وإراقة الخمور، وضرب المغنيات والراقصات، واعتراض الناس في الطرقات باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم قال له:

- الشيخ محيي الدين بن عربي بريء مما يصنعه أتباعه من إسقاط التكاليف الدينية واقتراف المحرمات أترى هذا؟

فقال ابن تيمية:

- ولكن أين تذهبون من الله وفيكم من يزعم أنه بشّر الفقراء بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء، فسقط الفقراء منجذبين ومزّقوا ملابسهم وعندئذ نزل سيدنا جبريل وقال للنبي إن الله تعالى يطلب حظه من هذه المزق، فحمل جبريل واحدة منها وعلّقها على عرشه تعالى ولهذا يلبس الصوفية المرقعات ويسمون أنفسهم الفقراء؟

فقال ابن عطاء الله:

- ما كل الصوفية يلبسون الخرق وهذا أنا أمامك فما تنكر من هيئتي؟

فقال ابن تيمية:

- أنت من رجال الشريعة وصاحب حلقة في الأزهر.

فرد ابن عطاء:

- والغزالي كان إمامًا في الشريعة والتصوف على السواء، وقد عالج الأحكام والسنن والشريعة بروح المتصوف، وبهذا المنهج استطاع إحياء علوم الدين. نحن نعلّم الصوفية أن القذارة ليست من الدين، وأن النظافة من الإيمان، وأن الصوفي الصادق يجب أن يعمّر قلبه بالإيمان الذي عرفه أهل السنة، ولقد ظهر بين الصوفية منذ قرنين من الزمان أشياء كالتي تنكرها الآن واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة وركضوا في ميدان الغفلات... وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال، ثم لم يركضوا بما تعاطوه من سوء الأفعال حتى أشاروا إلى أغلى الحقائق والأحوال، كما وصفهم القشيري الإمام الصوفي العظيم، فوجّه إليهم الرسالة القشيرية ترسم طريق الصوفي إلى الله وهي تمسكه بالكتاب والسنة.

إن أئمة الصوفية يريدون الوصول إلى الحقيقة ليس فقط بالأدلة العقلية التي تقبل العكس بل بصفاء القلب ورياضة النفس وطرح الهموم الدنيوية، فلا ينشغل العبد بغير حب الله ورسوله، وهذا الانشغال السامي يجعله عبدًا صالحًا جديرًا بعمارة الأرض، وإصلاح ما أفسده حبّ المال والحرص على الجاه والجهاد في سبيل الله..

إن الأخذ بظاهر المعنى يوقع في الغلط أحيانًا يا فقيه، ومن هذا رأيك في ابن عربي رحمه الله وهو إمام ورع من أئمة الدين، فقد فهمت ما كتبه على ظاهره، والصوفية أصحاب إشارات وشطحات روحية، ولكلماتهم أسرار.

فقال ابن تيمية:

- هذا الكلام عليك لا لك، فالقشيري لما رأى أتباعه يضلون الطريق قام عليهم ليصلحهم، فماذا فعل شيوخ الصوفية في زماننا؟ إنما أريد من الصوفية أن يسيروا على سنّة هذا السلف العظيم من زُهَّاد الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، إني أقدر منهم مَنْ يفعل ذلك وأراه من أئمة الدين. أما الابتداع، وإدخال أفكار الوثنيين من فلاسفة اليونان وبوذية الهند كادعاء الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ونحو ذلك مما يدعو إليه صاحبك فهذا هو الكفر المبين.

فقال ابن عطاء:

- ابن عربي كان من أكبر فقهاء الظاهر بعد ابن حزم الفقيه الأندلسي المقرب إليكم يا معشر الحنابلة. كان ابن عربي ظاهريًّا ولكنه يسلك إلى الحقيقة طريق الباطن، أي تطهير الباطن وليس كل أهل الباطن سواء، ولكيلا تضلّ أو تنسى أعد قراءة ابن عربي بفهم جديد لرموزه وإيحاءاته تجده مثل القشيري قد اتخذ طريقه إلى التصوف في ظل ظليل من الكتاب والسنة. إنه مثل حجة الإسلام الشيخ

الغزالي، يحمل على الخلافات المذهبية في العقائد والعبادات ويعتبرها انشغالات بما لا جدوى منه، ويدعو إلى أن محبة الله هي طريقة العابد في الإيمان، فماذا تنكر من هذا يا فقيه؟ أم أنك تحبّ الجدل الذي يمزّق أهل الفقه؟ لقد كان الإمام مالك يحذر من الجدل في العقائد ويقول: «كلما جاء رجل أجدل من رجل نقص الدين». قال الغزالي: «اعلم أن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن، ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس بل هو سر من أسرار الله عزّ وجلّ لا يدركه الحس».

أهل السنّة هم الذين لقبوا الغزالي - شيخ المتصوفة - بحجة الإسلام ولا معقّب على آرائه، فقد غالى بعضهم في تقدير كتابه «إحياء علوم الدين» فقال: «كاد الإحياء أن يكون قرآنًا».

أداء التكاليف الشرعية في رأي ابن عربي وابن الفارض عبادة محرابها الباطن لا شعائر ظاهرية فما جدوى قيامك وقعودك في الصلاة إذا كنت مشغول القلب بغير الله. مدح الله عز وجل أقوامًا بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: 2]، وذم أقوامًا بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: 5]. وهذا الذي يعنيه ابن عربي بقوله: «إن التعبد محرابه القلب، أي الباطن لا الظاهر»، المسلم لا يستطيع الوصول إلى إدراك علم اليقين وعين اليقين إلا إذا أفرغ قلبه مما يشوش عليه من أطماع الحياة الدنيا وركز في التأمل الباطني، فغمرته فيوض الحقيقة، ومن هنا تنبع قوته، فالصوفي الحق ليس هو الذي يستجدي قوته ويتكفف الناس وإنما هو الصادق الذي يهب روحه وقلبه ويفنى في الله بطاعة الله، ومن هنا تنبع قوته فلا يخالف غير الله، ولعل ابن عربي قد ثار عليه بعض الفقهاء لأنه أزرى على اهتمامهم بالجدل في العقائد مما يشوش على صفاء القلب ثم في وقوع الفقه وافتراضاته فأسماهم: فقهاء الحيض. أعيذك بالله من أن تكون منهم، ألم تقرأ قول ابن عربي:

«من يبني إيمانه بالبراهين والاستدلالات فقط لا يمكن الوثوق بإيمانه فهو يتأثر بالاعتراضات؛ فاليقين لا يستنبط بأدلة العقل، إنما يغترف من أعماق القلب. ألم تقرأ هذا الكلام الصافي العذب قط؟».

قال ابن تيمية:

- أحسنت والله إن كان صاحبك كما تقول وهو أبعد الناس عن الكفر ولكن كلامه لا يحمل هذه المعاني فيما أرى.

فقال ابن عطاء:

- إن له لغة خاصة وهي مليئة بالإشارات والرموز والإيحاءات والأسرار والشطحات، ولكن فلنشتغل بما هو أجدى وبما يحقق مصلحة الأمة، فلنشتغل بدفع الظلم وحماية العدل المنتهك. أرأيت ما فعله الفاسقان بيبرس وسلار بالرعية منذ خلع الناصر نفسه فانفردا بالحكم؟ وإن عاد السلطان الناصر وهو يؤثرك على كل الفقهاء ويستمع لك فأسرع إليه وانصح له.

تُوفي ابن عطاء الله ودفن بالقَاهرةِ عَام 1309هـ وما زال قَبره مَوجودًا إلى الآن في جبَّانة علي أبو الوفاء تحت جبل المُقطمِ، من الجهةِ الشرقية لجبَّانة الإمام الليث.

أبو الحسن الشاذلي

الرجل الذي خرجت مناهج

الصوفية من عباءته

يبرز اسم أبو الحسن الشاذلي في مقدمة صفوف مؤسسي التصوف الحركي الكبار. فشيخنا جاء من المغرب إلى مصر مرورًا بتونس، وفي كل مكان حلّ فيه جذب إليه المريدين، وتركهم ليؤسسوا طرقًا لا تزال سائدة، على رغم تعاقب السنين، وتبدل الأماكن، وتوالي الأجيال. بذلك يكون أحد الشخصيات المشهود لها في إثبات أن الصوفية ظاهرة عابرة للحدود والسدود.

هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار المغربي، ولد سنة 395هـ، وينتمي إلى قبيلة الأخماس الغمارية. قطن مدينة شاذلة، فنسب إليها. تتلمذ منذ نعومة أظافره على يدي أبي محمد عبد السلام بن مشيش، الذي أثر تأثيرًا بالغًا في حياته الصوفية والمعرفية إذ كان له من المقام في المغرب ما للشافعي في مصر، وكان أحد المتمسكين بالكتاب والسنة، العاملين بهما، وهذا ما نستدل عليه من قوله الشهير: «أفضل الأعمال أربعة بعد أربعة: المحبة لله، والرضا بقضاء الله، والزهد في الدنيا، والتوكل على الله. أما الأربعة الأخرى فهي: القيام بفرائض الله، والاجتناب لمحارمه، والصبر عما لا يعني، والورع من كل شيء يلهي».

رحل الشاذلي بعد أن استوت معرفته وأذواقه إلى جبل زغوان في تونس، حيث اعتكف للعبادة، وارتقى منازل عالية في الفكر الصوفي. لكن أبا القاسم بن البراء قاضي الجماعة في تونس دسّ عليه لدى السلطان أبي زكريا الحفصي فأخرجه الأخير من البلاد. وابن البراء كان يعد نفسه الزعيم الديني الأكبر من دون منازع، فلما رأى الناس تلتف حول الشاذلي، الذي لا سند رسميًّا لمكانته وموقعه، يقال إنه قد حقد عليه، لا سيما أن أبا الحسن كان إلى جانب تصوفه أحد علماء الفقه والتفسير والحديث، وقال للسلطان: «إنه يدعي الشرف. وقد اجتمع عليه خلق كثير. ويدعي أنه الفاطمي. ويشوش عليك في بلادك». فاستدعاه الحفصي إلى قصره، وطلب من الشيوخ أن يسألوه، فأجابهم باستفاضة أدهشتهم، في العلوم الحدسية والكسبية معًا. وأراد السلطان أن يأمر له بالانصراف، لكن ابن البراء عاجله بالقول: «لئن خرج الشاذلي في هذه الساعة، ليدخلن عليك أهل تونس، ويخرجونك من بين أظهرهم، فإنهم مجتمعون على بابك».

استبقاه السلطان، لكن أحد إخوته كان عاقلًا، وطالما تردد على الشيخ يتبارك به، ويستزيد من علمه، قال له: «ما هذا الأمر الذي أوقعك فيه ابن البراء. أوقعك الله في الهلاك أنت وكل من معك». ثم دخل على الشيخ وراح يسترضيه، ويهدئ من خواطره. فقال له الشيخ الذي كان طيلة هذا الوقت غارقًا في عبادته وتسابيحه: «والله ما يملك أخوك لنفسه نفعًا ولا ضررًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فكيف يملكها للغير، كان ذلك في الكتاب مسطورًا».

بعدها عزم الشاذلي على الحج، فأمر أتباعه بتجهيز رحالهم ليتوجهوا إلى المشرق، فقالوا له إن أيام الحج لا تزال بعيدة، فأجابهم: «سنمكث في مصر مدة». وسمع الحفصي باعتزام الشاذلي الرحيل، فأرسل إليه يرجوه في البقاء؛ لأن الناس علموا أنه منفي، فغضبوا، فرد الشيخ على رسول السلطان: «ما خرجت إلا بنية الحج إن شاء الله تعالى. لكن إذا قضى الله حاجتي أعود إن شاء الله».

جاء الشاذلي إلى الإسكندرية، لكنه وجد أمامه من ينتظره لاعتقاله، بعد أن وصلت أخباره إلى سلطانها. وفرض عليه الأخير الذهاب إلى القاهرة بنفسه، لمقابلة السلطان. وهنا يروي صاحب «درة الأسرار»: «لما وصلنا إلى القاهرة أتينا القلعة، فاستأذن الشاذلي على السلطان. فأدخل على السلطان والأمراء، فجلس معهم ونحن ننظر إليه. قال له السلطان: «ماذا تقول أيها الشيخ؟»، فأجاب: «جئت أشفع لك في القبائل». فردّ: «اشفع في نفسك. هذا عقد بالشهادة فيك، وجهها ابن البراء من تونس بعلامة فيه»، ثم ناوله إياه، فقال الشيخ: «أنا وأنت والقبائل في قبضة الله».

وقام الشيخ، فلما مشى قدر عشرين خطوة، حرّك الرجال السلطان فلم يتحرك ولم ينطق، فبادروا إلى الشيخ وجعلوا يقبلون يديه، ويرغبونه في الرجوع إليه. فرجع إليه، وحركه بيده، فتحرك، وجعل يستحله، ويرغب منه في الدعاء. ثم كتب إلى الوالي في الإسكندرية، أن يرفع الطلب عن القبائل،

ويرد جميع ما أخذه منهم.

خرج الشاذلي وأتباعه إلى الحج، فلما انتهى من أداء الفريضة عاد إلى تونس، فوجد ابن البراء لا يزال متربصًا به. لكنه صبر عليه، ولم يُبَالِ بمكائده. وفي هذه الفترة من حياة الشاذلي جاء إليه أبو العباس المرسي، الذي قال الأول في حقه: «ما ردني إلى تونس إلا هذا الشاب». ورحل الشاذلي إلى مصر مجددًا، ليقيم فيها، فخلع عليه السلطان أحد أبراج الإسكندرية، كان يحوي مسجدًا، ومساكن للمريدين، ومرابط للبهائم، وفي أعلاها سكن الشيخ وأولاده: شهاب الدين أحمد، وأبو الحسن علي، وأبو عبد الله محمد، وابنته زينب.

في الإسكندرية حظي الشاذلي بمريدين كثر، وذاع صيته وجاء الناس إليه من شتى أنحاء مصر يقصدونه كقطب صوفي كبير. ومن مقر إقامته كاتَبَ أصدقاءه في تونس يصف لهم حاله فقال: «الكتاب إليكم من الثغر، حرسه الله، ونحن في سوابغ نعم الله نتقلب. وهو بفضله وبوده إلينا يتحبب. قد ألقى علينا وعلى أحبابنا كنفه. وجعلنا عنده فما ألطفه! ندعوه فيلبينا، وبالعطاء قبل السؤال ينادينا. فلله الحمد كثيرًا كما ينبغي لوجهه الكريم، وجلاله العظيم. أما الأهل والأولاد والأصهار والأحباب ففي سوابغ نعم الله يتقلبون، وبإحسانه ظاهرًا وباطنًا مغمورون، نسأل الله المزيد التام العام لكم ولهم أجمعين، وأن ينوب عنا في شكره، إنه أكرم الأكرمين».

يُروى أن ابن مشيش لما قابل الشاذلي قال له على وجه الكشف: «مرحبًا بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار»، وساق نسبه إلى النبي ، ثم قال له: «يا علي ارتحل إلى إفريقيا واسكن فيها بلدًا تسمى شاذلة، فإن الله يسميك الشاذلي، وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس ويؤتى عليك بها من السلطنة، وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد المشرق، وترث فيها القطبانية».

هنا أوضح ابن العماد: «وأخرجوه بجماعته من المغرب وكتبوا إلى نائب الإسكندرية: «إنه يقدم عليكم مغربي زنديق وقد أخرجناه من بلدنا فاحذروه. فلما قدم الإسكندرية كان فيها أبو الفتح الواسطي، وهو قطب صوفي كبير، فوقف بظاهرها واستأذنه فقال: طاقية لا تسع رأسين. فمات أبو الفتح في تلك الليلة».

شهد للشاذلي أهل عصره من المتصوفة الكبار، ومن تلامذته ومريديه، فتلميذه الأشهر الشيخ أبو العباس المرسي قال: «كنت مع الشيخ الشاذلي في القيراون، وكانت ليلة جمعة توافق السابع والعشرين من شهر رمضان، فذهب الشيخ إلى الجامع، وذهبت معه، فلما دخل، وأحرم، رأيت الأولياء يتساقطون عليه، كما يتساقط الذباب على العسل، فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع، قال الشيخ: «ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة، وكانت ليلة القدر، وسمعت الرسول وهو يقول: يا علي طهّر ثيابك من الدنس، تَحْظَ بمدد الله في كل نفس. قلت يا رسول الله: وما ثيابي؟ قال: اعلم أن الله قد خلع عليك خمس خلع، خلعة المحبة، وخلعة المعرفة، وخلعة التوحيد، وخلعة الإيمان، وخلعة الإسلام، فمن أحب الله هان عليه كل شيء، ومن عرف الله صغر لديه كل شيء، ومن وحد الله لم يشرك به شيئًا، ومن آمن بالله أمن من كل شيء».

ويقول ابن دقيق العيد عنه: «ما رأيت أعرف بالله منه ومع ذلك آذوه هو وجماعته وأخرجوهم من المغرب وكتبوا إلى نائب الإسكندرية أنه يقدم عليكم مغربي قد أخرجناه من ديارنا فاحذروه، فدخل الإسكندرية وآذوه حتى ظهرت له كرامات أوجبت الاعتقاد فيه».

وأوضح الشيخ مكين الدين الأسمر: حضرت في المنصورة في خيمة فيها الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام والشيخ مجد الدين علي بن وهب القشيري المدرس والشيخ محيي الدين بن سراقة والشيخ مجد الدين الأخيمي والشيخ أبو الحسن الشاذلي ورسالة القشيري تقرأ عليهم وهم يتكلمون والشيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغ كلامهم، فقالوا: يا سيدي نريد أن نسمع منك، فقال: أنتم سادات الوقت وكبراؤه وقد تكلمتم، فقالوا: لا بد من أن نسمع منك. فسكت الشيخ ساعة ثم تكلم بالأسرار العجيبة

والعلوم الجليلة فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله».

لذا يقول الشيخ مكين أيضًا: «مكثت أربعين سنة يشكل عليَّ الأمر في طريق القوم فلا أجد من يتكلم عليه، ويزيل عني إشكاله حتى ورد الشيخ أبو الحسن فأزال كل شيء أشكل عليَّ».

وقيل عنه: «مَنْ أراد أن يُستجاب له فليأتِ إلى الشيخ الشاذلي».

وفي أقواله وأحواله وضع الشاذلي تصوره عن التصوف والمتصوفة، وأسماهم المخلصين، ووصفهم بأنهم: «رجال جبلهم الله على حسن عبوديته، وأخلصهم لإخلاص توحيد ربوبيته، واتباع شريعته، فيما منع أسرارهم بأنوار حضرته. وأمد أرواحهم بمعاني المعارف. وخصائص عنايته، وأجال عقولهم في عظمته. وزكّى نفوسهم فأحرزها وأخرجها من ظلمة الجهل، وهداهم بنجوم العلم وشمس معرفته، وأيد عقائدهم ببرهان كتابه وسنته، ومحا عزائمهم بتحقيق غلبة مشيئتهم. وطوى إرادتهم بتيقن وقفها على إرادته. وزينهم بزينة الزهد، وحلية التوكل، وشرف الورع، ونور العلم وضياء المعرفة. وألهمهم لفضله وطوله. وتولاهم فأغناهم به عن غيره. وجعل منهم مفاتيح لقلوب الورى، وينابيع الحكمة الكبرى، يتلقونها شرعًا، ويلقونها لأهلها سرًّا وجهرًا. ومنهم من سترته الأقدار، وحجبته عن الأغيار؛ لينفرد بالتمكن في حقيقة الأسرار. تعرف كلا بسيماهم. باطنهم مع الحق، وظاهرهم مع الخلق. فهم هم، ولا هم هم في الوجود. بوصف الغناء ظاهرين. صفوا وافترقوا في سيرهم سننًا. ظاهرهم الفقر وباطنهم الغنى. يتخلقون بأخلاق نبيهم □، كما قال العلي الأعلى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: 8].

وللشاذلي أقوال مشهودة عن الرضا والمحبة، أبرزها:

- ألقِ بنفسك على باب الرضا، وانخلع عن عزائمك وإرادتك.

- بساط الكرامة أربع: حب يشغلك عن حب غيره، ورضا يتصل به حبك بحبه، وزهد يحققك بزهد في بريته، وتوكل عليه يكشف لك عن حقيقة قدرته.

- من أحب الله، وأحب لله فقد تمت ولايته بالحب.

- المحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته، فإن من ثبت ولايته من الله لا يكره الموت.

لكن كيف تنبت المحبة في قلوب المريدين؟ أجاب الشاذلي: «المحبة آخذة من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه. فترى النفس مائلة لطاعته، والعقل متحصنًا بمعرفته، والروح مأخوذة في حضرته، والسر مغمورًا في مشاهدته، والعبد يستزيد فيزاد، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته، فيكسى حلل التقريب على بساط القربة، ويمس أبكار الحقائق وثيبات العلوم. فمن أجل ذلك قالوا أولياء الله عرائس. ولا يرى العرائس المجرمون».

قال له أحدهم: «لقد علمت الحب! فما شراب الحب؟ وما كأسه؟ وما الذوق؟ وما الشراب؟ وما الري؟ وما السكر؟ وما الصحو؟».

أجاب: «الشراب هو النور الساطع عن جمال القلوب، والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب. والساقي هو المتولي الأكبر المخصوصين من أوليائه والصالحين من عباده. وهو الله العالم بالمقادير ومصالح أحبابه. فمن كشف له عن ذلك الجمال، وحظي منه بشيء نفسًا أو نفسين، ثم أُرخي عليه الحجاب، فهو الذائق المشتاق، ومن دام له هذا ساعة أو ساعتين، فهو الشارب حقًّا. ومن توالى عليه الأمر، ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة فذلك هو الري. وربما غاب عن المعقول والمحسوس فلا يدري ما يقال، ولا ما يقول فذلك هو السكر. وقد تدور

عليهم الكؤوس وتختلف لديهم الحالات فيردون إلى الذكر والطاعات، ولا يحجبون عن الصفات، مع تزاحم المقدورات، فذلك وقت صحوهم، واتساع نظرهم، ومزيد علمهم».

وكان الشاذلي مقدرًا للعلم والعلماء، وهو يرى أنه لا يكمل عالم في مقام العلم حتى يبتلى بأربع: شماتة الأعداء، وملامة الأصدقاء، وطعن الجهال، وحسد العلماء. والعلم لديه ذو طبيعة حدسية، وهو ما يستدل عليه من قوله: «إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان، فأغنانا عن الدليل والبرهان، وإنا لا نرى أحدًا من الخلق، فهل في الوجود أحد سوى الملك الحق، وإن كان ولا بد فكالهباء في الهواء، إن فتشتهم لم تجدهم شيئا».

أما التقرب إلى الله فهو لدى الشاذلي إحدى أعظم القربات، ويقوم على مفارقة النفس بقطع إرادتها وطلب الخلاص منها بترك ما تهوى لما يرجى من حياتها. وهنا قال:

- إذا أردت الوصول إلى الطريق التي لا لون فيها، فليكن الفرق في لسانك موجودًا والجمع في سرك مشهودًا.

- من الأولياء مَنْ يسكر من شهود الكأس ولم يذق بعد شيئًا، فما ظنك بعد ذوق الشراب وبعد الري؟ واعلم أن (الري) قل من يفهم المراد به، فإنه مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والنعوت بالنعوت، والأفعال بالأفعال.

- العلوم التي وقع الثناء على أهلها، وإن جدت فهي ظلمة في علوم ذوي التحقيق، وهم الذين غرقوا في تيار بحر الذات، وغموض الصفات، فكانوا هناك بلا هُمْ، وهم الخاصة العليا الذين شاركوا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في أحوالهم.

- فإذا أمدَّه الله تعالى بنور ذاته، أحياه حياة باقية لا غاية لها، فينظر جميع المعلومات بنور هذه الحياة؛ ووجد نور الحق شائعًا في كل شيء، لا يشهد غيره.

تُوفي الشاذلي في صحراء عيذاب في أقصى جنوب مصر الشرقي، بينما كان متوجهًا إلى بيت الله الحرام في أوائل ذي القعدة سنة 656هـ. ومعروف أنه لما دفن في حميثرا وغُسِّل من مائها عَذُب الماء بعد أن كان ملحًا، وكثر حتى صار يكفي الركب إذا نزل عليه.

وروى الرحالة ابن بطوطة عن واقعة موت الشاذلي قائلًا: «أخبرني الشيخ ياقوت العرش عن شيخه الشيخ أبي العباس المرسي أن أبا الحسن الشاذلي كان يحج كل سنة، فلما كان في آخر سنة خرج فيها قال لخادمه: اصطحب فأسًا وقفة وحنوطًا، فقال له الخادم: ولماذا يا سيدي؟ فأجاب: في حميثرا سوف ترى، فلما بلغ حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن الشاذلي وصلى ركعتين وفي آخر سجدة من صلاته انتقل إلى جوار ربه ودفن هناك.

وقبيل وفاته توجه الشاذلي إلى أصحابه قائلًا: «إذا مت فعليكم بأبي العباس المرسي، فإنه الخليفة من بعدي، وسيكون له بينكم مقام عظيم، وهو أحد أبواب الله سبحانه وتعالى».

أبـو الـدرداء

جامع القرآن وحكيم أهل الصُّفَّة

حين أراد المتصوفة على مدار التاريخ منح شرعية لمسلكهم الروحاني، فتشوا في أعمال وأحوال الرجال الذين كانوا حول الرسول الكريم؛ ليختاروا من بينهم من يشيرون إليهم بالبنان ويقولون: إنهم روادنا، أو يقولون معهم: هنا كانت بداية الطريق الذي نسير فيه مطمئنين وأطلقوا عليهم «أهل الصفة» وهم من كانوا يصلون في الصف الأول خلف الرسول أو أولئك الذين كانوا يجلسون في مكان مظلل بمسجد المدينة تأوى إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم الرسول. أحد هؤلاء هو أبو الدرداء، الذي آتاه الله رجاحةً في العقل، وصفاءً في النفس، وقوة في وجه الدنيا، جعلت فيلسوفا من زماننا بقامة عبد الرحمن بدوي يقول عنه: «لأبي الدرداء كلمات في العبادة والتقوى تدل على بلوغه قدمًا راسخة في المعرفة الصوفية».

وشهد لأبي الدرداء كثيرون من معاصريه، علاوة على شهادة الرسول الكريم، الذي قال عنه يوم أُحُد: «نِعْمَ الفارس عويمر» وقال عنه أيضا: «هو حكيم أمتي».

وها هو عبد الله بن عمر يقول لأصحابه: حدثونا عن العاقلَين: معاذ ابن جبل وأبي الدرداء. أما يزيد بن عميرة فقال: لما حَضَرَتْ معاذ بن جبل رضي الله عنه الوفاة، قيل له: يا أبا عبد الرحمن، أوصنا. فقال: «التمسوا العلم عند عويمر، فإنه من الذين أوتوا العلم».

وقال عنه الصحابة: أَتْبَعُنَا للعلم والعمل أبو الدرداء، وكانوا يرددون دوما: أَرْحَمُنَا بنا أبو بكر، وانطقُنَا بالحق عمر، وأمينُنَا أبو عبيدة، وأعلَمُنَا بالحرام والحلال معاذ، وأقرؤنا أُبيُّ، ورجل عنده علم ابن مسعود، وتبعهم عويمر بالعقل.

هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي، كان معاصرًا للنبي ، ودخل الإسلام بعد موقعة بدر، وكان آخر من أسلم من أسرته. ولما آخى النبي بين المهاجرين والأنصار وقع الاختيار عليه ليؤاخي سلمان الفارسي.

ويُقال إن أبا الدرداء كان يعمل أيام الجاهلية بالتجارة، وكان رابحًا، فلما أسلم وجد أنها تحول بينه وبين إعطاء العبادة حقها، فتركها، وتفرغ كذلك لجمع الوحي في حياة النبي، وكان حجة في القرآن، وتنسب إليه ألوان من القراءة، تختلف عما نطق به الآخرون، علمها لكثيرين أثناء فترة إقامته بدمشق، التي أوفد لتولي القضاء فيها، بعد أن أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه والي الشام معاوية بن أبي سفيان أن يعينه في هذا المنصب.

ويروي هو قصة الانتقال من التجارة إلى العبادة قائلا: «بُعث النبي وأنا تاجر، فأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة، فلم يجتمعا، فرفضت التجارة وأقبلت على العبادة. والذي نفس أبي الدرداء بيده ما أحب أن لي اليوم حانوتا على باب مسجد لا يخطئني فيه صلاة أربح فيه كل يوم أربعين دينارًا، وأتصدق بها كلها في سبيل الله». وقد قيل له ردًّا على قصته تلك: وما تكره في تلك؟ فأجاب: شدة الحساب.

ويعزز أبو الدرداء موقفه هذا بأقوال عديدة منها: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم حلمك، ويكثر علمك، وأن تباري الناس في عبادة الله عز وجل، فإن أحسنت حمدت الله تعالى، وإن أسأت استغفرت الله عز وجل». ومنها أيضًا: «اعلموا أن قليلا يغنيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلى، وأن الإثم لا يُنسى»، ومنها كذلك: «مَنْ لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه، وحضر عذابه، ومَنْ لم يكن غنيا عن الدنيا فلا دنيا له». وكان يرفع يديه إلى السماء داعيًا: «اللهم إني أعوذ بك من شتات القلب»، ولما سُئل: وما شتات القلب يا أبا الدرداء؟ أجاب: أن يكون لى في كل وادٍ مال. وكان يردد: « لأن أقول: الله أكبر مئة مرة أحب إليَّ من أن أتصدق بمئة دينار».

وبعد إسلامه عاش أبو الدرداء حياة مادية بسيطة، على عكس ما كان عليه في الجاهلية، وتدل على

ذلك واقعة تقول إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه، فدفع الباب فإذا ليس فيه غلق، فدخل في بيت مظلم فجعل يلمسه حتى وقع عليه، فجسّ وسادة فإذا هي برذعة، وجسّ دثاره فإذا كساء رقيق. قال عمر: ألم أُوسِّع عليك؟! ألم أفعل بك؟!

فقال له أبو الدرداء: أتذكر حديثًا حدثناه رسول الله ؟

قال: أيُّ حديث؟

قال: «ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب»

قال: نعم.

قال: فماذا فعلنا بعده يا عمر؟

قال: فما زالا يتجاوبان بالبكاء حتى أصبحا.

ويُحكى أن يزيد بن معاوية تقدم ليخطب ابنة أبي الدرداء فردَّه، فأعاد يزيد طلبه، فرفض مرة ثانية، ثم تقدم لخطبتها رجل فقير عُرف بالتقوى والصلاح، فزوجها منه، فتعجب الناس من صنيعه، فكان رده عليهم: ما ظنَّكم بابنة أبي الدرداء إذا قام على رأسها الخدم والعبيد وبهرها زخرف القصور، أين دينها يومئذ؟!

وعقب إسلامه زاره سلمان الفارسي، فرأى أم الدرداء مُتبذِّلة، فقال لها: ما شأنك؟

قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا.

فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كُلْ.

قال: فإني صائم.

قال: ما أنا بآكل حتى تأكل.

قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نَمْ. فنام ثم ذهب يقوم، فقال: نَمْ. فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن. فصليا، فقال له سلمان: «إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كل ذي حق حقه». فأتى النبي فذكر ذلك له، فقال النبي: «صدق سلمان».

وكان أبو الدرداء متسامحًا طيبًا، يترفع عن الصغائر، ويعفو عن الناس. فيُحكى أن رجلًا قال له ذات مرة قولًا جارحًا، فأعرض عنه ولم يرد عليه، فعلم بذلك عمر بن الخطاب، فغضب وذهب إلى أبي الدرداء وسأله عما حدث فقال: اللهم غفرانًا، أوَ كل ما سمعنا منهم نأخذهم به؟!

وذات يوم مرَّ أبو الدرداء على أناس يضربون رجلًا ويسبونه، فقال لهم: ماذا فعل؟ فقالوا: أذنب ذنبًا، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في بئر أكنتم تستخرجونه منها؟ قالوا: نعم نستخرجه، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم، فقالوا له: ألا تبغضه وتكرهه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي. وكان يقول: إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي، أسمِّيهم بأسمائهم.

ويقول جبير: لما فُتحت قبرص فُرِّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء رضي الله عنه جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء، ما يُبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟! قال: ويحك يا جبير! ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا تركوا أمره.

كما كان أبو الدرداء وفيًّا لأصدقائه، محبًّا لهم. ويقال إنه كان له ثلاثمئة وستون صديقًا، فكان يدعو لهم في الصلاة، ولما سُئل عن ذلك قال: إنه ليس رجل يدعو لأخيه في الغيب إلا وكل الله به مَلَكَيْن

يقولان، ولك بمثل، أفلا أرغب أن تدعو لي الملائكة؟

بل إن تسامح أبي الدرداء ورحمته امتدت إلي الرأفة بالحيوان، فها هو قد قال لبعيرٍ له عند الموت: «أيها البعير، لا تخاصمني إلى ربك؛ فإني لم أكُ أحمِّلك فوق طاقتك»، وفي قوله هذا رسالة بليغة إلى أولئك الذين تحجرت قلوبهم فقسوا على الإنسان والحيوان بلا روية ولا هدى.

ولم يكن تصوف أبي الدرداء فلسفيا كذلك الذي ظهر في مرحلة لاحقة، ولم يكن ناجمًا عن الاحتكاك بثقافة مغايرة، أو الانطلاق من رؤية نقدية لتحويل البعض الدين إلى مجرد مجموعة من الطقوس، حتى في صدر الدعوة الإسلامية، إنما كان تصوفًا فطريًّا، قائمًا على التفكير الصافي، والتدبر العميق، وهو ما يعبر عنه أبو الدرداء نفسه بقوله: «تفكُّر ساعة خير من قيام الليل». وتبين زوجته أم الدرداء أن هذا كان نهج زوجها على الدوام، فقد سُئلت ذات يوم: ما كان أفضل عمل لأبي الدرداء؟ فأجابت: التفكر والاعتبار.

وكان أبو الدرداء يقول: «أوصاني حبيبي بثلاثٍ لن أدعهن ما عشت: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، وبأن لا أنام حتى أوتر». وقال أيضًا: «أعوذ بالله أن يأتي عليَّ يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، كان إذا لقيني مقبلًا ضرب بين ثدييَّ، وإذا لقيني مدبرًا ضرب بين كتفيَّ، ثم يقول: يا عويمر، اجلس فلنؤمن ساعة. فنجلس فنذكر الله ما شاء، ثم يقول: يا عويمر، هذه مجالس الإيمان».

وقصة إسلام أبو الدرداء نفسها تنطوي على تفكر وتدبر واعتبار، فقد كان يعبد صنمًا احتفظ به في داره. وذات يوم دخل عليه عبد الله ابن رواحة ومحمد بن مسلمة، فشاهدا الصنم فكسراه إلى قطع صغيرة، فبدأ أبو الدرداء يجمع القطع المتناثرة من الأحجار، وهو يقول للصنم: ويحك! هلا امتنعت؟ ألا دافعت عن نفسك؟ فقالت زوجته: لو كان ينفع أو يدفع عن أحد لدفع عن نفسه ونفعها. فنظر إليها وقال: أعدِّي لي ماءً في المغتسل، ثم قام فاغتسل، ولبس حلته، ثم ذهب إلى النبي ، فنظر إليه ابن رواحة مُقبلا، فقال: يا رسول الله، هذا أبو الدرداء، وما أراه إلا جاء في طلبنا. فأخبره رسول الله أن أبا الدرداء إنما جاء ليُسلم.

وكان عويمر من المنادين دومًا بواجب اقتران الفعل بالقول؛ إذ لا خير فيمن ينهى الناس عن الإثم ويأتيه، ويدعوهم إلى البر ويتجنبه، وهنا يقول: «لا يكون تقيًّا حتى يكون عالمًا. ولن يكون بالعلم جميلًا حتى يكون به عاملًا». ويقول أيضًا: «ويل لمن لا يعلم ولو شاء الله لعلمه، وويل لمن يعلم ولا يعمل... إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب أن يُقال لي: قد علمت فما عملت فيما علمت»، ويقول كذلك : «ويل للذي لا يعلم مرة، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات»، ثم يطلب من الناس أن يدركوا تعدد الفهم، وألا يحبوا أو يبغضوا إلا في الله؛ إذ يقول: « إنك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهًا، وإنك لا تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في جنب الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون أشد مقتًا منك للناس».

وقد وقف أبو الدرداء ذات يوم خطيبًا في أهل دمشق فقال لهم: أنتم الإخوان في الدين، والجيران في الدار، والأنصار على الأعداءً، ما يمنعكم من مودتي، وإنما مؤونتي على غيركم، ما لي أرى علماءكم يذهبون، وجُهّالكم لا يتعلمون، وأراكم قد أقبلتم على ما تُكفّل لكم به، وتركتم ما أمرتم به، ألا إن قومًا بنوا شديدًا، وجمعوا كثيرًا، وأمَّلوا بعيدًا، فأصبح بنيانهم قبورًا، وأملهم غرورًا، وجمعهم بورًا، ألا فتعلّموا وعلِّموا؛ فإن العالم والمتعلم في الأجر سواء، ولا خير في الناس بعدهما».

ولأبي الدرداء أقوال عديدة، تفيض بالحكمة والزهد والورع، منها:

- اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم من الموتى.

- لا تكلفوا الناس ما لم يكلفوا، ولا تحاسبوا الناس دون ربهم. ابن آدم عليك نفسك. فإنه من تتبع ما

يرى في الناس يطل حزنه، ولا يشفى غيظه.

- ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص في التوكل، والاستسلام للرب عز وجل.

- يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم كيف يعيبون سهر الحمقى وصيامهم؟ ومثقال ذرة من بر صاحب تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغتربين.

- ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم حلمك ويكثر علمك، وأن تباري الناس في عبادة الله.

- لا تأكل إلا طيبًا ولا تكسب إلا طيبًا، ولا تدخل بيتك إلا طيبًا.

- أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث: أضحكني مُؤمِّل دنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فِيهِ ولا يدري أأرضى الله أم أسخطه؟ وأبكاني فراق الأحبة محمد وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله، ولا أدري إلى الجنة أم إلى النار؟

وكان أبو الدرداء يقوم جوف الليل، فيقول: «نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت حي قيوم»، وكان رجلا هينًا لينًا رحيمًا بسيطًا، قلبه معلق بالمساجد، وقربه من الرسول أو كونه واحدًا من جامعي القرآن لم يصبه أبدًا بالغرور، بل ظل متواضعًا حتى آخر عمره.

وهناك رسالة بعث بها ذات يوم إلى سلمان الفارسي، توضح ذلك بجلاء، حيث قال له فيها: «يا أخي، اغتنم صحتك وفراغك قبل أن ينزل بك من البلاء ما لا يستطيع العباد ردَّه، واغتنم دعوة المبتلى. يا أخي، ليكن المسجد بيتك، فإني سمعت رسول الله يقول: «المساجد بيت كل تقي»، وقد ضمن الله لمن كانت المساجد بيوتهم بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله عز وجل. ويا أخي، ارحم اليتيم وأدنه وأطعمه من طعامك؛ فإني سمعت رسول الله يقول وقد أتاه رجل يشتكي قساوة قلبه، فقال : «أتحب أن يلين قلبك؟» فقال: نعم. قال: «أدن اليتيم منك، وامسح رأسه وأطعمه من طعامك؛ فإن ذلك يلين قلبك وتقدر على حاجتك». ويا أخي، لا تغترن بصحبة رسول الله، فإنا عشنا بعده دهرًا طويلًا، والله أعلم بالذي أصبنا بعده».

وبعد عمر حافل بالعمل والتفكر، توفي أبو الدرداء سنة 32هـ بدمشق في خلافة عثمان بن عفان، عن عمر يناهز اثنين وسبعين عامًا. وقبيل وفاته ذَكَّر أبو الدرداء مَنْ حوله بقول الرسول الكريم: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، واعدد نفسك في الموتى، وإياك ودعوة المظلوم؛ فإنها تستجاب، ومَنِ استطاع منكم أن يشهد الصلاتين العشاء والصبح ولو حبوًا، فليفعل».

وقالت أم الدرداء: لما احتُضر زوجي جعل يقول: مَنْ يعمل لمثل يومي هذا؟! مَنْ يعمل لمثل ساعتي هذه؟! مَنْ يعمل لمثل مضجعي هذا؟ ثم يردد قول الله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: 110]. وكان يقول: مَنْ أكثر ذكر الموت قل فرحه، وقل حسده.

أبو بكر الشبلي

تاج الصوفية الذي شغلته العناية عن الرواية

رغم أن أبا بكر الشبلي ترك رواية الحديث وتدريس الفقه وراء ظهره وغاص في بحر التصوف حتى طمرته مياهه الصافية المتدفقة، فإن الرجل لم يجنح بعيدًا عن مقتضيات الشرع، التي انطوى عليها ما تعلّمه وقام بتدريسه في حياته الأولى. لهذا يبقى الشبلي واحدًا من رموز التصوّف المعتدلين، وهو إن لم يترك لنا مؤلفات يشار إليها بالبنان، كما هو الحال عند محيي الدين بن عربي وأبي حامد الغزالي والحلاج، فقد خلّف وراءه سيرة مفعمة بالحركة والعمل والالتزام، بما يجعله قدوة لكل من أراد أن يجعل من تصوّفه عبادة وزهدًا وورعًا ومسلكًا للقرب من الله، وليس مجرد فلسفة أو علم كلام أو بيان أو أقوال غامضة تلفت الانتباه لذاتها ولا يروم صاحبها من ورائها غير ذلك.

لفت التزام الشبلي كثيرين فمدحوه على مجاهداته وحرصه الشديد على أن يتّسق فعله مع قوله، ويأتي ما يسلكه موافقًا لما يفكر فيه ويعتقده. هنا يقول عنه العروسي، كما ورد في حاشية «الرسالة القشيرية» الذائعة الصيت: «كان الشبلي لا نظير له في مجاهداته ومعاملاته لربه، وفي كياسته وخوفه، وذكاء قريحته، وتنبيهه على مكملات الرجوع إلى الحق، باستحلال الخلق، وإن تحقق الخلو من خوفهم اتهامًا للنفس بالذهول والتقصير». أما عبد الوهاب الشعراني فيقول عن الشبلي: «لقد صار أوجد أهل الوقت علمًا وحالا وظرفًا». رأى فيه بعض المؤرخين: «أحد مشايخ الصوفية الكبار، وصاحب الجنيد ومن في عصره، وهو من صار أحد مشايخ الوقت حالا وقالا».

والشبلي هو واحد من المتصوفة الكبار الذين وجد فيهم الدكتور عبد الحليم محمود، شيخ الأزهر الأسبق «مثالا ناصعًا على أن التصوف لا يعني التناقض، في كل الأحوال والأوضاع، مع الشرع، وأن الإيمان بالحقيقة لا يغني ولا يلهي أبدًا عن الالتزام بالشريعة، إن وجد في المتصوف عزمًا لا يلين على أداء الفرائض والالتزام بوسطية الإسلام، وأن هناك من المتصوفة الأوائل مَنْ يستحقّ أن يُقتدى بهم، جنبًا إلى جنب مع رموز الفقه والفكر والدعوة الإسلامية على مرّ العصور». وقد كان الشبلي من هؤلاء الذين تأثر بهم الإمام عبد الحليم محمود نفسه في رحلته الصوفية، التي زاوج فيها بين الفكر والعمل.

هو أبو بكر جحدر بن دلف الشبلي، ولد في سامراء في العراق سنة 247هـ، وسمي الشبلي نسبة إلى «شبلة» وهي قرية من قرى «أسروشنة» في إقليم خراسان. ينتمي الشبلي إلى أسرة ذات جاه؛ إذ كان أبوه يعمل حاجب الحجاب للخليفة الموفق، وكان خاله أمير أمراء الإسكندرية. عنيت أسرته بتعليمه على أفضل مستوى، فدرس اللغة العربية وعلوم الشرع دراسة مستفيضة، ثم سلك طريق الوظائف حتى وصل إلى حاجب الموفق حين كان وليًّا للعهد وتولى منصب والي دنباوند، وهي ناحية من نواحي رستاق الري في جبال خراسان، وتولى كذلك حكم البصرة.

لكن الوظائف لم تلهِ الشبلي عن الاهتمام بالعلم، فكتب الحديث ورواه وتفقّه على مذهب الإمام مالك بن أنس، وحفظ القرآن الكريم، كذلك الأحاديث التي وردت في «موطأ مالك»، إلى أن أصبح صاحب حلقة يدرّس فيها علمه وفقهه، حتى قال عنه أبو عبد الله الرازي: «لم أرَ في الصوفية أعلم من الشبلي»، وهي شهادة لم يجرحها أحد على الأرجح.

وفي غمرة الرواية والكسب تقابل الشبلي مع ولي الله خير النساج، الذي ترك الدنيا وراء ظهره وتجرد لعبادة الله تعالى. امتلأ الشبلي بما كان يسمعه من النساج، حتى رجع إلى البلدة التي كان واليًا عليها وقال لأهلها: «أنا كنت صاحب الموفق، وكان ولاني بلدتكم هذه، فاجعلوني في حلّ»، فكان له ما أراد، لكن الناس تشككوا في أن قراره ليس حرًّا إنما هو ناجم عن غضب الموفق منه، فأشفقوا عليه، وجمعوا له هدايا ومالا، وعرضوهما أمام عينيه فرفض أن يأخذ شيئًا، مؤثرًا الذهاب إلى أبعد حدّ في طريق الله الفسيح.

تغيرت حياة الشبلي تمامًا، وانقلبت إلى حال جديد لم يعرفه هو نفسه من قبل ولم يألفه أصحابه ومن حوله عنه. صادق الشبلي في هذه المرحلة الشيخ أبو القاسم الجنيد (ت 297هـ)، الذي كان وقتها قطبًا

من أقطاب التصوف، عميق العلم والمعرفة، قانتًا زاهدًا عابدًا، وكان الكتبة يحضرون مجلسه لعذب بيانه ودقة ألفاظه، والفقهاء لتقريره، والفلاسفة لعمق نظره وصواب معانيه، والمتكلمون لاهتمامه بالتحقيق، والمتصوفة لإشاراته وحقائقه.

ظهر تأثير الجنيد في الشبلي، شأنه شأن الكثيرين من رموز التصوف ومريديه في زمانه، لا سيما في مسائل ثلاث وهي التوحيد والمعرفة اللدنية والمحبة، كذلك في ربط الحقيقة بالشريعة؛ إذ كان الجنيد يجمع بينهما في مذهبه ويراهما ممتزجين لا فصل بينهما، بل إن الحقيقة عنده يجب أن تستمدّ نورها الغامر من نور الشرع الإلهي.

ارتبط الشبلي بالجنيد ارتباطًا روحيًّا شديدًا، فكان يجتهد في أن يأخذ عنه بقدر ما يستطيع، ويبحث عنه في كل مكان، ويسعى وراءه أينما حلّ. وقيل إنه بحث عنه ذات يوم في المسجد فلم يجده، فذهب إلى بيته، ووقف أمام الباب وأنشد يقول:

عودوني الوصال والوصل عذب

ورموني بالصد والصد صعب

زعموا حين أزمعوا ذنبي

فرط حبي لهم وما ذاك ذنب

لا وحق الخضوع عند التلاقي

ما جزي من يحب إلا بحب

وسمعه الشيخ الجنيد فتأثر تأثرًا شديدًا وقابل إنشاده بإنشاد ورد عليه قائلًا:

وتمنيت أن أراك فلما رأيتكا

غلبت دهشة السرور فلم أملك البكا

كان الشيخ الجنيد يقول لأصحابه حين يرى فيهم اندهاشًا من تعلق الشبلي به: «لا تنظروا إلى أبي بكر الشبلي بالعين التي ينظر بها بعضكم إلى بعض، فإنه عين من عيون الله تعالى».

عني الجنيد بتلميذه وكان حريصًا في كل الأوقات على تعليمه وتصويب مسلكه. وهناك واقعة تدلّ على ذلك، فذات مرة قال الشبلي وكان بين يدي أستاذه: «لا حول ولا قوة إلا بالله». فالتفت الجنيد إليه وقال: «قولك ذا ضيق صدر، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء». فصمت الشبلي ولم يعقب.

وكان الشبلي يرى أن الصوفية سميت بهذا الاسم لبقية علقت على المتصوفة من نفوسهم، ولولاها لما تعلقت بهم تلك التسمية الجلية. أراد الشبلي من هذا، كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود: «أن يبين أن الاتجاه إلى الله والقرب منه سبحانه - وهذا هو التصوف - يقتضي أن يتجرد الإنسان من النزعات والشهوات والنفس الأمارة بالسوء، وأن تذوب شخصيته في جو الأخلاق الربّانية، وتمحى إراداته في إرادة الله، وأن يكون هواه تبعًا للشريعة».

كان الشبلي يرى في التصوف «ترويحًا للقلوب بمراوح الصفاء، وتجليلا للخواطر بأردية الوفاء، والتخلق بالسخاء، والبشر في اللقاء»، وكان يقول عن المتصوف: «لا حال يقلّ، ولا سماء يظلّ»، قاصدًا بذلك أن المتصوفة لا يثبتون على حال، بل يسعون دومًا إلى التقدّم في الحب الإلهي، والترقي في الزهد والتعبد، والبحث الذي لا ينتهي عن تحصيل رضاء المحبوب. وكان الشبلي نفسه خير مثال لهذا الأمر؛ إذ آمن دومًا بأنه «ليس لمريد فترة»، ووعى جيدًا قول أستاذه الجنيد عن التصوف: «إنه عنوة لا صلح فيها»، ولهذا كان الشبلي إذا دخل عليه شهر رمضان الكريم أكثر من الطاعات، قائلًا:

«هذا الشهر عظّمه الله، فأنا أقوم بتعظيمه».

لهذا أيضًا داوم الشبلي على الذكر، واعتبره علاجًا للروح، وتقوية للنفس في مواجهة الشدائد، ولهذا كان يقول: «ذكر الله على الصفاء، يُنسي العبد مرارة البلاء»، ويقول: «ليس للأعمى من الجوهرة إلا لمسها... ولا للجاهل من الله إلا ذكره باللسان». وقد سُئل ذات يوم عن الصاحب الذي يصطفيه فقال بكل ثقة: «ألهجهم بذكر الله، وأسرعهم مبادرة لرضاه».

كان الشبلي يطالب الناس دومًا بأن يبحثوا عما يأخذهم بعيدًا عن الدنيا ومفاتنها، فها هو يقول: «ما أحوج الناس إلى سكرة». فقيل له: «أي سكرة؟» فقال: «سكرة تغنيهم عن ملاحظة أنفسهم، وأفعالهم وأحوالهم، والأكوان وما فيها». ثم فسر هذا المعنى في عبارة بليغة تقول: «ليس يخطر الكون ببالي، وكيف يخطر الكون ببال من عرف المكون».

وكان الشبلي ينظر إلى الناس اللاهين في الحياة، والساعين إلى مزيد من القوة والتمكن في العاجلة، ويقول: «مساكين هؤلاء المماليك، نظروا بعيونهم إلى الملكوت المخلوق، ورضوا بالجنان المخلوقة، فبقوا معها خالدين فيها، وأما الملوك فلم يرضوا بها، فنظروا بقلوبهم إلى مالك الملوك، فبقوا معه في مقعد صدق عند مليك مقتدر. ويبالغ الشبلي في دعوته إلى التعلق الدائم الدائب بالذات الإلهية فيقول: «طرفة عين في غفلة عن الله لأهل المعرفة شرك».

بالطبع فهو يقصد بأهل المعرفة، هؤلاء الذين توغلوا راحلين في طريق الله، فحصلوا من الإلهام ما لم يؤتَ لغيرهم، لذا فعليهم من المقتضيات والمتطلبات ما يزيد عما هو على غيرهم، ممن هم في أول الطريق، أو بالأحرى الذين لم يدخلوه بعد. وكان الشبلي يريد هنا أن يقول: «إن من ذاق عرف، ومن عرف التزم وأمسك».

وقد ذكر بعض مَنْ عاصروا الشبلي أنه بمجرد «التوبة» ونزوله بحر الصوفية الزاخر بالروحانيات والمعرفة اللدنية، كان مجتهدًا في عبادته إلى أقصى حد مستطاع، بل فوق أي حدّ متوقع. كان يؤمن بأن توسل المجاهدة في طلب الحق لن يجعل المريد يصل إلى ما طلبه، أما مَنْ طلب الله به فسيصل إليه. وكان ينشد في خدمة هذا المعنى قائلا:

أيها المنكح الثريا سهيلا

عمرك الله كيف يجتمعانِ؟

هي شامية إذا ما استهلت

وسهيل إذا استهل يماني

وكان الشبلي زاهدًا، والزهد لديه هو «تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء». وكان متوكلا على الله، معتبرًا أن التوكّل الحقّ يعني الرضاء بفعل الله وما قضى به وقدره، وهنا يذكر في عبارة حوارية: «يقول أحدهم: توكلت على الله، وهو يكذب عليه، لو توكل عليه رضي بفعله». وقد بلغت مراقبة الله ومراعاة حبه عند الشبلي أنه قال حين سئل عن الاستقامة: «الاستقامة هي أن تشهد الوقت قيامة».

وكان الشبلي يغار لله تعالى، فيغضب حين يجد أمامه مخالفة للحق، واتباعًا للهوى، وها هو يقول في هذه المسألة: «الغيرة الإلهية على الأنفاس أن تضيع فيما سوى الله تعالى، والواجب أن يقال: «إن الغيرة غيرتان، غيرة الحقّ سبحانه على العبد، وهو ألا يجعله للخلق، فيضنّ به عليهم، وغيرة العبد للحقّ، وهو ألا يجعل شيئًا من أحواله وأنفاسه لغير الحقّ تعالى. فلا يقال: أنا أغار على الله تعالى، ولكن يقال: أنا أغار لله تعالى، وإذن فالغيرة على الله جهل، وربما تؤدي إلى ترك الدين، والغيرة لله تعالى توجب تعظيم حقوقه، وتصفية الأعمال له. ومن سنّة الحق تعالى مع أوليائه أنهم إذا ساكنوا

غيرًا، أو لاحظوا شيئًا، أو ضاجعوا بقلوبهم سواه، شوش عليهم ذلك، فيغار على قلوبهم بأن يعيدها خالصة لنفسه، فارغة عما ساكنوه أو ضاجعوه».

آمن الشبلي بأن المعرفة الحقة لا حدود لها، وأن بدايتها هي الله، الذي علم آدم الأسماء كلها. وهنا يقول: «ليس لعارف علاقة، ولا لمحب شكوى، ولا لعبد دعوى، ولا لخائف قرار، والمعرفة أولها الله تعالى، وآخرها ما لا نهاية».

وكان الشبلي مناديًا بالمحبة، التي رأى فيها «صراط الأولياء»، وهي عنده «اتباع أوامر المحبوب، وتجنب نواهيه... والفراغ للحبيب، وترك الاعتراض على الرقيب... وهي كأس لها وهج، إن استقرت في الحواس قتلت، وإن سكنت في النفوس أسكرت، فهي سكر في الظاهر، ومحبة في الباطن... المحبة الكاملة أن تحبه من قبله».

وكان شرط المحبة الأساسي لديه هي الهمة، ولذا ردد دومًا: «مَنْ ملت همّته، ضعفت محبته». كذلك المحبة عنده الرق للمحبوب وطاعته وعدم الغفلة عنه، لذا أنشد ذات مرة في جماعة من المريدين كانوا عنده، ووجدهم قد غفلوا عن ذكر الله وتسبيحه:

كفى حزنًا بالواله الصبّ أن يرى

منازل مَنْ يهوى معطلة قفرا

وأنشد ذات مرة حين سُئل عن قلوب المشتاقين:

أسر بمهلكي فيه لأني

أسر بما يسر الألف جدا

ولو سُئلت عظامي عن بلاها

لأنكرت البلى وسمعت جحدا

ولو أخرجت من سقمي لنادى

لهيب الشوق بي يسأله ردا

وهناك أبيات من الشعر دالة في هذا المقام، أنشدها الشبلي تباعًا وفي أوقات متفرّقة، لكنه كان في جميعها على حال من الوجد والهيام في حبّ الخالق العظيم:

لتحشرن عظامي بعد إذ بليت

يوم الحساب وفيها حبكم علق

وأنشد أيضًا يقول:

ذكرتك لا أني نسيتك لمحة

وأيسر ما في الذكر ذكر لساني

وكدت بلا وجد أموت من الهوى

وهام عليَّ القلب بالخفقان

فلما أراني الوجد أنك حاضري

شهدتك موجودًا بكل مكان

فخاطبت موجودًا بكل تكلم

ولاحظت معلومًا بغير عيان

لم يكن الشبلي مجافيا للشرع في تصوّفه، بل كان «يبالغ في تعظيم الشرع المطهّر» حسب قول بعض المؤرخين والمتصوفة. وكان يعتبر التمسّك بالشريعة من معجزات المتصوف، حيث نُقل عنه أنه قال ذات مرة: «كل صديق لا يكون له معجزة كذاب». فسأله علي بن عيسى الوزير يومًا: «أين معجزتك أنت؟» فرد على الفور: «موافقة الله في أوامره ونواهيه». وهناك رواية أخرى تقول إنه رد على الوزير: «معجزتي أن تعرض خاطري في حال صحوي على خاطري في حال سكري، فلا يخرجان عن موافقة الله تعالى». ويتفق هذا مع إجابته عن سؤال: «كيف يكون الشخص مريدًا؟» بقوله: «إذا استوت حالاته في السفر والحضر، والمشهد والمغيب».

ولذا كان الشبلي ينصح المتصوفة دائمًا، ويقول للواحد منهم: «لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء، حتى تخرج من دار الغرور إلى دار الأمن»، وكان يقول أيضا: «أعمى الله بصرًا يراني، ولا يرى فيَّ آثار القدرة. فأنا أحد آثار القدرة، وأحد شواهد العزة، لقد ذللت حتى عزّ في ذلي كلّ ذل، وعززت حتى ما تعزز أحد إلا بي، أو بمن تعززت به، وما افترقنا، وكيف نفترق ولم يجرِ علينا حال الجمع أبدا».

وقبيل رحيله إلى الرفيق الأعلى أنشد الشبلي:

كل بيت أنت ساكنه

غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا

يوم تأتي الناس بالحجّ

أبو تراب النخشبي

العارف المتوكل الذي رأى موته

توفي الشبلي سنة 334هـ بعد أن عاش سبعة وثمانين عاما كاملة، ودفن في بغداد في مقبرة الخيزران، وظل قبره شاهدًا يزوره الناس، من دون أن يعرف أغلبيتهم الكثير عن صاحب المقام، الذي عاش عالمًا زاهدًا تقيًّا ملتزمًا بالشرع، هائمًا على وجهه في عشق الخالق العظيم، جلّ شأنه وعظمت قدرته.

واحد من العلامات المضيئة في تاريخ التصوف، كتب العلم وتفقه في الدين، وساح وتبحَّر، وتتلمذ عليه أكابر الصوفية، بعد أن لزم الباب ولم يشغل نفسه إلا برب الأرباب، فصار من المتفق عليهم بين المتصوفة المحتفين بعالم الكرامات والزهد والتوكل وبين «أهل الأثر» أو «أهل الحديث» المهتمين بالرواية، ويرون أنفسهم أنهم على مذهب «أهل السنة والجماعة». لم يترك كتبا ولا مؤلفات يشار إليها بالبنان كبعض المتصوفة، لاسيما مَنْ مالوا إلى الفلسفة منهم، بل ترك أفعالا تناقلها الناس ونسبوها إليه، بعضها ينطوي على حكم سابغة، وأخرى تظهر كرامات الرجل وبركاته، وهذا وذاك يدلان على أن أبا تراب لم يمر على الدنيا من دون أن يترك وراءه علامة.

هو أبو تراب عسكر بن حصين النخشبي، من أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري. ولد في نواح بلخ بمدينة نخشب، التي تحول اسمها إلى نسف فيما بعد، وهي مسقط رأس الإمام النسفي، وتقع في أوزبكستان حاليا. روى الحديث عن بعض سابقيه، وروى عنه لاحقوه، وقد تفقه على مذهب الإمام الشافعي وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل.

شهد له كثيرون، فوصفه الذهبي بأنه «الإمام القدوة شيخ الطائفة»، وقال عنه أبو عبد الرحمن السلمي في طبقاته الشهيرة إنه «من جلة مشايخ خراسان، والمذكورين بالعلم والفتوة والتوكل والزهد والورع»، أما ابن الجلاء فيقول: «صحبت ستمئة شيخ، ما لقيت فيهم مثل أربعة، أولهم أبو تراب النخشبي»، وهناك رواية أخرى تصل بهذا العدد إلى ألف شيخ، والرقمان يدلان على مكانة النخشبي بين الزهاد والعباد والصالحين.

كان صارمًا في زهده إلى حد بعيد، من دون تكلف ولا ادعاء، إنما كان هذا هو طبعه ومسلكه. ويسرد لنا السبكي في طبقاته حكاية تبرهن على استغنائه وتعففه، حيث يروي أن أبا تراب مرّ بمُزيِّن فقال له: تحلق رأس لله عز وجل، فوافق المزين وأجلسه وراح يحلق رأسه، وكان أمير البلد يمر قريبا منه فقال لبعض حاشيته: أليس هذا أبا تراب؟ فقالوا: نعم. فقال: إيش معكم من الدنانير؟ فقال له رجل من خاصته معي كيس به ألف دينار. فقال: إذا قام فأعطه إياها واعتذر إليه وقل له: لم يكن معنا غير هذه. فذهب الرجل بالدنانير وقال لأبي تراب: الأمير يقرأ عليك السلام ويبعث إليك بهذه الألف دينار ويقول لك: ما حضر معنا غير هذه. فقال له أبو تراب: ادفعها إلى المزيِّن. فقال المزين: إيش أعمل بها. فقال أبو تراب: خذها لك. فرفض المزين أن يأخذها، فقال أبو تراب لرسول الأمير: ارجع بها إليه وقل له إن المزين ما رضي أن يأخذها، فخذها أنت فاصرفها في مهماتك.

ويروي يوسف بن الحسين حكاية تصب في الاتجاه نفسه، حيث قال: كنا بمكة، فقال أبو تراب: أحتاج إلى دراهم، فإذا برجل قد صبَّ في حجره كيس دراهم، فجعل يُفَرِّقُها على مَنْ حوله، وكان فيهم فقير يتراءى له ليعطيه، فنفدت، ولم يعطه، وبقيت أنا وهو والشيخ، فقال له: تراءيت لك غير مرة، فقال: أنت لا تعرف المعطي. وفي هذا ما يشير أيضًا إلى أن أبا تراب كان يفهم أن المال لله تعالى، وأن البشر مجرد وكلاء، وأن ما يعطونه أو يمنحونه إنما هو تنفيذ لمشيئة الله حين يريد سبحانه أن يجعلهم سببًا لرزق أحد من عباده.

وكان الزهد مرتبطا عن أبي تراب بمجاهدة النفس ونهيها عن شهوات الدنيا وملذاتها، حتى ولو كانت قليلة أو ضئيلة، فها هو يقول: ما تمنت علي نفسي شيئًا إلا مرة؛ تمنت علي خبزًا وبيضًا، وأنا في سفر؛ فعدلت إلى قرية فلما دخلتها تعلقوا بي وقالوا هذا من اللصوص؛ فبطحوني وضربوني سبعين جلدة، فصاح بهم رجل وقال: هذا أبو تراب الزاهد. فأقاموني واعتذروا إلي، وأدخلني ذلك الرجل بيته، وقدم لي خبزًا وبيضًا من غير مواطأة، فقلت: كل بعد سبعين جلدة!».

وبالقطع ليس الخبز والبيض بالشيء النادر ولا الغالي ولا الذي تشتهيه نفس عوام الناس، الذين يأكلونه كل يوم تقريبا. لكن عند أبي تراب فالأمر مختلف؛ لأنه عود نفسه ألا تشتهي شيئًا حتى لو كان رخيصًا ووافرًا وتتداوله الأيادي بلا اكتراث.

ويُحكى أن أبي جعفر الحداد قال: رآني أبو تراب النخشبي، وأنا في البادية جالس على بركة ماء، ولي ستة عشر يوما لم آكل ولم أشرب، فقال لي: ما جلوسك؟ فقلت: أنا بين العلم واليقين أنتظر ما يغلب فأكون معه، يعني: إن غلب علي العلم شربت، وإن غلب اليقين مررت» فقال: لي: سيكون لك شأن». وهذه الرواية تبين إيمان أبي تراب بأن الجوع يصفي الروح، وينقل الإنسان من مقام إلى مقام، وربما به يوهب الله حالا لعبده يتمنى أن يناله.

وسلم أبو تراب أمره إلى ربه، فاستغنى به عن العالمين. وفي هذا سأله رجل ذات يوم: ألك حاجة؟ فقال له أبو تراب: يوم يكون لي إليك وإلى أمثالك حاجة لا يكون لي إلى الله حاجة. وطالما ردد قول حاتم الأصم: للزاهد ثلاث شرائع: أولها الصبر بالمعرفة، والاستقامة على التوكل، والرضا بالقضاء. وكان يقول: «الذي منع الصادقين الشكوى إلى غير الله الخوف من الله» وكان يرى أن «حقيقة الغنى أن تستغني عمن هو مثلك، وحقيقة الفقر أن تفتقر إلى من هو مثلك». كما اعتبر أن الصوفي الحقيقي يكون «قوته ما وجده، ولباسه ما ستره، ومسكنه حيث نزل». وكان يقول، حسب رواية الحسن بن علوية: «ليس ينال الرضا مَنْ للدنيا في قلبه مقدار»، وهنا ترك الأمر مفتوحًا، ليضع كل فرد المقدار الذي يريد أو يتمنى من دنياه، فهناك من يحب المال، وهناك مَنْ يشتهي النساء، وهناك مَنْ يتلذذ بأطيب الطعام، وهناك مَنْ يود أن يلبس أفخر الثياب، ويقطن أفخم المنازل، وهناك مَنْ يعبد المنصب والجاه والشهرة. وكل هؤلاء عند أبي تراب لا يمكنهم أن ينالوا الرضا.

وكان زهده كذلك متواشجًا مع ورعه وتحسبه ومراقبته لله في كل كبيرة وصغيرة، حيث كان يقول: «بيني وبين الله عهد أن لا أمد يدي إلى حرام إلا قصرت يدي عنه». ويذكر القشيري في رسالته حكاية تعزز هذا، حيث نظر أبو تراب يومًا إلى صوفي من تلامذته قد مد يده إلى قشر البطيخ، وقد طوى ثلاثة أيام، فقال له أبو تراب: تمد يدك إلى قشر البطيخ؟ أنت لا يصلح لك التصوف، الزم السوق». وفي هذا ما يبين أن أبا تراب رأى أن اشتهاء أي شيء، حتى لو كان قليلا وتافها، يضر يقين المتصوف وثباته.

وسمعه إسماعيل بن نجيد يقول لأصحابه: «مَنْ لبس منكم مرقعة فقد سأل، ومَنْ قعد في خانقاه أو مسجد فقد سأل، ومَنْ قرأ القرآن من مصحف أو كيما يسمع الناس فقد سأل». وبهذا لا يقر أبو تراب أن يمد أهل الصوفية أياديهم للناس سائلين العون على الحياة، ومتكلين على غيرهم من العباد في تدبير ما يبقيهم على قيدها، متخذين لبس المرقع أو الجلوس في التكايا والزوايا والمساجد أو قراءة القرآن على قوارع الطرق وسيلة لجذب انتباه العابرين فيعطونهم.

ومن محاسبة أبي تراب لنفسه والتزامه الورع أنه كان يجدد توبته إلى الله إن وجد في أصحابه ما يكرهه، ويقول: بشؤمي دفعوا إلى ما دفعوا إليه؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الرعد: 11].

ونسبت إليه أفعال تنطوي على كرامات جلية، فها هو أبو العباس الرقي يقول: كنا مع أبي تُراب النخشبي في طريق مكة، فعدل عن الطريق إلى ناحية، فقال له بعض أصحابه: أنا عطشان. فضرب برجله فإذا عينٌ من ماء زُلال. فقال الفتى: أحب أن أشربه في قدح. فضرب بيده الأرض فناوله قدحًا من زجاج أبيض كأحسن ما رأيت، فشرب وسقاني، ومازال القدح معنا إلى مكة.

ثم يكمل الرقي: فقال لي أبو تراب: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يكرم الله بها عباده؟ فقلت: ما رأيت أحدًا إلا وهو مؤمن بها. فقال: إنما سألتك من طريق الحوال! فقلت: ما أعرف لهم قولًا فيه. فقال: بلى، قد زعم أصحابك أنها خِدع من الحق، وليس الأمر كذلك، لإنما الخدع في حال السكون

إليها، فأما من لم يقترف ذلك فتلك مرتبة الربانيين».

ويروي يوسف بن الحسين حكاية أخرى من كرامات هذا الولي الصالح، قائلا: «صحبت أبا تراب النخشبي خمس سنين، وحججت معه على غير طريق الجادّة، ورأيت منه في السفر عجائب يقصر لساني عن شرح جميعها، غير أنا كنا مارِّين، فنظر إليّ يومًا وأنا جائع وقد تورّمت رجلاي، وأنا أمشي بجهد، فقال لي: مالك، لعلك جعت. قلت: نعم، قال: ولعلك أسأت الظن بربك! قلت: نعم، قال: ارجع إلى ربِّك. قلت: وأين هو؟ قال: حيث خلّفته، فقلت: هو معي. فقال: إن كنت صادقًا فما هذا الهمُّ الذي أرى عليك؟ قال: فرأيت الورم قد سكن، والجوع قد ذهب، ونشطت حتى كِدتُ أسبقه. قال أبو تراب: اللهم إن عبدك قد أقرّ لك فأطعمه، ونحن بين جبال ليس فيها مخلوق، فانتهينا إلى رابية، فإذا كوز ماء ورغيفٌ موضوع، فقال لي أبو تراب: دونَك دونَك. فجلست وأكلت وقلت له: ليش ما تأكل أنت؟ قال: يأكل من اشتهاه».

وكان أبو تراب ممن تطوى لهم الأرض، وهنا قال أبو عبد الله الجلاء: قدم أبو تراب مرة إلى مكة فقلت له: يا أستاذ أين أكلت؟ قال: جئتَ بفضولك، أكلت أكلة بالبصرة، وأكلت بالنباج، وأكلة عندكم. ويورد البعض هذه الحكاية للبرهنة على احتفاء أبي تراب بالجوع كي تصفو نفسه، لكنها هنا تدل على أن الرجل قد قطع كل هذه المسافة في يوم تقريبا، تناول فيه ثلاث وجبات، مع أنها تستغرق أكثر من شهر.

ويحكي محمد بن يوسف البناء: سافرت سنة مع أبي تراب، وكان معه أربعون نفسا، ثم أصابتنا فاقة، فعدل أبو تراب عن الطريق، وجاء بعذق موز فتناولنا، وفينا شاب فلم يأكل. فقال له أبو تراب: كل. فقال: الحال الذي اعتقدته ترك المعلومات وصرت أنت معلومي، فلا أصحبك بعد هذا. فقال له أبو تراب: كن مع ما وقع لك. وقد أورد القشيري هذه الحكاية في رسالته لتقديم الدليل على بركات وكرامات النخشبي.

وكان أبو تراب عاقلا ذو ذهن صاف ونفس واثقة، يتمهل قبل أن يحكم على أي أمر ما إذا كان حقا أو باطلا، صوابا أو خاطئا، وقدم هنا مقولة تنطوي على حكمة سابغة ونهج علمي واضح؛ لأن من سمات التفكير العلمي أنه نسبي. وفي هذا المقام يوصي أبو تراب أحد مريديه: «احفظ مني خصالًا؛ أول خصلة: أن تحفظ الحق ولا يكون الحق حقًّا إلا بالإجماع؛ فإذا أجمع الناس وقالوا إن هذا الحق تعمل به، ولا يكون الباطل باطلًا إلا بالإجماع فإذا أجمعوا وقالوا إن هذا باطلًا تركت هذا الباطل خوفًا من الله تعالى، فإذا كنت لا تعلم هذا الشيء حق أو باطل فينبغي لك أن تقف حتى تعلم».

وسجل مؤرخو الصوفية في كتاباتهم أقوالا عديدة منسوبة إلى أبي تراب النخشبي، تنطوي رغم بساطتها على حكم سابغة وألوان مأثورة من الكلام، وذلك في تصنيفها شكلا، أما مضمونها فيبين أن صاحبها قد استبحر في التصوف إلى مدى بعيد. ومن هذه الأقوال:

- الناس يحبون ثلاثة وليست لهم: النفس والروح هما لله، والمال وهو للورثة. ويطلبون اثنين ولا يجدونهما: الفرح والراحة وهما في الجنة.

- إذا تواترت على أحدكم النعم فليبكِ على نفسه، فقد سلك به غير طريق الصالحين.

- لا أعلم شيئا أضر على المريدين من أسفارهم على متابعة قلوبهم ونفوسهم، وما فسد من فسد من المريدين إلا بالأسفار الباطلة.

- أشرف القلوب، قلب حي بنور الفهم عن الله.

- اصحب الناس كما تصحب النار، خذ منفعتها واحذر أن تحرقك.

- إذا رأيت الصوفي قد سافر بلا ركوة، فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة.

- إذا ألفت القلوب الإعراض عن الله عز وجل صحتها الوقيعة في الأولياء.

- ثلاثة من مناقب الإيمان: الاستعداد للموت، والرضى بالكفاف، والتفويض إلى الله. وثلاث من مناقب الكفر: طول الغفلة عن الله، والطيرة، والحسد.

- سُئل عن العارف، فقال: الذي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء.

- إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، فإذا أخلص فيه وجد حلاوته ولذته وقت مباشرة الفعل.

- لو أن رجلًا عاش مئتي سنة ولا يعرف هذه الأربعة أشياء، لم ينجُ من النار، أحدها معرفة الله، وثانيها معرفة نفسه، وثالثها معرفة أمر الله ونهيه، ورابعها معرفة عدو الله وعدو نفسه.

وأنشد أبو تراب ذات يوم:

لا تخدعن فللحبيب دلائلُ

ولديه من تحف الحبيب وسائلُ

منها تَنَعُّمُهُ بِمُرِّ بلائه

وسرورُه في كل ما هو فاعلُ

فالمنع منه عطية مقبولةٌ

والفقر إكرام وبرٌّ عاجلُ

ومن الدلائل أن ترى من عزمه

طوع الحبيب وإن ألح العاذل

ومن الدلائل أن يُرى متبسِّما

والقلب فيه من الحبيب بلابل

ومن الدلائل أن يُرَى متفهما

لكلام مَنْ يحظى لديه السائل

ومن الدلائل أن يُرَى متقشفا

متحفظا من كل ما هو قائل

وقد رأى أبو تراب موته قبل رحيله بأربعين يومًا، فها هو يقول: وقفت ستا وخمسين وقفة، فلما كان من قابل رأيت الناس بعرفات ما رأيت قط أكثر منهم ولا أكثر خشوعا وتضرعا ودعاء فأعجبني ذلك وقلت: اللهم من لم تتقبل حجته من هذا الخلق فاجعل ثواب حجتي له. فأفضنا وبتنا بجمع فرأيت في منامي هاتفا يهتف بي: تتسخى عليَّ وأنا أسخى الأسخياء؟ وعزتي وجلالي ما وقف أحد قط إلا غفرت له، فانتبهت فرحا بهذه الرؤيا، فرأيت يحيى بن معاذ فقصصت عليه الرؤيا، فقال: إن صدقت رؤياك فإنك تعيش أربعين يومًا. فلما كان يوم واحد وأربعين جاءوا إلى يحيى فقالوا: إن أبا تراب قد مات فقمنا فغدونا.

وبالفعل مات أبو تراب في طريق الحج إلى بيت الله الحرام. ويُقال إنه قد انقطعت به السبل في الصحراء فنهشته السباع في سنة خمس وأربعين ومئتين. وبذا كان موته غريبا مثله، وجاء في الفلاة التي طالما ساح فيها، وهام على وجهه، لا يرى أحدًا أمامه إلا ربه، ولا يشعر بأحد داخله إلاه

سبحانه. وذكر أبو السراج الطوسي في «اللمع» على لسان أبي عمران الاصطخري أنه قال: «رأيت أبا تراب النخشبي، رحمه الله تعالى، في البادية قائمًا ميتًا لا يمسكه شيء».

أبو حامد الغزالي

حجة المسلمين وفقيه المتصوفة

ما إن يُذكر اسم أبي حامد الغزالي حتى ترد إلى الأذهان موسوعته ذائعة الصيت «إحياء علوم الدين»، وعلى حاشيتها كتابه الجدلي «المنقذ من الضلال»، إضافة إلى كتابه «تهافت الفلاسفة»، الذي شكل مادة أثارت قريحة الفيلسوف الكبير ابن رشد، فأفرد حولها مؤلفًا مهمًّا بعنوان «تهافت التهافت»، لكن ذلك كله لا يحجب دفقة التصوف التي فاضت بها روح الفقيه والفيلسوف الكبير، الذي وصفه تابعوه ومحبوه ومنصفوه بأنه «حجة الإسلام»، وإن شئنا الدقة يمكن أن نقول عنه إنه «حجة المسلمين».

ولد أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي في عام 1057هـ، في منطقة غزالة في قرية طوس من أعمال خراسان في بلاد فارس، وقيل إنه استمد كنيته من مسقط رأسه، لكن قال البعض إنما سمي الغزالي لأن أسرته كانت تشتغل بالغزل. وفي مطلع حياته العلمية درس علم الكلام على يدي إمام الحرمين الجويني في نيسابور، وألمَّ بالفقه السني الأشعري، وأجاد ما فيه من أبواب إجادة ملموسة، تجلت في مساجلاته ومجادلاته، فذاع صيته حتى بلغ مسامع الوزير السلجوقي نظام الملك، فاستدعاه إلى بغداد، وكلَّفه بتدريس الفقه، وتجهيز الرد على الشيعة «الإسماعيلية».

ويقول أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل خطيب نيسابور عن الغزالي: «هو حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، مَنْ لم تَرَ العيون مثله، لسانًا، وبيانًا، ونطقًا، وخاطرًا، وذكاءً، وطبعًا. شدا طرفًا في صباه، بطوس، من الفقه، على الإمام أحمد الراذكاني. ثم قدم نيسابور مختلفًا إلى درس إمام الحرمين، في طائفة من الشبان من طوس. وجدَّ، واجتهد، حتى تخرج عن مدة قريبة، وبذَّ الأقران، وحمل القرآن، وصار أنظر أهل زمانه، وواحد أقرانه، في أيام إمام الحرمين. وكان الطلبة يستفيدون منه، ويدرس لهم، ويرشدهم، ويجتهد في نفسه. وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف وكان الإمام مع علو درجته، وسمو عبارته، وسرعة جريه في النطق والكلام، لا يصفى نظره إلى الغزالي سرًّا؛ لإنافته عليه في سرعة العبارة، وقوة الطبع، ولا يطيب له تصديه للتصانيف، وإن كان متخرجًا به، منتسبًا إليه، كما لا يخفى من طبع البشر، لكنه يظهر التبجح به، والاعتداد بمكانه، ظاهرًا خلاف ما يضمره».

انخرط الغزالي في حاشية نظام الملك، ولم يكن عمره آنذاك قد تجاوز الثامنة والعشرين، ليصبح أحد أدواته القوية في محاربة الحركة الإسماعيلية التي كان يتزعمها آنذاك الحسن الصباح، والمعروفة تاريخيًّا باسم «الحشاشين». وفي معرض رده عليهم كتب الغزالي بأمر من الخليفة العباسي المستظهر بالله كتابًا أسماه «فضائح الباطنية»، وأهداه إلى الخليفة نفسه.

خلال هذه الفترة كتب الغزالي «مقاصد الفلاسفة» الذي لخَّص فيه جوانب عدة من مباحث الفلسفة ومضاربها، من دون أن يوجه إليها انتقادًا ظاهرًا؛ لأنه رام دحض دعوة التعليم «العرفانية» أو «الغنوصية» التي تبناها الباطنيون، وراح يستدعي المنطق الأرسطي؛ ليجعل منه «أيديولوجية» الدولة السلجوقية. لكن الأشاعرة، الذين كانوا يعتقدون أن دراسة الفلسفة وعرضها تشكل خطرًا على العقيدة والشرع، عابوا عليه عدم نقده التفلسف، فدفعوه دفعًا إلى تأليف كتاب «تهافت الفلاسفة» الذي حوى انتقاده لهذا العلم ورجاله.

ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوي أن الغزالي لم يهجر الفلسفة تمامًا، إنما فارق فلسفة ليأتلف مع غيرها؛ إذ ترك فلسفة أرسطو وتلامذته ومَنْ راق لهم من فلاسفة المسلمين؛ ليذهب إلى فلسفة أفلاطون، والأفلاطونية المحدثة عمومًا، وظل على إخلاصه لها حتى وافته المنية. لكن الدكتور عبد المنعم الحفني يخالفه الرأي، ويقول إن ما حواه «إحياء علوم الدين» يدلّ على أن الغزالي قد هجر الفلسفة فعلًا، لا سيما أن هذا الكتاب الضخم والمتسع هو المعبر شبه النهائي عن رؤية الغزالي ومواقفه.

أما ابن سبعين، فينتقد الغزالي ومسلكه في الفلسفة والفقه والتصوف واصفًا إياه بأنه مطنطن، وأنه

ناعم مراوغ كالثعبان، لا تستطيع أن تقبض عليه، فهو فيلسوف مع الفلاسفة، ومتكلم مع المتكلمين، ثم هو صوفي مع المتصوفة. لكن الدكتور فيصل بدر عون يرى أن هذا الحكم الذي أراد صاحبه أن يذم الغزالي ويقدح في عطائه، هو مدح له، وأمر يحسب له وليس عليه؛ لأنه يدل على موسوعية الغزالي وإحاطته بعلوم متعددة، وهذا كان شأن كثيرين في الزمان الأول.

وأعطى الإمام أبو حامد الغزالي كلمة الإحياء معناها الديني، العقدي والفقهي، حين وضع مؤلفه ذائع الصيت «إحياء علوم الدين»، أحد أهم كتبه؛ لذا نسخ على ضخامته أكثر من 250 مرة قبل اختراع الطباعة، وتُرجم إلى لغات عدة، وقُدمت له شروحات كثيرة، ولخص 26 مرة أو أكثر.

يحتوي الكتاب على معارف كثيرة في العقيدة والفقه والتصوف والفلسفة، تصفها إصلاح عبد السلام الرفاعي في سياق عرضها للكتاب بقولها: «هو يتأسس على كلمة الإخلاص لله بالتوحيد، والإخلاص للدين بالرجوع إلى حظيرته، والعمل بجوهره، ويحاول فيه مؤلفه أن يصحح مسائل كثيرة تناولها سابقوه من الفقهاء وعلماء الدين، بحل ما عقدوه، وكشف ما أجملوه، وترتيب ما بددوه، ونظم ما فرقوه، وإيجاز ما طولوه، وضبط ما قرروه، وحذف ما كرروه، وإثبات ما حرروه، وتحقيق أمور غامضة استعصت على الأفهام».

وينقسم الكتاب إلى أربعة أقسام، الأول عن العبادات وتناول فيه الغزالي العلم وقضاياه، والعقيدة وقواعدها، والطهارة وأسرارها، وأركان الإسلام ومغزاها، وآداب تلاوة القرآن، والأذكار والدعوات، وأوراد الليل. والثاني عن العادات وشمل آداب الأكل والنكاح، والكسب والمعاش، والألفة والصحبة، والعزلة والسفر، والسماع والوجد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوجه الحلال والحرام والشبهات، وأخلاق النبوة. والثالث عن المهلكات، وتطرق فيه إلى أوضاع القلب، ورياضة النفس، وآفات اللسان، وكسر شهوتي البطن والفرج، وذم الغضب والحسد والحقد والبخل وحب المال والجاه والرياء والكبر والعجب والغرور والدنيا بأسرها. والرابع عن المنجيات وبيّن فيه حقيقة التوبة، وفضل الصبر والشكر، وطبيعة الخوف والرجاء، وأوضاع الفقر والزهد، وأحوال السائلين والسالكين، وقضية التوحيد والتوكل، والمحبة والشوق والأنس والرضا، والنية والإخلاص والصدق، والمراقبة والمحاسبة، والتفكر، وذكر ما بعد الموت.

وهذا الشمول الذي سيطر على كتاب الغزالي انتقل إلى كثيرين من بعده، فاستخدموا لفظ «الإحياء» مرارًا وتكرارًا كلما اعتقدوا أن الناس قد انصرفوا عن «الدين الصحيح»، وأن العقيدة قد خالطتها شوائب وجرحتها ألوان عدة من الشرك الخفي، واللهو الظاهر. وارتبط الإحياء هنا بمسألة العودة إلى الدين في صورته النقية التي كان عليها وقت نزول الوحي وتكليف محمد بالرسالة. وقدم علماء الإسلام وفقهائه المحدثين مثل هذا التصور، من أمثال محمد بن عبد الوهاب ورشيد رضا.

لكن بلوغ الغزالي مشارف الفلسفة، ثم توغله فيها، كان مرده أيضًا مرور الرجل بفترة من الشك العنيف، المصحوب بمخاوف من أن يكون إيمانه قائمًا على التقليد الأعمى، وليس إيمان المتبصر الواعي المدرك المقتنع، الذي لا توجهه تربية معينة توجيهًا مباشرًا، لا يكون فيه الإنسان ممتلكًا لحرية الاختيار.

كان أبو حامد مدرسة فقهية تسير على قدمين، ورجالًا في رجل. تجاذبته أمواج عصره المتلاطمة، وأفكاره المتضاربة، ورمت به إلى شاطئ التصوف، فراح يلتقط أنفاسه التي ألهثتها معارك الفقهاء، وجدال علماء الكلام، وفساد الملك، وتراخي أغلب الناس عن مقاومة الظلم. ففي التصوف وجد الغزالي ضالته المنشودة، حيث الخلاص الروحي والسكينة، التي طالما بحث عنها خلال أيامه المترعة بالرغبة في حيازة الحقيقة الجلية، أو على الأقل الاقتراب منها.

تركت السنوات التي أمضاها الغزالي في خدمة السلطة بنفسه مرارة وحسرة، حين أدرك أن العلم الذي حصَّله يستخدمه لتثبيت شرعية كراسي يجلس عليها ظالمون، وأن المعرفة التي وهبها الله له

مجرد سوط في يد الحكام يضربون به أعداءهم، الذين يصارعونهم على السلطة، أو يتمردون عليهم. فهذه النتيجة تركت الغزالي حائرًا حزينًا، فتملَّكه يقين بأن معرفته جاءت لتحرره من عبودية الأشياء، وتلقي به في خضم عبودية الواحد الديان، لكنه لم يكن قادرًا على فك ارتباطه بالسلطة في يسر وسهولة، فأمضى فترة عصيبة عاشها في صراع نفسي هزَّه من الأعماق، وهو يحاول أن يجيب عن تساؤلات راحت تمطر على رأسه كالسيل المنهمر: هل يترك بغداد أم يمكث فيها مدة أخرى؟ وهل حربه على الباطنية حق وصواب؟ وهل هذه الحرب كانت ابتغاء مرضاة الله أم لمصلحة صاحب السلطة؟

وراح يصطنع الحيل كي يخرج من هذه الورطة الحياتية فكان له ما أراد. وعاد إلى مسقط رأسه يبحث عن ذاته مجددًا. ومكث سنتين كاملتين متفرغًا للعبادة، لا يلهيه عنها أي عرض دنيوي. اختلى بنفسه وراح يحاسبها، ويفرط في الحساب، ويروض شهوة الاقتراب من السلطة، والانتفاع مما لديها، ويجاهد كل ما علق في نفسه من أيام نظام الملك، حتى قهر الرغبات العارضة والدفينة، وخلص من كل ما شابه وأتعبه، وصار قلبه أبيض كصفحة نهار أبلج، صافيًا كماء رقراق. وفي رحلة بحثه عن مزيد من التقوى والزهد والاقتراب من رحاب ذي الجلال والإكرام، ذهب الغزالي إلى بيت المقدس، ومنه إلى بيت الله الحرام.

ورغم أن الغزالي عاد بعد ذلك إلى بغداد، فإنه لم يرجع إلى بلاط الخليفة، بل ركن إلى رحاب رب الخليفة، ورب كل العالمين، فراح يعبده بكل ما أُوتي من طاقة، ويقنت إليه بكل ما يملك من قنوت وورع، حتى قال فيه الناس: «محمد عشق ربه». وفي هذه المرحلة ألَّف الغزالي كتابه الشهير «المنقذ من الضلال»، الذي وضع فيه كل ما ألفَّه وعرفه وأدركه من رحلته الروحية، المفعمة بتفاصيل كثيرة.

سأل الغزالي عن الطريق إلى الكشف والمعاينة، فكانت الإجابة أنه «علم وعمل»، فترك كل شيء وخرج هائمًا على وجهه في الصحارى والقفار، ذاهبًا تارة إلى الشام، وثانية إلى الحجاز، وثالثة إلى مصر. ذلك كله كان فرارًا بنفسه من الناس، وجريًا وراء الخلوة، كي يحقق ما يؤدي إلى «قطع علائق القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله، وهو ما لا يتحقق إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه».

وبعد أن عاش الغزالي هذه الحياة الروحية راح يقول عن التصوف: «أن تخلو بنفسك في زاوية، تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب وتجلس فارغ القلب، مجموع الهم، مقبلًا بذكرك على الله، ذلك في أول الأمر بأن تواظب باللسان على ذكر الله، فلا تزال تقول: الله، مع حضور القلب وإدراكه، إلى أن تنتهي إلى حالة لو تركت تحريك اللسان لرأيت كأن الكلمة جارية على لسانك لكثرة اعتياده، ثم يصير مواظبًا عليه، إلى أن لا يبقى في قلبك إلا معنى اللفظ، ولا يخطر ببالك حروف اللفظ وهيئات الكلمة، بل يبقى المعنى المجرد حاضرًا في قلبك على اللزوم والدوام، ولك اختيار إلى هذا الحد فحسب، ولا اختيار بعده لك، إلا في الاستدامة لدفع الوساوس الصارفة، ثم ينقطع اختيارك فلا يبقى لك إلا الانتظار لما يظهر من فتوح ظهر مثله للأولياء».

وفي رسالته التي وسمها بـ «منهاج العارفين»، يبين الغزالي أن مَنْ يعتزل الناس زاهدًا، لا بد له أن يتحلى بعشر خصال، إن فقد إحداها أضيرت خلوته، وهي: علم الحق والباطل، والزهد، واختيار الشدة، واغتنام الخلوة، والنظر في العواقب، وأن يرى غيره أفضل منه، ويعزل عن الناس شره، ولا يفتر عن العمل؛ فإن الفراغ بلاء، ولا يُعجب بما هو فيه، ويخلو بيته من الفضول، وهو ما فضل عن يومك لأهل الإرادة، وما فضل عن وقتك لأهل المعرفة، ويقطع ما يقطعه عن الله تعالى».

وكان الغزالي يرى أن القلب إذا طهر من أدران المعاصي، وصقل بالطاعات، أشرقت صفحته،

فانعكس عليها من اللوح المحفوظ ما شاء الله أن يكون، وهذا هو المعروف بالعلم اللدني أخذًا من قول الله تعالى في محكم آيات القرآن الكريم: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65]. ومن يصل إلى هذه الحال لا يهمه ولا يحزنه بحثًا عن رزق؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2، 3].

وقد طبّق الغزالي هذا المنهج على نفسه حتى صقل قلبه، كما يخبرنا قائلًا: «وانكشف لي أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به، أني علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خصوصًا، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلًا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يُستضاء به... وأنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتًا، ويقتبسون منهم فوائد».

لكن الغزالي لم يسقط أبدًا في شطحات المتصوفة، بل ظل طيلة حياته منحازًا إلى «الشريعة» وليس إلى «الحقيقة»، كما يراها أهل التصوف، وظل يهاجم مَنْ قالوا: إن الثانية فوق الأولى، والتصوف فوق التكاليف، وكان يقول دائمًا: «خلاصة العلم أن تعلم أن الطاعة والعبادة ما هي؟... واعلم أنهما متابعة الشارع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل، فالعلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة، وينبغي ألا تغتر بشطح الصوفية وكراماتهم؛ لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة، وقطع شهوة النفس، وقتل هواها بسيف الرياضة، لا بالطامات والترهات».

ويذهب الغزالي في «إحياء علوم الدين» إلى ما هو أبعد من ذلك، حين يقر بأن «مَنْ يقل بسقوط التكاليف فقتله أفضل في دين الله». ويبرر هذا بقوله: «إن هذا ضرره في الدين أعظم لأنه يفتح بابًا من الإباحة لا ينسد»، ثم يصف كلام أصحاب الشطحات بأنه ليس إلا تشويشًا للقلوب، وحيرة للعقول والأذهان.

والتصوف عند الغزالي يعتمد اعتمادًا كليًّا على القلب؛ إذ ذهب، رغم إيمانه بدور الحس والعقل في تحصيل المعرفة، إلى أن هناك معرفة لا تدرك إلا بالقلب؛ لأننا ندرك به معقولات لا نظير لها في عالم المحسوسات. ويرى الغزالي أن القلب محل العلم ويشبهه بمرآة تعكس الصور، فإن كانت نظيفة تجلت الصور كما هي، وإن كانت غير ذلك ظهرت الصور على صفحتها مشوهة، لا تعبر عن ذاتها تعبيرًا حقيقيًّا. وهنا يقول: «قلب الطيع الصالح ليس يتضح فيه جلية الحق؛ لأنه ليس يطلب الحق، وليس محاذيًا بمرآته شطر المطلوب، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية، أو بتهيئة أسباب المعيشة. ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية، والحقائق الخفية والإلهية، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال، وخفايا عيوب النفس، إن كان متفكرًا فيها، أو مصالح المعيشة إن كان متفكرًا فيها. وإذا كان تقييدًا لهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعًا عن انكشاف حقيقة جلية الحق، فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها، فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي».

ويطلب الغزالي من الشيخ أن يوضح لمريديه معالم الطريق، ويشرح لهم مشقته، ويبين لهم أن هذا الأمر ليس سهلًا، وأن الدرب إلى الله طويل، والسفر فيه صعب لا يقدر عليه إلا مَنْ ألقى الدنيا وراء ظهره، ونفذ من العالم الحسي المادي المباشر إلى فضاء اللامحسوس واللاملموس. ويرى أن المريد يجب أن يتحصَّن بأمور أربعة هي: الخلوة، والصمت، والجوع، والسهر؛ فالخلوة ضرورية لتصفية قلب المريد من شواغل الدنيا، والصمت ضروري لأنه يبعد ما يشغل القلب، ولأنه ينقح العقل، ويجلب الورع ويُعلِّم التقوى، والجوع يبيض القلب فيشرق بنور الله، ويقلل من دمه، ويزيل عنه الشحم الجاسم عليه، أما السهر فيساعد على تصفية القلب، ويخلع عنه الكسل، ويفتح للمرء بابًا وسيعًا لمناجاة الله خاليًا.

وترك الغزالي وراءه مؤلفات عديدة من أشهرها: إحياء علوم الدين، وبداية الهداية، والمنقذ من الضلال، ومقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة، ومعيار العلم (مقدمة تهافت الفلاسفة)، ومحك النظر، وميزان العمل، والاقتصاد في الاعتقاد، والمستصفى في علم أصول الفقه، والوسيط في المذهب، والوجيز في فقه الإمام الشافعي، وفضائح الباطنية، والقسطاس المستقيم، وفيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، والتبر المسبوك في نصيحة الملوك، وآداب النكاح وكسر الشهوتين، وأيها الولد المحب، وكيمياء السعادة (بالفارسية)، وشفاء العليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، والمنخول في علم الأصول.

لم يَعِشْ أبو حامد الغزالي سوى 54 عامًا، وتوفي عام 1111هـ، لكنه أنتج في عمره القصير آلاف الصفحات في مختلف ألوان المعرفة الإنسانية، وفرض على كل مَنْ أتى بعده أن يرجع إليه في أمور شتى.

الحــلاج

الصوفي الثائر الذي أهلكته شطحاته

نبت على أكف ما تركه البسطامي من آثار، فسار على خطاه وكان أبرز تلاميذه عن بعد، لكن السياسة أخذته أحيانًا من التصوّف، وتحولت شطحاته الفلسفية إلى تمرّد سياسي اختلف حوله المؤرخون. وعلى رغم الأقلام الكثيرة، التي أعملت فيه مدادها على مدار القرون الفائتة، فإنه لا يزال لغزًا إلى الآن، ولا يزال الناس مختلفين حوله، بين متعاطف يحيله إلى ثائر على الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي، وبين حانق يرى فيه مجدًّفا زنديقًا، شوشت عليه الفلسفات الغنوصية الشرقية، وتاهت أقدامه عن طريق الإسلام المستقيم الواضح كشمس ظهيرة صيف.

هو الحسين بن منصور بن محمي، الملقّب بالحلاج، ولد عام 244هـ، 858م، وكان جده محمّى مجوسيًّا من أهل فارس ثم اعتنق الإسلام. وقد نشأ الحسين بواسط ثم دخل بغداد وتردد إلى مكة واعتكف بالحرم فترة طويلة وأظهر للناس تجلدًا وصبرًا شديدين على مكاره النفس، مستفيدًا من الفلسفات الهندية التي تدعو إلى مقاومة الجوع والتعرّض للحر والبرد.

عاصر الحلاج تسعةً من الخلفاء، قُتل خمسة منهم ومات ثلاثة آخرون ميتة مشبوهة! وكان شاهدًا على تحلُّل الخلافة، بفعل الظلم المتفشّي والاستبداد المستشري، الذي قاد إلى احتجاجات وتمردات وثورات على رأسها ثورتا الزنج والقرامطة وفورة ابن المعتز، وأدى في الوقت ذاته إلى تفكك أوصال الخلافة، حتى لم يبقَ منها تحت أقدام بني العباس سوى العراق. وزاد الطين بلة استعانة المعتصم بالأتراك، الذين زادت سطوتهم، وعلت منزلتهم على العرب، وأذاقوا الرعية ظلمًا وتنكيلًا.

والحلاج من أكثر المتصوّفة إثارة للجدل، فكثيرون من علماء السنة اتفقوا على تكفيره ووصفوه بـ «الزنديق»، ومن بينهم من اكتفى بتفسيقه، ورميه بممارسة السحر والشعوذة، وفضح بعض شطحاته، المرتبطة بفكرة «الحلول والاتحاد». واتهمه مؤرخو السنة بأنه «منافق، متلون كالحرباء مع كل طائفة حتى يستميل قلوبهم». فقد كان الحلاج متقلبًا في أعين العوام، فكانوا يرونه تارة مرتديًا زي الفقراء والزهاد، وتارة بزي الأغنياء والوزراء، وتارة في لباس الأجناد والعمال.

وهو مع كل قوم على مذهبهم، إن كانوا أهل سنة أو رافضة أو معتزلة أو صوفية أو حتى فُسَّاق. ورأى قاضي بغداد آنذاك محمد بن داود قاضي أن آراء الحلاج تتعارض مع تعاليم الإسلام؛ لذا رفع أمره إلى القضاء طالبًا محاكمته أمام الناس والفقهاء. فهو حين سئل عن رأيه في الحلاج قال: «إن كان ما أنزل الله تعالى على نبيه عليه السلام حقًّا وما جاء به حقًّا، فما يقول الحلاج باطلًا». وكان شديدًا عليه، ثم حكم بكفره لتأويله آيات القرآن، في مسألة الحب الإلهي خصوصًا، وبمخالفته السنة النبوية.

وقد فتح ابن مجاهد كبير قراء القرآن في عصره قضية الحلاج مجددًا، بعد أن وقع في يده تفسير بخط يد الحلاج، وقد تضمن ذكر أرباب عدة وآلهة كثيرة، فسلّم ابن مجاهد هذا التفسير للوزير علي بن عيسى، ولم يتسامح مع تفسير الحلاج على رغم غضّه الطرف عن كثير من شطحات المتصوفة.

أما القاضي أبو عمر المالكي فقد كان مفتي الفتوى الخاصة بحكم الإعدام ومزكي الشهود الموقعين، فقد تشبث الوزير حامد بن العباس بزلة لسان القاضي، على رغم تشاغله عنه. واعتبر الشبلي أن استشهاد الحلاج وردة من الجمال المحرم وليس زاد خلود يبلغه مَنْ يشاء، وربما جسدت مواقف كل من ابن عطاء وابن سريج وابن عقيل فيما بعد، والذي ألَّف رسالة في نصرة الحلاج.

لكن ثمة من جاروا الحلاج، وسعوا إلى تأويل أقاويله، بما لا يجعله منحرفًا إلى حد كامل عن الشرع. وسعى هؤلاء إلى تبرئته، من خلال الادعاء بأن ما قيل على لسانه لا أساس له من الصحة وأنه كلام مدسوس عليه. أما أتباعه من المتصوفين وهم قلة فإنهم يقدسون أقواله ويؤكدون نسبتها إليه، ولكنهم يقولون إن لها معاني باطنة غير المعاني الظاهرية، لا يفهمها أحد سواهم، بينما جنح المستشرقون إلى تفسيرات أخرى وجعلوا منه بطلًا ثوريًّا شبيهًا بأساطير الغربيين.

وكان ابن عطاء الحنبلي في مقدمة الفقهاء الذين دافعوا عن الحلاج؛ إذ قيل إنه عُرض عليه بعض أقوال الحلاج فقال: «إنها اعتقاد صحيح، وأنا أعتقده، ومَنْ لا يعتقد مثل هذا فهو بلا اعتقاد»، وقد كلفه رأيه هذا حياته، حين ضرب وحمل إلى منزله وهو يُحتضر فمات بعد ذلك بسبعة أيام فقط، وقبل أيام من مقتل الحلاج. أما أبو العباس بن سريج الشافعي فقال حين سُئل عن الحلاج: «أراه حافظًا للقرآن عالمًا به ماهرًا في الفقه عالمًا بالحديث والأخبار والسنن صائمًا الدهر قائمًا الليل يعظ ويبكي ويتكلم بكلام لا أفهمه فلا أحكم بكفره». ويُقال أيضًا إنه سُئل عن فتوى قتل الحلاج فقال: «لعلهم نسوا قول الله تعالى: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ [غافر: 28]. ثم قضى في النهاية بجملة أثيرة تقول عن الحلاج: «هذا رجل خفي عني حاله، وما أقول فيه شيئًا».

ويرى ابن النديم أن الحلاج دعا في بداية أمره إلى الرضا من آل محمد ضد بني العباس، وبذلك يعد من دعاة الإسماعيلية، على خطى أبيه الذي كان أول من دعا إلى اعتناق هذا المذهب في الري وأذربيجان وطبرستان. أما ابن كثير فينعته بالرافضي، ويستند في ذلك إلى اعتماد كثير من الرافضة على آرائه ومواقفه. ويذهب المؤرخ الشهير ابن خلكان إلى ما هو أبعد من ذلك حين يجزم بأن الحلاج كان متصلًا بالقرامطة والعلويين المناهضين للدولة العباسية، وثمة مَنْ رأى أنه كان من شيعة آل البيت، وأنه قُتل لهذا السبب. ويؤيد هذا الرأي كل من أحمد أمين وزكي مبارك، ويستند أصحابه إلى ورقة كتبها الحلاج ذات يوم، ووضع فيها اسم علي في الصدارة وبخط بارز. وثمة مَنْ يرفض هذه الأقاويل كلها ولا يرى في الحلاج إلا داعية لنفسه، ورجلًا شاطحًا تصور أنه المهدي المنتظر، بل وصل به الأمر إلى ادعاء الربوبية ومراسلة أتباعه من لدى سدرة المنتهى. ويستدل على ذلك بقول الحلاج: «أنا رأس مذهب، وخلفي ألوف من الناس»، ثم شطحه بالقول: «إني مغرق قوم نوح، ومهلك عاد وثمود».

وتتعدد الروايات في الحلاج حسب موقف أصحابها منه. فثمة من يركز على حلوله، الذي يغني عن الصلاة والزكاة والصوم والحج. وهنا يُنسب إلى الحلاج قوله: «إن من صام ثلاثة أيام لا يفطر إلا في اليوم الرابع على ورقات هندباء أجزأه ذلك عن صيام رمضان... ومن صلى في ليلة ركعتين من أول الليل إلى آخره، أجزأه ذلك عن الصلاة بعد ذلك، وإن من جاور بمقابر الشهداء، وبمقابر قريش عشرة أيام يصلي ويدعو ويصوم ثم لا يفطر على شيء من خبز الشعير والملح الجريش أغناه ذلك عن العبادة بقية عمره». ويذهب خصومه إلى أن الحلاج ابتنى كعبة مصغرة في بيته، وطالب الناس بالحج إليها.

أما المدافعون عنه فقد سعوا إلى خلق الأعذار له، ودحض الروايات التي تقدح فيه، وتأويل ما يمكن أن ينصرف على الكفر أو الفسوق.

وثمة مَنْ يحاول أن يضع كل ما سبق في ميزان حكم دقيق، فيؤكد أن الرافضة هم الذين سعوا إلى قتله، ولو كان منهم ما أقدموا على هذا، وأن الحلاج لم يكن سوى ثائر سياسي وقطب صوفي، دعا الأمراء إلى الإصلاح فناصبوه العداء، وأطلقوا الشائعات حوله. وفي الأحوال كلها يبقى الحلاج أحد الألغاز الظاهرة في التاريخ الإسلامي برمته. ولهذا كان التصوف لدى الحلاج جهادًا في سبيل إحقاق الحق، وليس مسلكًا فرديًّا بين العبد وربه فحسب. وهنا ينظر البعض إلى الحلاج بوصفه رمزًا كبيرًا ساهم في تطوير النظرة العامة إلى التصوف، فجعله يفارق الجوانية ليصبح جهادًا ضد الظلم والطغيان الذي كان سائدًا في المجتمع العباسي.

بدأت مشكلة الحلاج بعد عودته من حجه الثاني إلى بغداد قرابة 291هـ؛ إذ لاحظ ابنه أحمد أن أباه تغير، كما لو أنه انقطع لرسم خطته ومنهجه اللذين سينشر بهما مذهبه، وبدأ في نظم كلام غريب من قبيل:

صمـديّ الـروح ديّان هيكليّ الجسم نوري عليـم الصميم

فبقي الهيكل في الترب رميم عاد بالروح إلى أربابها

لم ترقْ هذه الأقوال لا للمتصوفة ولا للفقهاء، وألَّبت عليه الحكام الذين لفت انتباههم أن الحلاج طامح إلى الزعامة السياسية، لا سيما بعد أن أقام الحلاج جسورًا متينة مع عدد من الأمراء والأعيان في معظم البلدان التي زارها، ففي حجه الأول التقى بأمراء من الخراسانيين والأتراك، ونجح في أن يؤثر في أمراء من قوهستان وما حولها. كذلك التقى الأمير أخ صعلوك والي الري، وأقنعه بما يقول، وراح يؤلف الكتب لعدد من الأعيان.

وخلال هذه الفترة قطع الحلاج صلته مع أقرب الناس إليه وهو أستاذه الجنيد. فقد سأل الحلاج الجنيد: ما الذي باين الخليقة عن رسوم الطبيعة؟! فإذا بالجنيد ينهره في حدة: في كلامك فضول. أية خشية تفسدها؟! فاسودت الدنيا في عيني الحلاج، واختلى بنفسه بين القبور، ليترسخ في داخله يقين بأن: «منزلة الرجال تعطى ولا تتعاطى». ودخل الحلاج في جدل عنيف مع ذاته انتهى بخلعه خرقة الصوفية، وابتعاده عنهم، الذي ترجمه ذات يوم باعتراضه على الجنيد. فما إن وقف على المنبر يخطب في الناس، حتى قال له الحلاج: يا أبا القاسم، إن الله لا يرضى عن العالم بالعلم حتى يجده في العمل، فإن كنت في العلم فالزم مكانك وإلا فانزل. فنزل الجنيد ولم يتكلم على الناس شهرًا.

وإثر إصراره على مواصلة طريقه، ذاع صيته، حتى رأى فيه بعض الوجهاء قائدًا ملهمًا، لا سيما في بلاد ما وراء النهرين، الذي كان دائم السفر إليها. وطاف أيضا في الكثير من البلدان ودخل المدن الكبيرة وانتقل من مكان لآخر داعيا إلى الله على طريقته في الحلول والاتحاد، فكان له أتباع في الهند، وخراسان، وسركسان، وبغداد، والبصرة.

وكان أهل الهند يخاطبونه بـ «الغوث» وكاتبه أهل سركسان بـ «المقيت»، وكاتبه أهل خراسان بـ «المميز»، وأهل فارس بأبي عبد الله «الزاهد»، وبعض أهل بغداد وصفوه بـ «المصطلم».

وهذه الأوصاف والنعوت جعلت للحلاج هيبة حتى في قلوب أهل السلطة، فها هو يصرخ ذات يوم في الوزير علي بن عيسى: «قف حيث انتهيت ولا تزد عليه شيئًا، وإلا قلبت عليك الأرض»، فما كان من الوزير إلا أن تهيب مناظرته واستعفى منه.

راح الحلاج يختلط بالعوام، وكانت مواعظه في الأهواز بالغة الأثر في حياة الناس، والتي امتدت ما بين: 272 - 273هـ و279 - 281هـ. اتصل الحلاج بالدنيويين مثلما اتصل بالكتبة وعمال المال وكبار الموظفين. وأبدى بعض هؤلاء تعاطفًا معه إلى أبعد مدى. فعقب أقواله الثورية التي كان يطرحها على الناس في المساجد أو في الأسواق كانوا يبكون لحاله.

وخلال هذه الفترة تناقل الناس ما كان يصدر عن الحلاج من كلام غريب على أسماع العوام، مثل ذلك الذي يرويه عنه الشيخ إبراهيم بن عمران النيلي، حيث قال: «سمعت الحلاج يقول: النقطة أصل كل خط، والخط كله نقط مجتمعة. فلا غنى للخط عن النقطة، ولا للنقطة عن الخط. وكل خط مستقيم أو منحرف فهو متحرك عن النقطة بعينها، وكل ما يقع عليه بصر أحد فهو نقطة بين نقطتين. وهذا دليل على تجلّي الحق من كل ما يشاهد وترائيه عن كل ما يعاين. ومن هذا قلت: ما رأيت شيئًا إلاّ ورأيت الله فيه».

وكان يناجي ربه ويقول: «وأنا بما وجدت من روائح نسيم حبك، وعواطر قربك أستحقر الراسيات وأستخف بالأرضين والسماوات».

وكان يقول أيضًا: «يا إله الآلهة، ويا رب الأرباب... رد إليَّ نفسي لئلا يفتتن بي عبادك». ولم يكتفِ الحلاج بمناجاته وإنما أخذ يصيح في الأسواق: «يا أهل الإسلام أغيثوني، فليس يتركني ونفسي فآنس بها، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها، وهذا دلال لا أطيقه». وقد أصرّ الحلاج حتى آخر حياته على أن أستاذيه إبليس وفرعون، ثم ادَّعى النبوة. فقبِض عليه فأنكر ما نُسب إليه، وناظره الفقهاء في لقاء فلسفي مشهود، انتهوا إلى أنه رجل شاطح، فأُمر بسجنه، وبقي في السجن مقيدًا أول الأمر، لكن خُفِّف عليه العقاب، فبنوا له بيتًا صغيرًا في السجن، ما أتاح له مواصلة التأليف، ورؤية أصدقائه. ويُقال إنه نجح في تطبيب الخليفة من علة أصابته، وعليها نُقل إلى دار السلطان ليقيم فيها.

لكن الحلاج لم يرتدع، بل قيل إنه ادَّعى الربوبية، وأضلّ خلقًا كثيرًا من غلمان بيت الخليفة والوزراء ومن الخدم والحشم، بل أضل نصر القشوري حاجب الخليفة نفسه، وظهرت طائفة بالعراق تقول عن الحلاج إنه إله وإنه يحيي الموتى، وإن الجن مسخرون له، ومؤتمرون بأمره. وترددت في هذه الآونة شائعات تقول إن ثلاثة أفراد من متآمري القرامطة أقسموا على تدمير الإسلام وهم: «أبو سعيد الجنابي (ت 301) وله الأحساء، والحلاج وله بغداد، وابن المقفع وله بلاد الترك». وما زاد الطين بلّة أن سطوة الحلاج راجت في وقت قامت للشيعة دولة كبرى، وهي الدولة الفاطمية، وقد قيل إن الحلاج أرسل رسالة إلى أحد مريديه يعبر فيها عن ابتهاجه بظهور ما أسماها «الدولة الغراء الفاطمية الزهراء المحفوفة بأهل الأرض والسماء... ليكشف الحق قناعه ويبسط العدل باعه».

ولهذا قُبض على عدد من أتباعه، فاعترفوا عليه بأنه يدعي الربوبية والألوهية، فلما واجهوه بالشهود أنكر بشدة وتبرأ منه وجعل لا يزيد على الشهادتين والتوحيد، «فكبسوا داره فوجدوا فيها رسائل وكتبًا مكتوبة بماء الذهب على ورق الحرير فيها ضلالاته وكفرياته، ثم أقرت عليه زوجة ابنه سليمان بأنه قد أمرها بالسجود إليه وقال لها لما اعترضت: نعم إله في السماء وإله في الأرض». وعُقد له مجلس مع الفقهاء والعلماء فأفتوا بكفره وضلاله ووجوب قتله، فأصدر الخليفة المقتدر بالله أمرًا بضربه ألف سوط ثم قطع يديه ورجليه ثم صلبه على جسر بغداد.

ولما عقدت المحكمة أُستبعد القضاة الشافعية والحنابلة لأنهم كانوا خصوم الدولة ومشككين في شرعية المحكمة، كان رئيس المحكمة مالكي، والمالكية لا تقبل توبة الزنديق. وظل الحلاج متماسكًا طوال المحاكمة التي كانت في مصلحته أول الأمر، إلى أن نوقش في مسألة الحج، التي أفتى فيها بجواز أن يطوف المرء، حال عدم استطاعته الحج إلى الكعبة، ببيته سبع مرات، فإذا فعل ذلك سقط عنه الحج! وتساءل القاضي عن أسانيد الحلاج في هذا القول، فرد عليه بأنه وجد حكمها في كتاب «الإخلاص» للحسن البصري.

وردَّ عليه القاضي بأنه قرأ هذا الكتاب ولم يجد فيه مثل هذا الرأي. واحتجَّ الحلاج وراح يصرخ: «ظهري حمى وجسمي حرام، وما يحل لكم أن تتأولوا عليَّ بما يبيحه اعتقادي الإسلام ومذهبي السنة ولي كتب في الوراقين، فالله الله في دمي». وحاول الحلاج تحدي قضاته بالدعوى إلى تحكيم الله في المخطئ والمذنب من الطرفين، لكن السيف كان قد سبق العذل.

وكان التصديق على حكم إعدامه يتضمن الشكل الذي نُفذ به، حيث أُستعمل فيه السوط الذي يكون في الحدود كلها وفي التعزير، والسيف الذي لا يقع إلا بين كتفي زنديق، والصليب الذي يكون في العادة لقطاع الطرق والمحاربين، والنار التي نهى عنها لأنها مثله، ثم نصب الرأس والأعضاء الذي لا يكون إلا للخارج، مع تنفيذ ذلك كله علنًا أمام الناس.

ويقول المستشرق الألماني الشهير كارل بروكلمان إن محاكمة الحلاج استمرت سبعة أشهر، ظل الحلاج يناظر فيها من دون أن يظفروا منه بشيء، وأغرب ما في الأمر أن التهم التي وجِّهت إلى الحلاج من ممارسة السحر مرورًا بدعوى عبادة تلامذته له، انتهاءً بكلماته المستغربة، لم تجعل القضاة يحكمون بموته، وإنما تمسكوا بقضية تعد فرعية إلى جانب الاتهامات السابقة وأطلقوا حكمهم

عليها، وتتمثل في صرخة الحلاج في الوزير حامد المتحمس لمحاكمته وقتله: «يا حلّال الدم».

وهنا يقول الدكتور محمد حلمي عبد الوهاب في كتابه «ولاة وأولياء» إن الحلاج قُتل لأسباب سياسية ذات لبوس دينية لتوفير غطاء الشرعية على الحكم، ولن يكون الحلاج آخر شهيد للتصوف في الإسلام، فعلى غراره أُستشهد النسيمي الذي وضع له حساده آية الصمد في نعل حذائه، ولم يدافع عن نفسه، «وصار ينشئ موشحات في التوحيد وهم يسلخونه حتى عمل خمسمئة بيت، وكان ينظر إلى الذي يسلخه وهو يبتسم». ثم يضيف: «لم يكن استشهاد الحلاج موتًا اعتياديًّا، بل كان أشبه بعملية تصفية دموية، نالت منه عضوًا عضوًا، فالجسد منصوب فوق الجذع، مبعثر تعمه فوضى انفجار المعذب المكلوم إلى أشلاء تصاعد في الهواء ثم تطرح أرضًا، هدفًا لكل التهكمات، مبتور الرأس، مقطع الأطراف، محترقًا، وفيما يساق إلى النهاية، يرقص في قيده فرحًا ومبتهجًا، ينشد قائلًا: «نديمي غير منسوب إلى شيء من الحيف»، فلما قطعت يداه راح ينشد: «إلهي إنك تتودد إلى من يؤذيك، فكيف بمن يؤذى فيك؟».

وبعد قتل الحلاج مُنع الوراقون من استنساخ كتبه، ومُنع الناس من ذكره أو الترحم عليه، ولذا فإننا إن تابعنا المؤلفات الصوفية من بعده، نجد القشيري لم يترجم للحلاج في رسالته، وعلى الرغم من استشهاده بأقواله في أكثر من خمسين موضعًا، إلا أنه كان يكتفي في الغالب بقوله: «وقال بعضهم»، وفي حالات تعد على الأصابع ذكر الحلاج باسمه دون لقبه، أما الطوسي ففي كل مرة يتعرض فيها للحلاج يُشفع اسمه بالترحم عليه. ومع هذا بقيت للحلاج كتب شاهدة عليه وعلى أفكاره، ومنها: «الساسة والخلفاء والأمراء» و«السياسة والخلفاء» و«الدرة» و«كيد الشيطان وأمر السلطان» و«الطواسين».

أبو سعيد الخراز

لسان التصوف الذي حاور إبليس

حين تروعنا تلك الهوة الواسعة في حياتنا المعاصرة بين ما يُقال وما يُفعل، وما يُخبر به الناس وما هو مُضمر، أو ما بين السر والعلن، لا نجد أمامنا أحدًا أولى من أبي سعيد الخراز لنستدعي أقواله وأحواله، وكلامه وتصرفاته؛ لنعرف من كل هذا كيف يتطابق السر والعلن، والباطن والظاهر؟ وكيف يعلو الصدق وينخفض الكذب إلى أسفل سافلين؟ إن الخراز يقدم مثالا ناصعًا على هذا، وقد يكون بيننا اليوم مَنْ هم على طريقه، أو حتى أفضل منه، لكنهم مطمورون مقموعون متوارون خلف ركام من الزيف والخداع والبهتان.

وربما يكون ما كابده الخراز من تنطع الذين يتشككون في المتصوفة، أو يرمونهم بالخروج عن طريق «أهل السنة والجماعة» قد أعطى مساره وسيرته مذاقا، وجعله يترك خلفه علامة على أنه عاش يومًا على هذه الأرض، وواجه المختلفين معه بصبر وترفُّع وشجاعة.

هو أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز، ولد ببغداد مع مطلع القرن الثالث الهجري على الأرجح، لكنه لم يلبث أن تركها، وساح في أقطار عديدة، حتى وصل إلى بخاري بخراسان، ثم عاد لينتهي به المطاف في مدينة الفسطاط التي أنشأها عمرو بن العاص لتكون عاصمة مصر.

وكانت الهجرة الأولى نابعة من رغبة الخراز وحبه للأسفار من ناحية، ونظرا لاضطهاد أتباع ابن حنبل من «أهل الحديث» له من ناحية أخرى، وذلك في ركاب تضييقهم الشديد على المتصوفة، رغم أن الخراز قد أسند الحديث، فحدث عن إبراهيم بن بشار الخراساني صاحب إبراهيم ابن أدهم، ومحمد بن منصور الطوسي، وروى عنه أبو الحسن علي ابن محمد المصري الواعظ، وأبو جعفر الصيدلاني، وعلي بن حفص الرازي، وأبو محمد الجريري، وأبو بكر أحمد بن الحسن الدقاق.

وتربَّى الخراز على أيدي متصوفة كبار، على رأسهم: معروف الكرخي، وذو النون المصري، وبشر الحافي، وسري السقطي، والنباجي، وأبو عبيد البسري، وغيرهم، وكان من أوائل الذين خاضوا في مسألة الفناء والبقاء في عصره، وألَّف العديد من الكتب مثل: «كتاب الصدق»، و«كتاب الضياء»، و«كتاب الكشف والبيان»، إلى جانب بعض الرسائل التي قصد بها تعليم تلاميذه ومريديه.

وقد شهد للخراز كبار المتصوفة، فها هو الجنيد يقول: لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد لهلكنا. فقيل لإبراهيم بن شيبان: ما كان حاله؟ قال: أقام سنين ما فاته الحق أبدًا بين الخرزتين. أما المرتعش فقال : الخلق كلهم عيال على أبي سعيد الخراز إذا تكلم هو في شيء من الحقائق. ووصفه أبو عبد الرحمن السلمي بأنه «من أئمة القوم وجلة مشايخهم.. وهو إمام القوم في كل فن من علومهم، له في مبادئ أمره عجائب وكرامات مشهورة ظهرت بركته عليه وعلى من صحبه وهو أحسن القوم كلامًا خلا الجنيد فإنه الإمام»، وقال عنه ابن الطرسوسي: أبو سعيد الخراز قمر الصوفية.

وحملت كتابات الخراز وأقواله محاولة جلية للتوفيق بين «الشريعة» و«الحقيقة» أو «بين الظاهر» و«الباطن»، ورأى أن: «كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل»، ونادى بالجمع بين قيمتين عظيمتين هما «الصدق» و«الإخلاص» وسعى إلى ضرورة أن يصل المريد عبر المجاهدة الطويلة إلى مرحلة «عين الجمع» التي تعني سقوط كل الشهود ما عدا الله سبحانه وتعالى.

وهذه المجاهدة قادت الخراز إلى أن يحاور إبليس، ليس في عالم الشهادة، ولا في عالم الغيب، إنما في وسط بينهما، حيث رؤى الليل وأحلامه العامرِة بالنبوءات والخيال، وهنا يروي قائلا: «رأيت إبليس في النوم، وهو يمر عني ناحية، فقلت له: تعالَ، ما لك؟

فقال: إيش أعمل بكم، وأنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس!

فقلت له: وما هو؟

قال: الدنيا.

فلما ولي عني، التفت إليَّ، وقال: غير أن لي فيكم لطيفة.

فقلت له: وما هي؟

قال: صحبة الأحداث».

وقال: « ورأيته مرة أخرى، وكان بين يدي عصا، فرفعتها حتى أضربه بها، فقال لي قائل: هذا لا يفزع من العصا!

فقلت له: من أي شيء يفزع؟

قال: من نورٍ يكون في القلب.

وهناك حكاية أخرى يقول البعض إنها وقعت بين الخراز وواحد من الجان، يقول هو فيها: «بقيت إحدى عشرة سنة أتردد من مكة إلى المدينة، ومن المدينة إلى مكة، لا أرى مكة وأرى رب مكة، فما صح لي منه نفس. فلما كان بعد ذلك تراءى لي بعض الجن وقال لي: يا أبا سعيد! قد - والله - رحمتك، من كثرة ترددك! وقد حضرني شعر، فاستمع:

أتيه، فلا أدري من التيه مَنْ أنا

سوى ما يقول الناس فيَّ وفي جنسي

أتيه على جن البلاد وإنسها

فإن لم أجد خلقًا أتيه على نفسي

قال أبو سعيد؛ فقلت له: «اسمع - يا مَنْ لا يُحسن القول - إن كنت تسمع:

أيا مَنْ يرى الأسباب أعلى وجوده

ويفرح بالتيه الدني وبالأُنسِ

فلو كنت من أهل الوجود حقيقة

لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي

وكنت بلا حال مع الله واقفًا

تصان عن التذاكر للجن والإنسِ»

لكن المجاهدة لا تقف عند الخراز على تجنب مزالق الشيطان، والابتعاد عن طريقه، وتحدي قدرته على الغواية، ومهارته في اصطياد ضحاياه، إنما تقوم في المقام الأول على محبة الآخرين وإيثارهم على النفس والتصالح معهم أيا كانت الأسباب التي تؤدي إلى الشقاق. وهنا يقول: «صحبت الصوفية ما صحبت، فما وقع بيني وبينهم خلاف. قالوا: لِمَ؟ قال: لأني كنت معهم على نفسي».

وإلى جانب المجاهدة كان الخراز يتوكل على الله حق توكله، منطلقا من أن علامة المتوكل ثلاث: «لا يسأل.. ولا يرد.. ولا يحبس». وهناك حكاية منسوبة إليه تدل على هذا. فها هو يقول: «دخلت البادية مرة بغير زاد، فأصابتني فاقة، فرأيت المرحلة (القرية) من بعيد، فسررت بأني وصلت. ثم فكرت في نفسي: أني سكنت واتكلت على غيره، فآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها.. فحفرت لنفسي في الرمل حفرة، وداريت جسدي فيها إلى صدري، فسمعوا صوتا في نصف الليل عاليا، يقول: يا أهل المرحلة: إن لله تعالى وليًّا، حبس نفسه في هذا الرمل، فالحقوه. فجاءني جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية».

وهناك واقعة أخرى منسوبة روايتها إلى الخراز تصب في الاتجاه ذاته؛ إذ يقول: « كنت بالبادية، فنالني جوع شديد، فغلبتني نفسي أن أسأل الله صبرًا، فلما هممت بذلك سمعت هاتفًا يقول:

ويزعم أنه مِنَّا قريب

وأنَّا لا نُضيع مَنْ أتانا

ويسألنا الفتى جهدًا وصبرًا

كأنَّا لا نراه ولا يرانا

فلما سمعت هذا، أخذني الاستقلال من ساعتي، فقمت ومشيت».

وللخراز في مقام الرضا أقوال عميقة، حين نقرأها نقف على أبواب الامتثال لأحكام الله وأقداره، والرضا بما قسمه، ففي هذا منبع الهناء ومبلغ السعادة، شرط أن يكون الإنسان قد أخذ بالأسباب على قدر الاستطاعة، ولم يهمل أو يفرط. وهنا كتب الخراز: «قلت: متى يألف العبد أحكام مولاه، ويسكن في تدبيره واختياره؟ قال: الناس في هذا على مقامين، فافهم. فمن كان منهم إنما يألف أحكام مولاه؛ ليقوم بأمره الذي يوصله إلى ثوابه، فذلك حسن وفيه خير كبير، إلا أن صاحبه يقوم ويقع، ويصبر مرة ويجزع أخرى، ويرضى ويسخط، ويعبر ويراجع الأمر، فذاك يؤديه إلى ثواب الله ورحمته، إلا أنه معني في شدة ومكابدة. وإنما يألف العبد أحكام مولاه، ويستعذب بلواه، ويسكن في حسن تدبيره واختياره بالكلية بلا تلكؤ من نفسه: إذا كان العبد: آلفا لمولاه ولذكره، وهو له محبٌّ وادٌّ، وبه راض، وعنه راض. فهل يكون، أيها السائل، على المحب مؤونة فيما حكم عليه محبوبه؟ كيف؟ وإنما يتلقى ذلك بالسرور والنعيم! هكذا قال في الخبر: حتى يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة».

ويدعونا الخراز إلى ألا نسخر من أحد، أو نقدر الناس بهيئتهم أو مظهرهم الخارجي، وهنا يقول: «دخلت المسجد الحرام، فرأيت فقيرًا عليه خرقتان يسأل شيئًا، فقلت في نفسي: مثل هذا كَلّ على الناس! فنظر إليَّ وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: 235]؛ قال: فاستغفرت في سري، فناداني فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: 25].

إن هذه القصة تذكرنا بتلك التي جرت بين الرسول الكريم والرجل الفقير الأعمى عبد الله بن أم مكتوم، حين تشاغل عنه النبي بالحديث إلى أكابر مكة، فعاتبه الله من فوق سبع سموات في سورة كاملة هي «عبس»، حيث يقول رب العزة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: 16 - 1].

ويحدد الخراز علامة الواصلين، أو الدلائل التي تقودنا إلى معرفة أهل الصلاح، وأصحاب المقامات الروحية الرفيعة، فيقول: أما علمت أيها المريد أن الورع، والزهد، والصبر، والتوكل، والخوف، والرجاء، والمراقبة، والحياء، والمحبة، والشوق، والأنس، والصدق في المواطن، والإخلاص فيها، وكل خلق حسن جميل: إنما هي منازل نزلها العمال لله عز وجل، ثم ارتحلوا منها إلى غيرها، حتى وصلوا إلى المنى من قرب سيدهم. فما أنت وذكر المنزل الذي نزلته حتى أوصلك إلى بغيتك، إن كنت واصلا ظافرًا ببعض حظك من مطلوبك؟ فأنت كأنك مشاهده».

وللخراز أقوال عميقة تنطق بفيوضات روحانية رائقة، وتنطوي على حِكَمٍ سابغة، تترك في النفس راحة، وفي العقل يقظة، وفي الفؤاد امتنانًا. ومن هذه الأقوال:

- إذا صدق المريد في بدايته أيده الله بالتوفيق وجعل له واعظًا من نفسه.

- مَنْ ظنَّ أنه يصل بغير بذل المجهود فهو متمني، ومَنْ ظنَّ أنه يصل ببذل المجهود فهو متعني.

- ليس من طبع المؤمن قول: لا. وذلك أنه إذا نظر ما بينه وبين ربه من أحكام الكرم استحى أن يقول: لا.

- واعجبًا ممن لم يَرَ محسنًا غير الله، كيف لا يميل بكليته إليه؟

- علامة سكون القلب إلى الله تعالى أن يكون بما في يد الله تعالى أوثق منه بما في يده.

- اجتنبوا دناءة الأخلاق كما تجتنبون الحرام.

- مثل النفس مثل ماء واقف، طاهر، صافٍ، فإنْ حرَّكته ظهر ما تحته من الحمأة، وكذا النفس، تظهر عند المحن، والفاقة، والمخالفة. ومَنْ لم يعرف ما في نفسه كيف يعرف ربه؟

- إذا تمكن قرب الله سبحانه وتعالى من قلب العبد، غلب على ما سواه من باطن عوارض الهمم، وظاهر حركات الجوارح.

ويوصي الخراز تلاميذه قائلا: «افهم أيها المريد ما ألقيت إليك وتدبره تجده بينًا معروفًا، إن شاء الله تعالى، فأحضر الآن عقلك، واجمع همك، ولا تسمع العلم وأنت عازب الفهم عن الذي يلقى إليك، فلا عذر لك الآن بعد العلم والبيان، بل قد تأكدت عليك الحجة، فاعمل في التخلص إلى الله عز وجل، لعلك تتخلص فتقر عينك بمعرفته في هذه الدار عاجلا قبل الآجل. نعم، ثم يدوم حزنك، ويشتد كربك، وتزداد كل حال كنت تجدها أضعاف ما كنت تجدها قبل المعرفة والوصول».

ويرتب الخراز الدرجات التي يصعدها المريد حتى يصبح من الواصلين حين يقول: «أوائل الأمر التوبة، ثم ينتقل إلى مقام الخوف، ثم إلى مقام الرجاء، ثم منه إلى مقام الصالحين، ثم إلى مقام المريدين، ثم إلى مقام المطيعين، ثم منه إلى المحبين، ثم ينتقل إلى مقام المشتاقين، ثم منه إلى مقام الأولياء، ثم منه إلى مقام المقربين، فعندها يكون العبد ذاهبا وجائيا، وآخذا ومعطيا، والغالب عليه هم ما قد ملك ضميره من محبة الله عز وجل وقربه».

وقد عاش الخراز قسطا من حياته بمدينة الفسطاط، وكان من أصحابه في هذه المرحلة أبو سعيد أبو الحسن بن بنان، وهو من كبار مشايخ مصر. لكن حياة الخراز فيها لم تنجُ من المنغصات كما يخبرنا السلمي قائلا: «أنكر أهل مصر على أبي سعيد، وكفروه بألفاظ. فإنه قال في كتاب السر: فإذا قيل لأحدهم : ما تقول؟ قال : الله. وإذا تكلم قال : الله، وإذا نظر قال : الله، فلو تكلمت جوارحه، قالت : الله، وأعضاؤه مملوءة من الله. فأنكروا عليه هذه الألفاظ، وأخرجوه من مصر، ثم رُدَّ بعدُ عزيزًا».

وتوفي الخراز سنة 286هـ، 899م وقال رويم بن أحمد: حضرت وفاته فوجدته يردد عند آخر نفس:

حنين قلوب العارفين إلى الذكر

وتذكارهم وقت المناجاة للسرِ

أُديرت كئوس المنايا عليهم

فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي السكرِ

فأجسامهم في الأرض تحيا بحبه

وأرواحهم بالحجب تحت العلا تسري

فما عرسوا إلا بقرب مليكهم

ولا عرجوا عن مسِّ بؤس ولا ضر

وتوحي بعض المصادر أنه قد دفن بالفساط، حين تقول إنه قد قضى أواخر حياته فيها، لكن هناك

مصادر أخرى تقول إن مرقده شرقي نهر دجلة على ربوة عالية بالقرب من مدينة الموصل شمالي العراق. ويذكر ياسين الخطيب في «منية الأدباء» أن قبره كان مزارًا للناس الساعين إلى التبرك بالأولياء. وهنا يوضح لنا محمد أمين الخطيب في «منهل الأولياء» أن العوام يطلقون عليه اسم: «سيدي سعيد الخرازي»، وهناك مَنْ يقول إنه قرأ التاريخ المكتوب على القبر، فكان تاريخ موت الخراز، أما الاسم المحفور فيقول: «هذا قبر أحمد بن عيسى الخراز نسيب عمر بن الخطاب».

أبو سليمان الداراني

ريحان القلوب وبندار الجائعين

عاشق الليل، الزاهد القانت، قارئ القرآن ومتدبره، وراوي الحديث ناقلًا ومنقولًا عنه، الذي ذابت في نفسه وعقله الشريعة والحقيقة، فداوم على العبادة، دون أن يختزلها في حركات وكلمات، إنما غاص في معانيها ومراميها، متجاوزا القشور إلى اللباب، وآخذا نفسه إلى الجوع والصمت حتى تصفو روحه ويستيقظ وجدانه فترى البصيرة، وتسمع السريرة، ويظهر ما خفي، ويتجلى ما انطمس، ويحضر ما غاب.

هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، مسقط رأسه هي قرية داريا أو «داران» بالقرب من دمشق، حيث ولد سنة 140هـ. وهو ممن لم يجدوا أبدًا تجافيا بين «الشريعة» و«الحقيقة» بل إنهما في نظره متعانقان، وبهما يقترن العلم بالعمل، والقول بالفعل، والحركة بالمعنى، وهنا يقول: «ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أيامًا فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة».

وقد روى الحديث عن سفيان الثوري، وأبي الأشهب العطاردي، وصالح ابن عبد الجليل، وآخرين، فيما روى عنه تلميذه أحمد بن أبي الحواري، وهاشم بن خالد، وحميد بن هشام العنسي، وعبد الرحيم بن صالح الداراني، وغيرهم.

وتعلق الداراني بقراءة القرآن الكريم وتدبره، وكان يقول: لولا صلاة الليل ما أحببت البقاء في الدنيا. وكان من أهل بيت تقي؛ إذ قيل إن له أختين تتنافسان في التقوى، وتتسابقان في العبادة.

ويقال إن الداراني قد جمع في آخر أيامه كل ما خطَّه من كتب، وألقى بها في تنور ثم أشعل فيها النار، وهو يقول: «والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك». لكن هذه الواقعة غير متواترة في المصادر والمراجع التي أتت على ذكر هذا الرجل وانشغلت بسيرته.

وقد شهد له كثيرون، فاعتبره ابن القيم مثلا ناصعًا في حسن العبادة والقنوت، فقال في كتابه «مدارج السالكين» إن الداراني كان مضرب المثل في العبادة من أهل الشام مثلما كان الحسن البصري في البصرة ومثلما كان سفيان في الكوفة. ووصفه الذهبي بـ«الإمام الكبير»، و«زاهد العصر»، و«ريحان القلوب»؛ لأنه كان رجلا لطيفا متواضعا، وسمي كذلك «بندار الجائعين» لأنه رام التفرغ للعبادة والتبتل ومارس رياضة روحية شاقة، وكان حريصا على أن يظل جائعا أغلب الوقت، حتى تسمو روحه وتصفو، ولذا كان يقول: «أصل كل خير الخوف من الدنيا، ومفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع»، ويقول أيضا: «إذا جاع القلب وعطش، صفا ورق، وإذا شبع وروي، عمي» و«لكل شيء صدأ، وصدأ نور القلب شبع البطن».

ويحكي الداراني قائلا: «قدَّم إليَّ أهلي مرة خبزا وملحا، فكان في الملح سِمْسِمَةٌ، فأكلتها، فوجدت رَانَهَا على قلبي بعد سنة».

والجوع عند الداراني اختيار، يتطلب أن يستعد له المريد، بلا عبء من الدنيا يثقله، أو هم يكسر ظهره، لاسيما إن كان له عيال يلحون عليه في أن يوفر لهم ما يقيم أودهم، ويسد رمقهم. وهنا يقول: «العيال يضعفون يقين صاحب اليقين؛ لأنه إذا كان وحده فجاع فرح، وإذا كان له عيال فجاعوا طلب لهم، وإذا جاء الطلب فقد ضعف اليقين».

وقال كذلك: من يشبع، تعتريه ستة أشياء هي: أنه لا يجد حلاوة للعبادة، ويقل حفظه في تذكر الحكمة، ويحرم من الشفقة على الخلق؛ لأنه يظن أن العالمين جميعهم شبعانون وتثقل عليه العبادة، وتزداد الشهوات لديه ويحوم جميع المسلمين حول المساجد، ويحوم هو حول المزابل».

وكثير من المتصوفة يصفون الداراني بأنه «جوهرة في عِقد التابعين، ودُرةٌ بين المؤمنين، وشامة في جبين المسلمين»، فيما يصفه أحمد ابن عاصم الأنطاكي بأنه «جاسوس القلوب» وذلك لأنه انشغل بمحاولة الوصول إلى الأسرار العميقة التي تنبض بها قلوب الزاهدين والخاشعين، ومسار الساعين

إلى المعرفة الحدسية، التي يراها أعلى درجات التصوف. وكان يقول: «ليت قلبي في القلوب كثوبي في الثياب، وكانت ثيابه وسطا»، وكان يعتقد في أن القلوب العامرة بالنور تنحسر فيها ظلمة الدنيا، حيث قال: «إذا سكنت الدنيا في قلب ترحلت منه الآخرة».

ويحكي أحمد بن أبي الحواري أنه قال للداراني: «صليت صلاة في خلوة، فوجدت بها لذة. فقال: أي شيء لذَّك منها؟ قلت: حيث لم يَرُقْ أحدًا. فقال: إنك لضعيف، حيث خطر بقلبك ذكر الخلق».

وطبقا لابن أبي الحواري أيضًا فقد كان الداراني يقول: «إذا خرجت الشهوات من القلب أي اسم يقع عليه؟ زاهد؟ ورع؟ ماذا؟ قال: سلا عن الشهوات فهو راضٍ».

وآمن الداراني بأن الصدق مفتاح الدين، أو قيمة عليا من قيمه الأصيلة، وأن الصادق من المريدين أعلى مرتبة ممن لم يتحلَّ بالصدق، فها هو يقول: «الوارد الصادق، أن يصدق ما في قلبه ما نطق به لسانه»، و«لكل شيء معدن، ومعدن الصدق قلوب الزاهدين»، و«من كان الصدق وسيلته، كان الرضا من الله جائزته»، و«لكل شيء صدق، وصدق اليقين الخوف من الله تعالى».

كما آمن الداراني بقيمة «التوكل على الله»، فكان يقول: مَنْ وَثِقَ بالله في رزقه زاد في حسن خلقه، وأعقبه الحلم، وسَخَتْ نفسه، وقَلَت وساوسه في صلاته». بل إنه جعل التوكل فوق الزهد، وكان يقول: «آخر أقدام الزاهدين أول أقدام المتوكلين»، ويربط التوكل بالإيمان بالقضاء والقدر، وكان يقول لأصحابه والقريبين منه دومًا: «علموا النفوس الرضى بمجاري المقدور، فنعم الوسيلة إلى درجات المعرفة».

وكان الداراني منشغلا بالله عمَّن سواه، وبالآخرة عن الدنيا، ولم يكن يرى معنى للزهد والخشوع والقلب معلق بزينة الحياة، ولذا قال: «لكل شيء مهر، ومهر الجنة ترك الدنيا بما فيها»، وقال أيضا: «إذا ترك الحكيم الدنيا، فقد استنار بنور الحكمة»، وقال كذلك: «إن من خَلْقِ الله خلقا لو زُيِّنَ لهم الجنان ما اشتاقوا إليها، فكيف يحبون الدنيا وقد زهدهم فيها».

ويروي ابن أبي الحواري قائلا: رأيت أبا سليمان حين أراد أن يلبي غُشي عليه، فلما أفاق، قال: بلغني أن العبد إذا حج من غير وجهه، فقال: لبيك، قيل له: لا لبيك ولا سعديك حتى تطرح ما في يديك، فما يُؤَمِّنا أن يقال لنا مثل هذا ؟ ثم لبَّى.

لكن ترك الدنيا عند الداراني لا يعني العزلة التامة عن الناس، أو الامتناع عن فعل الخير لهم، ولذا قال: «كل عمل ليس له ثواب في الدنيا ليس له جزاء في الآخرة»، لكن يبقى أبلغ ما قاله في هذه الدنيا هو: «اجعل ما طلبت من الدنيا فلم تظفر به، بمنزل ما لم يخطر ببالك، ولم تطلبه».

ومع هذا كان الداراني من العابدين العاملين، حيث اتخذ من الحديث النبوي «اليد العليا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى» نهجًا لحياته، وكان يقول لكل واحد من أصحابه: «ليس العبادة عندنا أن تَصُف قدميك وغيرك يَفت لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد، ولا خير في قلب يتوقع قرع الباب ويتوقع إنسانًا يجيئه ليعطيه شيئًا».

وكان الداراني يوصي مريديه، كما ورد في كتابه «حياة الصالحين» قائلا لكل منهم: «تعرض لرقة القلب بمجالسة أهل الخوف، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، والتمس باب الحزن بدوام الفكرة، والتمس وجوه الفكرة في الخلوات، وتحرز من إبليس بمخالفة هواك، وتزين لله بالإخلاص والصدق في الأعمال، وتعرَّض للعفو بالحياء منه والمراقبة، واستجلب زيادة النعم بالشكر، واستدم النعم بالخوف من زوالها».

كما كان الداراني يوصي تلاميذه بأن يُصفُّوا قلوبهم من مشاغل الدنيا وهمومها وبهرجها وزخارفها وشهواتها قبل أن يخلوا إلى الله مناجين أو متعبدين قانتين، حتى يتحقق لهم الخشوع التام، ويشعروا

بلذة المناجاة والتقرب.

وهنا يحكي لنا ابن أبي الحواري: سهرت ليلة في ذكر النساء حتى دخل وقت الصبح فذكرت ذلك لأبي سليمان فتغير وجهه وغضب عليَّ وقال: ويحك أما استحييت منه تعالى أن يراك ساهرًا في ذكر النساء؟ ولكن كيف تستحيي ممن لا تعرف؟ يا أحمد أقبل على صلاتك لربك، واعلم أنه إذا لذت لك القراءة فلا تركع ولا تسجد، وإذا لذَّ لك السجود فلا تركع ولا تقرأ، الزم الأمر الذي يفتح الله لك فيه. يا أحمد: إني ربما أقمت في الآية الواحدة خمس ليالٍ ولولا أني أدع الذكر فيها ما جزتها أبدًا، ولربما جاءت الآية من القرآن تطير العقول فسبحان الذي رده إليهم. يا أحمد: من صفى صُفي له، ومن كدَر كُدِر عليه.

وتحدث الداراني عن هاتفه الذي كان يذكره دومًا بالعبادة الحق، وينهاه عن أي كسل أو تقاعد في أن يبلغ أقصى الحالات في التعامل مع الله، بقلب يقظ، وجسد مستعد لخدمة الروح، وهنا يقول: «كنت ليلة باردة في المحراب، فأقلقني البرد، فخبأت إحدى يدي من البرد، وبقيت الأخرى ممدودة، فغلبتني عيناي فهتف بي هاتف: يا أبا سليمان، وقد وضعنا في هذه ما أصابها، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها. فآليت على نفسي ألا أدعو إلا ويداي خارجتان، حرًّا كان الزمن أو بردًا».

وعلى الحالة ذاتها يقول أيضًا: «نمت عن وِرْدِي، فإذا بحوراء تقول لي: تنام وأنا أُربى لك في الخدور منذ خمسمئة عام؟».

وقال أحمد بن أبي الحواري: «دخلت على أبي سليمان يومًا وهو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: يا أحمد ولم لا أبكي، وإذا جن الليل، ونامت العيون، وخلا كل حبيب بحبيبه، وافترش أهل المحبة أقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، وتقطرت في محاريبهم، وأشرف الجليل، سبحانه وتعالى، فنادى يا جبريل، بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلى ذكري، وأني لمطلع عليهم في خلواتهم.. أسمع أنينهم.. وأرى بكاءهم، فلم لا تنادي فيهم يا جبريل: ما هذا البكاء؟ هل رأيتم حبيبا يعذب حبيبه؟ أم كيف يجمل بي أن آخذ قومًا إذا جنَّهم الليل تملقوا لي فبي حلفت: إنهم إذا وردوا على يوم القيامة لأكشفن لهم عن وجهي الكريم، حتى ينظروا إليَّ وأنظر إليهم».

وكان الداراني من عشاق الليل، حيث ينام الناس، فيستيقظ هو ليخلو إلى الله يناجيه ويتعبد له في السكون والسكينة، ولهذا كان يقول لأصحابه: «لولا صلاة الليل ما أحببت البقاء في الدنيا، وما أحب البقاء في الدنيا لتشقيق الأنهار ولا لغرس الأشجار».

وذات مرة قال له تلميذه أبو الحواري: إن ابن داود قال: ليت الليل أطول مما هو، فرد الداراني: قد أحسن وقد أساء. أحسن حين تمنى طول الليل للطاعة، وأساء حين تمنى طول ما قصره الله، إنه إن مضت عنا هذه فله في التي تأتي العرض.

ومرة كان في بيت ابن أبي الحواري فسأله الأخير: تبيت عندنا؟ فرد عليه: تشغلوني بالنهار وتريدون أن تشغلوني بالليل؟

وللداراني أقوال صوفية ونفحات إيمانية عميقة من بينها:

- أفضل الأعمال خلاف هوى النفس.

- لكل شيء علم، وعلم الخذلان ترك البكاء.

- كل ما شغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو عليك شؤم.

- صَلِّ خلف كل مُبْتَدِعٍ إلاَّ القَدَرِيّ، لا تُصَلِّ خلفه، وإن كان سلطانا.

- ليس لمن ألهم شيئا من الخيرات أن يعمل به حتى يسمعه من الأثر.

- مَنْ رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة.

- إذا تكلَّف المتعبدون أن يتكلموا بالإعراب ذهب الخشوع من قلوبهم.

- مَنِ اشْتَغَلَ بنفسِه شُغِلَ عن الناس، ومن اشتغل بِرَبِّه شُغل عن نفسه وعن النَّاس.

- الفتوة أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

- مَنْ توسلَ إلى اللهِ بتلفِ نفسهِ حفظَ اللهُ عليه نفسهُ و حكَّمَه في جنتهِ.

- مَنْ أرادَ واعظًا بيِّنًا فلينظر إلى اختلافِ الليلِ و النهارِ.

- علِّموا النفوسَ الرضى بمجاري المقدور فنعمَ الوسيلةُ إلى درجاتِ المعرفةِ.

- إذا سكنَ الخوفُ القلب أحرقَ الشهواتِ و طردَ الغفلةَ من القلبِ.

- لو أنَّ محزونًا بكى في أمةٍ لرحمَ اللهُ تلك الأمةَ.

- المعرفة أقرب إلى الصمت من الكلام، وقلب المؤمن مضيء بذكره، وذكره غذاء له والأنس به راحته، وتجارته حسن معاملته، والليل سوقه، والمسجد مكانه، والعبادة كسبه، والقرآن بضاعته، والدنيا مزرعته، والقيامة بيدره، وثواب الحق تعالى ثمرة كفاحه.

- لا عمل كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كرد الغضب، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغار الدنيا، ولا معرفة كمعرفة النفس، ولا نعمة كالعافية من الذنوب، ولا عافية كمساعدة التوفيق، ولا زهد كقصر الأمل، ولا حرص كالمنافسة في الدرجات، ولا طاعة كأداء الفرائض، ولا تقوى كاجتناب المحارم، ولا عدم كعدم العقل، ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة النفس، ولا ذل كالطمع.

توفي الداراني سنة 215هـ، 830م، وقد قيل إنه حين اقتربت وفاته، قال له أصحابه: بشرنا بأنك ستذهب إلى الحضرة حيث الله الغفور الرحمن. فقال: لماذا لا تقولون ستذهب إلى الحضرة الإلهية؟ ويحاسبك فيها على الصغيرة ويعذبك على الكبيرة عذابًا شديدًا؟ ثم أسلم الروح.

وقيل إن أحد مَنْ يعرفونه قد رآه في المنام بعد وفاته، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني، ورعاني ولكن إشارات هؤلاء القوم كانت ضررًا فادحًا لي. أي إنني كنت مشهورًا بين العارفين.

وقالة ابن أبي الحواري: تمنيت أن أرى أبا سليمان الداراني في المنام، فرأيته بعد سنة، فقلت له : يا معلم ما فعل الله بك ؟ قال : يا أحمد دخلت من بابٍ صغير، فلقيت وَسَقَ شِيحٍ، فأخذتُ منه عُودًا، فلا أدري تَخَلَّلْتُ به أم رَمَيْتُ به ؟ فأنا في حسابِه من سنة.

أبو طالب المكي

قوت القلوب وأحد أعمدة «السالمية»

الصوفي والمحدث الذي نقل عنه أبو حامد الغزالي في «الإحياء»، وصاحب الأدعية العميقة المؤثرة، الذي طالب دوما بالتوكل على الله، وهو السالمي، الذي سار على نهج المتصوف الكبير سهل التستري، وهو العابد القانت الذي عرف مَنْ حوله حسن ختامه لحظة احتضاره، فرحل عن دنيانا تزفه علامات الفرح والامتنان. كتابه «العمدة»، ومسلكه الذي زاوج فيه بين رحابة أهل التصوف والتزام أهل الأثر، حيث تتعانق المحبة بالتدبير، والحقيقة بالشريعة، هو ما جعل اسمه يوضع في السلسلة الذهبية لكبار المتصوفة، وجعل كثيرين يستدعون ما تركه، ليوزعوه على أبواب التصوف والفلسفة والفقه والرقائق.

هو أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، تعود جذوره إلى خراسان، لكنه تربى في مكة وهو صغير، واستقر به المقام في مدينة البصرة العراقية، وبها التحق بالمدرسة السالمية، ثم انتقل إلى بغداد، حيث درس الفقه والوعظ.

والسالمية كما يقول د. عبد المنعم الحفني في «موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية» هي: «طريقة صوفية تعود إلى أبي عبد الله محمد بن سالم البصري، والتي وضع لبنتها أستاذه المتصوف الكبير سهل التستري، وتقوم على أصول محددة تنطلق من أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، كان ولا يزال، أفعاله قديمة، وهو حاضر وناظر في كل مكان، يتجلى على الخصوص في لسان كل قارئ قرآن. ومشيئة الله غير حادثة، وإرادته حادثة بمشيئته. والعبد يصدر عنه الذنب ولم يرده الله، وإبليس كان في بداية أمره كافرًا، ثم صار إلى الطاعة وقنع بما نيط به. والله تعالى يراه المقربون يوم القيامة كما أخبر القرآن، وإنما يكون في هيئة إنسية محمدية، ويتجلى على الخلق».

ويضيف الحفني أن السالمية ترى أن «الله موجود في كل مكان، وبذا يصبح معنى العرش هو الوجود بأسره، وأن الله تعالى لم يَرَ لعبده إلا الطاعة، ولله سر لو كشفه بطل التدبير، وللأنبياء سر لو انكشف بطلت النبوة، وللعلماء سر لو كشفوه بطل علمهم».

وقد سئل أحمد بن سالم عن معنى الحديث «أطيب ما أكل الرجل من كسب يده» فقال: الكسب سنة نبينا ، والتوكل حاله، ولذلك شرع الكسب على أمته، وتحدث في الكسب دون التوكل؛ لأنه كان يعلم بضعف أمته، وأنها لا تقوى على التوكل، وباستطاعتها الكسب.

وترك أبو طالب المكي خلفه كتابا مهما في رحلة الفكر الصوفي هو «قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد»، والذي كتبه بغية الدفاع عن التصوف في وجه من قدحوا فيه، وزعموا أنه لا يمثل طريقا سليما للإسلام، وبَيَّن المكي في كتابه هذا كيف أن التصوف يتجلى فيه جوهر الإسلام ولبابه، وكيف أنه يشكل اتباعا وتسليما بتعاليم الرسول الكريم. لكن الخطيب البغدادي قال إن الكتاب احتوى على أشياء منكرة ومستشنعة في الصفات، رغم حرص المكي على أن يصف العبادات بتفصيل دقيق، وبلغ في هذا شأنا معقولا إلى درجة أن أبا حامد الغزالي، نقل عنه آراء كثيرة من دون أن يحيل إليه، أو يأتي على ذكره كمرجع أو مصدر. كما قام ابن عطاء الله السكندري بالنقل منه أيضا. وهناك كتاب آخر له عنوانه «علم القلوب» لكن يوجد من يشكك في نسب هذا الكتاب أصلا إلي المكي، ويقول إنه من تأليف أحد تلاميذه.

ويحوي «قوت القلوب» فصلا كاملا في الحديث عن الإحسان والإيمان والإسلام وما يتفرع عنهما، ويتضمن أيضا ردا شاملا على المرجئة، ونقض كلامهم بحجج واضحة، لكن أكثر ما يهتم به المتصوفة في الكتاب هو ما يتعلق بشرح مقام التوكل ووصف أحوال المتوكلين، وهو المقام السابع من أعلى مقامات اليقين، وأشرف أحوال المقربين.

وينقل المكي حديثا عن أحد السلف الصالح يقول فيه:

رأيت أحد العباد من أهل البصرة في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي وأدخلني الجنة.

قلت: فأي الأعمال وجدت هناك أفضل؟

قال: التوكل وقصر الأمل، فعليك بهما».

وينقل كذلك عن أبي يعقوب السوسي قوله: « المتوكلون على الله تجري أرزاقهم بعلم الله واختياره على يد خصوص عباده بلا شغل ولا تعب، وغيرهم مكدودون مشغولون».

وقال أيضا: «المتوكل إذا رأى السبب أو ذم أو مدح فهو مدع، لا يصح له التوكل. وأول التوكل ترك الاختيار. والمتوكل على صحة قد رفع أذاه عن الخلق، لا يَشكو ما به إليهم، ولا يذم أحدا منهم لأنه يرى المنع والعطاء من واحد، فقد شغله عما سواه.

وسُئل سهل التستري: ما أدنى التوكل؟

قال: ترك الأماني، وأوسطه ترك الاختيار.

قيل: فما أعلاه؟

قال: لا يعرفه إلا من توسط التوكل وترك الاختيار.

ويرى كثيرون أن أكثر ما في كتاب «إحياء علوم الدين» من كلام حسن فهو مأخوذ من « قوت القلوب»، بل يرون أن القوت على ما فيه من خلل، من وجهة نظر الحنبليين، إلا أنه أقل من الإحياء خطرًا وخللًا، وهو إن كان مشتملا في رأيهم على بعض البدع، لكنه يخلو مما في الإحياء من الطوام، وتقل فيه الأحاديث الضعيفة والموضوعة مقارنة بالإحياء.

وقد اعتمد الغزالي على «القوت» شكلا ومضمونا، ونسج على منواله، وأفاض وأكثر من الروايات والقصص والغرائب والضعاف والموضوعات التي خطها و سردها في كتاب الإحياء. وبالتالي فإن كان على «قوت القلوب» بعض المآخذ لكنها مآخذ تغتفر له؛ لأنه قد وقع فيها قبله بعض العلماء كما في مسألة تفسير الإيمان بالإسلام. ورغم أن الغزالي وقع في مثلها فإن اللاحقين يلقبونه بشيخ الإسلام، ويتعاملون مع الإحياء بشكل مختلف كثيرًا عن تعاملهم مع «القوت»، مع أن الغزالي انتهى في آخر حياته، وبعد «المنقذ من الضلال» صوفيا.

وقد اتُهم المكي من أعدائه بأنه «اعتزالي» أفسد على الناس بعض عقيدتهم، بعد أن حفظوا عنه أشياء فيها، فحفظ عنه الناس أقوالا هجروه من أجلها. وقال العتيقي إنه قد دخل بغداد فاجتمع عليه الناس وعُقد له مجلس الوعظ بها، فغلط في كلام وحفظ عنه أنه قال: ليس على المخلوقين أضر من الخالق. فقال الناس إنه يبتدع في الدين، وهجروه، ومنع من الاتصال بهم، والكلام فيهم.

وقد كان أبو طالب المكي يبيح السماع، فدعا عليه عبد الصمد بن علي ودخل عليه فعاتبه على ذلك، فنظر إليه أبو طالب وأنشد:

فيا ليل كم فيك من متعب

ويا صبح ليتك لم تقرب

فزفر عبد الصمد، ثم خرج غاضبا، وراح يحكي للناس أن أبا طالب يبيح السماع، وهو في نظر عبد الصمد وأضرابه محرمًا أو على الأقل مكروها.

وقد روى أبو طالب المكي الحديث عن أبي بكر الأجري، وابن خلاد النصيبي، وأحمد بن ضحاك

الزاهد، ومحمد بن عبد الحميد الصنعاني، وعلي بن أحمد المصيصي، ومحمد بن أحمد المقيد، بينما روى عنه كثيرون في مقدمتهم عبد العزيز الأزجي. وهناك من يقول إنه قد ترك خلفه أربعين حديثا بخطه، وخرج فيها عن عبد الله بن جعفر بن فارس الأصبهاني إجازة، وفيها عن أبي زيد المروزي من «البخاري»، أولها: «الحمد لله، كنه حمده بحمده».

وقد شهد له كثيرون ووصفوه بأنه كان مجتهدا في العبادة، وله رياضات روحية؛ إذ كان يترك جوفه فترات طويلة بلا طعام، حتى تخمد شهواته، وتصفو نفسه. وهو بهذا من «الجوعية» وهم المتصوفة الذين يرون أن جوع البطن يوقظ خلايا الروح، ويزيد من السكينة.

وفي مسائل الأسماء والصفات والقضاء والقدر والإيمان كان المكي على مذهب «أهل السنة والجماعة»، أما تصوفه فيعزى إلى سلوكه، حيث العبادة والقنوت والذكر، وما له من رياضات روحية، يحصل عليها بالجوع والتفكر في ملكوت الله ومخلوقاته وحكمته وذاته وصفاته وما عليه الناس من أفعال وأحوال.

ولا يعتبر أبو طالب المكي الولاية أمرًا مرتبطا بأحوال غريبة، ولا شطحات مستهجنة من قبل المختلفين في الرأي والموقف، أو فلسفات تنطوي على غرائبية، ولم يَرَ أنها هجر الدنيا أو غلظة المنظر والمظهر، إنما يربطها بالأخلاق الكريمة والرحمة السابغة، انطلاقا من أن «الدين المعاملة» وتطبيقا لآيات قرآنية كريمة مثل «وإنك لعلى على خلق عظيم» و«وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»، ولهذا يقول المكي:» الأولياء يُعرفون بلطف لسانهم، وحسن أخلاقهم، وبشاشة وجوههم، وسخاء أنفسهم، وقلة اعتراضهم، وقبول عذر من اعتذر إليهم، وتمام الشفقة على جميع الخلائق بَرُّهُم وفاجرهم». ولا يقصد هنا بقلة الاعتراض، السمع والطاعة لكل أحد، أو مجاراة الناس على ما هم عليه من أخطاء، وعدم ردهم وصدهم، إنما يعني بها عدم الاعتراض على قدر الله.

وكان المكي يعتبر أن أفضل الثبات هو الثبات على الله تعالى. وكان يرى أن هذا يتحقق بالمجالسة له، والإصغاء إليه، والعكوف عليه، وقوة الوجد به، وهذا خصوص للمقربين أو حياءٌ منه أو حبٌّ له، أو تسليم أو تفويض إليه، وهو السكون تحت جريان الأقدار وشهودها من الأنعام، ومن حسن تدبير الأقسام في شهود المسألة والحكمة فيها والقصد بالابتلاء.

ويضيف المكي إلى أركان الإيمان الخمسة المعروفة لدينا ركنين آخرين، فإلى جانب، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، يضع أيضا الإيمان بالقدر، وبالجنة والنار. ويعلق البعض على ذلك بأن الركن السادس استقاه المكي من حديث جبريل عليه السلام، لكن الزيادة والغرابة في الركن السابع الذي هو: الإيمان بالجنة والنار. و أدلة ثبوت الإيمان باليوم الآخر محكمة قطعية، ما تبينه الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136]. أما جعل المكي الجنة والنار أصلًا سابعًا، فيفسره البعض على أنه قد قصر الإيمان باليوم الآخر على البعث، والحشر، والنشور، والحساب، وغيره مما يتعلق به، ثم بعد ذلك الإيمان بالجنة والنار، فكأنه أصل آخر، وهو في الحقيقة تابع له، وبذا فليس في كلامه أمر جديد أبدًا.

وقد حوى «قوت القلوب أدعية عميقة رائقة، تبعث على الخشوع لله، وتظهر تذلل العبد إلى ربه، وحبه له، والتعويل عليه، مثل: «اللهمَّ يا هادي المضلين ويا راحم المذنبـين ومقيل عثرة العاثرين، ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبـيـين والصديقين والشهداء والصالحين».

«اللهم إني أسألك قلبًا سليمًا ولسانًا صادقًا وعملًا متقبلًا، أسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب».

«اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، وقرة عين الأبد، ومرافقة نبـيك محمد، وأسألك

حبك وحب من أحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك، اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على خلقك، أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني ما كانت الوفاة خيرًا لي، أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة».

«اللهم ارزقنا حزن خوف الوعيد وسرور رجاء الموعود حتى نجد لذة ما نطلب وخوف ما منه نهرب، اللهم ألبس وجوهنا منك الحياء واملأ قلوبنا بك فرحًا، وأسكن في نفوسنا من عظمتك مهابة، وذلل جوارحنا لخدمتك، واجعلك أحب إلينا مما سواك؛ واجعلنا أخشى لك ممن سواك، نسألك تمام النعمة بتمام التوبة، ودوام العافية بدوام العصمة، وأداء الشكر بحسن العبادة». «اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات، تلقي الروح بأمرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا إله إلا هو أنت الوكيل وإليك المصير، يا من لا يشغله شأن عن شأن، ولا يشغله سمع عن سمع، ولا تشتبه عليه الأصوات، ويا من لا تغلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات، ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين.. أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك».

«اللهم ارحم ما خلقت واغفر ما قدرت وطيب ما رزقت وتمم ما أنعمت وتقبل ما استعملت واحفظ ما استحفظت ولا تهتك ما سترت فإنه لا إله إلا أنت، أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك من كل راحة بغير خدمتك ومن سرور بغير قربك، ومن كل فرح بغير مجالستك ومن كل شغل بغير معاملتك».

«اللهم ارزقنا العون على الطاعة، والعصمة من المعصية، وإفراغ الصبر في الخدمة، وإيداع الشكر في النعمة، وأسألك حسن الخاتمة، وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك، وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك، وأسألك الرضا وحسن الثقة بك، وأسألك حسن المنقلب إليك». «اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه، اللهم إني أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوَفِّ به، اللهم إني أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها عليَّ فقويت بها على معصيتك، اللهم إني أستغفرك من كل عمل عملته لك فخالطه ما ليس لك».
«اللهم إني أسألك بركة الحياة وخير الحياة، وأعوذ بك من شر الحياة وشر الوفاة. وأسألك خير ما بـينهما، أحيني حياة السعداء: حياة من تحب بقاءه، وتوفني وفاة الشهداء: وفاة من تحب لقاءه، يا خير الرازقين وأحسن التوابـين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ورب العالمين».

«اللهم اغفر لي ولوالدي ولمن ولدا وارحمهما كما ربـياني صغيرا، واغفر لأعمامنا وعماتنا، وأخوالنا وخالاتنا وأزواجنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات يا أرحم الراحمين يا خير الغافرين».

«اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، واللهم فرج عن أمة محمد فرجًا عاجلًا، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم».

توفي أبو طالب المكي في جمادى الآخرة سنة 386هـ، 998م، ودفن في الرصافة بالعراق، وعن لحظة احتضاره قال أبو القاسم بن بشران: دخلت على شيخنا أبي طالب، فقال: إذا علمت أنه قد ختم لي بخير، فانثر على جنازتي سكرا ولوزا، وقل: هذا الحاذق، وقال : إذا أُحتضرت، فخذ بيدي، فإذا قُبضت على يدك، فاعلم أنه قد ختم لي بخير، فقعدت، فلما كان عند موته، قبض على يدي قبضًا شديدًا، فنثرت على جنازته سكرا ولوزا.

أبو عبد الله الجلاء

الرجل الذي وهبه أبواه لله

واحد ممن جاهدوا أنفسهم عن كل ما يؤدي إلى الصراع والبغضاء في الدنيا، وما أكثرهما، وكل ما يفتح بابا وسيعا نحو رضا الله في الآخرة، وما أصعبه على ذوي النفوس الشقية. صاحب عظماء الصوفية، وكان ابنًا لأحدهم، وهبه لله ونسيه فلم يدعه ربه، اتخذ من بساطة العيش طريقًا، ومن الزهد رفيقًا، ومن المحبة صديقًا، وتحدث في أمور التصوف فكان فصيح العبارة، واضح الإشارة، ورعًا تقيًّا نقيًّا.

هو أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء، يعود مسقط رأسه إلى بغداد، لكنه أقام بالرملة ودمشق، وصار مع الأيام من مشايخ الشام الذين يُشار إليهم بالبنان في القرن الثالث الهجري. وقد صاحب عددًا من أبرز أعلام الصوفية، من بينهم: ذو النون المصري، وأبو تراب النخشبي، وأبو عبيد اليسري، وأبو عمرو الدمشقي، أحد مشايخ الشام أيضا، بل أوحدها علمًا بعلوم الحقائق. ومن أصحابه كذلك أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن المولد، وهو من أبرز مشايخ الرقة، وأحسنهم سيرة وسمعة.

وقَالَ الجلاء عن بعض أولئك الأعلام: «رأيت ذا النون وكانت لَهُ العبارة، ورأيت سهلا وكانت لَهُ الإشارة، ورأيت بشر بْن الْحَارِث وَكَانَ لَهُ الورع»، وهكذا أخذ من ثلاثتهم أركان تصوفه، فزواج بين حسن التعبير، وعمق التدبير.

وكان الأب صوفيًّا أيضًا، وكان خادم بشر الحافي، ومن خيار عباد الله الصالحين، ولقي الصوفي الكبير معروف الكرخي. ويروي أبو عبد الله عن والده أنه كان يقول: «يحتاج العبد إلى أن يكون له شيء يعرف به كل شيء»، وقد وهب ابنه لله سبحانه وتعالى، بناءً على طلبه.

ولهذا حكاية يرويها ابن الجلاء نفسه فيذكر: «قلت لأبي وأمي: أحب أن تهباني لله عز وجل، فقالا: قد وهبناك، فغبت عنهما مدة، فلما رجعت كانت ليلة مطيرة، فدققت الباب، فقال لي أبي: من ذا؟ قلت: ولدك أحمد، فقال: كان لنا ولد، فوهبناه لله تعالى، ونحن من العرب لا نسترجع ما وهبناه. ولم يفتح لي الباب».

ويقول أتباع «التيار السلفي» عن ابن الجلاء إنه كان من «أهل السنة والجماعة» أو من أعلام «التصوف السني» وأنه قد روى الحديث، لكن هناك من يقول: لا نعلم أن ابن الجلاء أسند شيئا.

وشهد له كثيرون، فها هو إسماعيل بن نجيد يؤكد: «كان يُقال: إن في الدنيا ثلاثة من أئمة الصوفية لا رابع لهم، الجنيد ببغداد، وأبو عثمان بنيسابور، وأبو عبد الله بن الجلاء بالشام»، ووصفه أبو القاسم القشيري بأنه «من أكابر مشايخ الشام»، فيما قال عنه أبو عبد الرحمن السلمي في طبقاته: «كان عالما ورعا». وهناك من يقول عنه: «هو صاحب النكت اللطيفة، أحد أئمة القوم، لم يكن بالشام في حاله شبيه مذكور، تخرج به جماعة من المذكورين». وقال أبو بكر الدقي: ما رأيت شيخا أهيب من ابن الجلاء مع أني لقيت ثلاثمئة شيخ. وكان يقال إنه ثاني ثلاثة لا نظير لهم: الجنيد ببغداد، وابن الجلاء بالشام، وأبو عثمان الحيري بنيسابور. ويقول ابنه: ما جلا أبي شيئا قط، ولكنه كان يعظ، فيقع كلامه في القلوب، فسُمِّي جلاء القلوب.

وتتلمذ على يد الجلاء كثيرون في مطلعهم أبو الخير الأقطع، الذي ينسب إليه القول: ما بلغ أحد إلي حالٍ شريفة إلا بملازمة الموافقة في العلم والعمل، ومعانقة الأدب، وأداء الفرائض، وصحبة الصالحين.

أما الجلاء نفسه فقد تتلمذ على أيدي كثيرين، يذكر واقعة جرت له مع أحدهم، من دون أن يفصح عن اسمه، حين يقول: كنت أمشي مع أستاذي، فرأيت حدثًا (صبيًّا) جميلًا فقلت: يا أستاذي، تُرى يعذب الله هذه الصورة؟ فقال: لا نظرت إليه سترى غبّه (أي عاقبته) قال: فنسيت القرآن بعده بعشرين سنة. وفي رواية أخرى: «فبقيت عشرين سنة وأنا أراعي ذلك فما أجد ذلك الغب؛ فنمت ليلة وأنا مفكر فيما قال لي الأستاذ، فأصبحت وأنا قد أنسيتُ القرآن».

وله حكاية أخرى مع صاحبه أبي عبيد اليسري، حيث يقول: «قدمت على أبي عبيد فأخلى لي بيتا، فكان يأتيني بعد صلاة العشاء الآخرة، فيقف على الباب، فيقول: ما أظن أبا عَبْد الله يعدل بالوحدة شيئًا، فأقول: إلا منك، فيقول: إلا مني؟ فأقول: نعم، فيدخل، فيذاكرني إلى أن يؤذن المؤذن بصلاة الفجر، فنخرج ونصلي».

وللجلاء تعريف عميق للتصوف، يوضح فيه أن الراسخين في الإيمان يرون الكون كله ناقصًا، طالما لم ينشغل الإنسان برب الكون، من له الكمال والجلال، ويعبر عن هذا قائلا: «التصوف رؤية الكون بعين النقص، بل غض الطرف عن كل ناقص بمشاهدة من تنزه عن كل نقص».

وسئل ذات مرة عن معنى الصوفي فقال: «ليس يعرف من شرط العلم ومعناه مجرد من الأسباب كأن الله معه بكل مكان، فلا يمنعه الحق من علم كل مكان فسمي صوفي».

وأنشد ذات يوم مخاطبًا ربه سبحانه وتعالى، راغبًا في الوصول له، ومبينًا كيف يراه نصب عينيه بلا انقطاع، وينشغل به في كل لحظة بلا كلل ولا ملل:

خيالك حين أرقد نصب عيني

إلى وقت انتباهي لا يزول

وليس يزورني صلة ولكن

حديث النفس عنه هو الوصول

ويفرق ابن الجلاء بين الزاهد والعابد والموحد في عبارة دالة يقول فيها: «من استوى عنده المدح والذم، فهو زاهد، ومن حافظ على الفرائض في أول مواقيتها فهو عابد، ومن رأى الأفعال كلها من الله، فهو موحد لا يرى إلا واحدًا».

وكان ابن الجلاء يدعو إلى التوكل على الله، وألا ينشغل الإنسان بما سيأتيه من رزق في قابل الأيام؛ لأن هذا الانشغال يلهي النفس عن تلمس طريق الحق، ويجعلها في عوز دائم إلى الناس، وهنا يقول: «اهتمامك بالرزق يزيلك عن الحق، ويفقرك إلى الخلق».

ومن الحكايات التي تروى للدلالة على توكله، تلك التي يقصها علينا حمدان بن بكري قائلا: «لقيت أبا عبد الله بن الجلاء في الطواف فقال لي: من أين أحرمت ؟ قلت: على طريق تبوك، قال: على التوكل؟ قلت: نعم، قال: أنا أعرف من حج اثنتين وخمسين حجة على التوكل، وهو يستغفر الله تعالى منها، قلت: يا عم! بحق هذه البنية (يعني الكعبة)، من هو؟ قال: أنا، واستغفر الله من ذلك، وبكى».

وهناك حكاية أخرى يقول فيها: « كنت يومًا جالسًا عند معروف، فجاء رجل، فقال له : رأيت أمس عجبًا! اشتهى أهلي سمكة فاشتريتها، فبينما أنا أطلب من يحملها إذا بصبي ملتف بعباءة، معه طبق، فقال: عم! تحمل عليه ؟ قلت : نعم، فحملها، فمررنا بمسجد يؤذن فيه الظهر، فقال: يا عم! هل لك في الصلاة ؟ قلت: نعم، فطرحها ودخل المسجد وصلى، فلما أقيمت الصلاة قلت: صبي توكل على الله في طبقه، ألا أتوكل على الله في سمكة، فتركتها وصليت، وخرجت فإذا هى بحالها، فحملها، ثم عاد إلى ما كان عليه من الذكر إلى أن وصل إلى منزلي، فأخبرت أهلي خبره، فقالوا له: كل معنا، فقال: إني صائم، فقلت : تفطر عندنا، قال: نعم، فأين طريق المسجد؟ فدللته عليه، فلم يزل راكعًا ساجدًا إلى العصر.

فلما صلى العصر جعل رأسه بين ركبتيه إلى الغروب، فصلى، فقلت له: هل لك في الفطور، قال: على العادة قلت: وما هي قال: بعد العشاء، فلما كان بعدها أخذته إلى البيت، وغلقت الباب، وكانت لى ابنة مقعدة في بيت الدار منذ زمان، فبينما نحن في جوف الليل، وإذا بداقٍ يدق باب البيت، فقلت: من

هذا؟ قالت : فلانة. فبادرناها، فإذا هي تمشي، فقلنا: ما شأنك؟ قالت: لا أدري، إني سهرت الليلة، فألقي في نفسي أن أسأل الله بحق ضيفكم، فقلت: إلهي! بحق ضيفنا إلا أطلقتني، فكان ما ترون، قال: فبادرت البيت أطلب الصبي وإذا الباب مغلق، وهو قد ذهب. قال: فبكى معروف، وقال: نعم! منهم كبار وصغار».

و قال أبو عبد الله الجلاء: «أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة لم يشرب من ماء زمزم إلا ما استقاه بركوته و رشائه».

وقد اعتبر الجلاء أن من يصل إلى «المحبة» فقد ارتقى شأنًا عظيمًا على طريق التصوف؛ لأنها قيمة لا تتأتى إلا لمن وصل إلى أعلى درجات التصوف. وقيل ذات مرة له: «هؤلاء الذين يدخلون البادية بلا عدة ولا زاد يزعمون أنهم متوكلة فيموتون، قال: هذا فعل رجال الحق، فإن ماتوا فالدية على القاتل».

وحين كان يسأله الناس عن المحبة يقول لهم: «ما لي وللمحبة؟! أنا أريد أن أتعلم التوبة». وفي رواية أخرى : «مالي ولها! أنا أريد أن أتعلمها».

وكان يقول في المحبة : «الدنيا أوسع رقعة، وأكبر زحمة، من أن يجفوك واحد فلا يرغب فيك آخر»، ثم ينشد:

تلقى بكل بلاد إن حللت بها

أهلًا بأهل و جيرانًا بجيران

وينشد أيضا في باب المحبة، قصيدة يبين فيها كيف يسهر ليله متفكرًا في ربه، هائما به عشقا، يقول فيها:

أراعي النجوم، ولا علم لي

بعدِّ النجوم بجنب الظلام

وكيف ينام فتى لا ينام

إذا نام عنه عيون الحمام؟

أسيرٌ يسير إليه هواه

فيضحي الأسير قتيل الغرام

فلم يَبْقَ منه سوى أنه

يُقال له: عاشق، والسلام

لفرط النحول، وحر الغليل

وحزن مذيب لطول السقام

وهناك قصيدة أخرى في العشق الإلهي يقول فيها:

لولا مدامع عشاق ولوعتهم

لبان في الناس عز الماء والنار

فكل نار فمن أنفاسهم قُدحت

وكل ماء فمن عين لهم جاري

وآمن الجلاء بأن طريق الحق واحد وواضح، لا لبس فيه ولا مداراة ولا تحايل، وفي هذا ينسب إليه أبو عبد الرحمن السلمي في طبقاته القول: «مَنْ علت همته على الأكوان، وصل إلى مكونها؛ ومن وقف بهمته على شيء سوى الحق، فاته الحق؛ لأنه أعز من أن يرضى معه بشريك».

وسُئل الجلاء مرة أخرى عن الحق، فقال في ثقة متناهية: «إذا كان الحق واحدًا يجب أن يكون طالبه واحداني الذات».

وكان يقول أيضًا في هذا الشأن: «الحق استصحب أقوامًا للكلام، واستصحب أقوامًا للخلة. فمن استصحبه الحق لمعنى ابتلاء بأنواع المحن، فليحذر أحدكم طلب رتبة الأكابر». وقال أيضًا: «سَمَتْ همم المريدين إلى طلب الطريق إليه، فأفنوا نفوسهم في الطلب، وسمت همم العارفين إلى مولاهم فلم تعطف على شيء سواه». وهنا يقول كذلك: «من بلغ بنفسه إلى رتبة سقط عنها، ومن بُلغ به ثبت عليها».

ويدعو الجلاء مريديه إلى أن يأنسوا لله في قلوبهم وأمام عيونهم، ممتزجا في نفسه المقدس بما يأنس، ويقول: «لا يطيب العيش إلا لمن وطئ بساط الأنس، وعلاه على سرير القدس، وغيبه الأنس بالقدس، والقدس بالأنس، ثم غاب عن مشاهدتهما بمطالعة القدوس».

وكما جاء في «الرسالة القشيرية» فإن الأنس عند المتصوفة أتم من البسط، وهو عندهم مع الهيبة فوق القبض، الذي هو أعلى درجة من الخوف، وفوق البسط الذي هو أرفع منزلة من الرجاء. وحالة الهيبة والأنس، وإن جلتا، فأهل الحقيقة يعدونهما نقصا لتضمنهما تغير العبد، فإن أهل التمكين سمت أحوالهم عن التغير، وهم محو في وجود العين، فلا هيبة لهم ولا أنس، ولا علم ولا حس.

ويتحدث ابن الجلاء عن الفقر، باعتباره سترًا، وليس عورة، إن استغنى الإنسان بربه عمَّن سواه، ولم يشكُ من عوزه لأحد، ورضي من الدنيا بالقليل، وهنا يقول: «آلة الفقير صيانة فقره، وحفظ سره، وأداء فرضه».

بل كان يدعو الفقراء إلى أن يرفعوا رؤوسهم ويمشوا بخيلاء، غير منسحقين أمام حاجتهم أبدًا، ولذا كان يقول: « لولا شرف التواضع كان حكم الفقير إذا مشى يتبختر».

وسُئل ذات يوم عن الفقر، فسكت، ثم ذهب ورجع عن قرب، ثم قال: «كان عندي أربعة دوانق، فاستحييت من الله تعالى أن أتكلم في الفقر وهي عندي فذهبت فأخرجتها». ثم قعد وتكلم في الفقر وجيوبه خالية تمامًا.

وسُئل مرة أخرى عن الفقر، فقال: «اضرب بكميك الحائط وقل ربي الله فهذا هو الفقر».

ووجه إبراهيم بن المولد ذات يوم سؤالا إلى ابن الجلاء، قال: متى يستحق الفقير اسم الفقر؟ فأجابه: «إذا لم يبقَ عليه بقية منه، فقلت: كيف ذاك؟ فقال: إذا كان له فليس له، وإذا لم يكن له فهو له.

ولما مات ابن الجلاَّء يوم السبت الثاني عشر من رجب سنة 306هـ، نظروا إليه، وهو يضحك، فقال الطبيب: إنه حي. ثم نظر إلى مجسته فقال: إنه ميت. ثم كشف عن وجهه، فقال: لا أدري أهو ميت أم حي! وكان في داخل جلده عِرق على شكل الله، فكان إذا جاء إنسان ليغسله لبسته منه هيبة لا يقدر على غسله حتى جاء رجل من إخوانه فغسَّله، وكفَّنه، وصلى عليه، ودفن.

أبو مدين الغوث

أستاذ الألف شيخ و إمام الزاهدين

تمرّد على حاله وهو طفل غرير، بعد أن خطف رجال الله بصره وقلبه، فهرول وراءهم بقدر ما أسعفته طاقته المهيضة. ترك رعي الغنم؛ ليرعى المعرفة ويربيها على مهل، يهضمها ويتذوقها ويتدبرها فتدور بين عقله وقلبه ونفسه وتنتهي فيما بعد إلى لسانه فينطق بها حكمة صافية، وآراءً غاية في البساطة والعمق، وشعرًا وتواشيح عذبة في العشق الإلهي. ساح كثيرًا في الأرض، ومشى في مناكبها على قدر استطاعته، فلما اختار منها مكانًا ليقطنه، آنس إليه خلق كثير، يستزيدون من علمه، ويقفون على مواجيده وأذواقه، فلم يبخل عليهم بشيء.

وُلد شعيب بن حسين الأنصاري سنة 515هـ على الأرجح في قرية حسن قطنيانة التابعة لأشبيلية في بلاد الأندلس. توفي والده وتركه طفلًا بين أخوة أكبر منه، فأسندوا إليه مهمة رعي أغنام قليلة ورثوها. وكان في غدوه ورواحه يمر بمقارئ القرآن، وحلقات الذكر، فيتوقف أمامها متدبرًا مسحورًا، وفي نفسه أمل عريض أن ينضم يومًا إلى قافلتهم الرائعة. وهنا يقول: «إذا رأيت مَنْ يصلي، أو مَنْ يقرأ القرآن، أعجبني، ودنوت منه، وأجد في نفسي غمًّا؛ لأنني لا أحفظ شيئًا من القرآن، ولا أعرف كيف أصلي».

لم يفارق هذا المشهد الطيب الأثير نفس شعيب، فدبر أن يعيشه مهما كان. وذات يوم فرّ من أخوته ومهمته، وراح يسرع إلى حيث أهل الذكر. لكن إخوته فطنوا إلى هروبه، فتعقبه أحدهم حتى لحق به، وزجره وهدده بالقتل إن لم يرجع معه، فعاد كسيف البال، محسورًا، إلا أنه لم يقطع الأمل أبدًا في أن ينال يومًا ما يريد.

وذات ليلة، ظل أبو مدين ساهرًا، حتى ظن أن إخوته قد غشيهم النوم، ففرَّ هاربًا، وسلك طريقًا آخر، ممنيًا نفسه بألا يكتشف أحد منهم أمره، وأن يصل في النهاية إلى مراده. لكن أخًا له تعقبه مرة ثانية، بعد أن اكتشف غيابه عن الدار، وبلغ الغيظ بالأخ حدًّا مفرطًا، فرفع سيفه ليضرب شعيبًا، لكن الغلام صدَّ السيف بعصا كانت في يده فانكسر. وعندها وقف أخوه الأكبر والاندهاش يكاد يعقد لسانه، وهو ينظر إلى العصا السليمة والسيف المكسور. وأدرك في لحظة أن هناك ما هو أكبر وأعلى من قدرة الأخ الأصغر وعصاه، فأطاع الهاتف الذي هزَّ أعماقه، وقال لأخيه: «لك ما تريد». فكانت أولى خطوات أبي مدين في طريق الله.

وسار بعدها الغلام إلى البحر، فألفى خيمة عامرة بالناس، ووقف عندها ينتظر، وبعد برهة خرج شيخ وسأله عن غايته، فبثَّ له الفتى خواطره، فأمره أن ينصرف إلى تعلم العلم، وقال له ما لم ينسه أبدًا: «إن الله لا يُعبد إلا بالعلم».

وبعدها عبر أبو مدين البحر، بعد أن صار عاملًا على متن إحدى السفن، حتى وصل إلى طنجة، فلم يجد فيها بغيته، فسار إلى سبتة، ومكث فيها فترة عمل خلالها مساعدًا لبعض الصيادين، لكن هذه المدينة لم تمنحه ما يريد، فما كان منه إلا أن سار إلى مرَّاكش، وهناك التقى بعض أهل الأندلس فألحقوه للعمل بالجندية، ليجد أناسًا غليظي القلوب، لا يستنكفون أن يأكلوا عطاءه، ويهضموا حقه، ويلحوا عليه في أن يقسو على الناس وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فأسرَّ إلى أحدهم بالسبب الذي أخرجه من داره وأطلقه إلى هنا، فقال له: «اذهب إلى فاس وستجد هناك ما تسعى إليه».

ولما وصل أبو مدين إلى فاس لزم مسجدها، وتعلّم الوضوء والصلاة، ثم اختار لنفسه حلقة ذكر وجلس إليها، وتنقل بين حلقات عدة، لكن عقله لم يلتقط الكثير، وكأن الشيوخ يتحدثون إلى مريديهم بلغة أعجمية. لكن ذلك لم يوهن من عزيمة أبي مدين فاستمر في تردده على مجالس العلماء، ونهل من معارفهم حتى ارتوى، فاكتمل له ما يجعله واحدًا منهم. وكانت فاس آنذاك تعج بأفكار الموحدين التي قامت على علوم الكلام والفقه، وبرز في هذا المضمار علماء كثر. وساقه القدر أخيرًا إلى حلقة الشيخ أبو الحسن بن حرزهم، الذي كان يتحدث بطريقة غير مستغلقة على الأفهام، في الفقه والتصوف. كذلك تعلم أبو مدين على يد الشيخ صالح أبو عبد الله الدقاق، وهو من كبار المتصوفة.

ذات مرة دنا أبو مدين من ابن حرزهم بعد أن فرغ من الدرس، وقال له: «حضرت مجالس كثيرة، فلم أثبت على ما يقال، وأنت كلما سمعت منك حفظته». فرد عليه الرجل: «هم يتكلمون بأطراف ألسنتهم، فلا يجاوز كلامهم الآذان، وأنا قصدت الله بكلامي، فيخرج من القلب».

لكن أبا مدين مال إلى التصوف، وذهب إلى الشيخ أبي يعزي، وكان أحد كبار الزاهدين، وأخذ العهد على يديه، وتدرّج في درب السالكين، حتى أصبح «قطبًا» كبيرًا. وقد كان أبو يعزي يمتحن مريديه امتحانًا عسيرًا في آداب السلوك، ليقف على صدق الإرادة وقوة العزيمة، ويميز بين اللاهي والجاد. ويروي أبو مدين جانبًا من هذا فيقول: «سمعت الناس يتحدثون بكرامات أبي يعزي، فذهبت إليه في جماعة توجهت لزيارته، فلمّا وصلنا جبل «إيروجان»، ودخلنا عليه، أقبل على القوم دوني، فلمّا أحضروا الطّعام منعني من الأكل، فجلست في ركن الدار، وكلما حضر الطعام وقمت إليه انتهرني، فأقمت على تلك الحال ثلاثة أيام وقد أجهدني الجوع، ونالني الذّل، فلما انقضت ثلاثة أيام، قام أبو يعزي من مكانه، فأتيت إلى ذلك المكان، ومرغت وجهي فيه، فلما رفعت رأسي نظرت فلم أرَ شيئًا، وصرت أعمى، فبقيت أبكي طول ليلتي. فلما أصبحت استدعاني وقال لي: قرِّب يا أندلسيّ! فدنوت منه، فمسح بيده على عيني فأبصرت، ثم مسح بيده على صدري وقال للحاضرين: هذا سيكون له شأن عظيم، أو قال كلامًا هذا معناه، ثم أذن لي في الانصراف».

وسرد أبو مدين طريقته في تلقي العلم، التي بيّنت حرصه على أن يتعدى مجرد حفظ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، إلى تدبر معانيها، وتذوق مراميها، والإلمام بأحكامها: «كنت إذا سمعت تفسير آية من كتاب الله تعالى، ومعه أحد أحاديث الرسول ، قنعت بهما، وانصرفت إلى خارج فاس، لموضع خال من الناس، اتخذته مأوى للعمل بما يفتح عليّ من الآية والحديث، ثم أعود إلى فاس فآخذ آية وحديثًا وأخرج إلى خلوتي».

وبعدها ساح في بلاد إفريقية شتى، وزار مكة، والتقى هناك الصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني الحسني، مؤسس الطريقة القادرية، فأخذ عنه في الحرم الشريف كثيرًا من الأحاديث، وألبسه خرقة الصوفية، وأودعه كثيرًا من أسراره. وكان أبو مدين يفتخر بهذه الصحبة، ولم ينسَ الكثير من أوراد القادرية، وكان أول من نقلها إلى المغرب.

استقر المقام بأبي مدين في «بجاية» التي كانت آنذاك قد بلغت أوج إشعاعها الثقافي والحضاري على عهد الحماديين: (408 -547هـ) ثم الموحدين. وجاء أبو مدين إلى بجاية يسبقه صيته، فالتفَّ الناس حوله، ونهض المريدون إليه، فتعلم على يديه أكثر من ألف تلميذ، أضافوا الكثير إلى مسيرة التصوف والفقه. وقد أطلق عليه تلامذته كثيرًا من الألقاب مثل: «شيخ المشائخ»، «الجامع بين الحقيقة والشريعة»، «صاحب مقام التوكل»، «مخرج الألف شيخ»، «علم العلماء»، «الحافظ»، «المفتى»، «صاحب الكرامات والخوارق»، و«القطب الغوث».

وكان ما قال أبو مدين في بجاية يخالف مذاهب فقهاء الموحدين، فأثار قلقهم، لا سيما بعد أن بلغت شهرته الآفاق، وزاد عدد مريديه إلى حدٍّ ملأ الأسماع والأبصار. وأحد الكتب التي كان يطلب من تلامذته مطالعته على الدوام «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، الذي ينطوي على بعض أسرار علم المكاشفة.

حظي أبو مدين بمكانة واسعة في نفوس كبار المتصوفة؛ إذ قال عنه محيي الدين بن عربي: «شيخنا أبو مدين من الثمانية عشر نفسًا الظاهرين بأمر الله عن أمر الله، لا يرون سوى الله في الأكوان. وهم أهل علانية وجهر، مثبتون للأسباب، وخرق العوائد عندهم عادة». وقال عنه أيضًا: «شيخنا أبو مدين رضي الله عنه، الغالب على قلبه وبصره مشاهدة الحق في كل شيء. فكل حال عنده أعمال، ومن ذكره في الملأ، فقد ذكره في نفسه، فإن ذكر النفس متقدم بلا شك، وما كل من ذكره في نفسه ذكره في الملأ، فهذه حالة زائدة على الذكر النفسي لها مرتبة تفوق صاحب ذكر النفس. لا يطلع عليه

في الحالين. فهو سِرٌّ بكل وجه، فصدقة الإعلان تؤذن بالاقتدار الإلهي، فمن يخفيها أو يُسرها، هو الظاهر في المظاهر الإمكانية، فهذه كانت طريقة شيخنا».

قال عنه الشيخ عبد الوهاب الشعراني: «هو أحد أعيان مشايخ المغرب، وصدور المربين، وشهرته تغني عن تعريفه». أما صاحب: «الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية» فيصفه بأنه «الأستاذ الأعظم، العارف الأفخم، عظيم الأكابر، رأس الصوفية في وقته، ورئيسهم المشهور، علم نعته زاهر، زاهد مراقب مشاهد، يقصد ويزار من جميع الأقطار، وببنان العرفان إليه يشار».

ووصفه صاحب شذرات الذهب: «كان من أهل العمل والاجتهاد منقطع القرين في العبادة والنسك، بعيد الصيت». أما صاحب طبقات المالكية فقال في حقه كلمات مؤثرة؛ إذ وصفه بأنه «شيخ المشايخ، وسيد العارفين، وقدوة السالكين. شيخ الطريقة، جمع الله له علم الشريعة والحقيقة. كان من الفضلاء وأعلام العلماء، ومن حُفَّاظ الحديث، خصوصًا الترمذي، وكان يقوم عليه. وكانت ترد إليه الفتاوى في مذهب مالك، فيجيب عنها في الوقت. مناقبه شهيرة، وكراماته كثيرة». وأوضح الشيخ أبو الصبر: «أبو مدين زاهد، فاضل، عارف بالله تعالى، خاض بحار الأحوال، ونال أسرار المعارف، خصوصًا مقام التوكل. لا يُشق غباره، ولا تُجهل آثاره». وأخيرًا يشير الدكتور عبد الحليم محمود إلى أن الآلاف خرجوا من ظلمة المعاصي إلى نور الهداية من خلال أبي مدين، ولما انتهت به الحياة، كان أثره ضخمًا ورصيده في الخير كبيرًا.

حدد أبو مدين الغوث معالم طريق القرب من الله بقوله: «من اشتغل بطلب الدنيا أُبتلي فيها بالذل». وحذّر من الميل إلى غير الله بقوله: «إياك أن تميل إلى غير الله فيسلبك لذة مناجاته».

وكان يردد دائمًا العبارات التالية:

- الله الحق. وكلماته كلها مدارها الحق.

- الحضور مع الحق جنة، والغيبة عنه نار، والقرب منه لذة، والبعد عنه حسرة، والأنس به حياة، والاستيحاش منه موت.

- نسيان العبد للحق طرفة عين خيانة.

- لا تُقنِط الناس وذكِّرهم بأنعم الله تعالى.

- من خدم الصالحين ارتفع بخدمته.

- أبناء الدنيا يخدمهم العبيد والإماء، وأبناء الآخرة الأحرار والكرماء.

- شاهد مشاهدته لك، ولا تشاهد مشاهدتك له.

- القريب مسرور بقربه، والمحب معذب بحبه.

- ليس للقلب إلا وجهة واحدة، متى توجَّه إليها حُجب عن غيرها.

- لا يصلح سماع هذا العلم إلا لمن حصلت له أربعة: الزهد، والعلم، والتوكل، واليقين.

والتقوى عنده أن ترى الله في أعمالك كافة، والتوكل الاعتماد على الله، فلا يغلب على ذكرك إلا الله، والتصوف التسليم لله، وحقيقته ألا تذكر ولا تشاهد سواه: «الله ربي لا أريد سواه، هل في الوجود الحي إلا الله».

والطريق عند أبي مدين يبدأ بالتوبة، ثم الإرادة: «طلب الإرادة قبل تصحيح التوبة غفلة. ومع التوبة تكون الطاعات، فمن يُهمل الفرائض ضيع نفسه».

وكان أبو مدين فقيهًا مفتيًا، يقصده الناس أو يراسلونه من أطراف الأرض للاستفتاء فيفتيهم، وكانت له مواقف ومخاطبات صوفية على شاكلة مواقف البسطامي والنِّفَّري ومخاطباتهما الصوفية، وكانت لـه منامات رمزية، وذكر صاحب الكواكب الدرية أن الشيخ قد ترك تصانيف منها كتاب «أُس التوحيد»، لكن معظم تراثه لا يزال في حكم الضياع، وينتظر من ينقب عنه، ويعثر عليه.

وكان الشيخ قوّالًا للحكمة ناظمًا للشعر، بما في ذلك الموشحات والأزجال، من أشهرها «القصيدة اللامية» في الاستغاثة والأدعية، وتتألف من خمسة وعشرين بيتًا، أبرزها:

لأَلْطَافِكَ الحُسْنَى مَدَدْتُ يَدَ الرَّجَا

وَحَالِي كَمَا تَدْرِي، وَأَنْتَ المُؤَمَّلُ

قَصدتُكَ مَلهُوفًا فُؤَادِي لِمَا طَرَا

وَ أَنْتَ رَؤُوفٌ مُحسِنٌ مُتَفَضِّلُ

...

وَ أَزْكَى سَلَامٍ لاَ يَزَالُ عَبِيرُهُ

يَفُوقُ عَلَى المِسْكِ الذَّكِيِّ وَ يَفْضُلُ

وَآلٌ وَ أَصْحَابٌ، بُدُورٌ وَسَادَةٌ

تَحَلَّوا فَكُلٌّ فِي حُلاَّهُ مُكَمَّلُ

وثمة أيضًا قصيدة «النونية الخمرية» التي يُقال إن عمر بن الفارض تأثر بها، حين نظم «ميميته» الشهيرة:

أَدِرْهَا لَنَا صِرْفًا وَ دَعْ مَزْجَهَا عَنَّا

فَنَحْنُ أُنَاسٌ لاَ نَعْرِفُ الْمَزْجَ مُذْ كُنَّا

وَ غَنِّ لَنَا فَالْوَقْتُ قَدْ طَابَ بِاسْمِهَا

لأَنَّا إِلَيْهَا قَدْ رُحْنَا بِهَا عَنَّا

أما آخرها:

وَحَتَّى غُصُونُ الْبَانِ مَالَتْ تَرَنُّمًا

وَغَنَّتْ عَلَيْهِ كُلُّ صَادِحَةٍ شَجْنَا

أَهَلْ عَائِدٌ لِيَ وَقْتٌ كَيْ أَرَى بِهَا

خَيَالَ سِوَى زَائِرِ مَضْجَعِي وِمْنَا

ولما اشتهر أمره ببجاية وشى به بعض علماء الظاهر عند الخليفة الثالث للدولة الموحدية يعقوب المنصور، الذي امتدت ولايته من 580 إلى 595هـ، قالوا له في وشايتهم: إنه خطر على دولتكم، فإن له شبهًا بالإمام المهدي، وأتباعه كُثُر في كل بلد، فوقع في قلبه، وأهمَّه شأنه، فبعث إليه يطلب منه القدوم عليه ليختبره، وكتب لصاحبه أن يحمله خير محمل.

فلما أخذ أبو مدين يستعد للسفر إلى مراكش، عاصمة الدولة الموحّدية، للمثول بين يدي المنصور شقَّ ذلك على أصحابه، فطمأنهم الشيخ وكان مما قاله لهم: «شعيب شيخ كبير ضعيف لا قوة له

للمشي، ومنيته قدّرت بغير هذا المكان، ولا بد من الوصول إلى موضع المنية، فقيض الله لي من يحملني إلى مكان الدفن برفق، ويسوقني إلى مرام المقادير أحسن سوق، والقوم لا أراهم ولا يروني (يقصد السّلطان)»، فرقَّ حالهم لذلك، وطابت نفوسهم، لاعتقادهم أن ذلك من كراماته.

فلما وصل الموكب به إلى ولاية تلمسان، مرض الشيخ مرضًا شديدًا، حتى وافته المنية في وادي يسر سنة 594هـ، وحُمل الجثمان إلى قرية العباد، مدفن الأولياء، وكانت جنازته يومًا مشهودًا، خرج فيها أهل تلمسان عن بكرة أبيهم، تقديرًا منهم للولّي الكبير، ومنذ ذلك الحين، صارت تلمسان مدينة أبي مدين، يعرف بها وتعرف به.

وقيل إن أبا مدين ردَّد قبيل وفاته: «لا بأس من النوم في هذا المكان». ثم كانت الإغماضة الأخيرة. وقال أبو علي الصواف: «لما اُحتُضر الشيخ أبو مدين استحييت أن أقول له: أوصني، فأتيته بغير، وقلت له: هذا فلان فأوصه». فقال: سبحان الله، وهل كان عمري كله معكم إلا وصية؟ وأي وصية أبلغ من مشاهدة الحال»؟ وقال الصواف: «سمعته عند النزع الأخير قال: الله الله الله، الله الحق، الله الحي، حتى رق صوته، وصمت إلى الأبد».

أبو يزيد البسطامي

أستاذ الحلاج المُختلف على أحواله وأقواله

لم يختلف العلماء والفقهاء والمتصوّفة على أحد في تاريخ التصوف الإسلامي أكثر من اختلافهم عليه. فثمة من نسب إليه شطحات تُخرج من الملة، وثمة من تحدث له عن كرامات تخلب الألباب. لكنْ ثمة اتفاق على أنه هو من أسّس «الشطح» في التصوف، وفتح الباب واسعًا أمام الحلاج، ليأتي ويهذي ويُصلب ويُقتل.

هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البِسطامِي، كان جده زرادشتيًّا من أهل بسطام وأسلم، اسمه الفارسي بايزِيد؛ وعُرف كذلك باسم طيفور، وله أخوان هما آدم وعلي، وكانا من الزاهدين. لكن أبا يزيد أجلّهم حالًا ومقامًا. وقد تتلمذ البسطامي على يدي شيخ المشايخ أبي الحسن الخرقاني، ومصطفى البكري شيخ الطريقة الخلوتية، حيث أعطاه عهد الطريقة النقشبندية.

قال عنه ابن عربي في «المواهب السرمدية»: هو القطب الغوث في زمانه حيث ذكر: من الأقطاب من يكون ظاهر الحكم، ويحوز الخلافة الظاهرة كما حاز الباطنة من جهة المقام كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم، ومنهم من له الخلافة الباطنة ولا حكم له في الظاهرة كأبي يزيد. وإنه لما تكلم في علوم الحقائق ولم يفهم أهل عصره كلامه رموه بالعظائم ونفوه من بلده سبع مرات، وهم في كل مرة يختل أمرهم وينزل بهم البلاء حتى أذعنوا له وأجمعوا تعظيمه.

ووصفه أبو الحسن الشاذلي بأن له صولة، بل كلامه من أقوى ما تقرأ من كلام سادتنا الأولياء رضي الله عنهم وأسرعه تأثيرًا.

وأشهر ما يروى عن البسطامي قصته مع أحد القساوسة التي تقول: في يوم من الأيام ذهب الشيخ البسطامي لزيارة أحد أصدقائه النصارى، وهو جالس عنده في البيت عرض عليه النصراني أن يذهب معه إلى الدير، فقال له: كيف لي أن أذهب إلى الدير وأنا مسلم وكل سوف يعرفني. قال له: لا عليك تخفى بلبس أعطيك إياه. فوافقه وذهب معه. ودخل إلى الدير، وكل هناك متجمِّع جالس ينتظر القسيس؛ ليلقي عليهم عظته. وعند الانتظار دخل القس، والكل صمت، وجلس على الكرسي الخاص به ولم يتكلم، فسألوه: ما بك يا أبانا لا تتحدث؟ قال: ما أنا بمتحدث حتى يخرج المحمدي من بينكم. وتفاجأ الجميع بهذا الكلام وتساءلوا: كيف يجرؤ المحمدي على الدخول إلى هذا المكان، ورفعوا سيوفهم يريدون أن يفتكوا به، ولكن القس استوقفهم، وقال: لن يخرج حتى تعطوه الأمان، فخفضوا أسلحتهم، وقال له القس: اخرج عليك الأمان. قالوا: كيف عرفته؟ قال: إن أمة محمد معروفة وتلى قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: 29]. فوقف الشيخ البسطامي ولم يخرج، فقال له القس: اخرج. قال ما أنا بخارج. فقال له: سوف نسمح لك أن تجلس معنا بشرط أن تجيب على كل الأسئلة التي سوف نسألها لك، وإذا تعثرت بسؤال واحد سوف نقطع رأسك. فوافق البسطامي. فقال له القس:

- ما الواحد الذي لا ثاني له؟

قال: قل هو الله أحد.

- ما الاثنان اللذان لا ثالث لهما؟

قال: الليل والنهار.

- ما الثلاثة التي لا رابع لها؟

قال: أعذار موسى للخضر وهي: خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار.

- ما الأربعة التي لا خامس لها؟

قال: التوراة والزبور والإنجيل والقرآن الكريم.

- ما الخمسة التي لا سادس لها؟

قال: الصلوات الخمس.

- ما الستة التي لا سابع لها؟

قال: هي الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض.

فسأل القس: لماذا ختم الله بهذه الآية: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: 38].

قال: لأن اليهود قالوا: إن الله لمّا خلق السموات والأرض في ستة أيام تعب فاستراح يوم السبت وهو اليوم السابع فرد عليهم بالآية السابقة.

- وما الثمانية التي لا تاسع لها؟

فقال له: حملة العرش.

- وما المعجزات التسع؟

فقال له: معجزات موسى وهي: اليد، والعصا، والطمس، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنون.

- وما العشرة التي تقبل الزيادة؟

فقال: قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160].

- وما الأحد عشر؟

فقال: إخوة يوسف عليه السلام.

- وما المعجزة المكونة من إثني عشر أمرًا؟

فقال: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ [البقرة: 60].

- وما الثلاثة عشر؟

قال: إخوة يوسف وأمه وأبيه.

- ما هو الشيء الذي تنفس ولا روح فيه؟

قال له: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: 18]. أي أضاء.

- ومن هو الذي سار به قبره؟

قال: يونس عليه السلام.

- من هم الذين صدقوا ودخلوا النار؟

قال: اقرأ قوله تعالي: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ﴾ [البقرة: 113].

- ما الشيء الذي خلقه الله وأنكره؟

قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19].

- ومن هم الذين كذبوا ودخلوا الجنة؟

قال: إخوة يوسف عليه السلام عندما قالوا أكله الذئب.

- ما هي الأشياء التي خلقها الله وليس لها أب أو أم؟

قال: الملائكة.

- ما هي الشجرة المكونة من اثني عشر غصنًا في كل غصن ثلاثون ورقة وفي كل ورقة خمس ثمرات، ثلاث منها في الظل، واثنتان في الشمس؟

قال: هي السنة فيها اثني عشر شهرًا، في الشهر ثلاثون يومًا، في اليوم خمس صلوات، ثلاث في الليل واثنتان في النهار.

قال أبو يزيد للقس: إني سائلك سؤالًا واحدًا فقط، فأجبني عليه.

قال: ما هو؟

- ما هو مفتاح الجنة؟

فوجم القس وظلَّ جامدًا.

فقال له أصحابه: سألته كل هذه الأسئلة وأجابك عليها، ويسألك سؤالًا واحدًا ولم تُجبه؟

فقال: إني يا أبنائي خائف منكم.

فقالوا: أجبه ولا تخف.

قال: مفتاح الجنة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

اشتهر البسطامي بالشطحات التي يقشعرّ منها البدن. فها هو الذهبي ينسب إليه في «ميزان الاعتدال» إنه كان يقول: «سبحاني وما في الجنة إلا الله، ما النار لأستندن إليها غدًا وأقول: اجعلني لأهلها فداءً أو لأبلغنهم أن ما الجنة إلا لعبة صبيان، هَبْ لي هؤلاء اليهود، ما هؤلاء حتى تعذبهم».

وينسب الشعراني إلي أبي يزيد البسطامي شطحات عدة، منها قوله: «كان لا يخطر بقلبي شيءٌ إلا أخبرني به». وقوله: «أدخلني الحيُّ في الفلَك الأسفل فدوَّرني في الملكوت الأسفل، فأرانيه، ثم أدخلني في الفلك العلوي وطوى بي السماوات! فأراني ما فيها إلي العرش، ثم أوقفني بين يديه، فقال: سلني أيَّ شيء رأيته حتى أهبه لك! فقلت: ما رأيتُ شيئًا حسنًا فأسألك إياه! فقال: أنت عبدي حقًّا تعبدني لأجلي صدقًا».

وقد جمع قاسم محمد عباس عددًا كبيرًا من شطحاته في كتاب له، ومنها: «أراد موسى عليه السلام أن يرى الله تعالى، وأنا ما أردت أن أرى الله، هو أراد أن يراني»، و«أسألك ألا تحجب الخلق بك عنك، وتحجبهم عنك بي، إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون»، و«أشرف الحق على أسرار العالم فشاهدها خالية منه غير سري فإنه رأى منه ملاءً فخاطبني معظِّمًا لي بأن قال: كل العالم عبيدي غيرك». و«إن كنت تحب أنانتك لي، فإني قد وهبت أنانتي لك، فافعل ما تريد»، و«أنا لا أنا أنا أنا؛ لأني أنا هو، وأنا هو هو»، و«بطشي أشد من بطشه بي»، و«سبحاني ما أعظم شأني، حسبي من نفسي حسبي» و«طاعتك لي يا رب أعظم من طاعتي لك»، و«لئن تراني مرة خير لك من أن ترى ربك ألف مرة».

ومن هذه الشطحات ما ذكره ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس» فقال: «كان رجل من أهل بسطام لا ينقطع عن مجلس أبي يزيد لا يفارقه فقال له ذات يوم: يا أستاذ أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر وأقوم الليل وقد تركت الشهوات ولست أجد في قلبي من هذا الذي نذكره شيئًا البتة، فقال له أبو يزيد: لو صمت ثلاثمئة سنة وقمت ثلاثمئة سنة وأنت على ما أراك لا تجد من هذا العلم ذرة، قال: ولِمَ يا أستاذ؟ قال: لأنك محجوب بنفسك، فقال له: أفلهذا دواء حتى ينكشف هذا الحجاب؟ قال: نعم ولكنك لم تقبل، قال: بلى أقبل وأعمل ما تقول، قال أبو يزيد: اذهب الساعة إلى الحجَّام واحلق رأسك ولحيتك وانزع عنك هذا اللباس وأبرز بعباءة وعلِّق في عنقك مخلاة واملأها جوزًا واجمع حولك

صبيانًا وقل بأعلى صوتك يا صبيان من يصفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل إلى سوقك الذي تعظم فيه، فقال: يا أبا يزيد سبحان الله تقول لي مثل هذا ويحسن أن أفعل هذا، فقال أبو يزيد: قولك سبحان الله شرك، قال: وكيف؟ قال: لأنك عظَّمت نفسك فسبَّحتها، فقال: يا أبا يزيد هذا ليس أقدر عليه ولا أفعله ولكن دلني على غيره حتى أفعله فقال أبو يزيد: ابتدر هذا قبل كل شيء حتى تسقط جاهك وتذل نفسك ثم بعد ذلك أعرفك ما يصلح لك، قال: لا أطيق هذا، قال: إنك لا تقبل».

وقد اعتقد الصوفية في البسطامي ما هو خارق للعادة، وما ليس إلا للخالق العظيم، وما لا يصدر إلا عن شاطح أو مريض نفسي. فقال بعضهم إن البسطامي قتل نملة خطأ فنفخ فيها فأحياها خوفًا من المطالبة. وينقلون أنه كان يكلم الله تعالى قائلًا: أوقفني الحق بين يديه وقال: يا أبا يزيد بأي شيء جئتني؟ قلت: بالزهد بالدنيا، قال: إنما مقدار الدنيا عندي جناح بعوضة ففيم زهدت؟ قلت: إلهي أستغفرك جئتك بالتوكل عليك. قال: ألم أكن ثقة فيما ضمنت لك. قلت: أستغفرك جئتك بك، أو قال: بالافتقار إليك. فقال: عند ذلك قبلناك.

ونظرًا إلى هذه الشطحات المنسوبة للبسطامي فإن كثيرًا من العلماء خطَّأه وجعل ذلك من أكبر البدع وأنها تدل على اعتقاد فاسد كامن في القلب.

ويعدّ البسطامي من مؤسسي مدرسة الشطح في الإسلام، فقد أخذ الكثير عن الرؤى الفارسية والهندية واليونانية، وبثّها في فضاء الثقافة الإسلامية، بلغة تقترب من الشعر. ومن ثم اعتبر مؤرخو التصوف ودارسوه أنه هو ذلك الثيوصوفي الهلليني الذي هيأ الأرضية المناسبة لظهور الحلاج.

ويختلف موقف العلماء من هذه الشطحات المنسوبة إلى أبي يزيد البسطامي؛ فمنهم من يصححها ويجعلها دلالة على الولاية، ومنهم من قال: إن هذه العبارات خرجت من البسطامي، وهو فاقد العقل بسبب السكر والمشاهدة.

وقد أحسن الذهبي الظن بالبسطامي، وكان لا يتصور أن يصدر مثل هذا الكلام من فاسق فضّل أن يكون زاهدًا يطلب الآخرة، واتّهم البعض بأنهم نقلوا عن البسطامي أمورًا من متشابه القول، مشكوك في صحتها عنه، حيث لا تصح عن مسلم، وأن هذا الشطح إن صح عنه فقد يكون قاله في حالة سكره.

وكان أبو حامد الغزالي لا يصحح هذه الشطحات، ويرى أنها فُهمت خطأ، ولذا يقول في «إحياء علوم الدين»: وأما أبو يزيد البسطامي، رحمه الله، فلا يصح عنه ما يُحكى وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه، كما لو سمع وهو يقول: «إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني»، فإنه ما كان ينبغي أن يُفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية.

وقد سعى الحافظ أبو نعيم في «حلية الأولياء» إلى تصحيح كلام البسطامي، وقال: إشاراته هائنة، وعباراته كامنة، لعارفيها ضامنة، ولمنكريها فاتنة. أما العماد بن كثير فقال في «البداية والنهاية»: وقد حُكي عنه شطحات ناقصات، وقد تأولها كثير من الفقهاء والصوفية وحملوها على محامل بعيدة، وقد قال بعضهم: إنه قال ذلك في حال الاصطلام والغيبة.

وثمة مَنْ يقول إن ما ورد بشأن البسطامي في كتاب «لطائف المنن» المنسوب لابن عطاء السكندري، هو كلام مدسوس عليه. فالبسطامي لا يمكن أن يقول: «خضت بحرًا وقفت الأنبياء بساحله» فهذا كلام ظاهر البطلان فيه رفع لمقام أبي يزيد فوق مقام الأنبياء. كذلك لا يمكنه أن يشطح ويقول: «سبحاني ما أعظم شأني»، أو يقول: «أنا الحق»، أو «الجنة ملعبة الصبيان». فالمعروف عنه أنه كان من المتمسكين بآداب السنة النبوية، حالًا وقولًا وفعلًا.

وثمة واقعة تبرهن على ذلك، فقد كان في زمن البسطامي رجل مشهور بالورع والزهد فقال يومًا أبو يزيد البسطامي لأصحابه: قوموا بنا ننظر إلى الرجل الذي شهر نفسه بالولاية، فذهبوا معه، فلما

خرج الرجل من منزله ودخل مسجده تفل نحو القبلة فقال أبو يزيد: قوموا بنا ننصرف من غير أن نسلم فإن هذا الرجل ليس بمأمون على أدب من آداب الشريعة التي أدب بها رسول الله، ، فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه من مقامات الأولياء الصديقين.

كان أبو يزيد يزجر نفسه فيصيح عليها ويقول: يا مأوى كل سوء، المرأة إذا حاضت طهرت في ثلاثة أيام وأكثره لعشرة، وأنتِ يا نفس قاعدة منذ عشرين وثلاثين سنة بعد ما طهرت، فمتى تطهرين؟ إن وقوفك بين يدي الله عز وجل طاهر فينبغي أن تكوني طاهرة.

ونقل الذهبي في كتاب «تاريخ الإسلام» بعض أقواله في هذا المقام، ومنها: «ما وجدت شيئًا أشد عليَّ من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيت حائرًا». ومنها: «لله خلق كثير يمشون على الماء، وليس لهم عند الله قيمة، و«لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة».

وثمة من يرد على ما هو منسوب إلى البسطامي من شطحات، بإظهار جوانب الزهد والورع في حياة الرجل. فقد كان يقول: غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء: توهمت أني أذكره، وأعرفه، وأحبه، وأطلبه. فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته تقدمت معرفتي، وطلبه لي أولًا حتى طلبته.

وقال أبو يزيد: عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئًا أشد عليَّ من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لتعبت، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد.

وقال أبو يزيد: لا يعرف نفسه مَنْ صحبته شهوته.

وقد سُئل البسطامي: ما علامة العارف؟ قال: أن لا يفتر من ذكره، ولا يمل من حقه، ولا يستأنس بغيره.

وقال: إن الله أمر العباد ونهاهم فأطاعوا فخلع من خلعه فاشتغلوا بالخلع عنه، وإني لا أريد من الله إلا الله.

ويروي العباس بن حمزة قائلًا: صليت خلف أبي يزيد البسطامي الظهر، فلما أراد أن يرفع يديه ليكبر لم يقدر إجلالًا لاسم الله، وارتعدت فرائصه حتى كنت أسمع تقعقع عظامه، فهالني ذلك.

وكان البسطامي يتوجه إلى الله ويناجيه: ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير، بل إنما العجب من حبك لي وأنت ملك قدير.

وقال: لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر الله أتمضمض وأغسل لساني إجلالًا لله أن أذكر.

وقد بلغ به التواضع وإنكار الذات إلى أن يقول: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر. وهنا يقول أيضًا: أشد المحجوبين عن الله ثلاثة بثلاثة، أولهم: الزاهد بزهده، والثاني: العابد بعبادته، والثالث: العالم بعلمه. ثم قال: مسكين الزاهد، لو علم أن الله عز وجل سمَّى الدنيا كلها قليلًا فكم ملك من الدنيا؟ وفي كم زهد مما ملك؟ وأما العابد فلو رأى منَّة الله عليه في العبادة عرف عبادته في المنة، وأما العالم فلو علم أن جميع ما أبدى الله عز وجل من العلم سطر واحد من اللوح المحفوظ فكم علم هذا العالم من ذلك السطر؟ وكم عمل مما علم؟

وسأله رجل: مَنْ أصحب؟ فقال: مَنْ لا تحتاج أن تكتمه شيئًا مما علمه الله منك. وكان يقول أيضًا: «أبعد الخلق من الله أكثرهم إشارة إليه».

ويُروى عنه أنه قال: طلَّقت الدنيا ثلاثًا بتاتًا لا رجعة لي فيها، وصرت إلى ربي وحدي فناديته بالاستغاثة: إلهي أدعوك دعاء مَنْ لم يبقَ له غيرك. فلما عرف صدق الدعاء من قلبي، واليأس من نفسي، كان أول ما ورد عليَّ من إجابة هذا الدعاء أن أنساني نفسي بالكلية ونصب الخلائق بين يدي

مع إعراضي عنهم. وكان يقول أيضًا: الناس كلهم يهربون من الحساب ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني، فقيل له: لِمَ؟ قال: لعله أن يقول لي فيما بين ذلك: يا عبدي، فأقول: لبيك. فيقول لي: عبدي أعجب إليَّ من الدنيا وما فيها. ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء.

ويروي أبو موسى الديبلي، عن أبي يزيد قائلًا: نظرت فإذا الناس في الدنيا متلذذون بالنكاح والطعام والشراب، وفي الآخرة بالمنكوح والملذوذ، فجعلت لذتي في الدنيا ذكر الله عز وجل، وفي الآخرة النظر إلى الله. وقد سأله الديبلي: مَنْ أصحب؟ قال: مَنْ إذا مرضت عادك، وإذا أذنبت تاب عليك، ومَنْ يعلم منك ما يعلمه الله منك.

وثمَّة قصة تبيّن بره بوالدته، يرويها هو قائلًا: طلبت أمي ماء فجئتها فوجدتها نائمة فقمت أنظر يقظتها فلما استيقظت قالت: أين الماء؟ فأعطيتها الكوز وقد كان سال الماء على إصبعي فجمد عليها الماء من شدة البرد، فلما أخذت الكوز انسلخ جلد إصبعي فسال الدم فقالت: ما هذا؟ فأخبرتها فقالت: اللهم إني راضية عنه فارضَ عنه.

وخرج البسطامي إلى الجامع يوم الجمعة في الشتاء فزلقت رجله فمسك بجدار بيت فذهب إلى صاحبه فإذا هو مجوسي فقال له: قد استمسكت بجدارك فاجعلني في حلٍّ، قال: أَوَ في دينكم هذا الاحتياط؟ قال: نعم، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وقال أبو تراب: سألته عن الفقير، هل له وصف فقال: نعم! لا يملك شيئًا، ولا يملكه شيء.

وقد مات سنة إحدى وستين، وقيل: سنة أربع وستين ومئتين، عن ثلاث وسبعين سنة، ويُقال إنه دُفن في بسطام، لكن بات له أربعون مقامًا في بلاد شتى.

بشر الحافي

اللص الذي صار عبدًا ربانيًّا

حين رزقه الله الهداية، خلّى الدنيا وراء ظهره، وهجر النساء، واعتزل الناس، وخلع نعليه وسار إلى الله حافيا، كيوم ولدته أمه. كان لصًّا خمارًا قمارًا، ووقعت له حادثة، كان يمكن أن تمر على من ليس عنده قلب ينبض، ومشاعر تفيض، وروح تهيم، مرورًا عابرًا، لا شيء فيها ولا معنى. أما هو فقد ولد من جديد، بعد أن اهتزت كل خلايا جسده، وخلجات نفسه، ووجد ما كان يبحث عنه من دون أن يدري.

هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان، شيخ الإسلام أبو نصر المروزي، ثم البغدادي، المشهور بالحافي، ابن عم المحدث علي بن خشرم. ولد سنة 152هـ في بغداد، وكان اسم جده عبد الله الغيور، ومسقط رأسه كان مرو في خراسان، وقد أسلم على يدي عليّ بن أبي طالب، كرَّم الله وجهه. وطلب «بشر» العلم فتلقاه على أيدي مالك بن أنس، وشُريك، وحماد بن زيد، وإبراهيم بن سعد، وأبي الأحوص، وخالد بن عبد الله الطحان، وفضيل بن عياض، والمعافى بن عمران، وعبد الله بن المبارك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وعدة، وغيرهم.

وقد سمي الحافي لأنه كان لا يلبس نعلا. وكان وراء تركه النعل حكاية تُروى، وهو أنه جاء ذات مرة إلى الإسكافي فطلب منه شراكًا لنعله، فقال له الرجل: ما أكثر كلفتكم يا فقراء على الناس، فطرح بشر النعل من يده، وخلع الأخرى من رجله، وحلف ألا يلبس نعلًا أبدًا.

ويُقال إنه جاء يومًا إلى باب فطرقه، فقيل مَنْ ذا؟ فقال: بشر الحافي، فقالت له جارية صغيرة: لو اشترى نعلًا بدرهم لذهب عنه اسم الحافي.

وهناك رواية أدق يذكرها حسن المسوحي، ناسبًا إياها إلى بشر نفسه؛ إذ يقول: أتيت باب المعافى، فدققت، فقيل: مَنْ؟ قلت: بشر الحافي. فقالت جويرية: لو اشتريت نعلا بدانِقَيْنِ ذهب عنك اسم الحافي.

ويقال إن بشرًا كان شاطرًا، أي لصًّا، في بدء أمره، وقيل إنه كان قمَّارا خمَّارا زمَّارا وكان لا يتورَّع عن فعل المنكرات والمحرمات، صغيرها وكبيرها. ويروى أن سبب توبته أنه وجد رقعة فيها اسم الله عز وجل في حمَّام فرفعها ورفع طرفه إلى السماء وقال: سيدي، اسمك هاهنا ملقى يُداس، ثم ذهب إلى عطار فاشترى بدرهم غالية، وضمخ تلك الرقعة منها، ووضعها حيث لا تُنال، فأحيا الله قلبه، وألهمه رشده، وصار إلى ما صار إليه من العبادة والزهادة.

وهناك رواية أخرى في توبته تقول: إن الإمام الكاظم كان مارًّا من أمام بيت بشر، وكانت أصوات اللهو والطرب تملأ المكان فصادف أن فتحت جارية باب الدار لإلقاء بعض الفضلات، وحين رمت بها في الطريق سألها الإمام: يا جارية! هل صاحب هذه الدار حرّ أم عبد؟! فأجابته الجارية وهي مستغربة سؤاله: هذا بشر رجل معروف بين الناس، وقالت: بل هو حرّ! فقال الإمام: صدقتِ، لو كان عبدًا لخاف من مولاه. ثم انصرف.

فعادت الجارية إلى الدار، وكان بشر جالسًا إلى مائدة الخمر، فسألها: ما الذي أبطأكِ؟ فنقلت له ما دار بينها وبين الإمام، وعندما سمع ما نقلته من قول الكاظم: صدقتِ، لو كان عبدًا لخاف من مولاه. اهتزَّ هزًّا عنيفًا أيقظه من غفلته، وأيقظه من نومته، نومة الغفلة عن الله. ثم سأل بشر الجارية عن الوجهة التي توجَّه إليها الإمام، فأخبرته فانطلق يعدو خلفه، حتى إنه نسي أن ينتعل حذاءه، وكان في الطريق يحدّث نفسه بأن هذا الرجل هو الإمام موسى بن جعفر، وفعلًا ذهب إلى منزل الإمام، فتاب على يده واعتذر وبكى ثم هوي على يدي الإمام يقبلهما وهو يقول: سيدي، أريد من هذه الساعة أن أصبح عبدًا ولكن عبدًا لله، لا أريد هذه الحرية المذلة التي تأسر الإنسانية فيّ، وتطلق العنان للشهوة الحيوانية، لا أريد حرية السعي وراء الجاه والمنصب، لا أريد حرية الخوض في مستنقع الذنوب وأغدو أسيرًا لها. لا أريد أن تؤسر فيّ الفطرة السليمة والعقل السليم، من هذه الساعة أريد أن أصبح عبدًا لله ولله وحده، حرًّا تجاه غيره. ولهذا تاب بشر وهجر الذنوب من تلك اللحظة ونأى عنها وأتلف

كل وسائل الحرام، وأقبل على الطاعة والعبادة إقبالا مخلصًا، لا شائبة فيه.

وروى لأبي داود والنسائي أنه كان له ثلاث أخوات عابدات صالحات، هن: مخة، ومضغة، وزبدة. وقيل إن إحداهن ذهبت إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت: إني ربما انطفأ السراج وأنا أغزل على ضوء القمر فهل عليَّ عند البيع أن أميز هذا من ذاك؟

فقال: إن كان بينهما فرق فميّزي للمشتري.

وقالت له مرَّة إحداهن: ربما تمرُّ بنا مشاعل بني طاهر في الليل ونحن نغزل فنغزل الطاق والطاقين والطاقات فخلصني من ذلك.

فأمرها بأن تتصدق بذلك الغزل كله لما اشتبه عليها من معرفة ذلك المقدار.

وسألته عن أنين المريض: أفيه شكوى؟

قال: لا، إنما هو شكوى إلى الله عز وجل.

ثم خرجت فقال لابنه عبد الله: يا بني، اذهب خلفها فاعلم لي مَنْ هذه المرأة؟

قال عبد الله: فذهبت وراءها فإذا هي قد دخلت دار بشر، وإذا هي أخته مخة.

وروى الخطيب أيضًا عن زبدة قالت: جاء ليلة أخي بشر فدخل برجله في الدار وبقيت الأخرى خارج الدار، فاستمر كذلك ليلته حتى أصبح.

فقيل له: فيم تفكرت ليلتك؟

فقال: تفكَّرت في بشر النصراني، وبشر اليهودي، وبشر المجوسي، وفي نفسي؛ لأن اسمي بشر، فقلت في نفسي: ما الذي سبق لي من الله حتى خصني بالإسلام من بينهم؟ فتفكرت في فضل الله عليَّ وحمدته أن هداني للإسلام، وجعلني ممن خصَّه به، وألبسني لباس أحبابه.

ويشهد له معاصروه وتلاميذه بأنه كان زاهدًا عابدًا، جديرًا بأن يُقتدى به، وكان ورعًا يحاسب نفسه حسابًا شديدًا، فالإمام أحمد بن حنبل يقول: لو كان بشر تزوج، لتم أمره. ولما مات وجاءه خبره قال: مات والله وما له نظير، إلا عامر بن عبد قيس، فإن عامرًا مات ولم يترك شيئًا.

أما إبراهيم الحربي فيقول: ما أخرجت بغداد أتم عقلًا من بشر، ولا أحفظ للسانه، كان في كل شعرة منه عقل، لو قُسِّم عقل بشر على أهل بغداد، صاروا عقلاء. وطئ الناس عقبه خمسين سنة، ما عرف له غيبة لمسلم، ما رأيت أفضل منه.

ويصفه المحدِّث الشهير الدارقطني بأنه: زاهد جبل ثقة، ليس يروي إلا حديثًا صحيحًا. وقد أفرد ابن الجوزي مناقبه في كتاب.

وقال الخليفة المأمون عنه: لم يبقَ في هذه الكورة أحد يستحيا منه غير هذا الشيخ بشر بن الحارث. وقد ترجمه ابن عساكر فأطنب وأطيب وأطال من غير ملال، وقد ذكر له أشعارًا حسنة، وذكر أنه كان يتمثل بهذه الأبيات:

تعاف القذى في الماء لا تستطيعه

وتكرع من حوض الذنوب فتشرب

وتؤثر من أكل الطعام ألذه

ولا تذكر المختار من أين يكسب

وترقد يا مسكين فوق نمارق

وفي حشوها نار عليك تلهب

فحتى متى لا تستفيق جهالة

وأنت ابن سبعين بدينك تلعب

وكان بشر يتحسَّب لرواية الحديث النبوي، ولذا قل ما روي عنه من المسندات، بل يُقال إنه دفن كتبه، تخوفا من أن يكون بها ما يُخالف الشرع، ويُغضب الله.

وهنا يقول إبراهيم بن هاشم: دفنًا لبشر بن الحارث ثمانية عشر ما بين قمطر إلى قوصرة، يعني من الحديث.

وقد سُئل ذات مرة: لِمَ لا تحدِّث؟ فقال: أنا أشتهي أن أُحدث، وإذا اشتهيت شيئًا، تركته. ويروي إسحاق الحربي: سمعت بشر بن الحارث يقول: ليس الحديث من عدة الموت. فقلت له: قد خرجت إلى أبي نعيم، فقال: أتوب إلى الله.

وعن أيوب العطار: إنه سمع بشرًا يقول: حدثنا حماد بن زيد.. ثم قال: أستغفر الله، إن لذكر الإسناد في القلب خيلاء.

قال الحافظ موسى بن هارون: حدثنا محمد بن نعيم، قال: رأيتهم جاءوا إلى بشر، فقال: يا أهل الحديث، علمتم أنه يجب عليكم فيه زكاة، كما يجب على من ملك مئتي درهم خمسة. قلت: هذا على المبالغة، وإلا فإن كانت الأحاديث في الواجبات فهي موجبة، وإن كانت في فضائل الأعمال فهي فاضلة، لكن يتأكد العمل بها على المحدث. وقال أبو نشيط: نهاني بشر عن الحديث وأهله. وقال: أتيت يحيى القطان، فبلغني أنه قال: أحب هذا الفتى لطلبه الحديث.

وقال يعقوب بن بختان: سمعت بشر بن الحارث يقول: لا أعلم أفضل من طلب الحديث لمن اتقى الله، وحسنت نيته فيه، وأما أنا، فأستغفر الله من طلبه، ومن كل خطوة خطوت فيه.

وقال ابن أبي داود: قلت لعلي بن خشرم لما أخبرني أن سماعه وسماع بشر من عيسى بن يونس واحد، قلت له: فأين حديث أُمِّ زَرْع؟ قال: سماعي معه، وكنت كتبت إليه أن يوجه به إليّ، فكتب إليَّ: هل عملت بما عندك حتى تطلب ما ليس عندك ؟ ثم قال علي: ولد بشر في هذه القرية، وكان في أول أمره يُتَفَتَّى، وقد جَرَح.

ويقول محمد بن المثنى صاحب بشر: قال رجل لبشر وأنا حاضر: إن هذا الرجل - يعني أحمد بن حنبل - قيل له: أليس الله قديما وكل شيء دونه مخلوق؟ قال: فما ترك بشر الرجل يتكلم حتى قال: لا، كل شيء مخلوق إلا القرآن.

وقال محمد بن سعيد: سمع بشر كثيرًا ثم اشتغل بالعبادة واعتزل الناس ولم يُحدِّث.

وكان بشر الحافي زاهدًا متقشفًا، فقد كان يعتبر أن «الجوع يصفّي الفؤاد، ويُميت الهوى، ويورِّث العلم الدقيق». وكان يقول: «إني لأشتهي شواءً منذ أربعين سنة، ما صَفا لي درهمه». وقال أيضًا: «المتقلب في جوعه كالمتشحط في دمه في سبيل الله». ويُروى أنه قد أقام بعبدان يشرب ماء البحر، ولا يشرب من حياض السلطان، حتى أضر بجوفه، ورجع إلى أخته وجعًا، وكان يعمل المغازل ويبيعها، فذاك كسبه.

وفي هذا المضمار يقول جعفر النهرواني: سمعت بشر بن الحارث يقول: إن عوج بن عنق كان يخوض البحر، ويحتطب الساج، كان أول من دلَّ على الساج، وكان يأخذ من البحر حوتا، فيشويه في عين الشمس.

لكن هذا لم يكن يعني أبدًا أن الحافي كان يقبل الشح، بل كان يحضُّ على الكرم، ويقول لأتباعه: شاطر سخيّ أحب إلى الله من صوفيّ بخيل.

وحرص الحافي بعد تصوفه على الابتعاد عن الشهوات، فكان يقول: لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات سدًّا. وقد بالغ الحافي في هجر الشهوات إلى درجة أنه لم يتزوج، وكان يقول دومًا: لا يفلح من ألف أفخاذ النساء. وكان يناجي ربه قائلا: اللهم إنك تعلم أن الذل أحبّ إليَّ من العز، وأن الفقر أحبُّ إليَّ من الغنى، وأن الموت أحبّ إليَّ من البقاء.

وكان الحافي يعتبر التعلق بالحياة الدنيا ذلا ومهانة. فها هو يقول: مَنْ أحب الدنيا فليتهيأ للذل. وكان بشر يأكل الخبز وحده فقيل له: أما لك أدم؟ فقال: بلى أذكر العافية فأجعلها أدمًا. ويقول أيضًا: ليس أحد يحب الدنيا إلا لم يحب الموت، ومن زهد فيها، أحب لقاء مولاه. وعاش الحافي حياته يومًا بيوم، وكأنه مقطوع الصلة بالماضي والمستقبل، فالسنة له: أمس قد مات، واليوم في السياق، وغدًا لم يولد.

وقام تصوف الحافي أيضًا على مراقبة الله ومحاسبة النفس دون كلل ولا ملل، فكان يقول: لا رآك الله حيث نهاك ولا فقدك حيث أمرك. وكان يقول: لا تعمل لتُذكر، اكتم الحسنة، كما تكتم السيئة. وقال أيضًا: ما اتقى الله مَنْ أحب الشهرة. وكان يقول كذلك: قد يكون الرجل مرائيا بعد موته، يحب أن يكثر الخلق في جنازته.

وكان يقول: إذا أعجبك الكلام، فاصمت، وإذا أعجبك الصمت، فتكلم. ويروي لنا أحد أصحابه، كيف كان بشر الحافي لا يحب المباهاة بعبادته، ولا يهمه أن يظهر إخلاصه، ولا يرائي الناس أبدًا. وهنا يقول حمزة بن دهقان: قلت لبشر بن الحارث: أحب أن أخلو معك. قال: إذا شئت فيكون يومًا، فرأيته قد دخل قبة، فصلى فيها أربع ركعات لا أحسن صلاة مثلها، فسمعته يقول في سجوده: اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الذل أحب إليَّ من الشرف، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الفقر أحب إليَّ من الغنى، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أني لا أوثر على حبك شيئًا. فلما سمعته، أخذني الشهيق والبكاء، فقال: اللهم أنت تعلم أني لو أعلم أن هذا هاهنا، لم أتكلم.

وقيل إن رجلا جاء إلى بشر، فقبله، وجعل يقول: يا سيدي أبا نصر. فلما ذهب، قال بشر لأصحابه: رجل أحب رجلا على خير توهَّمه، لعل المحب قد نجا، والمحبوب لا يدري ما حاله.

مات بشر الحافي يوم الجمعة في شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومئتين قبل الخليفة المعتصم بستة أيام، وعاش خمسًا وسبعين سنة. وقال ابن خلكان: كانت وفاته يوم عاشوراء وقيل في رمضان ببغداد وقيل بمرور سنة سبع وعشرين ومئتين. وقيل الصحيح ببغداد في هذه السنة وقيل في سنة ست وعشرين، والأول أصح والله أعلم.

وحين مات اجتمع في جنازته أهل بغداد عن بكرة أبيهم فأُخرج بعد صلاة الفجر فلم يستقر في قبره إلا بعد العتمة، وكان علي المدائني وغيره من أئمة الحديث يصيح بأعلى صوته في الجنازة: هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة، وقد روي أن الجن كانت تنوح عليه في بيته الذي كان يسكنه، وقد رآه بعضهم في المنام فقال: ما فعل الله بك؟، فقال: غفر لي ولكل من أحبني إلى يوم القيامة.

التستري

مفسِّر القرآن الذي انجذب إلى التصوف

هو أحد أكثر أهل زمانه ورعًا، وأعمقهم زهدًا في الدنيا، وأحرصهم عبادة للخالق العظيم، جلّ شأنه وعظم سلطانه. وشيخنا هذا هو الذي تغذّى بالذكر فخفّ احتياجه إلى ما سواه، فكان يكتفي بخبز الشعير ويأكل أقل القليل منه، فيخفّ جسده وتسمو روحه وتعلو بقدر الإمكان على ماديات الحياة الدنيا واحتياجاتها الأولية، أو بقدر ما يقيم الأود ويطلق فيوضات الروح.

كان التستري على تصوّفه فقيهًا لا يشقّ له غبار، فكثير من المسائل الشائكة التي طُرحت على أهل زمنه من العلماء، كانت تنتهي إليه، حين يعجز الجميع، أو لا يتمكنون من القطع بشيء أو بأمر، فكان يجود عليها دومًا بالإجابات الشافية الكافية. وقد بانت عليه هذه الملكة وهو في الحادية عشرة، فجعلت دعوته إلى الله لا تقتصر على التربية والسلوك ولم تكتفِ بإسداء النصيحة وإبداء الموعظة الحسنة.

هو أبو محمد سهل بن عبد اللّه التستري، ولد في بلدة تستر في الأهواز سنة 203هـ، وعاش في القرن الثالث الهجري، الذي حفل بالأعلام الكبار في الفقه والتصوّف والعلوم المختلفة، وبلغت فيه الحضارة الإسلامية ذروتها، وأشهدت العالم كله على إنجازها.

نشأ التستري في بيت عُرفت عنه التقوى، لاسيما خاله محمد بن سوار، الذي كان يقيم الليل، يتضرّع إلى الله في خشوع، فتمكنت صورته من قلب الفتى وانجذب إليه انجذابًا شديدًا، فارتبط به وأحبه واتخذ منه مثالًا وقدوة.

هنا يقول: «كنت ابن ثلاث سنين وكنت أقوم الليل أنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، الذي كان يقوم الليل، فربما كان يقول: اذهب يا سهل فنم فقد شغلت قلبي».

يروي عن خاله أيضًا أنه قال له ذات يوم: «ألا تذكر الله تعالى الذي خلقك، فقلت كيف أذكره؟ فقال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرّك به لسانك: الله معي، الله ناظر إليَّ، الله شاهد عليَّ. فقلت ذلك ثلاث ليالٍ، ثمّ أعلمته. فقال لي: قل ذلك في كل ليلة سبع مرات. فقلت ذلك ثم أعلمته فقال لي: قل ذلك في كل ليلة إحدى عشرة مرة، فقلت ذلك فوقع في قلبي حلاوة، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك وداوم عليه إلى أن تدخل القبر فإنّه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لها حلاوة في سري».

في سنّ مبكرة أرسله أهله إلى الكُتّاب ليحفظ القرآن الكريم ويتعلّم الفقه، فراق له ذلك، لكنه اشترط الذهاب إليه ساعة واحدة في النهار، كي لا يغفل عن العبادة، ولا ينصرف ذهنه عن النزعة الصوفية التي تمكنت منه إلى حدّ ظهرت عليه ولم تكن خافية على أهل البصيرة ممن ألفوه وعرفوه منذ طفولته الغضة.

في الكُتّاب حفظ التستري القرآن الكريم وهو في السادسة، وتفقّه في أمور الدين، واستطاع ضمّ العلم إلى المجاهدة، والذكر إلى ممارسة كل ما يوجبه الخير، وتحتّمه الفضيلة.

لم يقتصر التستري في حفظه القرآن على الاكتفاء بترديد الآيات، وبما قرأه عنها في التفاسير المختلفة، لكنه أيقن أن القرآن لا يمكن أن يحيط أحد بأقطاره، أو أن تكون المعاني اللغوية الضيّقة هي كل ما عبّر عنه كتاب الله المنزَّل، وأنها إن انطوت على تعبير فإنما هو الظاهر. وهذا أمر قاصر أو مبتسر إذ إن القرآن الكريم ليس هو ما يظهر للناظر منذ الوهلة الأولى، فوراء ظاهره أسرار لا تتعارض مع هذا الظاهر، لكنها توضحه وتجليه وتجعله نافذًا إلى القلوب، جاذبًا للنفوس، آسرًا للأرواح، مفجّرًا للملكات والطاقات العقلية المطمورة.

فسّر التستري القرآن الكريم، وتميّز تفسيره بصغر حجمه؛ لأنه لا يضمّ تفسيرًا كاملًا لجميع الآيات القرآنية، إنما هو تفسير لبعضها، وتعليقات كانت استجابة لأسئلة بعض تلامذته. يمكن في هذا المقام أن نعطي جانبًا من هذا التفسير دالا على بقيته وطريقته، وهو تفسير الآيات الخمس الأولى من سورة

«الفاتحة».

قال أبو بكر: سُئل سهل عن معنى: «بسم الله الرحمن الرَّحِيم» فقال:
الباء بَهاء الله عزَّ وجلَّ. والسين سناء الله عزَّ وجلَّ. والميم مجَد الله عزّ وجلّ.
والله: هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها، وبين الألف واللام منه حرف مكنّى غيب من غيب إلى غيب، وسرّ من سر إلى سر، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة. لا ينال فهمه إلاَّ الطاهر من الأدناس، الآخذ من الحلال قوامًا ضرورة الإيمان. والرحمن: اسم فيه خاصية من الحرف المكنّى بين الألف واللام. والرحيم: هو العاطف على عباده بالرزق في الفرع والابتداء في الأصل رحمة لسابق علمه القديم».

قال أبو بكر: أي بنسيم روح الله اخترع من ملكه ما شاء رحمة لأنه رحيم. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الرحمن الرحيم» اسمان رقيقان أحدهما أرقُّ من الآخر، فنفى الله تعالى بهما القنوط عن المؤمنين من عباده».

أما ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2] فقال عنها سهل: معنى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الشكر لله، فالشكر لله هو الطاعة لله، والطاعة لله هي الولاية من الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: 55] ولا تتم الولاية من الله تعالى إلا بالتبرّي ممن سواه. ومعنى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سيد الخلق المربّي لهم والقائم بأمرهم، المصلح المدبّر لهم قبل كونهم، وكون فعلهم المتصرف بهم السابق علمه فيهم، كيف شاء لما شاء، وأراد وحكم وقدر من أمر ونهي، لا رب لهم غيره.

و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4] أي يوم الحساب. و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5] أي نخضع ونذلّ ونعترف بربوبيتك ونوحّدك ونخدمك، ومنه اشتقّ اسم العبد. و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] أي على ما كلفتنا بما هو لك، وإليك المشيئة والإرادة فيه، والعلم والإخلاص لك، ولن نقدر على ذلك إلَّا بالمعونة والتسديد لنا منك؛ إذ لا حول لنا ولا قوة إلاَّ من عندك. فقيل له: أليس قد هدانا الله إلى الصراط المستقيم؟ قال: بلى، ولكن طلب الزيادة منه كما قال: و﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: 35] فكان معنى قوله: (ٱهْدِنَا) أمددنا منك بالمعونة والتمكين. وقال مرة أخرى (ٱهْدِنَا) معناه أرشدنا إلى دين الإسلام الذي هو الطريق إليك بمعونة منك، وهي البصيرة، فإننا لا نهتدي إلَّا بِك، كما قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: 22] أي يرشدني قصد الطريق إليه، قال: وسمعت سهلًا يحكي عن محمد بن سوار عن سفيان عن سالم عن أبي الجعد عن ثوبان قال: قال رسول الله : «يقول الله عزَّ وجلَّ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. قال: فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال تعالى: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى: أثنى عَليّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يقول الله: فهذه الآيات لي ولعبدي بعدها ما سأل، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخره، يقول الله عزَّ وجلَّ: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

قال سهل: معنى قوله: «مجدني عبدي» أي وصفني بكثرة الإحسان والإنعام، وقال سهل: وروي عن مجاهد أنه قال: آمين اسم من أسماء الله تعالى، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه: ما حسدتكم النصارى على شيء كما حسدتكم على قولكم: آمين.

حكى محمد بن سوار عن ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله : «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلَّا مؤمن، فإذا قال الإمام: ولا الضالين، فقولوا: آمين، فإن الله يرضى على قائلها، ويقبل صلاته، ويجيب دعاءه».

وحكى الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله : إذا قال الإمام ولا الضالين قولوا: آمين، فإن الملائكة يقولون: آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه».

امتاز التستري بتعظيمه السنّة النبوية ومراعاته لتعاليم الشريعة. ظهر هذا في تفسيره للقرآن الكريم. جعل هذا الأمر تصوف التستري غير مغالٍ فيه، أو جانح إلى أي اتجاه يؤخذ عليه من أهل الرواية. ثمة واقعة تدل دلالة قاطعة على ذلك، رواها القاضي أبو سعيد الخليل بن أحمد السجزي: سمعت أبا محمد أحمد بن محمد بن الليث، قاضي بلدنا، يقول: جاء سهل بن عبد الله التستري إلى أبي داود فقيل: يا أبا داود، هذا سهل جاءك زائرًا فرحّب به، فقال له سهل: أخرج إليَّ لسانك الذي تتحدث به أحاديث رسول الله حتى أقبّله، فأخرج إليه لسانه فقبله». وقد قيل للتستري: متى يعلم الرجل أنه على السنة والجماعة؟ قال: إذا عرف من نفسه تسع خصال: لا يترك الجماعة. لا يسبّ أصحاب النبي . لا يخرج على هذه الأمة بالسيف. لا يُكذِّب بالقدر. لا يشكّ في الإيمان. لا يُماري في الدين. لا يترك الصلاة على مَنْ يموت من أهل القبلة بالذنب. لا يترك المسح على الخفين. لا يترك الجماعة خلف كل والٍ جار أو عدل».

وفي هذا الصدد قال أيضًا: أصولنا سبعة هي: التمسّك بكتاب الله تعالى، الاقتداء بسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أكل الحلال، كفّ الأذى، اجتناب الآثام، التوبة، أداء الحقوق.

ومن كلام التستري في هذا المضمار: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء طاعة كان أو معصية فهو عيش النفس، وكل فعل فعله بالاقتداء فهو عذاب على النفس».

كان التستري في تصوّفه يُعلي من شأن المحبة والصبر والشكر والتوكل والصمت، والمحبة لديه هي أن تحبّ ما يحبه حبيبك، وتكره ما يكرهه، والحب لله لديه يجب أن يلازمه الخوف منه ولا يفارقه أبدًا، وللمحبة لديه نارها، كما أن للشهوة والشقاوة والقطيعة نارًا. فنار الشهوة تحرق الطاعات، ونار الشقاوة تحرق التوحيد، ونار القطيعة تحرق القلوب، أما نار المحبة فتحرق النيران كلها.

وسئل التستري: أي شيء يفعل الله بعبده إذا أحبه؟ فأجاب: يلهمه الاستغفار عند التقصير، والشكر له عند النعمة.

أما عن الصبر فيستدلّ على رؤية التستري له من حوار دار بينه وبين أحد المريدين، الذي سأله:

- ما الصبر؟

- لا عمل أفضل من الصبر، ولا ثواب أكثر من صوابه، ولا زاد إلا التقوى، ولا تقوى إلا بالصبر، ولا معين على الصبر لله إلا الله عزّ وجلّ.

- وهل الصبر من الأعمال؟

- الصبر من العمل بمنزلة الرأس من الجسد، لا يصلح أحدهما إلا بصاحبه.

- وما أجله؟

- أجله انتظار الفرج من الحق.

- فما أصله؟

- مجاهدة النفس على إقامة الطاعات، وأدائها بأحكامها وحدودها ومكابداتها على اجتناب المعاصي، صغيرها وكبيرها.

- وكيف يكون الناس في الصبر؟

- الناس في الصبر صنفان، فصنف يصبرون في الدنيا حتى ينالوا منها ما تشتهي أنفسهم، فهو الصبر المذموم. وصنف يصبرون للآخرة طلبًا لثواب الآخرة، وخوفًا من عذابها، وهذا هو الصبر المحمود.

- الصبر للآخرة هو على نوع واحد أم على أنواع؟

- الصبر للآخرة له أربعة مقامات. فثلاثة منها فرض والرابع فضيلة. صبر على طاعة الله عز وجلّ، وصبر عن معصيته، وصبر على المصائب من عنده، أو قال: صبر على أمر الله عز وجل، وصبر على نهيه، وصبر على أفعال الله، فهذه ثلاثة مقامات منه، وهي فرض، والمقام الرابع فضيلة، وهو الصبر على أفعال المخلوقين».

- وما علامة الصبر؟

- ألا يجزع فيه.

- فبأي شيء يحصل التجمل بالصبر؟

- بالمعرفة بأن الله تعالى معك، وبراحة العافية، فإنما الصبر مثل قدح أعلاه الصبر، وأسفله العسل. إنني أعجب ممن لم يصبر، كيف لم يصبر للحال ورب العزة يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 153].

أما الشكر، فيقول عنه: أدنى الشكر أن لا تعصيه بنعمه، وأول درجاته الطاعة. إن العبد ليس له أن يتكلم إلا بأمر سيده، وأن يبطش إلا بأمره، وأن يمشي إلا بأمره، وأن يأكل وينام ويتفكر إلا بأمره، وذلك أفضل الشكر الذي هو شكر العباد لسيدهم».

ويرى التستري أن التوكل هو الاسترسال مع الله على ما يريد. وهو طرح البدن في العبودية، وتعلّق القلب بالربوبية، والتبري من الحول والقوة.

يُعظِّم التستري من شأن الفقراء، عملا بالتصوّر الذي يقول إن فقراء الصوفية لا ينفعهم الوجود، ولا تنعيهم الملذات، ولا ينال منهم العوز، ولا تقلقهم المصائب. فها هو يقول: الفقير لا يسأل ولا يردّ ولا يحبس».

وينادي التستري، كغيره من المتصوفة الكبار، بفضيلة الصمت، فالكلام إن كان يهدي، فالصمت يقي. وهنا يقول: «لا يصحّ لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة، ولا تصحّ له التوبة، حتى يلزم نفسه الصمت».

والولي عند التستري هو: «مَنْ توالت أعماله على الموافقة. وكان يقول: من أسلم قلبه لله تولى الله جوارحه. وأن الخير كله اجتمع في أربعة، فصاروا بها أولياء لله: أخماص البطون، الاعتزال عن الخلق، سهر الليل، الصمت. وقد سُئل ذات يوم عن الشروط التي يجب توافرها في رجال الله حتى يصبحوا أبدالا، فقال: سمي الأبدال أبدالا؛ لأنهم يبدلون الأحوال، أخرجوا أبدانهم عن الحيل في سرهم، ثم لا يزالون ينتقلون من حال إلى حال، ومن علم إلى علم، فهم أبدًا في المزيد من العلم فيما بينهم وبين ربهم».

وقد سئل ذات مرة: أيهما أفضل، الأوتاد أم الأبدال؟ فأجاب: الأوتاد. فسئل: كيف ذلك؟ فرد: لأن الأوتاد قد بلغوا، وثبتت أركانهم. أما الأبدال فيتقلبون من حال إلى حال».

وتقوم الولاية لدى التستري على المعرفة، الحسية والحدسية معًا. وفي هذا الشأن يقول التستري: إن الله سبحانه وتعالى ما استولى وليًّا من أمة محمد ﷺ إلا علّمه القرآن، إما ظاهرًا، وإما باطنًا. قيل له: إن الظاهر نعرفه، فماذا عن الباطن؟ فقال: فهمه، وإن فهمه هو المراد. وأعلى درجات الولاية لدى التستري هو: الصديقية، وكان يقول إن الصديقين هم الذين عدوا أنفاسهم بالتسبيح والتقديس، وحفظوا الجوارح والحواس، فصار قولهم وفعلهم صدقًا، وصار ظاهرهم وباطنهم صدقًا، وصار دخولهم في الأشياء وخروجهم عنها بالصدق. ومرجعهم إلى مقعد صدق، بقدم صدق، عند مليك مقتدر.

يشهد معاصرو التستري بأنه أحد الأئمة الكبار العظام، وأنه لم يكن ثمة في وقته نظير له في

المعاملات والورع، وكان صاحب كرامات مشهودة، ومؤلفات معروفة من أشهرها: رقائق المحبين ومواعظ العارفين وجوابات أهل اليقين وقصص الأنبياء، علاوة على تفسيره الشهير للقرآن الكريم، الذي لا يزال يقرأ، ويقتبس منه إلى هذه اللحظة.

ظل التستري محافظًا على مواقفه وتصوفه وعلاقاته بأتباعه، وصورته الطيبة لدى الخاصة والعامة، حتى وافته المنية في سنة 283هـ. وورد في بعض المصادر أنه مات قبل ذلك بسنوات عشر أي في سنة 273هـ، وترك بموته فراغًا ملموسًا في مسيرة التصوف الإسلامي.

بدأ عالمًا بفقه الحنفية ومختلف أنواع العلوم التي جادت بها قرائح المسلمين، ثم انتهى متصوفًا بعدما ترك الدنيا والتصنيف، ولجأ إلى الشعر يبث فيه فلسفته القائمة على وحدة الوجود، وصحة الأديان جميعًا، والداعية إلى المحبة والسلام. وقد أدى بيانه الفياض، والقيم العميقة الرحبة المتسامحة، التي تنطوي عليها فلسفته وتكمن في أبيات قصائده إلى أن صار الآن جسرًا متينًا بين الشرق والغرب.

هو محمد بن محمد بن الحسين بنِ أحمد بن قاسم بن مسيب بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عرَّف نفسه بالبلخي، ولُقِّب بالقونوي نسبة إلى قونية التي سكنها وتوفي فيها. كذلك لُقب بالرومي نسبة إلى بلاد الروم. وكانت قونية، في وسط تركيا الراهنة، في عهده إحدى أعظم مدن الإسلام في الروم، فأصبح يُعرف بالبلخي القونوي الرومي.

ولد في فارس عام 604هـ، 1207م لأسرة ينتهي نسبها، على الأرجح، إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وتحظى بمصاهرة البيت الحاكم في خوارزم. أما أمه فكانت ابنة خوارزم شاه علاء الدين محمد.

وما إن بلغ الرومي الثالثة حتى انتقل مع أبيه إلى بغداد إثر خلافه مع الوالي محمد قطب الدين خوارزم شاه. وفي بغداد نزل أبوه في المدرسة المستنصرية، لكنه لم يستقر فيها طويلًا؛ إذ قام برحلة واسعة زار خلالها دمشق ومكة وملسطية وأرزبخان ولارند. وفي دمشق التقى الرومي أستاذه الأول برهان الدين، ودرس مع نخبة من أعظم العقول الفقهية والعلمية آنذاك، ما مكنه في النهاية من اكتساب علم متين في الفقه والتصوف. ولما أدرك سيد برهان أنه أكمل مسؤولياته تجاه تلميذه أراد تمضية البقية من عمره في عزلة، فانقطع عنه تلميذه.

استقر والد الرومي آخر الأمر في قونية عام 632هـ، مشمولًا بحماية الأمير السلجوقي علاء الدين قيقباذ ورعايته. وقد اختير الأب للتدريس في أربع مدارس في قونية حتى وافته المنية عام 628هـ، فخلفه ابنه جلال الدين في المهنة، لكن الابن فاق الأب في الإلمام بالفقه وغيره من العلوم الإسلامية.

يروي البعض أن الرومي حين توجه بصحبة والده إلى مكة لأداء فريضة الحج، التقى في نيسابور الشاعر الصوفي المشهور فريد الدين العطار، الذي أهداه كتابه «أسرار نامة»، وأوصى العطار الوالد بابنه قائلًا له: «اعتنِ بهذا الولد، فإنه عما قريب سينفث في هذا العالم نفسًا مشتعلًا». وظل هذا اللقاء العابر محفورًا في عقل الرومي وقلبه، وكان يردد دومًا: «لقد اجتاز العطار مدن الحب السبع بينما لا أزال أنا في الزاوية من ممر ضيق». ثم عبر عن هذه اللحظة المهمة في حياته بشعر أنشد فيه: «وفجأة أشرق في صدري نجم لامع، واختفت في ضوء ذلك النجم كل شموس السماء».

لكن نقطة التحول في حياة الرومي كانت حين التقى الصوفي الأمي المشهور شمس الدين التبريزي، الملقب بشمس المغربي، الذي ترك فيه بصمات قوية انطبعت على عقله وذوقه وبيانه. وتعلق الرومي بأستاذه الجديد بشدة، وصار للتبريزي سلطانًا قويًّا عليه، فودع حياة التدريس، وانقطع للعبادة، ونظم الشعر، وأسس طريقة صوفية لا تزال تحيا بين ظهرانينا وهي «المولوية»، التي عنيت في تربية مريديها بالرياضة الروحية، وسماع الموسيقى، على الخلاف من الطرق الصوفية الأخرى.

بعد عامين من هذه العلاقة المكثفة ارتحل شمس تبريز عن الدنيا الفانية ولقي ربه، وشعر الرومي بمعاناة شديدة عبر عنها حركيًّا في شكل الرقص الدائري الذي أصبح علامة على طريقته الصوفية. كان يدور ويدور حتى يصل الى حالة من الذهول ويبكي وينتحب مبتغيًا وجه ربه. ثم بدأ في نظم شعر يعبر فيه عن آلام الفراق والانفصال عن أستاذه ومعلمه. وأخذ يكتب عن الحب والفراق واللوعة والتطلع للقاء الحبيب. وكان تأثير شمس تبريز على الرومي عظيمًا وعميقًا حتى أنه وقّع الشعر الذي نَظَمَه بعد وفاة شمس باسم الأخير وليس باسمه.

في مطلع الخمسينيات من عمره راح الرومي يُملي على تلميذه حسام الدين ديوانه الشعري الصوفي «المثنوي»، أكبر ديوان صوفي في التاريخ الإنساني، ومؤلف من سبعة وعشرين ألف بيت، وينطوي

على مناحي الشخصية الإنسانية كافة، وتفاصيل دقيقة في عالم الطبيعة والتاريخ والجغرافيا.

نَظَمَ الرومي ديوانه ليشكّل بيانًا وشرحًا لمعاني القرآن الكريم، ومقاصد الشريعة؛ ويكون ذلك هدفًا إلى تربية الشخصية الإسلامية وبنائها، وزادًا له في صراعه مع قوى الشر والجبروت، وعونًا له على مقاومة شهوات النفس والتحكم في أهوائها. وكشف الديوان عن ثقافة صاحبه الموسوعية، التي عبر عنها بروح إنسانية سامية، استخدم فيها ببراعة فن الحكاية، وهي في حركتها وتطورها وحوارات شخصياتها لا تقل روعة عن بعض القصص المعاصرة؛ إذ تتميز بالثراء والتنوع في تساميها وعجزها ونفاقها وريائها، وحيرتها بين الأرض وما يربطها بها، وبين السماء وما يشدها إليها، ذلك كله في تدفق وانسياب غامر، وعرض مشوق، وأسلوب جذاب أخَّاذ، ولغة متميزة.

يبدأ الديوان بأبيات تحكي شوق الروح الإنسانية إلى خالقها، تحت غطاء رمزي، يتمثل في ناي يئن حنينًا إلى منبته، حيث يقول:

أنصت للناي كيف يقصّ حكايته

إنه يشكو آلام الفراق

إنني منذ قطعت من منبت الغاب

والناس رجالًا ونساء يبكون لبكائي

إنني أنشد صدرًا مزّقه الفراق

حتى أشرح له ألم الاشتياق

فكلّ إنسان أقام بعيدًا عن أصله

يظلّ يبحث عن زمان وصله

علاوة على «المثنوي» نظم الرومي ديوان «شمس تبريز» الذي يشمل غزليات صوفية، والتزم فيه ببحور العروض، وهو يحوي 36023 بيتًا، إضافة إلى الرباعيات، وهي منظومة أحصاها العالم الإيراني المعاصر بديع الزمان فوزانفر فوجد أنها تبلغ 1659 رباعيًّا، أي 3318 بيتًا. وثمة «المجالس السبعة»، الذي يشتمل على سبع مواعظ دينية وخطب ألقاها الرومي أثناء اشتغاله بالتدريس. علاوة على مجموعة رسائله، وفيها تلك التي وجهها إلى شيخه شمس الدين تبريزي، وتصور العلاقة الروحية السامية التي ربطت بينهما.

بان في شعر الرومي أن الأخير مستقل عن المذاهب كافة، وهي مسألةٍ يعكسها بجلاء قوله: تعالَ وكلمني ولا يهم مَنْ أنت ولا إلى أي طريقة تنتمي ولا مَنْ هو أستاذك، تعالَ لنتكلم عن الله».

قالت الشاعرة الكرواتية ومترجمة الرومي فيسنا كريمبو تيتش: تعبر أشعار الرومي بجلاء وجمال عن حب الإنسان لله سبحانه وتعالى.

ومركزية قيمة الحب في تجربة الرومي، جعلته يتجاوز حدود المعتاد، ويقبل المشارب والأطياف كافة، ويقول بوحدة الحب والأديان، بل إن العاشق في نظره لا يكون صادقًا ما لم ينفتح أفقه على الخلق كله. وتعود فيوضات المحبة في شعر الرومي وفلسفته الإنسانية إلى الحب الجارف الذي كان يكتنف روحه، فالحب لديه لهيب محرقة، وفي بحر السماع ماء معين ترتوي منه الروح ما تريد وكيفما تشاء. فهو عندما يتحدث عن قيمة السماع والمجاهدة والإرادة في مكابدة النفس والوجود، كأنه يجسد فعل المحبة الشاملة. والقيم كافة التي دارت حولها تجربة جلال الدين الرومي الروحية، تصب في فلسفة الحب التي جعلها أساس الوجود الإنساني، وحول المرأة التي ينعكس فيها كل شيء.

عرّف الرومي الحب قائلًا: يعني أن تميل بكلك إلى المحبوب، ثم تؤثره على نفسك وروحك ومالك ثم توافقه سرًّا وجهرًا ثم تعترف بتقصيرك في حبه.

وكان يعتقد أن الحب، هو: «هتك الأستار وكشف الأسرار». وطاقة الحب لديه هي: «النار المشتعلة في القلب والتي تحرق كل شيء عدا مراد المحبوب»، و«استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من محبوبك، فالحب يسقط شروط الأدب»، وهي كذلك: «كالغصن، حين يغرس في القلب فيثمر على قدر العقل»، وكان يقول دومًا: «الحب أوله ختل وآخره قتل».

وأنشد الرومي شعرًا خالدًا في الحب الإلهي؛ إذ قال في قصيدته «شمس مغربي»:

ولقد شهدت جماله في ذاتي

لما صفت وتصقلت مرآتي

وتزينت بجماله وجلاله

وكماله ووصاله خلوات

أنواره قد أوقدت مصباحي

فتلألأت من ضوئه مشكاتي

كان الرومي مسلمًا مؤمنًا بتعاليم الإسلام السمحة، لكنه استطاع جذب أشخاص من ديانات وملل أخرى بسبب تفكيره المرن المتسامح. فطريقته شجَّعت التساهل اللامتناهي مع المعتقدات والأفكار كلها. كذلك كان يدعو إلى التعليل الإيجابي، الخير والإحسان وإدراك الأمور عن طريق المحبة. وبالنسبة إليه وإلى أتباعه، فإن الديانات كافة خيرة وحقيقية بمفاهيمها. لذلك كانوا يعاملون المسلمين والمسيحيين واليهود معاملة سواسية.

وكغيره من الصوفيين، آمن الرومي بالتوحيد مع حبه، أي الله. هذا الحب الذي يبتعد عن الإنسان، والإنسان في مهمة إيجاده والعودة إليه.

لم يكن الرومي منفصلًا عن قضايا عصره، فقد أبصر النور في ظل انتصار المغول الكاسح، الذي هرب والده نفسه أمامهم من بلخ (أفغانستان) إلى دمشق. وكانت نتيجة الهجوم المغولي تحويل حواضر الإسلام الزاهرة في إيران والعراق وآسيا الوسطى عمومًا إلى كتل من اللهب وركام من التراب، وكان جنكيز خان يسأل الناس عن دينهم فيجيبونه: «ديننا الإسلام، ويقولون كذا وكذا...»، فيرد عليهم: «لا أرى أنكم تقيمون دينكم، أنا نقمة ربكم عليكم». أما السلطان الخوارزمي علاء الدين محمد فقد تمكّن المغول من القبض على نسائه ووالدته وأصبحن خادمات في بيوت أمراء المغول أنفسهم، هذا السلطان الذي كان هو وجنده أسرى للشهوات والأهواء، هرب قاصدًا إحدى الجزر البحرية النائية في بحر قزوين، حيث مات ذليلًا، طريدًا، وقبيل وفاته قال كلامًا بليغًا يدل على شدة ندمه على ما فرط في جنب الله سبحانه وتعالى: «لم يبقَ لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين، تُحفَر فنُقبر، فما الدنيا لساكنها بدار، ولا ركونه إليها سوى انخداع واغترار، ما هي إلا رباط، يدخل من باب ويخرج من باب، فاعتبروا يا أولي الألباب».

أفرد الرومي في هذا كتابًا سمَّاه «فيه ما فيه»، وهو عبارة عن حشد لمجموعة ذكرياته عن مجالس إخوانه في الطريقة، ويشتمل على قصص ومواعظ وأمثال وطرائف وأخبار، مخاطبًا العامة، على عكس كتابه الأول الذي يخاطب خاصة الصوفية. كذلك روى الرومي فيه جانبًا من هزيمة المسلمين أمام التتار، قائلًا: «في البداية كان المغول يأتون إلينا وهم عراة حفاة يركبون العجول ويحملون سيوفًا من خشب، إنهم يسكنون الصحارى والقفار، كانوا أذلة وضعافًا وكانت قلوبهم منكسرة، في أحد الأيام قصدت جماعة من تجارهم سوقًا من الأسواق التي كانت تحت ولاية السلطان خوارزم شاه، وبينما هم

منشغلون بتجارتهم البسيطة هاجمهم جنود السلطان وأجهزوا على تجارتهم وساموهم العذاب، بل قتلوا الكثير منهم، والناجون من التجار المغول هربوا نحو بلادهم فالتجأوا إلى ملكهم يشتكون ويطلبون النجدة، طلب منهم الملك أن يمهلوه عشرة أيام، فذهب إلى خارج البلدة واعتكف داخل غار صائمًا متبتلًا متوسلًا، فجاءه نداء من الله: «لقد قبلنا شكواك، اذهب فأينما حللت فإنك منصور».

وكان الرومي يؤمن بوحدة الوجود، وصحة الأديان كلها؛ لأنها في النهاية تدعو إلى عبادة الله تعالى. وعبَّر عن هذا في قصيدة تقول:

نَفْسي، أيها النور المشرق، لا تَنأى عني لا تنأى عني

حبي، أيها المشهد المتألِّق، لا تَنأى عني لا تنأى عني

انظرْ إلى العمامة أحكمتُها فوق رأسي

بل انظر إلى زنار زرادشت حول خصري

أحملُ الزنار، وأحمل المخلاة

لا بل أحمل النور، فلا تَنأى عني، لا تَنأى عني

مسلمٌ أنا، ولكني نصراني وبرهمي وزرادشتي

توكلتُ عليك أيها الحق الأعلى، فلا تَنأى عني لا تَنأى عني

ليس لي سوى معبدٍ واحد، مسجدًا كان أو كنيسة أو بيت أصنام

ووجهك الكريم فيه غاية نعمتي، فلا تَنأى عني لا تَنأى عني

وفي المضمار ذاته، يقول جلال الدين الرومي أيضًا:

مجهول أنا عند نفسي، بربك خبِّرني ما العمل

ولا بهذا الكون ولا ذاك، ولا في الجنة ولا النار موطني

ولا طردت من عدن ولا يزدان، ولا من آدم أخذت نسبي

بل من مقام ما أبعده من مقام، وطريق خفي المعالم

تجردت عن بدني وروحي، فمن جديد أحيا في روح محبوبي

أدت الفلسفة الإنسانية الرحبة التي انطوى عليها شعر الرومي إلى اهتمام المستشرقين به، إلى درجة أن فُتحت في الغرب تخصصات أكاديمية عكفت على دراستها، وقبل سنوات قليلة سجلت مبيعات ترجمة بعض أشعاره أكبر حصة في الولايات المتحدة الأمريكية. لذا صار الرومي أحد أكثر الشعراء شعبية في الولايات المتحدة الأمريكية، ويعرّفه شعبها باسم «رومي». ورغم أنه لم يكن معروفًا فيها قبل أعوام قليلة، إلا أن الإقبال على دراسة أعماله انتشر في الجامعات الأمريكية كلها. كذلك تنشر الأبواب الثقافية في الصحف الصادرة في المدن الأمريكية الكبرى كلها تقريبًا مواعيد قراءات أشعاره وإلقاء محاضرات عنه وأعماله. وأكبر مقياس على مدى شهرته، تسجيل مجموعة من نجوم السينما والمطربين أشعاره.

أبعاد الولع بجلال الدين الرومي في الولايات المتحدة تثير الدهشة والإعجاب، فخلال السنوات العشر الماضية، حسبما قالت مصادر متعددة، فاقت مبيعات دواوينه مبيعات دواوين أي شاعر آخر في الولايات المتحدة.

أوضح الشاعر الأمريكي كولمان باركس، الذي كانت ترجماته لأشعار الرومي أكبر عامل أدى إلى شعبيته في بلاده: «طبيعة أفكار المذهب الصوفي التي تغلب على أشعار الرومي وجدت صدى لها بين الأمريكيين الذين يسعون إلى هذه الخاصية. نفحات قصائد الرومي تحمل في ثناياها جوهر الرسالة الإسلامية، ألا وهي التسليم بقضاء الله».

وكان الشاعر الأمريكي المعروف روبرت بلاي قدم أحد دواوين الرومي عام 1979م، وكان مكتوبًا بأسلوب أكاديمي رديء، وكانت الترجمة الإنجليزية الوحيدة لأشعار الرومي وقتها، فقال الشاعر آنذاك: «تلك الأشعار بحاجة إلى من يفك عقالها ويخرجها من القفص المحبوسة فيه».

سرعان ما شرع باركس في العمل، وحسبما قال: «لقد صغت أشعاره كشعر حر أو مرسَل باللغة الإنجليزية الحديثة. تلك الصياغة هي أقوى ما لدينا من تقاليد وأعراف شعرية. ثمة موسيقى شعرية كثيفة في مؤلفات الرومي، لكني لا أستطيع نقلها أو ترجمتها. إنني أنصت إلى ما ينبض بين أبيات شعره من مشاعر وعواطف، وأحاول أن أحذو حذوها كي أستخرجها، وأجعلها تنطلق مغردة وباهرة».

ولا يغفل باركس احتمال أن تقرّب أعمال الرومي بين الأمريكيين والمسلمين: «الأمريكيون لا يرون أمورًا كثيرة في العالم الإسلامي، ومن بينها جلال الدين الرومي. إننا لا ندرك تمامًا ما في أعماله من جمال. كلي أمل في أن تسهم تلك الترجمات في تيسير الفهم وأن تصبح بوابة يمكن أن تدخل منها أشعار الرومي».

وقالت المترجمة الكرواتية تيتش إن لقاءها مع كنوز الروح التي كتبها الرومي جعلها تلتقي بأصولها التي تتواجد في البشر كلهم. ووصف المستشرق الكبير أكرم شاوشفتش هذه الترجمة بأنها: «لحظة مهمة في تاريخ الثقافة الكرواتية».

كذلك كان لمؤلفات الرومي تأثير كبير في الأدب الفارسي والتركي والأوردي والعربي والغربي عبر ترجمته إلى لغات عالمية عدة. وغنى نجوم موسيقى بوب غربيون مثل مادونا ترجمات أشعاره لتعظيمه قوة الحب، واعتقاده في فائدة الموسيقى والرقص الروحية.

ولم يقتصر عطاء الرومي على الفلسفة والأدب، بل أسَّس طريقته الصوفية التي لا يزال مريدوها ينتشرون في كل أنحاء العالم. وكانت المولوية هي التي تتكفل بتقليد السلطان العثماني سيفه عند جلوسه على العرش، كذلك انتسب إليها الكثير من الأمراء، وظلت هذه الفرقة محل إجلال وتقدير طيلة العهد العثماني إلى أن ألغاها كمال أتاتورك عام 1926م، عندها تحوّل مركز المولوية إلى حلب في سورية.

وظل الرومي يقدم المواعظ والمحاضرات إلى مريديه ومن يتابعه من الخاصة والعامة، إلى أن وافته المنية عام 672هـ/1273م عن عمر يناهز السبعين عامًا، وحمل نعشه أشخاص من مِلَلٍ خمس إلى مثواه الأخير، وأطلق مريدوه على ليلة وفاته «ليلة العرس» ولا يزالون يحتفلون بهذه الليلة إلى الآن. دُفن الرومي إلى جانب قبر والده، في ضريح معروف بقونية، وكُتب على الضريح بيت عميق بليغ من الشعر يخاطب به الرومي زائريه:

يا من تبحث عن مرقدنا بعد شدِّ الرحال

قبرنا يا هذا في صدور العارفين من الرجال

الجنيـــد

طاووس العلماء وسيد الطائفة العاشقة

لم يمر الجنيد مرورًا عابرًا في طريق التصوف الإسلامي، بل ترك علامة على حياته ووجوده، حملها تلاميذه الذين يُعرفون بـ «الجنيدية»، وحواها أسلوبه الذي جعل ابن تيمية يصفه بأنه «واحد من أهم المتصوفين المعتدلين»، وضمتها أضابير الكتب الكثيرة التي تسطرت صفحاتها بسير الزاهدين، ومنهم الشيخ الجنيد، الذي كان يقول دومًا: «الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد». والجنيد، كما قيل عنه، كان «شيخ وقته، ونسيج وحده».

إنه أبو القاسم الجنيد بن محمد الخراز القواريري، من أعلام التصوف وربما لدى جمهرة من المتصوفين، هو رائد حركة التصوف برمتها. يعود مسقط رأسه إلى نهاوند في همدان (مدينة آذرية)، أما مولده ومنشأه فكانا في بغداد. صحب جماعة من المشايخ، واشتهر بصحبة خاله السري، والحارث المحاسبي. درس الجنيد الفقه على أبي ثور أحد تلامذة الإمام الشافعي، وكان يفتي في حلقته بحضرته، وهو ابن عشرين سنة. والجنيد هو ابن أخت القطب الصوفي المشهور السري السقطي.

تعلم الجنيد وتذوّق التصوّف من خاله، فها هو يقول: «كنت بين يدي سري ألعب، وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر؛ فقال لي: «يا غلام، ما الشكر» فقلت: «الشكر ألا تعصي الله بنعمه». فقال لي: «أخشى أن يكون حظك من الله لسانك!» قال الجنيد: «فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها لي السري».

وقال أيضًا: قال لي خالي سري السقطي: تكلم على الناس. وكان في قلبي حشمة من ذلك، فإني كنت أتهم نفسي في استحقاق ذلك، فرأيت ليلة في المنام، رسول الله ـ وكانت ليلة جمعة ـ فقال لي: «تكلم على الناس!». فانتبهت، وأتيت بابًا سريًّا قبل أن أصبح، فدققت الباب، فقال: «لم تصدقنا حتى قيل لك!» فقعدت في غد للناس بالجامع، وانتشر في الناس أني قعدت أتكلم، فوقف عليّ غلام نصراني متنكر وقال: «أيها الشيخ! ما معنى قوله: اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله؟» فأطرقت، ثم رفعت رأسي فقلت: «أسلم! فقد حان وقت إسلامك، فأسلم».

حجّ الجنيد ثلاثين مرة، تقربًا إلى الله، وكانت له في الحج أحوال العاشقين، لكنه لم يخرج عن حدود ما يفرضه الشرع في أداء تلك الفريضة، فالجنيد كان يؤمن بالجمع بين الحقيقة والشريعة، ولا يرى أي فصل بينهما، بل إنه اشترط على نور الحقيقة أن يكون موصولًا بنور الشرع الإلهي.

وكان الجنيد يقول لمريديه دومًا: «مَنْ لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا (قاصدًا التصوف) مقيد بالكتاب والسنة». وكان يقول أيضًا: «كل الطرق مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول واتبع سنته، ولزم طريقه، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه».

ولم يكن الجنيد يستنكف أبدًا أن يُظهر تواضعه وزهده بين من عرفوا حسبه ونسبه، بل إنه حرص على كسر الكبر في نفسه، وتطويعها لتخضع للخالق العظيم. وقد أبدى أحد من حوله ذات يوم عجبه من الجنيد حين رآه يأخذ في يده سبحة، على رغم نسبه، فقال لمن تعجَّب منه: «طريق وصلت به إلى ربي لا أفارقه»؛ إذ كان يعتبر السبحة أحد طرق الوصول إلى الوجد.

وقارن الجنيد بين حالة الحضور التي طالبنا بها الأنبياء والمشاهدة التي يقول بها الأولياء، وكان يفضّل الصحو على حالة السكر لدى المتصوفة. أما في علم الكلام فهو يسلم بأن معرفة الله إنما تكون عن طريق النظر.

من أهم القضايا التي عني بها الجنيد «الفناء»، لكن رؤيته هنا تختلف عن تلك التي نجدها لدى الحلاج والبسطامي. فالجنيد لم يكن يذهب إلى تبني الحلول والاتحاد في قوله بالفناء، إنما كان حريصًا على أن يبقى الصوفي واعيًا صاحيًا مستيقظًا، ويرفض الشطح، ويقصر الفناء على توحيد إرادة العبد مع إرادة الخالق. ولهذا كان ابن تيمية، المعروف بصرامته في الالتزام بقواعد الشرع الفقهية، يستشهد

أحيانًا بأقوال الجنيد عن الفناء في معرض رده على من يؤمنون بالحلول والاتحاد.

والفناء الذي كان يتحدث عنه الجنيد ويتبناه هو نهاية التوحيد الحقيقي، فعندما يشعر العبد بفناء إرادته وانقضائها أمام إرادة الله سبحانه وتعالى ومشيئته، يصبح العبد شبحًا بين يدي الخالق العظيم، خاضعًا لقدرته، مستسلمًا لحكمه، ممتثلًا لتدبيره. وهنا يذهب حسَّه عن محسوسه، وقد عرف المتصوفة هذا النوع من الفناء فيما بعد بـ «الفناء عن السوي» أو «الفناء عن الأغيار». وهو مسلك محمود لدى الفقهاء ودارسي الشرع، على حد سواء.

وهنا يقول الدكتور محمد السيد الجليند في كتابه «من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة»: إن فناءً من هذا القبيل يدل على أن «صاحبه لم يَرَ في فنائه إلا إرادة الله وقضائه ومشيئته الكونية. أما إرادته الدينية وقضاؤه الديني، ومشيئته الدينية، فقد غابت عنه، حال فنائه. ومعلوم أننا لم نطالب بالوقوف على حقائق هذه الصفات الكونية، ولا العمل بمقتضاها، ولا العلم بها؛ لأنها أمر غيبي قد استأثر الله بعلمها وحجبه عن أصفيائه ورسله، وقد طلب الشرع منا أن نؤمن بها فقط، دون العمل بمقتضاها. أما الإرادة الدينية والقضاء الديني، فإن الله تعالى قد أمرنا أن نتعبد بهما، ونعمل بمقتضاهما، ويجب علينا أيضًا العلم بهما، ولذلك فإن الرسل لم يأمرونا بالقضاء الكوني، وإنما أمرونا بتنفيذ ما قضاه الله دينًا، وما أراده شرعًا، وهذا ما قد جاءت به الأوامر والنواهي التشريعية، وفصلته السنة».

وما سبق يضع يده على نقطة فاصلة في مسار التصوف كله ومصيره، فبعض المتصوفة نقل مجال اهتمامه من النطاق المقدور عليه، والذي بالإمكان التفكير والاجتهاد فيه، والقطع فيه برأي أو دليل، إلى ما لا يمكن للإنسان مهما حاول أن يصل فيه إلى شيء ذي بال، إلا إذا أراد الله. ولهذا كثر كلام المتصوفة عن الكشف والإلهام والحدس والمعرفة اللدنية؛ ليحدثوا الناس عمَّا لا يمكن لهم أن يدركوا جوهره خالصًا، ولا تفاصيله كاملة، والتي لا يمكن أن يتهادى إلا لعبد نوراني، يكون الله عينه التي يرى بها، وأذنه التي يسمع بها، ويده التي يبطش بها، كما جاء في الحديث القدسي.

ولم يكن الجنيد من بين الذين يغالون في رؤية الإنسان بصورة أكبر مما هو عليها كمخلوق ضعيف، يستمد أي قوة فيه من خالقه. وقد اعتمد الجنيد في مذهبه على دقائق التوحيد وأسراره، حتى كان الناس ينقلون عنه عبارته الشهيرة: «التوحيد إفراد القديم عن الحديث»، وهو تعريف يرسم لنا معالم مذهب الرجل، فليس توحيده حلولًا، ولا اتحادًا، ولكنه تمييز واضح بين الخالق والمخلوق. وقد نصَّ الجنيد في كثير من أقواله على أن الخالق مباين لخلقه، عليٌّ عليهم، غير حالٍّ في شيء من مخلوقاته. وكان مذهبه في ذلك يمثل تصوف الفقهاء في عصره؛ لأنه يعتمد في منهجه - كما يرى ذلك كثيرون ومنهم الدكتور الجليند - على الكتاب والسنة.

على هذه الأرضية تأتي رؤية الجنيد للتصوف، أو تتهادى تجربته الروحية، وكذلك ممارساته العملية، التي تدل عليها شواهد عدة، منها تلك الواقعة التي رواها عبد الله المكانسي، قائلًا: كنت عند الجنيد، فأتت امرأة، وقالت: ادعُ الله تعالى، فإن ابنًا لي ضاع، فقال: اذهبي واصبرِي. فمضت ثم عادت، ففعلت مثل ذلك مرات، والجنيد لا يكثر لها في القول عما قال. فقالت له: عِيْل صبري. ولم يبقَ لي طاقة، فادعُ لي. فقال الجنيد: إن كان كما قلتِ، فاذهبي فقد رجع ابنك. ففعلت ثم عادت تشكر له، فقيل للجنيد: بِمَ عرفت ذلك؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: 60].

اهتم الجنيد بتربية المريد، وكان يرى أن «المريد الصادق غني عن علم العلماء، فأما الفرق بين المريد والمراد، فكل مريد على الحقيقة مراد؛ إذ لو لم يكن مراد الله عز وجل بأن يريده، لم يكن مريدًا؛ إذ لا يكون إلا ما أراده الله تعالى، وكل مراد مريد؛ لأنه إذا أراده الحق سبحانه بالخصوصية وفقه». وقد سُئل الجنيد عن المريد والمراد فقال: «المريد تتولاه سياسة العلم، والمراد تتولاه رعاية الحق سبحانه؛ لأن المريد يسير، والمراد يطير، فمتى يلحق الطائر السائر».

وكان الجنيد يهتم بصفات محددة في تلاميذه منها الصدق، الذي يقول عنه: «حقيقة الصدق أن تصدق في مواطن لا ينجيك منها إلا الكذب». والمريد الصادق لديه هو الذي «لا يسأل ولا يعارض وإن عُورض سكت». ومنها الإخلاص الذي يراه «سرًّا بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله». ومنها كذلك الحياء وهو في نظره: «حال يولد من بين رؤية الآلاء، ورؤية التقصير». وثمة كذلك المراقبة، والتي يقول بشأنها: «من تحقق من المراقبة خاف على فوت حظه من ربه عز وجل، وليس غيره». وتوجد صفة أخرى أساسية، هي قاسم مشترك بين كبار المتصوفة، وهي المحبة، التي يعرّفها الجنيد بأنها: «دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب... وهي ميلك إلى الشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك، وروحك، ومالك، ثم موافقتك له سرًا وجهرًا، ثم عملك بتقصيرك في حبه»، والمحب لديه هو: «عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هويته، وصفًا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار عن أستار عيبه، فإن تكلم بالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله».

كذلك على المريد، في نظر الجنيد، أن يشعر دومًا بالافتقار إلى الله. وقد سُئل الجنيد عن الافتقار إلى الله تعالى أهو أتم أم الاستغناء بالله؟ فقال: «إذا صح الافتقار إلى الله عز وجل فقد صح الاستغناء بالله، وإذا صح الاستغناء بالله تعالى كمل الغنى به، فلا يُقال أيهما الافتقار أم الغنى؛ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى».

ويجمل الجنيد تصوّره عن المتصوفة بقوله: «تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع: عند الأكل؛ لأنهم يأكلون عن فاقة. وعند المذاكرة؛ لأنهم يتحاورون في مقامات الصديقين وأحوال النبيين، وعند السماع؛ لأنهم يسمعون بوجد، ويشهدون حقا».

أما مجالس الذكر فإن أشرفها وأعلاها في نظر الجنيد هي: «الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسّم بنسيم المعرفة، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد، والنظر بحسن الظن لله عز وجل».

ويفرق الجنيد بين هواجس النفس ووساوس الشيطان، فيقول: «النفس إذا طالبتك بشيء ألَحَّت فلا تزال تعاودك ولو بعد حين، حتى تصل إلى مرادها، ويحصل مقصودها، ما لم تغلبها بصدق المجاهدة. وأما الشيطان إذا دعاك إلى زلة فخالفته، فإنه ينتقل بوسوسته إلى زلة أخرى؛ لأن جميع المخالفات عنده سواء، وإنما يريد أن يكون داعيًا أبدًا إلى زلة ما، ولا غرض له في تخصيص زلة دون زلة».

تعددت أقوال الجنيد ونصائحه لمريديه ليعدوا العدة لما بعدالرحيل الأبدي عن الدنيا، فها هو يقول: «اتقِ الله، وليكن سعيك في دنياك لآخرتك فإنه ليس لك من دنياك شيء، فلا تدخرن مالك ولا تتبع نفسكَ ما قد علمت أنك تاركه خلفك ولكن تزود لبعد الشقة، واعدد العدة أيام حياتك وطول مقامك قبل أن ينزل بك قضاء الله ما هو نازل فيحول دون الذي تريد، صاحِب الدنيا بجسدك، وفارقها بقلبك، ولينفعك ما قد رأيت مما سلف بين يديك من العمر وحال بين أهل الدنيا وبين ما هم فيه، فإنه عن قليل فناؤه، ومخوف وباله، وليزِدك إعجابُ أهلها زهدًا فيها وحذرًا منها فإن الصالحين كانوا كذلك».

ويقول أيضًا: «اعلم يا ابن آدم أنّ طلب الآخرة أمر عظيم لا يقصر فيه إلا المحروم الهالك، فلا تركب الغرور وأنت ترى سبيله، وأخلِص عملك، وإذا أصبحت فانتظر الموت، وإذا أمسيت فكن على ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإنّ أنجى الناسِ مَنْ عمل بما أنزل الله في الرخاء والبلاء».

وعن لحظة موت الجنيد يقول أبو محمد الجريري: «كنت واقفًا على رأس الجنيد وقت وفاته -وكان يوم جمعة- وهو يقرأ، فقلت: «أرفق بنفسك!» فقال: «ما رأيت أحدًا أحوج إليه مني في هذا الوقت، هو ذا تطوى صحيفتي». وقال أبو بكر العطار: حضرت الجنيد عند الموت، في جماعة من أصحابنا، فكان قاعدًا يصلي ويثني رجله، فثقل عليه حركتها، فمد رجليه وقد تورمتا، فرآه بعض أصحابه فقال:

«ما هذا يا أبا القاسم!»، قال: «هذه نعم! الله أكبر». فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الجريري: «لو اضطجعت!»، قال: «يا أبا محمد! هذا وقت يؤخذ منه. الله أكبر». فلم يزل ذلك حاله حتى مات». وقال ابن عطاء: «دخلت عليه، وهو في النزع، فسلمت عليه، فلم يرد، ثم رد بعد ساعة، وقال: اعذرني! فإني كنت في وِرْدِي، ثم حول وجهه إلى القبلة ومات».

تُوفي الجنيد في بغداد سنة 297هـ، وغسَّله أبو محمد الجريري، وصلى عليه ولده، ودفن بتربة مقبرة الشيخ معروف الكرخي في بغداد، لدى خاله سري السقطي، وصلى عليه جمع غفير من الناس قدِّر عددهم بالآلاف.

وقبل موته ترك الجنيد عظة عظيمة حول الموت لا يمكن نسيانها، وقد حوتها نصيحته التي يقول فيها: «يا ابن آدم دينك دينك، نعوذ بالله من النار فإنها نار لا تنطفىء، وعذاب لا ينفد أبدًا، ونفس لا تموت، يا ابنَ آدم إنك موقوف بين يدي الله ربك ومرتهن لعملك فخذ مما في يديكَ لما بين يديك، عند الموت يأتيك الخبر، إنك مسؤول ولا تجد جوابًا، إنك لا تزال بخير ما دمت واعظًا لنفسك محاسبًا لها وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك».

ويقول أيضًا: «إنما اليوم إن عقلتَ ضيفٌ نزل بك وهو مرتحل عنك، فإن أحسنت نزله وقِراه شهد لك وأثنى عليك بذلك وصدق فيك، وإن أسأت ضيافته ولم تحسن قراه شهد عليك فلا تبع اليوم ولا تعد له بغير ثمنه. واحذر الحسرة عند نزول السكرة فإن الموت آتٍ وقد مات قبلك من مات».

حاتـم الأصـم

لقمان المتصوفة الذي عاش كالطير

عاش كالطير، يغدو خماصًا ويعود بطانًا، فلم يشغله أبدًا تدبير رزقه، وتوكل على ربه حق توكله، وأعرض عما في أيدي الناس واستغنى باليقين عن العالمين. تحلّى بحسن الخلق، وصدق المعاملة، وكان أحد أعلام الورع والزهد في مكانه وفي زمانه وحتى أيامنا تلك، كان محبًّا للجميع، حتى خصومه، وكان يُفرحه أن ينتصر عليه مناظروه، فيفرح إن أصابوا، ويحزن إن أخطأوا، وبذا ضرب مثلا رائعًا في إنكار الذات والإيثار، كما قدم نموذجًا يُحتذى في الحياء، ومراعاة مشاعر الناس، واحترام كرامتهم، وتقدير هيبتهم.

هو أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان، من كبار مشايخ خراسان. لازم الصوفي الكبير شقيق البلخي وأسند الحديث عنه، فيما روى عنه عدد من المحدِّثين. وهو لم يكن أصم، بل تظاهر بالصمم مرة، فحمل هذا اللقب. ولهذا قصة رواها بعض المؤرخين، منسوبة إلى أبي بكر الوراق، حيث قال إن امرأة جاءت لتسأله عن أمر، فتصادف أن خرج منها في تلك الحالة صوت، فاحمرَّ وجهها وخجلت خجلًا كثيرًا، وأراد ألا يُحرجها، فصارت كلما سألته جعل يوهمها أنه أَصَمُّ ويقول لها: ارفعي صوتك، فقالت في نفسها: لم يسمع الصوت، فسمي لذلك الأَصَمَّ.

وشهد كثيرون للأصم، فقال عنه المؤرخ الشهير ابن خلكان في «الوفيات» إنه «أوحد من عُرف بالزهد والتقلل، واشتهر بالورع والتقشف، وله كلام يدون في الزهد والحكم». ووصفه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» بأنه «المؤثر للأدوم والأعم، والآخذ بالألزم والأقوم» والذي «توكَّل فسكن، وأيقن فركن»، وأشاد به الذهبي في سيره ونعته بأنه «الزاهد القدوة الرباني، الواعظ الناطق بالحكمة»، وقال إنه كان له كلام جليل في الزهد والمواعظ والحكم، حتى بدا في نظر الكثيرين «لقمان أمة المسلمين». ووصفه أحمد بن حنبل بأنه «رجل عاقل» بعد أن استمع إلى قصة تقول إن نفرًا من أهل بغداد قد اجتمعوا مع الأصم وسألوه: يا أبا عبد الرحمٰن أنت رجل أعجمي وليس يكلمك أحد إلا قطعته لأي معنى، فقال لهم: معي ثلاث خصال أظهر بها على خصمي: أفرح إذا أصاب خصمي وأحزن له إذا أخطأ، وأُخفض نفسي كي لا تتجاهل عليه، بلغ ذلك أحمد بن حنبل فقال: سبحان الله ما أعقله من رجل.

وتعلم الأصم من أستاذه شقيق البلخي الكثير، وهو ما يبينه حوار دار بين الاثنين، يذكره أبو تراب النخشبي قائلا إن البلخي سأل الأصم : مُذْ صحبتني، أي شيء تعلمت مني ؟ قال: ستُّ كلمات: رأيت الناس في شك من أمر الرزق، فتوكلت على الله. ورأيت لكل رجل صديقًا يفشي إليه سره، ويشكو إليه، فصادقت الخير ليكون معي في الحساب، ويجوز معي الصراط. ورأيت كل أحدٍ له عدو، فمن اغتابني ليس بعَدُوِّي، ومن أخذ مني شيئًا ليس بعدُوِّي؛ بل عدوي من إذا كنت في طاعة، أمرني بمعصية الله، وذلك إبليس وجنوده، فاتخذتهم عدوا وحاربتهم. ورأيت الناس كلهم لهم طالب، وهو ملك الموت، ففرَّغت له نفسي. ونظرت في الخلق، فأحببت ذا، وأبغضت ذا. فالذي أحببته لم يُعطني، والذي أبغضه لم يأخذ مني شيئا، فقلت: من أين أُتيت ؟ فإذا هو من الحسد فطرحته، وأحببتُ الكل، فكل شيء لم أرضَه لنفسي لم أرضه لهم. ورأيت الناسَ كلهم لهم بيت ومأوى، ورأيت مأواي القبر، فكل شيء قدرت عليه من الخير قدمته لنفسي لأعمر قبري. فقال شقيق: عليك بهذه الخصال». ويعطينا الأصم درسًا بليغًا في معرفة الطريق إلى محبة الناس والنجاة من بغضهم، وجني خيرهم واتقاء شرهم، وذلك في حوار بليغ وحكيم دار بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل، فقد سأله الأخير: أخبرني يا حاتم فيمَ أتخلص من الناس؟ فقال: يا أبا عبد الله في ثلاث خصالٍ، قال: ما هي؟ قال: أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم شيئًا، وتقضي حقوقهم ولا تستقضي منهم حقًّا، وتحمل مكروههم ولا تُكْرِهْ واحدًا منهم على شيء، فأطرق الإمام أحمد ثم رفع رأسه وقال: يا حاتم إنها شديد، فقال: وليتك تسلَم، أعادها ثلاث مرات.

وكان الأصم يدعو إلى أن يحسب الإنسان حساب ربه في كل لحظة بحياته، في حركاته وسكناته، وفي علمه وعمله، وفي كلامه وصمته؛ لأن الله يراه دومًا، ولا ينسى عبده أبدًا حتى وإن نسيه العبد

في غمرة انشغاله بالدنيا، وهنا يقول الأصم لمريده: تعاهد نفسك في ثلاث: إذا عملت، فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت، فاذكر سمع الله منك، وإذا سكتَّ، فاذكر علم الله فيك.

وكان الأصم كثير العيال، من الذكور والإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة في بيته، لكن توكله على الله لم يهتز قط. وقد سأله رجل: «على أي شيء بنيت أمرك في التوكل؟ فقال: على أربع خصال: علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت به نفسي، وعلمتُ أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتي بغتة فأنا أبادره، وعلمت أني لا أخلو من عين الله، فأنا مستحٍ منه».

وهناك قصة أوسع وأكثر تداولا تبين عمق توكل الأصم على ربه، وتقول إنه قد جلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجًا، ويدعو لكم، ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئًا، ونحن على ما ترى من الفاقة، فكيف تريد ذلك؟ وكانت له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له، ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء فإنه مناول الرزق، وليس برازق. فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة، يا أبانا، انطلق حيث أحببت.

فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافرًا وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم، كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة، ويقولون: لو سكتِّ ما تكلمنا. فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك، وأنك لا تضيعهم، فلا تخيبهم ولا تخجلني معهم.

فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيدًا فانقطع ووزيره عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد فاجتاز بيت حاتم الأصم فاستسقى من أهلها ماءً، وقرع الباب فقالوا: من أنت؟ قال: الأمير بابكم يستسقيكم. فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي سبحانك، البارحة بتنا جياعًا، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا، ثم أخذت كوزًا جديدًا وملأته ماء، وقالت للمتناول منها: اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير؟ فأجابته: لا والله، بل لعبد من عباد الله الصالحين عرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به. فقال الوزير: يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلِّف لعياله شيئًا، وأُخبرت أنهم البارحة باتوا جياعًا. فقال الأمير: ونحن أيضًا قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم. ثم حلّ الأمير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار، ثم قال لأصحابه: مَنْ أحبني فليلقِ منطقته، فحلَّ جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم ثم انصرفوا.

فقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق، فلما نزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالا جزيلا، واستردها منهم. فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديدًا فقالت الأم لها: ما هذا البكاء إنما يجب أن تفرحي، فإن الله وسع علينا. فقالت: يا أم، والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعًا، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين، اللهم انظر إلى أبينا ودبره بأحسن تدبير. هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمر أبيهم فإنه لما خرج محرمًا، ولحق بالقوم توجَّع أمير الركب، فطلبوا له طبيبًا فلم يجدوا، فقال: هل من عبد صالح؟ فدُلّ على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب. فنام تلك الليلة مفكرًا في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم مَنْ أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجه ورجع تلقاه أولاده فعانق الصبية الصغيرة وبكى ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين وإن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به فعليكم بمعرفته والاتكال

عليه، فإنه مَنْ توكل على الله فهو حسبه».

وقال له رجل ذات مرة: بلغني أنك تجوز المفاوز بغير زاد، فقال: بل أجوزها بالزاد وإنما زادي فيها أربعة أشياء، قال: ما هي؟ قال: أرى الدنيا كلها ملكًا لله، وأرى الخلق كلهم عباد الله، وأرى الأرزاق كلها بيد الله، وأرى قضاء الله نافذًا في كل أرض لله، فقال له الرجل: نعم الزاد زادك يا حاتم، أنت تجوز به مفاوز الآخرة.

وقال أبو عبد الله الخواص: دخلت مع حاتم الأصم، مدينة الري، معنا ثلاثمئة وعشرون رجلا نريد الحج، عليهم الصوف، ليس معهم جِرابٌ ولا طعام.

أما الأصم نفسه فقال: خرجت في سفر ومعي زاد نَفِدَ في وسط البرية فكان قلبي في السفر والحضر واحدًا، وقال أيضًا: لي أربع نسوة وتسعة من الأولاد، فما طمع الشيطان أن يوسوس لي في شيء من أرزاقهم.

وللأصم أقوال عديدة في باب التوكل وغيره، منها:

- مَنْ أصبح وهو مستقيم في أربعة أشياء فهو يتقلب في رضى الله: أولها الثقة بالله، ثم التوكل، ثم الإخلاص، ثم المعرفة. والأشياء كلها تتم بالمعرفة.

- الواثق من رزقه مَنْ لا يفرح بالغنى ولا يهتم بالفقر، ولا يبالي أصبح في عسر أو يسر.

- الزم خدمة مولاك تأتِكَ الدنيا راغمة والجنة عاشقة.

- العجلة من الشيطان إلا في خمس: إطعام الطعام إذا حضر ضيف، وتجهيز الميت إذا مات، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب، والتوبة من الذنب إذا أذنب.

وكان الأصم ينظر إلى الصلاة نظرة عميقة، تتعدى ما يفعله أغلب الناس، من ركوع وسجود، بلا تفكر ولا تدبر، فوصل بهذا إلى جوهرها باعتبارها صلة بين الإنسان وربه، تنهاه عن المنكر والفواحش من القول والفعل، وتأمره بالمعروف حتى لو كان بلوغه أو الالتزام به صعبا على النفس. وقد سأله عصام بن يوسف ذات يوم حين مر به في مجلسه: يا حاتم أتحسن الصلاة؟ قال: نعم، قال: كيف تصلي؟ قال: أقوم بالأمر، وأمشي بالخشية، وأدخل بالنية، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل والتفكر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأجلس للتشهد بالتمام، وأسَلِّم بالسُّنَّة والإخلاص لله عز وجل، وأرجع على نفسي بالخوف، أخاف أن لا يُقبل مني، وأحفظه بالجهد إلى الموت، فقال عصام حينئذٍ: تكلم فإنك تُحْسِنُ تصلي.

وكان الأصم لا تجذبه ولا تعجبه زخارف الدنيا، ويرى أن البساطة هي طريق أصحاب النفوس العامرة بالإيمان، وأن القناعة هي الكنز الذي لا يفنى أبدًا. فحين دخل المدينة المنورة سأل أهلها: يا قوم أي مدينة هذه؟ قالوا: مدينة رسول الله ﷺ. فسألهم: أين قصر رسول الله ﷺ فأصلي فيه ركعتين؟ قالوا: ما كان له قصر، إنما كان له بيت لاطئ، أي بالطين. فسألهم من جديد: أين قصور الصحابة؟ فأجابوا: ما كان لهم قصور، إنما كانت لهم بيوت لاطئة. فنادى: يا قوم، هذه مدينة فرعون وجنوده.فذهبوا به إلى الوالي، فقالوا: هذا الأعجمي يقول: هذه مدينة فرعون وجنوده، فسألهم الوالي: ولمَ ذاك؟ قال حاتم: لا تعجل عليَّ، أنا رجل أعجمي غريب، دخلت المدينة، فقلت: مدينة مَنْ هذه؟ قالوا: مدينة رسول الله ﷺ. قلت: فأين قصر الرسول، فأصلي فيه ركعتين؟ قالوا: ما كان له قصر، إنما كان له بيت لاطئ.قلت: فلأصحابه بعده؟ قالوا: ما كان لهم قصور، إنما كانت لهم بيوت لاطئة. فقال لهم: لقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21] . فأنتم بمن تأسيتم، برسول الله وأصحابه أو بفرعون أوّل من بنى بالجص والآجر ؟ فخلوا عنه وعرفوه.

ويتعجب الأصم من الناس الذين يتحسبون لغيرهم من البشر حين يتحدثون إليهم، ولا يفعلون هذا مع

ربهم، مع أنه مطلع على سرهم وعلنهم، ولا ينطقون بشيء إلا وعلم الله به وحاسبهم عليه. وهنا يقول الأصم: لو أن صاحب خبر جلس إليك، لكنت تتحرز منه، وكلامك يعرض على الله فلا تحترز!

وكان الأصم منشغلا بالموت طيلة الوقت، كأكبر واعظ للحكماء من البشر، وله في تعريف الموت أو تحديد درجاته رؤية لم يسبقه أحد إليها من قبل، على الأرجح، وهنا يقول: «من دخل مذهبنا هذا فليجعل في نفسه أربع خصال من الموت. موتا أبيض، وهو الجوع. وموتا أسود وهو احتمال الأذى من الخلق. وموتا أحمر وهو العمل الخالص من الشوب في مخالفة الهوى. وموتا أخضر وهو طرح الرقاع بعضها على بعض»، ويقصد بالأخيرة: ترقيع الثياب.

وكان يقول: ما من صباح إلا والشيطان يقول لي: ماذا تأكل؟ وماذا تلبس؟ وأين تسكن؟ فأقول له: آكل الموت، وألبس الكفن، وأسكن القبر.

وقد توفي الأصم سنة سبع وثلاثين ومئتين.

حين نبحث في سجل الأيام عن قيمة الإحسان نراه هناك جالسًا في عمق الزمن البعيد، يرنو إلينا بقلب يفيض صبرًا، ولسان يلهج بالتسابيح، وعينين دامعتين على ما آل إليه الصراع على «الدين» فأصبح كل حزب بما لديهم فرحين. نراه وهو يتحسر على أولئك الذين يزعمون أنهم هم أصل الدين وأساس الطريق المستقيم، ويخطف الخطى بعيدًا عنهم وهم يطاردونه ويجرحونه وينزعون عنه التلاميذ والمريدين، حتى يقف وحيدًا في وجه الريح.

هو الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي، ولد بالبصرة من أعمال العراق سنة 170هـ، واستمد كنيته من فعله؛ إذ كان صارمًا في حساب نفسه، ونهيها عن غيها وهواها، وكان حريصًا على أن يعلم تلاميذه أن «الإحسان» هو أعلى مراتب الإيمان، وأن الامتثال للقدر هو غاية الرضى، وأن اجتناب الحرام حتى ولو كان قليلا هو جوهر الورع.

وفي اجتناب الحرام يقول عنه أبو علي الدقاق: «كان المحاسبي إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على إصبعه عرق فكان يمتنع عنه».

أما الجنيد فيروي لنا حكاية مفصلة حول هذه الخصلة الحميدة التي زانت فعل المحاسبي؛ إذ يقول: «مر بي الحارث المحاسبي ذات يوم، فرأيت فيه أثر الجوع، فقلت له: يا عم، تدخل الدار وتتناول شيئًا؟ فقال: نعم. فدخلت الدار وطلبت شيئًا أقدمه إليه، فكان في البيت شيء من طعام حُمِل إليَّ من عرس قوم، فقدمته إليه، فأخذ لقمة وأدارها في فمه مرات، ثم قام وألقاها في الدهليز، ومر.

فلما رأيته بعد ذلك بأيام قلت له في ذلك، فقال: إني كنت جائعًا، وأردت أن أسرك بأكلي وأحفظ قلبك، ولكن بيني وبين الله، سبحانه، علامة، أن لا يسوغني طعامًا فيه شبهة، فلم يمكنني ابتلاعه فمن أين كان لك ذلك الطعام؟ فقلت: إنه حُمِل إليَّ من دار قريبة لي من العرس، ثم قلت: تدخل اليوم؟ فقال: نعم. فقدمت إليه كسرًا يابسة كانت لنا، فأكل وقال: إذا قدمت إلى فقير شيئًا فقدم إليه مثل هذا».

ويُقال إن المحاسبي قد ورث عن أبيه سبعين ألف درهم، لكنه لم يأخذ منها شيئًا؛ لأن أباه كان من «القدريين» الذين يقولون بإنكار عموم القدر الذي يجب الإيمان به، وكان يؤمن برواية تقول: «لا يتوارث أهل ملتين شيئًا»، ولهذا عاش المحاسبي فقيرًا، ومات وهو في مسيس الحاجة إلى درهم واحد.

وعن هاتين الملتين يروي أبو الحسن بن مقسم : أخبرنا أبو علي بن خيران، قال : رأيت المحاسبي متعلقا بأبيه يقول : «طلِّقْ أمِّي، فإنك على دين، وهي على غيرِه».

وصاحب المحاسبي بعض كبار المتصوفة مثل أحمد بن القاسم، والجنيد البغدادي، وإسماعيل السراج، وأحمد بن الحسن الصوفي، وأبو علي بن خيران الفقيه، وابن مسروق. وترك وراءه العديد من المؤلفات منها: «فهم القرآن ومعانيه»، و«التوبة»، و«بدء من أناب إلى الله»، و«شرح المعرفة وبذل النصيحة»، و«التوهم»، و«مائية العقل وحقيقة معناه»، و«آداب النفوس»، و«الرعاية لحقوق الله»، وهي مصنفات في أصول الديانات، والزهد، والرقائق، والرد على المخالفين من المعتزلة وغلاة الشيعة.

وقد حوت هذه الكتب آراءه وأذواقه ومواجيده، فأقبل عليها مَنْ أقبل، وأدبر عنها مَنْ أدبر. ومن أقبلوا عليها استملحوا أسلوبه الذي يعتمد على الحوار، حيث طرح أحواله وأفكاره على هيئة حوار بين أستاذ وتلميذه، هادفا إلى تربية النفوس وصقل العقول. ومَنْ أدبروا عنه هم أولئك الذين أنصتوا إلى المتشككين فيه ممن رموه بالتفلسف أو استعمال العقل في تعليم الدين.

ومن احتفى بالمحاسبي زاهدًا ورعًا راح يردد أقواله المأثورة من قبيل:

- جوهر الإنسان الفضل، وجوهر العقل التوفيق.

- مَنْ صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة.

- ترك الدنيا مع ذكرها صفة الزاهدين، وتركها مع نسيانها صفة العارفين.

- في تنزيه الله هو سبحانه علم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف كان يكون، وذلك لتفرده بعلم الغيوب، فلا حاجة للقول بصفات حادثة، ولا حاجة لنفي الصفات بحجة التنزيه ما دام العلم واحدا في كل حال، والمتغير تعلقه أي المعلوم؛ إذ إن العلم هو انكشاف المعلوم على ما هو عليه.

- مَنْ طُبع على البدعة متي يشيع فيه الحق؟

- المحبة ميلك إلى المحبوب بكليتك، ثم إيثار له على نفسك وزوجك ومالك، ثم موافقتك له سرًّا وجهرًا، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

- خيار هذه الأُمةِ الذين لا تشغلهم آخِرتهم عن دنيا هم، ولا دنياهم عن آخِرتِهم.

- من أراد أن يذوق لذة طعم معاشرة أهل الجنة فليصحب الفقراء الصادقين.

- الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يجب إطلاع الناس على مثاقيل الدر من حسن عمله، ولا يكره أن يطلع الناس على السيئ من عمله، فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصديقين.

- عزلتي أُنسي، لو أن نصف الخلق تقربوا مني، ما وجدت لهم أنسًا، ولو أن النصف الآخر نأوا عني ما استوحشت.

- الحب لله في نفسه استنارة القلب بالفرح لقربه من حبيبه، فإذا استنار القلب بالفرح استلذ الخلوة بذكر حبيبه، فالحب هائج غالب، والخوف لقلبه لازم لا هائج، إلا أنه قد ماتت منه شهوة كل معصية وهدى لأركان شدة الخوف، وحل الأنس بقلبه لله، فعلامة الأنس استثقال كل أحد سوى الله، فإذا ألف الخلوة بمناجاته حبيبه، استغرقت حلاوة المناجاة العقل كله حتى لا يقدر أن يعقل الدنيا وما فيها».

ومن أمثلة الأسلوب الحواري الذي اتبعه المحاسبي في تعاليمه ذلك الذي كتبه عن «الرياء»، فها هو يطرح:

«قلت: قد وصفت لي مراقبة الله عز وجل وذكره، والرعاية لحقوقه ووجوه طلبها، والأول من الواجب والفضل، فما تخاف عليَّ إن قمت بذلك؟

قال: أخاف عليك أن تفسده بما يبطل ثوابه في آخرتك، ويذهب بحلاوته من قلبك.

قلت: ذلك أعظم للحسرة، أن أتعنى، ثم يحبط ويبطل عملي، وما ذاك المعنى؟

قال: فإن المتقي الراعي لحقوق الله، عز وجل، القائم بها تتبدل أحواله حتى تظهر للخلق. فيظهر منه الصمت بعد طول الخوض فيما لا يعنيه ولا فيما يحل له. وتظهر منه المجانبة لمن كان يعصي الله عز وجل معه. ويظهر منه الأنس لمن يسلم معه، ومن يستفيد منه الخير. ويظهر منه الكلام فيما يحب الله، ويتقرب به إليه، وتسكت جوارحه ويخشع طرفه، وتعلوه السكينة والوقار، فتظهر منه الطاعات. فعند ذلك تعلم النفس أن ما ظهر منها لعباد الله عز وجل لن يمنعهم أن يحمدوا فعله، ويعظموه بذلك، ويروا له الفضل والقدر. وتعلم النفس أن ما بطن منه وسره لو ظهر لحمد ذلك منه وفضل به، فتطلب النفس الراحة إلى التزين بالدين بما ظهر وبما أسر أن يكون محمودًا معظمًا، وليكون في الدنيا محمودًا معظمًا».

وهناك من هاجم المحاسبي عن جهل وغلظة، وحرَّض الناس على عدم قراءة ما خطَّه بنانه. فها هو أبو زُرعة الرازي يقول لمن سأله عن كتب المحاسبي: «إياك وهذه الكتب، بدع وضلالات، عليك

بالأثر، فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب. قيل له: في هذه الكتب عبرة! فقال: مَنْ لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه عبرة.. بلغكم أن مالكا أو الثوري أو الأوزاعي أو الأئمة صنفوا كتبا في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء؟! هؤلاء قوم قد خالفوا أهل العلم، يأتونا مرة بالمحاسبي، ومرة بعبد الرحيم الديبلي، ومرة بحاتم الأصم. ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع».

وهذا بالطبع رأي «أهل الأثر» أو «أهل الحديث» عمومًا، حيث غلبوا الرواية على الدراية، ورفضوا ما ذهب إليه المعتزلة من استعمال العقل، والقول بأنه يكمل مسيرة الوحي، وما ذهب إليه الأشاعرة من استعمال العقل في فهم النقل، وكذلك كل ما ذهب إليه المتصوفة من الذهاب بفهم الدين والعمل به إلى ما هو أبعد من ظاهر النصوص والطقوس. وقد أدى هذا إلى ضمور الاجتهاد وتهافت التأويل والإضرار بالوجدان والعرفان، ناهيك أصلا عن ضعف البرهان.

فها هو ابن الأعرابي رغم أنه يقر بتفقه المحاسبي، وكتابته للحديث النبوي ومعرفته بمذاهب النساك وأنه كان من العلم بموضع، فإنه يهاجمه لا لشيء سوى أن الرجل تكلم في مسألة اللفظ ومسألة الإيمان، وكان يستعمل عقله وحدسه في فهم الدين.

وهناك من يقول إن الإمام أحمد بن حنبل قد هجر المحاسبي، فاضطر أن يختفي عن الأنظار مدة. وهنا يقول البيهقي إنه يحتمل أن يكون الأول قد كره ما عند الثاني من «علم الكلام» أو ما هو عليه من تقشف شديد وزهد عميق ومحاسبة صارمة للنفس هي في نظره «لم يرد بها شرع». ونسب إلى أبي بكر الخلاق أن أحمد حذر من الحارث أشد التحذير، الحارث أصل البلية - يعني فِي حوادث كلام جهم - ذاك جالسه فلان وفلان وأخرجهم إِلَى رأي جهم، مَا زال مأوى أصحاب الكلام، حارث بمنزلة الأسد المرابط! انظر أي يوم يثب على الناس.

وجاء في «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي أن ابن حنبل غضب من المحاسبي بعد أن أصدر كتابه في الرد على المبتدعة، حيث لم تَرُقْ له الطريقة التي عالج بها هذا الموضوع، وقال له: ويحك ألست تحكي بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ؟! ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث؟».

لكن ابن تيمية رفض هذه الرواية وقال: إنما هجره لأنه كان على قول ابن كُلّاب الذي وافق المعتزلة على صحة طريق الحركات، وصحة طريق التركيب، ولم يوافقهم على نفي الصفات مطلقا، بل كان هو وأصحابه يثبتون أن الله فوق الخلق عالٍ على العالم موصوف بالصفات ويقررون ذلك بالعقل، وإن كان مضمون مذهبه نفي ما يقوم بذات الله تعالى من الأفعال وغيرها مما يتعلق بمشيئته واختياره، وعلى ذلك بنى كلامه في مسألة القرآن. وهذا هو المعروف عند مَنْ له خبرة بكلام أحمد من أصحابه وغيرهم من علماء أهل الحديث والسنة.

وقد حوصر وطورد المحاسبي من أتباع ابن حنبل، فاضطر إلى ترك بغداد ولجأ إلى الكوفة، وبعد سنوات عاد إلى بغداد لكنه توقف عن التدريس بسبب حثهم الناس على الانفضاض عنه، وتهديده هو نفسه، فقضى بقية حياته يعاني من الفقر والإهمال.

لكن هناك رواية أخرى تناقض هذا وتدل على أن ابن حنبل كان يروق له زهد المحاسبي وإن تحفَّظ على قوله، لكن تلاميذه من الحنابلة بالغوا في الإساءة إلى هذا المتصوف الكبير، وتشددوا أكثر من أستاذهم في التعامل معه. فها هو إسماعيل بن إسحاق السراج يروي: «سألني ابن حنبل ذات يوم: هل تستطيع أن تريني الحارث المحاسبي إذا جاء منزلك؟

فقلت له: نعم، وفرحت بذلك، ثم ذهبت إلى الحارث؛ فقلت له: إني أحب أن تحضر الليلة عندي أنت وأصحابك.

فقال: إنهم كثير؛ فأحضر لهم التمر والكسب.

فلما كان بين العشاءين جاءوا وكان الإمام أحمد قد سبقهم، فجلس في غرفة بحيث يراهم ويسمع كلامهم ولا يرونه، فلما صلوا العشاء الآخرة لم يصلوا بعدها شيئا، بل جاءوا بين يدي الحارث سكوتا، مطرقي الرؤس، كأنما على رؤوسهم الطير، حتى إذا كان قريبا من نصف الليل سأله رجل مسألة، فشرع الحارث يتكلم عليها وعلى ما يتعلق بها من الزهد والورع والوعظ، فجعل هذا يبكي؛ وهذا يئن وهذا يزعق.

قال: فصعدت إلى الإمام أحمد إلى الغرفة، فإذا هو يبكي، حتى كاد يُغشى عليه، ثم لم يزالوا كذلك حتى الصباح فلما أرادوا الانصراف قلت: كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله؟

فقال: ما رأيت أحدًا يتكلم في الزهد مثل هذا الرجل، وما رأيت مثل هؤلاء!! ومع هذا، فلا أرى لك أن تجتمع بهم».

وتتخذ الرواية السابقة مصداقية نسبية نظرًا لأمرين: الأول أن المحاسبي كان من رواة الحديث النبوي، وهو ركن أساسي في مشروع ابن حنبل، حيث كان الأول يروي عن يزيد بن هارون وغيره، وروى عنه أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي، وأحمد بن القاسم بن نصر الفرائضي، وغيرهما. والثاني أن ابن حنبل نفسه، الذي يُنظر إليه باعتباره الرجل الأول في مسيرة التيار السلفي عبر التاريخ، كان زاهدًا ومتقشفا، ولذا لا أعتقد أن زهد المحاسبي من الأمور التي تغضبه أو تثير حفيظته، حتى لو كان بها بعض شدة أو صرامة. وقد تكون رواية غضب ابن حنبل من المحاسبي قد تواترت على ألسنة تابعي الأول في الزمن اللاحق ضمن ما تم اختلاقه بإفراط في أتون الصراع الضاري بين السلفيين والصوفيين.

وفي هذا الإطار كان من الطبيعي أن يتحدث المتسلفة عن أن المحاسبي قد رجع عن كثير من كلامه، وهذا ما يطلقونه دوما على المخالفين لهم في الرأي، حتى يطمئنوا أنفسهم على ما هم عليه، ويجعلوا تلاميذهم يثقون فيما يقولونه لهم، حين يرون أن هناك رؤية مغايرة في تاريخ الفكر والفهم والتذوق الإسلامي.

وقد لخَّص الذهبي في ترجمته من الميزان كل هذا الجدل بقوله: كان المحاسبي صدوقا في نفسه، وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه.

وفي الحقيقة فإن المتسلفة يُفرطون في كراهية الاجتهاد وأهله، والتصوف ورجاله، رغم أن كثيرا من المتصوفة كانوا ملتزمين بالكتاب والسنة. فالحارث المحاسبي نفسه يقول في كتابه «شرح المعرفة وبذل النصيحة»: «وأعون الأمور لك على التقوى لزوم طريق أصحاب النبي ، وإياك والمحدثات من الأمور، والرغبة عن طريقهم، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار، أعاذنا الله تعالى وإياك من النار. واعلم أنك إذا أخذت طريق أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، فقد أخذت بغاية الصدق، وأفلحت حجتك، ونلت بغيتك، فلا تخالفهم في شيء من الأشياء، فإنهم كانوا علي الحق المبين، والنور الواضح، فاتبع سبيلهم ومنهاجهم، ولا تعرج عنهم فيعرَّج بك، ولا تخالفهم فيخالَف بك».

وبالتالي يكون المحاسبي واحدًا ممن شقوا طريقا وسيعا وعميقا في تاريخ المسلمين يزاوج بين وجدانيات التصوف والالتزام بالنص، أي بين الشريعة والحقيقة، دون أن يغمط حق العقل في التفكر والتدبر، لكن أهل الأثر أو أهل الحديث يتوهمون أن مثل هذه المزاوجة بدعة أو خروج عن الطريق المستقيم، مع أن الرجل كان معروفا بمحاسبة النفس، والنزاهة والاستقامة إلى أقصى حد يبلغه إنسان.

وفي سنة 243 هـ مات المحاسبي في بغداد، وكانت جنازته بسيطة؛ إذ لم يصل عليه سوى أربعة أفراد بعد أن هجاه تلاميذ ابن حنبل، لكن عاشت سيرة ورعه وزهده في كل مكان بالعالم الإسلامي متسع الأرجاء، وكلما أراد أحد أن يضرب مثلا ناصعًا على الإحسان استدعى المحاسبي من قلب

التاريخ البعيد وأتى على ذكره في امتنان عميم.

الحسن البصريّ

رائد المتصوّفين وسيّد التابعين

دائرة معارف كاملة، فعلمه الغزير وإحاطته الواسعة، انعكست على أقواله وكتاباته؛ إذ قربه الفقه والحديث والقراءات واللغة والبيان والمنطق من الزهد؛ ليكون بذلك أحد أوائل كبار المتصوفين، إن لم يكن رائدهم جميعًا، من دون ادعاء ولا خروج ولا دروشة، بما جعله مثلًا لكل مَنْ يريد أن يسير في طريق السالكين من دون تفريط ولا إفراط، وجعله نموذجًا أمام مَنْ يطالبون بـ «التصوف الحقيقي» الذي كان عليه الصحابة والتابعون. فالبصري لم ينغلق على نفسه في صومعة، ولم يهينها في دروشة، إنما مارس التصوف وذاقه تحت مظلة الشرع.

هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، ولد في بيت أم سلمة زوجة الرسول ﷺ سنة 21هـ، في السنة الثانية من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ إذ كانت والدته مولاة لأم سلمة، التي قيل إنها كانت ترضعه أحيانًا، حين يشتد به الجوع وأمه غائبة. ودعا له الفاروق ذات يوم قائلًا: «اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس». وقد حفظ الحسن القرآن في العاشرة من عمره.

ومكث البصري في وادي القرى، ثم انتقل إلى المدينة المنورة، وعاش أيام صباه في تلك البقعة الطاهرة بين أصحاب النبي وزوجاته. وفي عام 36هـ انتقل برفقة أسرته إلى موطنه الأصلي في البصرة في العراق، التي كانت آنذاك مدينة عامرة بالفقهاء والعلماء، وتضج بمناقشات وجدل ديني وفكري واسع الأرجاء، وعميق الأثر، يتصادم فيه الجديد مع القديم، والعقل مع القلب، والوجدان مع البرهان. وكان لهذا الجدل وقعه على الحسن نفسه، وهو مشهد يلخصه مثال جلي في تاريخ الفكر والفقه الإسلامي برمته، يرتبط بواصل بن عطاء، الذي انفصل عن أستاذه حسن البصري، وشكّل حلقة تيار المعتزلة الأولى، ولم يقابل الأستاذ فعلة تلميذه بغضب ولا تكفير، ولم يستكثر ما أقدم عليه، إنما اكتفى بابتسامة، وأتبعها بقوله: «اعتزلنا واصل»، فمنح جماعة تلميذه اسمها الذي لا يزال صلبًا في قلب الفكر الإسلامي، حتى هذه اللحظة.

عاش البصري في هذه المدينة، التي استمد منها كنيته، والتقى كثيرين من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم فجلس إليهم، وسمع منهم. وتردد على مسجد البصرة فكان يتصدر حلقات الدرس. ولم يكتفِ بالعلم والفقه، بل شارك في الجهاد؛ إذ قاتل وهو شاب يافع في معارك وقعت شرق إيران سنة 43هـ، وقادها الأحنف بن قيس خلال عهد معاوية ابن أبي سفيان. كذلك شارك في فتح كابور مع عبد الرحمن بن سمرة، وكان المهلب بن أبي صفرة يقدمه إلى القتال، ووصفه زملاؤه من الجند بأنه كان من الشجعان الموصوفين.

وقد لفت البصري انتباه من عاصروه من أهل الرواية والدراية على حد سواء، فكان له في عقولهم مكانة، وفي قلوبهم منزلة، فنقلوا إعجابهم به إلى كل من سأل عنه، أو حتى من سمع به. فها هو ثابت بن قرة يصفه بأنه «من دراري النجوم علمًا وتقوى وزهدًا وفصاحة، مواعظه تصل إلى القلوب، وألفاظه تلتبس بالعقول، وما أعرفه له ثانيًا، قريبًا ولا مدانيًا، كان نظره وفق مخبره، وعلانيته وزن سريرته، يجمع مجلسه ضروب الناس، وأصناف اللباس لما يوسعهم من بيانه، هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يُلقن منه التأويل، وهذا يسمع الحرام والحلال، وهذا يتبع في كلامه العربية، وهذا يجرد له المقالة، وهذا يحكي له الفتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء، وهذا يسمع الموعظة، وهو في جميع هذا كالبحر العجاج تدفقًا، وكالسراج الوهاج تألقًا، يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير، وعمرو بن واصل صاحب الكلام، وابن أبي إسحق صاحب النحو، وفرقد السبنجي صاحب الرقائق، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم فمن ذا مثله، ومَنْ يجري مجراه.

وقال فيه محمد بن سعد: «كان الحسن فقيهًا، ثقة، حجة، مأمونًا، ناسكًا، كثير العلم، فصيحًا، وسيمًا»، وقال عنه أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري.

وحين سُئل خالد بن صفوان، وكان أحد فصحاء العرب، عنه قال: «إنه امرؤٌ سريرته كعلانيته، وقوله كفعله، إذا أمر بمعروف كان أعمل الناس به، وإذا نهى عن منكر كان أترك الناس له، وقد

رأيته مستغنيًا عن الناس زاهدًا بما في أيديهم، ورأيت الناس محتاجين إليه طالبين ما عنده.

يتجلَّى تصوف الحسن البصري في ذَمِّه الدنيا، وإعراضه عنها، وحثه على عدم الإغراق في نعمها الزائلة، وزينتها الزائفة. وتتعدد أقواله في هذا المقام حتى تشكل ملمحًا مهمًا من ملامح فكره وفقهه، فها هو يقول: الله يعطي العبد من الدنيا مكرًا به، إلا كان عاجز الرأي.

وينظر البصري إلى الدنيا بوصفها وديعة لدى البشر، وعليهم أن يردوها إلى مَنْ أودعها إياهم كما هي، من دون تمسك بها بالباطل، أو طمع فيها بغير حق، ولا انكسار أمامها بغير سلطان نفس. وهنا أوضح: «أدركت أقوامًا ما كانت الدنيا عندهم وديعة حتى ردوها إلى من ائتمنهم عليها ثم راحوا خفافًا غير مثقلين، وأدركت أقوامًا كانت الدنيا تتعرض لأحدهم، وإنه لمجهود فيتركها مخافة التباعة.

ويصل الأمر إلى أن يعد البصري عشق الدنيا والإغراق في ملذاتها إحدى كبائر الإثم، وأنها الدرب الوسيع الذي سلكه الشيطان إلى نفوس البشر، فأوقعهم في الشرك والكفر، وهنا علّق: «ما عجبت من شيء كعجبي من رجل لا يحسب حب الدنيا من الكبائر، وايم الله إن حبها لمن أكبر الكبائر، وهل تشعبت الكبائر إلا من أجلها؟ وهل عُبدت الأصنام، وعُصي الرحمن إلا لحب الدنيا وإيثارها.

وردد أيضًا: «أيها الناس، والله ما أعز هذا الدرهم أحد إلا أذله الله تعالى يوم القيامة»، وذكر أن إبليس لعنه الله، لما ضرب الدينار والدرهم، نقرهما وجعلهما على رأسه، وقال: من أحبكما فهو عبدي حقًّا أصرفه كيف أشاء». كذلك قال: «إذا أحب بنو آدم الدنيا فما أبالي ألا يعبدوا صنمًا، ولا يتخذوا إلهًا غير الله ربًّا، حبهم الدنيا يوردهم المهالك».

لهذا أشار البصري إلى أن «المؤمن الفطن اللبيب في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها، ولا يأنس بقربها، ولا يأسى لبعدها، ولا يأمن غيرها، للناس حال وله حال». بل كان البصري يعتقد أن من خلوا الدنيا وراء ظهورهم هم من يسترهم الله يوم لا ظل إلا ظله: «يحشر الناس عراة يوم القيامة ما خلا أهل الزهادة في الدنيا».

كذلك يتجلى تصوف البصري في حضِّه على الصبر الجميل، الذي هو في نظره «صبران: صبر عند المصيبة، وصبر عند المعصية»، وأن «من قدر على ذلك فقد نال أفضل الصبرين».

ويرتبط الصبر بالزهد والحق والفلاح في رؤية البصري، فالزاهد عنده هو: «مَنْ لم يغلب الحرام صبره، والحلال شكره»، والحق لديه هو: «مُرٌّ لا يصبر عليه إلا مَنْ عرف حُسن العاقبة، ومن رجا الثواب خاف عقابه». والفلاح في مذهبه ينطوي على صبر عميق: «إنكم لا تنالون ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تدركون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون».

أما الخاصية الثالثة من خصائص التصوف لدى البصري فتتمثل في الحزن، فالمؤمن عنده يجب أن يكون حزينًا غريبًا، ليس اكتئابًا ولا نفورًا مريضًا، إنما تعفف ورقة إحساس، وانشغال بما يؤلم الآخرين، ومواساة لهم على ما هم فيه من كدر.

ولهذا قيل عنه إنه كان كثير الحزن، عظيم الهيبة، وهو ما تبين صورته في قول أحد الصحابة: «ما رأيت أحدًا أطول حزنًا من الحسن، ما رأيته إلا حسبته حديث عهد بمصيبة».

وقال البصري: «نضحك ولا ندري لعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا. فقال: لا أقبل منكم شيئًا، ويحك يا ابن آدم، هل لك بمحاربة الله طاقة؟ إن من عصى الله فقد حاربه، والله أدركت سبعين بدريًّا، لو رأيتموهم قلتم مجانين، ولو رأوا خياركم لقالوا ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا شراركم لقالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب».

وقال حمزة الأعمى: «كنت أدخل على الحسن منزله وهو يبكي، وربما جئت إليه وهو يصلي فأسمع بكاءه ونحيبه فقلت له يومًا: إنك تكثر البكاء، فقال: يا بني، ماذا يصنع المؤمن إذا لم يبكِ؟ يا بني إن

البكاء داعٍ إلى الرحمة. فإن استطعت أن تكون عمرك باكيًا فافعل، لعله تعالى أن يرحمك».

وروى الطبراني عنه: «إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة، رجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة». وقال أحدهم: «إني لَحَسَنُ الظن بالله وأرجو رحمة الله، وكذب، ولو أحسن الظن بالله لأحسن العمل لله، ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة، يوشك من دخل المفازة من غير زاد ولا ماء أن يهلك».

رغم أن البصري كان يطبق القاعدة التي تقول: «ستون سنة من حاكم جائر خير من سنة بلا حاكم» خوفًا من الفوضى والاضطراب وتشرذم أركان الدولة وتحللها، فإنه لم يشجع ظالمًا على ظلمه، أو مستبدًا على تجبره، ولم يكن يهاب أي حاكم مهما بلغ تسلطه وتعنته وتجرؤه على حرمات الله وحقوق الناس».

عاش الحسن الشطر الأكبر من حياته في دولة بني أمية، وكان موقفه متحفظًا على الأحداث السياسية، خصوصًا ما جرَّ إلى الفتنة وسفك الدماء؛ إذ لم يخرج مع أي ثورة مسلحة ولو كانت باسم الإسلام، وكان يرى أن الخروج يؤدي إلى الفوضى، وطمع الأعداء في المسلمين. وكان هذا الموقف ينبع أيضًا من اعتقاد الحسن في أن السلطة مفسدة، وأن الناس يخرجون من يد ظالم إلى ظالم، ولذا فإنْ شَقَّ إصلاح الحاكم فإنه يمكن إصلاح المحكومين من دون عنت ولا عناء شديد. أما إن كان الحاكم عادلًا صالحًا مطبقًا أحكام الله مثل عمر بن عبد العزيز، فإن الحسن كان ينصحه، ويقبل القضاء في عهده ليعينه على أداء مهمته.

وكان للبصري هيبة في نفوس الحكام، وهو ما تسجله واقعة لا تنسى. فحين وُلِّي الحجّاج بن يوسف الثقفي العراق، وطغى في ولايته وتجبّر، كان الحسن البصري أحدَ الرجال القلائل الذين تصدّوا لطغيانه، وجهروا بين الناس بسوء أفعاله وصدعوا بكلمة الحق في وجهه، فعَلِمَ الحجاج أن الحسن البصري يتهجَّم عليه في مجلس عام، فماذا فعل؟ دخل الحجَّاجُ إلى مجلسه، وهو يتميَّز من الغيظ، وقال لجلاَّسه: تبًّا لكم، سُحقًا، يقوم عبدٌ من عبيد أهل البصرة، ويقول فينا ما شاء أن يقول، ثم لا يجد فيكم مَنْ يردُّه، أو ينكر عليه، والله لأسقينَّكم من دمه يا معشر الجبناء، ثم أمر بالسيف والنطع، ودعا بالجلاد فمَثُل واقفًا بين يديه، ثم وجَّه إلى الحسن بعضَ جنده، وأمرهم أن يأتوا به، ويقطعوا رأسه، وانتهى الأمرُ، وما هو إلا قليل حتى جاء الحسنُ، فشخصتْ نحوه الأبصارُ، ووجفت عليه القلوبُ، فلما رأى الحسنُ السيفَ والنطع والجلادَ حرَّك شفتيه، ثم أقبل على الحجاج، وعليه جلالُ المؤمن، وعزة المسلم، ووقارُ الداعية إلى الله، فلما رآه الحجاجُ على حاله هذه هابه أشدَّ الهيبة، وقال له: «ها هنا يا أبا سعيد، تعالَ اجلس هنا»، فما زال يوسع له ويقول: «ها هنا»، والناس لا يصدِّقون ما يرون، حتى أجلسَه على فراشه، ووضَعَه جنبه، ولما أخذ الحسنُ مجلسه التفت إليه الحجَّاجُ، وجعل يسأله عن بعض أمور الدين، والحسنُ يجيبه عن كلِّ مسألة بجنان ثابت، وبيان ساحر، وعلم واسع، فقال له الحجاج: «أنت سيدُ العلماء يا أبا سعيد»، ثم دعا بغالية، أحد أنواع الطِّيب، وطيَّب له بها لحيته، وودَّعه.

ولما خرج الحسنُ من عنده تبعه حاجبُ الحجاج، وقال له: «يا أبا سعيد، لقد دعاك الحجاجُ لغير ما فعل بك، دعاك ليقتلك، والذي حدث أنه أكرمك، وإني رأيتك عندما أقبلت، ورأيتَ السيفَ والنطعَ قد حرَّكتَ شفتيك، فماذا قلت؟ فقال الحسن: لقد قلت: يا وليَّ نعمتي، وملاذي عند كربتي، اجعل نقمته بردًا وسلامًا عليَّ، كما جعلت النارَ بردًا وسلامًا على إبراهيم».

وهناك واقعة أخرى تدل على شجاعة البصري وثقته في ربه ونفسه أمام أهل السلطة، وحرصه على أن يقول الحق مهما كلفه من عناء. فحين ولي عمر بن هبيرة الفزاري العراق وأضيفت إليه خراسان في أيام يزيد ابن عبد الملك، استدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين والشعبي، فقال لهم إن يزيد خليفة الله استخلفه على عباده وأخذ عليهم الميثاق بطاعته وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة وقد

ولّاني ما ترون فيكتب إليَّ بالأمر من أمره فأنفذ ذلك الأمر فما ترون؟! فأجاب ابن سيرين والشعبي بقول فيه تقية، وقال ابن هبيرة: «ما تقول يا حسن»، فقال: «يا ابن هبيرة خَفِ الله في يزيد ولا تَخَفْ يزيد في الله، إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله، وأوشك أن يبعث إليك ملكًا فيزيلك عن سريرك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ثم لا ينجيك إلا عملك. يا ابن هبيرة، إن تَعْصِ الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصرًا لدين الله وعباده، فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

وعلى النقيض من هذا قدم البصري نصيحة غالية إلى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز في رسالة خالدة جاء فيها: «إن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة إنما أنزل إليها آدم عليه السلام عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، لها في كل حين قتيل، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها. هي كالسم، يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فكن فيها كالمداوي جراحه، يحتمي قليلا مخافة ما يكره طويلًا، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء. فاحذر هذه الدار الغرارة الخداعة الخيالة التي قد تزينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وختلت بآمالها، وتشوفت لخطابها، فأصبحت كالعروس المجلوة، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة. فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته، فاغتر وطغى، ونسي المعاد، فشغل بها لبه، حتى زلّت عنها قدمه، فعظمت عليها ندامته، وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وألمه، وحسرات الفوت. وعاشق لم ينل منها بغيته، فعاش بغُصته، وذهب بكمده، ولم يدرك منها ما طلب، ولم تسترح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد. ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء سرورها مشوب بالحزن. أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، فلو كان ربنا لم يخبر عنها خبرًا، ولم يضرب لها مثلًا، لكانت قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل. فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ، وعنها زاجر، فما لها عند الله قدر ولا وزن، ولا نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصها عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختيارًا، وبسطها لاعدائه اغترارًا، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها. ونسي ما صنع الله عز وجل برسوله حين شد الحجر على بطنه».

بلغت شهرة البصري الآفاق، ووصلت الثقة فيه، والحب له إلى أقصى درجاته. وفي العام العاشر بعد المئة الأولى، وفي غرة رجب ليلة الجمعة وافته المنية، فلما شاع الخبر بين الناس ارتجَّت البصرة كلها رجًّا لموته رضي الله عنه، فغُسل وكفن، وصلى عليه جمع غفير في الجامع الذي أمضى عمره فيه؛ داعيًا ومعلمًا وواعظًا، ثم تبع الناس جنازته بعد صلاة الجمعة، وانشغلوا في دفنه انشغالًا عميمًا، حتى أنه لم تُقَمْ صلاة العصر في البصرة لانشغال الناس بتشييع هذا الرجل العظيم.

داود الطائي

العبد الطاوي والبصير الراعي

تلميذ الحسن البصري وأستاذ معروف الكرخي، فكان بذلك جسرًا واصلا بين قامتين صوفيتين كبيرتين، وكان من كبار أئمة الفقه والرأي، جلس إلى أبي حنيفة وحاوره، لكنه لم يلبث أن لزم الصمت، وبحث عن علم الحقيقة، فأصبح عالمًا ربانيًّا، وأحد أعلام مشايخ الطريقة العلية، واشتهر بين الناس بزهده في الدنيا، وميله إلى العزلة، مستئنسا بالقرب من الله. ولم تكن عزلته عن اكتئاب أو انطواء مرضي، إنما عن اختيار حتى يمكن أن يجد وقتا للتفكر والتدبر والتأمل والمجاهدة؛ ليتدرج في أحوال التصوف ومقاماته حتى بلغ شأنا عظيمًا، عرفه ولمسه كل من اقترب إليه، وسمع منه، وتابع أحواله وتصرفاته.

هو أبو سليمان داود بن نصير الطائي، ولد بالكوفة، ثم غادرها إلى بغداد، حيث جلس إلى كبار علمائها. وحين زادت حصيلته من فقه الكتاب والسنة ووقف على اجتهاد أهل الرأي، عاد إلى الكوفة، فروى الحديث وروى البعض عنه، لكنه لم يلبث أن انشغل إلى جانب الرواية والدراية بالتذوق، وأخذه الزهد إلى مسار جديد، ترك فيه علامة، فأصبح يذكر به.

وقد شهد له كثيرون من أهل العلم والصلاح، فكان سفيان الثوري يعظمه ويراه دومًا أنه هو من أدرك الطريق المستقيم، ويقول: «أبصر داود أمره»، أما عبد الله بن المبارك فكان يقول: «وهل الأمر إلا ما كان عليه داود»، أما الذهبي فوصفه بأنه كان إمامًا فقيهًا ذا فنون عديدة، ثم تعبَّد وآثر الوحدة، وأقبل على شأنه، وساد أهل زمانه»، وقال أبو نعيم: «رأيت داود الطائي، وكان من أفصح الناس، وأعلمهم بالعربية، يلبس قلنسوة طويلة سوداء».

كان الطائي زاهدًا في الدنيا، يردد دومًا في خشوع يفضي إلى البكاء: «سبقني العابدون وقُطع بي، وا لهفاه». ويقال إنه قد ورث عشرين دينارًا فأنفقها في عشرين سنة كاملة. وهناك رواية أخرى عن حفص الجعفي قال فيها: «ورث داود الطائي من أمه أربعمئة درهم، فمكث يتقوت بها ثلاثين عاما، فلما نفدت، جعل ينقض سقوف الدويرة، فيبيعها». وقال عطاء بن مسلم: «عاش داود عشرين سنة بثلاثمئة درهم».

كما ورث الطائي من أمه دارًا فكان يتنقل في بيوت الدار، كلما تخرّب بيت منه انتقل إلى آخر ولم يعمره، حتى أتى على عامة بيوت الدار، حتى وافته المنية.

وقال أحمد بن ضرار العجلي: «أتيت داود الطائي وهو في دار واسعة خربة ليس فيها إلا بيت وليس على بيته باب فقال له بعض القوم: أنت في دار وحشة، فلو اتخذت لبيتك هذا بابًا أما تستوحش؟ فقال: حالت وحشة القبر بيني وبين وحشة الدنيا».

وكان يقول: «إن كنت لا أشرب إلا باردًا ولا آكل إلا طيبًا ولا ألبس إلا لينًا فما أبقيت لآخرتي؟!».

وذات مرة خاطب سفيان الثوري قائلا: «إذا كنت تشرب الماء المبرد، وتأكل اللذيذ المطيّب، وتمشي في الظل الظليل، فمتى تحب الموت والقدوم على الله؟» فاهتز سفيان وأجهش باكيا.

ورافق زهد الطائي في الدنيا خوف ورهبة من الله، وهنا يحدث إبراهيم بن أدهم أن أبا سليمان كان يقول: «إن للخوف تحركات تُعرف في الخائفين، ومقامات يعرفها المحبون، وإزعاجات يفوز بها المشتاقون، وأين أولئك؟ أولئك هم الفائزون».

وله في اختيار هذا الطريق حكاية شهيرة مع الفقيه الكبير الإمام أبي حنيفة النعمان، فذات مرة كان يجالسه، فقال له أبو حنيفة: «يا أبا سليمان أما الأداة (العلم) فقد أحكمناها.

قال داود: فأي شيء بقي؟

قال: بقي العمل به.

قال: فنازعتني نفسي إلى العزلة والوحدة، فقلت لها: حتى تجلسي معهم فلا تجيبي في مسألة.

قال: فكان يجالسهم سنة قبل أن يعتزل.

قال: فكانت المسألة تجيء وأنا أشد شهوة للجواب فيها من العطشان إلى الماء فلا أجيب فيها.

قال: فاعتزلتهم بعد».

وانتهى أمره إلى ما صار إليه؛ ليصبح طريقه ما قاله يومًا: «كفى باليقين زهدًا، وكفى بالعلم عبادة، وكفى بالعبادة شغلا».

وهناك رواية أخرى يذكرها ابن عيينة، حيث قال: «كان داود ممن علم وفقه ونفذ في الكلام، فحذف إنسانا، فقال أبو حنيفة : «يا أبا سليمان! طال لسانك ويدك. فاختلف بعد ذلك سنة، لا يسأل ولا يجيب، قلت: جرب نفسه ودربها، حتى قوي على العزلة. قال أبو أسامة : جئت أنا وابن عيينة إليه، فقال: قد جئتماني مرة، فلا تعودا. وقيل : كان إذا سلم من الفريضة، أسرع إلى منزله».

ويقال إن الطائي أراد أن يجرب نفسه هل تقوى على العزلة، فقعد في مجلس أبي حنيفة سنة فلم يتكلم، فاعتزل الناس. وبعدها صار زاهدًا في مقابلة الناس، ويطلب ممن يزوره ألا يعود إليه مرة أخرى.

ويقال إن سبب زهده إنه سمع نائحة تنوح قائلة:

بأي خديك تبدى البلى وأي عينيـك إذا سـالا

وقيل إنه كان مارًّا في أحد شوارع بغداد ذاتٍ يوم، فنحَّاه جانبًا بعض مَنْ كانوا يوسعون الطريق لحميد الطوسي، فالتفت داود إلى حميد وقال: أُفٍّ لدنيا سبق بها حميد، ثم لزم داره وأخذ يجتهد في العبادة والقنوت، ويطالب بالابتعاد على الناس؛ لأنك إن جالستهم فـ «إنما أنت بين اثنين، بين صغير لا يوقرك، وبين كبير يحصي عليك عيوبك». وأوصى رجلا طلب منه النصيحة فقال: فر من الناس فرارك من السبع، إنه ما خالط الناس أحد إلا نسي العهد.

وعزلة الطائي أنتجت حكايات تُروى، فها هو الفضيل بن عبد الوهاب يقول: أتيت داود الطائي لأسلم عليه فأذن لي فقعدت على باب الحجرة فقلت: أنت وحدك ههنا رحمك الله. قال: رحمك الله، وهل الأنس اليوم إلا في الوحدة والانفراد؟

ويحكي عبد الله بن إدريس: قلت لداود الطائي: أوصني، قال: أقلل معرفة الناس، قلت: زدني، قال: اِرضَ باليسير من الدنيا مع سلامة الدين، قلت: زدني، قال: اجعل الدنيا كيومٍ صمته ثم أفطر على الموت.

وانشغل الطائي في مقتبل حياته بتحصيل العلم ودراسة الفقه وغيره من العلوم، ثم اختار بعد ذلك العزلة، وآثر الانفراد والخلوة، ولزم العبادة، واجتهد فيها، وأخلص لها، إلى آخر عمره، بعد ذلك ألقى كتبه في الماء، وسأله بعدها رجل عن تفسير آية، فأجابه: يا فلان، انقطع الجواب.

وهنا يقول حفص بن حميد: سألت داود الطائي عن مسألة، فقال داود: أليس المحارب إذا أراد أن يلقى الحرب أليس يجمع له آلته؟ فإذا أفنى عمره في جمع الآلة فمتى يحارب؟ إن العلم آلة قد أفنى عمره فيه فمتى يعمل؟».

وقد أورثته الوحدة والزهد قدرة هائلة على التأمل، فعرف نهاية الطريق، وآمن أن الدنيا مجرد شجرة في فلاة نستظل بها ساعة من نهار ثم نرحل عنها، كما أخبرنا الرسول الكريم ، ولذا فالعاقل والسعيد من يقدم آخرته على دنياه، أو يجعل من دنياه مطية لآخرته، وهنا يقول: «إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في

كل مرحلة زادًا لما بين يديها فافعل».

وكان يقول بالليل بوجه مرفوع إلى السماء وعينين دامعتين: «إلهي همك عطَّل عليَّ الهموم الدنيوية، وحال بيني وبين الرقاد».

وهناك حكاية تروى عن سهده وتهجده وبكائه في الهزيع الأخير من الليل، حين ينام الناس، ويصحو هو مناجيًا ربه. فقد قال إسحاق السلولي، حدثتني أم سعيد بن علقمة، قالت: كان بيننا وبين داود الطائي جدار قصير، فكنت أسمع أنينه عامة الليل لا يهدأ، قالت: ولربما سمعته في جوف الليل يقول: اللهم همك عطل عليَّ الهموم، وحال بيني وبين السهاد، وشوقي إلى النظر إليك منع مني اللذات والشهوات، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب». قالت: ولربما ترنم في السَّحَر بشيء من القرآن فأرى أن جميع نعيم الدنيا جُمع في ترنمه تلك الساعة، قالت: وكان يكون في الدار وحده وكان لا يسرج.

وكان الطائي حريصًا على ألا يتوقف لسانه عن ذكر الله وتسبيحه، غير غافل عنه أبدًا، وكأنه قد خُلق للعبادة، لا يفرغ منها، ولا يسهو عنها، ولا يرضى بها بديلا. وقد كانت عنده جارية فسألته: أما تشتهي الخبز؟

فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية.

كما كان الطائي راضيًا بحاله إلى أقصى حدّ، وأعلى درجة، حتى في صغائر الأمور والأشياء. فقد دخل رجل عليه، فرأى جرَّة ماء انبسطت عليها الشمس، فقال له: ألا تحولها إلى الظل؟ فقال: حين وضعتها لم يكن شمس، وأنا أستحي أن يراني الله أمشي لما فيه حظ نفسي.

ولم يهتزّ داود لكل مَنْ دعوه إلى أن يعيش الدنيا كغيره، متنعمًا بملذاتها، ومسايرًا أهلها على ما يفعلونه، لكنه أبى، واختار طريقه، لا يأكل إلا لقيمات يُقمن صلبه، ولا ينام إلا على خشن. ويقول ابن السَّماك: دخلت على داود الطائي يوم مات وهو في بيت على التراب وتحت رأسه لبنة، فبكيت لِمَا رأيت من حاله، وقلت: يا داود لقد فضحت القراء، ثم ذكرت ما أعد الله لأوليائه، فقلت: يا داود سجنت نفسك قبل أن تسجن، وعذَّبت نفسك قبل أن تُعذب، فاليوم ترى ثواب ما كنت ترجو، وكنت له تنصب وتعمل».

وحرص الطائي على الصمت، حرصه على قلة الطعام والنوم، ودخل عليه رجل آخر، فأخذ ينظر إليه، ويتفرس في وجهه، فقال له الطائي: أما علمت إنهم كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام؟

وكان للطائي كِرامات تُروى، ومنها ما قاله هو: ماتت امرأة بجواري ولم يكن لها كبير طاعة، فقيل لي: يا داود، اطَّلِع في قبرها، فأطللت فرأيت فيه نورًا عظيمًا وفرشًا وطيئة وسررًا عالية فقلت: بِمَ استوجبت مذا؟ فنوديت: استأنست بنا في سجدتها فأنسناها في وحدتها.

وهناك رواية تقول إن الطائي كان يأكل الخبز فمرَّ عليه نصراني فأعطاه قطعة من الخبز فأتى إلى بيته، وأكل الخبز، واجتمع مع زوجته فرزقه الله تعالى ووقع معروف الكرخي في رحم أمه.

وفي أواخر حياته التقى الطائي بالكرخي، ووجد فيه الشخص القادر على حمل أسرار الطريقة رغم صغر سنه، وحداثة إسلامه على يد الإمام علي الرضا، فكان خير خلف لخير سلف.

وطلب أبو الربيع الواسطي ذات يوم من الطائي أن يوصيه، فقال له: صُمْ عن الدنيا واجعل فطرك الموت.

وكان يقول أيضًا: لا تمهر الدنيا دينك، فمن أمهرها دينه، زفَّت إليه الندم.

وقال له رجل: أوصني.

فقال له: عسكر الموت ينتظرونك.

وربما يقصد بالعسكر هنا، ملاك الموت، الذي يأتي ليقبض الروح بغتة، والذي على الإنسان العارف أن ينتظره في أي وقت، ويكون مستعدًا له، بصالح الأعمال، وطيب الأقوال، حتى يعبر فوق أشواك الدنيا بسلام واطمئنان.

وللطائي تعليقات على الموت، الذي تذوقه كل نفس مهما طال الأجل وزاد الأمل. فيروي أبو محمد صدقة الزاهد قائلا: خرجنا مع داود الطائي في جنازة بالكوفة، قال: فقعد داود ناحية وهي تدفن، فجاء الناس فقعدوا قريبًا منه، فقال: مَنْ خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومَنْ طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آتٍ قريب، ثم قال: واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤوم، واعلم أن أهل الدنيا جميعًا من أهل القبور، إنما يفرحون بما يقدمون، ويندمون على ما يخلفون عليه أهل القبور ندموا وعليه أهل الدنيا يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون.

وجاء إلى الطائي نفسه عسكر الموت في سنة 166هـ، حيث لقي ربه وهو غارق في صلاته؛ إذ سجد، ولم يرفع رأسه، فكانت آخر سجدة، ومعها آخر لحظة في عمره، أو آخر نفس في صدره.

ولما توفي رآه أحد الصالحين في المنام وهو يعدو فقال: ما لك؟

قال: الساعة تخلصت من السجن.

فاستيقظ الرجل من منامه، فارتفع الصياح بقول الناس: مات داود الطائي.

وقال حسن بن بشر: حضرت جنازة داود الطائي، فحُمل على سريرين أو ثلاثة، تكسرت من الزحام. حتى وصف البعض حشد مشيعيه قائلين: لم يُسمع بمثل جنازته، حتى قيل: بات الناس ثلاث ليالٍ مخافة أن يفوتهم شهوده، ولم يخلف بالكوفة أحدًا مثله.

ولحظة دفنه وقف ابن السماك على قبر داود، رحمه الله، ثم نظر إليه، وهو مستريح في كفنه، وقال: يا داود كنت تسهر ليلك إذ الناس ينامون.

فقال القوم جميعًا: صدقت.

وكنت تربح إذ الناس يخسرون.

فقال الناس جميعًا: صدقت.

وكنت تسلم إذ الناس يخوضون.

فقال الناس جميعًا: صدقت.

وواصل قائلا في حق الطائي: «لا تحسد الأخيار، ولا تعيب الأشرار، ولا تقبل من السلطات مطية، ولا من الأمراء هدية، ولا تُدنيك المطامع، ولا ترقب إلى الناس في الصنائع، آنس ما تكون إذا كنت بالله خاليًا، وأوحش ما تكون إذا كنت مع الناس جالسًا، فأوحش ما تكون آنس ما يكون الناس، وآنس ما تكون أوحش ما يكون الناس».

وهكذا حتى عدد فضائله كلها، فقام أبو بكر النهشلي وقد خاف على الناس أن يُفتتوا بكثرة تلك الفضائل، وأراد أن يذكرهم بأن العبد مهما صلحت حاله، فقير لفضل الله تعالى ورحمته وإحسانه، فحمد الله، ثم قال: يارب إن الناس قد قالوا ما عنده مبلغ ما علموا، فاغفر له برحمتك ولا تكله إلى عمله.

ولما دُفن داود، روى عبد العزيز بن محمد قائلا: رأيت فيما يرى النائم كأن قائلًا يسأل: مَنْ يحضر؟ مَنْ يحضر؟ فأتيته فقال لي: ما تريد؟ قلت سمعتك تقول: مَنْ يحضر؟ مَنْ يحضر؟ فأتيتك أسألك عن معنى كلامك، فقال لي: أما ترى القائم الذي يخطب الناس ويخبرهم عن أعلى مراتب الأولياء؟ فأدرك فلعلك تلحقه وتسمع كلامه قبل انصرافه. قال: فأتيته فإذا الناس حوله وهو يقول:

ما نال عبد من الرحمن منزلةً

أعلى من الشوق إن الشوق محمود

قال: ثم سلم ونزل، فقلت لرجل إلى جنبي: مَنْ هذا؟ قال: أما تعرفه؟ قلت: لا، قال: هذا داود الطائي، فعجبت في منامي منه، فقال: أتعجب مما رأيت؟ والله لداود عند الله أعظم من هذا وأكثر.

ذو النون المصري

رائد التصوّف الذي اختلف عليه الناس

اتخذ من التقرب إلى الله منتهى رغبته، ومعقد أمله ومقصده، وغاية مراده ومنيته، وأقصى مرامه وبغيته، وأعلى ما تثب إليه روحه، ويسعى جسده. لم يكن زاهدًا وعابدًا عابرًا في تاريخ التصوّف ومسيرته، بل كان من أصحاب الأذواق والمواجيد، وأرباب المعرفة والرأي والفقه.

تقلبت أحواله حتى اختلف عليه الناس، وتناثرت أخباره حتى تفرق بشأنه المؤرخون. واختلطت أقواله حتى ساح من تدبر سيرته في ظنون لا نهاية لها، عن مسلكه ومصيره، وعن معتقداته وأفكاره وتقديره. ولم يسلم ميلاده ومماته من هذا التناثر والتضارب والاختلاط، فقيل إنه مات عن ستين عامًا، كذلك قيل إنه مات عن تسعين عامًا.

هو أبو الفيض ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصري، ولد في أواخر أيام المنصور، على الأرجح عام 185هـ، وقد قيل إن ذا النون من موالي قريش، وكان أبوه نوبيًّا، ثم نزل إلى إخميم في صعيد مصر، وأقام فيها فسمع يومًا صوت لهو ودفوف، فسأل:

- ما هذا؟

قيل: عرس.

وسمع بجانبه بكاءً وصياحًا، فسأل: ما هذا؟

فقيل: فلان مات.

فقال: أعطى هؤلاء فما شكروا، وابتلى هؤلاء فما صبروا. وأقسم ألا يبيت بالبلد فخرج فورًا إلى مصر فقطنها.

يصفه المناوي في كتابه «الكواكب الدرية» بأنه «العارف الناطق بالحقائق، الفائق للطرائق، ذو العبارات الوثيقة، والإشارات الدقيقة، والصفات الكاملة، والنفس العاملة، والهمم الجلية، والطريقة المرضية، والمحاسن الجزيلة المتبعة، والأفعال والأقوال التي لا تخشى منها تبعة، زهت به مصر وديارها، وأشرق بنوره ليلها ونهارها».

وقال الدارقطني عنه: «روى عن مالك أحاديث فيها نظر، وكان واعظًا». ويصفه ابن يونس بأنه كان عالمًا فصيحًا حكيمًا. أما يوسف بن أحمد البغدادي فيقول: «كان أهل ناحيته يسمونه الزنديق. وقال السلمي في «محن الصوفية»: «ذو النون أول من تكلم ببلدته في ترتيب الأحوال، ومقامات الأولياء، فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم، وهجره علماء مصر، وشاع أنه أحدث علمًا لم يتكلم فيه السلف، وهجروه حتى رموه بالزندقة».

وقال محمد بن الفرخي: «كنت مع ذي النون في زورق، فمر بنا زورق آخر، فقيل لذي النون: إن هؤلاء يمرون إلى السلطان، يشهدون عليك بالكفر. فقال: اللهم إن كانوا كاذبين، فغرقهم، فانقلب الزورق، وغرقوا. فقلت له: فما بال الملاح ؟ قال: لِمَ حملهم وهو يعلم قصدهم؟ ولأن يقفوا بين يدي الله غرقى خير لهم من أن يقفوا شهود زور، ثم انتفض وتغير، وقال: وعزتك لا أدعو على أحد بعدها».

ويقال إن أمير مصر دعاه وسأله عن اعتقاده، فتكلم، فرضي أمره. وطلبه الخليفة المتوكل، فلما سمع كلامه، وَلِعَ به وأحبَّه حبًّا جمًّا. وكان يقول: إذا ذكر الصالحون، فحيَّ هلا بذي النون.

وتذكر المصادر التاريخية أن ذا النون زار بغداد مرة واحدة وقابل المتوكل ثم عاد إلى مصر حيث تُوفي يوم الاثنين الثاني من ذي القعدة سنة 246هـ، ومات المتوكل بعده بعام واحد.

ويروي عمرو بن السرح: «قلت لذي النون : كيف خلصت من المتوكل، وقد أمر بقتلك؟ قال: لما أوصلني الغلام، قلت في نفسي: يا من ليس في البحار قطرات، ولا في ديلج الرياح ديلجات، ولا في

الأرض خبيئات، ولا في القلوب خطرات، إلا وهي عليك دليلات، ولك شاهدات، وبربوبيتك معترفات، وفي قدرتك متحيرات، فبالقدرة التي تُجيرُ بها من في الأرضين والسماوات إلا صليت على محمد وعلى آل محمد، وأخذت قلبه عني، فقام المتوكل يخطو حتى اعتنقني، ثم قال: أتعبناك يا أبا الفيض».

ويقال إن المتوكل طلب منه أن يكتب له دعاءً يدعو الله به دائمًا، فكتب له: «ربِّ أقمني في أهل ولايتك، مقام رجاء الزيادة في محبتك، واجعلني وَلِهًا بذكرك في ذكرك إلى ذكرك، وفي روح بحابح أسمائك لاسمك، وهَبْ لي قدمًا أعادل بها بفضلك أقدام من لم يزل عن طاعتك، وأحقق بها ارتياحًا في القرب منك، وأحف بها جولا في الشغل بك، ما حييت وما بقيت رب العالمين، إنك رؤوف رحيم. اللهم بك أعوذ وألوذ وأؤمل البلغة إلى طاعتك، والمثوى الصالح من مرضاتك، وأنت ولي قدير».

أما يوسف بن الحسين فيقول: «حضرت مع ذي النون مجلس المتوكل، وكان مولعًا به، يفضله على الزهاد، فقال: صف لي أولياء الله. قال: يا أمير المؤمنين، هم قوم ألبسهم الله النور الساطع من محبته، وجللهم بالبهاء من إرادة كرامته، ووضع على مفارقهم تيجان مسرته، فذكر كلامًا طويلًا».

وقال عنه الذهبي بترجمته في كتاب سير أعلام النبلاء: «ذو النون المصري الزاهد شيخ الديار المصرية... هو من روى عن مالك والليث وابن لهيعة وفضيل بن عياض وسلم الخواص وسفيان بن عيينة وطائفة».

وكانت لذي النون مهارة في علم الكيمياء وصناعتها، يقال إنه تعلمها من الكيميائي العربي الشهير جابر بن حيان، وبرع في فنون التنجيم وفك الطلاسم. وكان من المنشغلين بحل رموز ورق البردي في إخميم، التي كانت حافلة بالرسوم القبطية القديمة. وقد تمكن بالفعل من حل كثير من رموزها ونقوشها، فصارت معلومة للناس بعد جهل، وواضحة بعد غموض.

وعلى النقيض من هذا يقول الدكتور أحمد صبحي منصور: «ذو النون المصري شخصية مجهولة غامضة، والمكتوب عنها في المصادر التاريخية لا يتعدى صفحتين على الأكثر... وكانت أغلب سيرته أقوالًا وليست وقائع وأحداثًا». وقد جاء ذكر سيرة ذي النون بصفحات قليلة في الكثير من المصادر التاريخية في مطلعها: طبقات الصوفية للسلمي، وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني، والرسالة القشيرية، والأنساب للسمعاني، ووفيات الأعيان لابن خلكان، والوافي بالوفيات للصفدي، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي الأتابكي، وحسن المحاضرة للسيوطي، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، وموسوعة الأعلام للزركلي.

وثمة مَنْ يحيل ذا النون إلى الطائفة الإسماعيلية الشيعية، التي تأثر بها، وطالع مذهبها، فظهرت مقولاتها وأفكارها في بعض ما كان يقوله ويعتقد فيه. وهو إما أخذ عنهم مباشرة، حيث كانوا يسعون أيامها إلى نشر مذهبهم في دول شمال إفريقيا، وإما اطلع على أفكارهم فيما قرأه عنهم لدى «إخوان الصفا وخلان الوفا» وكذلك في كتابات أبي حيان التوحيدي. وقد ظهر هذا التأثير في عبارة منسوبة إلى ذي النون قال فيها لأصحابه: «من أراد طريق الآخرة فليكثر مساءلة الحكماء ومشاورتهم، وليكن أول شيء يسأل عنه العقل؛ لأن جميع الأشياء لا تدرك إلا بالعقل. ومتى أردت الخدمة لله، فاعقل لِمَ تخدم، ثم اخدم».

وإعلاء العقل ذي «المعرفة البرهانية» على الحدس و«المعرفة اللدنية» ليس من مألوف المتصوفة، ما يعني أن هذه الفكرة وافدة على ذي النون، لم يحصل عليها من إلهامه وذوقه، ولم يأخذها عن صوفي آخر.

والسؤال: هل سار ذو النون في طريق الله منذ نعومة أظافره، أم إنه اهتدى في منتصف الطريق؟ وهنا، يروي يوسف بن الحسين جانبًا من حياة ذي النون في شبابه فيقول: «استأنست بذي النون،

فقلت له: أيها الشيخ ما كان بدء شأنك؟ قال: كنت شابًا صاحب لهو ولعب... وذات مرة خرجت من مصر لبعض القرى فنمت في الطريق في بعض الصحارى ففتحت عيني فإذا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض فانشقت الأرض فخرج منها سكرجتان: إحداهما ذهبٌ والأخرى فضة وفي إحداهما سمسم والأخرى ماء، فجعلت تأكل من هذه وتشرب من هذه، فقلت حسبي قد تبت، ولزمت الباب إلى أن قبلني».

وثمة من يؤكد أن توبة الرجل جاءت خلال أدائه فريضة الحج. لكن ثمة من يؤكد أيضًا أن تلك التوبة كانت على يد شقران المغربي العابد، وهو شخصية قوية أثرت تأثيرًا كبيرًا في تلميذه.

وكان ذو النون يقول دومًا: «إن لله عبادًا خرجوا إليه بإخلاصهم، وشمروا إليه بنظافة أسرارهم، فأقاموا على صفاء المعاملة، وبادروا إلى استماع كلامه بحضور أفهامهم، فعند ذلك نظر إليهم بعين الملاحظة فأجزل لهم المواهب، وحفت لهم منه العطايا، فشموا روائح القرب من قربه، وهبت عليهم رياح اللقاء من تحت عرشه، فتطايرت أرواح قلوبهم إلى ذلك الروح العظيم، ثم نادت لا براح».

وقال:

ألا خل خدوم؟

ألا صديق يدوم؟

ألا حليف وداد؟

ألا صحيح اعتقاد؟

أين من استراح قلبه بحب الله؟

أين من ظهر على جوارحه نور خدمة الله؟

أين من عرف الطريق؟

أين من نظر بالتحقيق؟

أين من سُقي فباح؟

أين من بكى وناح؟

أولئك تحف بهم الملائكة بالليل والنهار، وتسلم عليهم الحيتان من البحار».

كان ذو النون يؤمن بأن «القرآن كلام الله غير مخلوق»، ويرى أن الله تعالى لا يمكن أن يتصوره أحد مهما أطلق لخياله العنان؛ إذ يقول: «مهما تصور في وهمك، فالله بخلاف ذلك». وكان ذو النون يرى أن الاستغفار يجمع معاني عدة هي:

الندم على ما مضى

والعزم على الترك

وأداء ما ضيعت من فرض

ورد المظالم في الأموال والأعراض والمصالحة عليها

وإذابة كل لحم ودم نبت على الحرام

وإذاقة ألم الطاعة كما وجدت حلاوة المعصية.

ومن يُطالع أقوال ذي النون في المعرفة اللدنية والمحبة الإلهية والفناء يدرك تمامًا أن الرجل ترك علامة قوية في تاريخ التصوف برمته، حين طلع على الناس بكلام جديد لا عهد لهم به في المقامات والأحوال والكشف والظاهر والباطن، فكانت له الريادة والسبق في هذا عن متصوفة مصر جميعًا.

ويُنسب إلى ذي النون أنه كان أول من عرَّف التوحيد بمعناه الصوفي، وأول من وضع تعريفات للوجد والسماع، وأول من استخدم الرمز في التعبير عن حاله. وهام ذو النون عشقًا في ربه، وعبَّر عن هذا شعرًا في نظمه:

أُطلبوا لأنفسكم: مثلما وجدت أنا

قد وجدت لي سكنًا: ليس في هواه عنا

إن بعدت قرَّبني: أو قربت منه دنا

ويناجي ذو النون ربه أن يلهمه نور المعرفة وأسرار المحبة، ويكشف عنه الحجب؛ ليقترب منه أكثر، فها هو يقول: «إلهي، لا تترك بيني وبين أقصى مرادي حجابًا إلا هتكته، ولا حاجزًا إلا رفعته، ولا وعرًا إلا سهلته، ولا بابًا إلا فتحته، حتى تقيم قلبي بين ضياء معرفتك، وتذيقني طعم محبتك، وتبرد بالرضى منك فؤادي، وجميع أحوالي، حتى لا أختار غير ما تختاره، وتجعل لي مقامًا بين مقامات أهل ولايتك، ومضطربًا فسيحًا في ميدان طاعتك».

وقد سُئل ذو النون ذات يوم: بم عرفت ربك؟ فقال: «عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي». وكانت المعرفة لديه هي يقين يناله الإنسان بثلاثة أمور ترتبط جميعها بالذات الإلهية، أولها: النظر في الأمور كيف دبرها، وفي المقادير كيف قدرها، وفي الخلائق كيف خلقها.

ومفتاح العبادة لدى ذي النون هو الفكرة، وآية الوصول مخالفة النفس والهوى، ومخالفتها في ترك الأماني، وإن كل من داوم على التفكير يرى علم الروح في قلبه. ولذا كان ينصح دائمًا كل من يسعى إليه بقوله: «لا تصحب مع الله تعالى إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة».

وكان ذو النون ملامتيًّا، أي متعمقًا في إخلاصه، متحريًّا للصدق في عبادته، لا يظهر خيرًا ولا يضمر شرًّا، متكتمًا على أحواله وأعماله. وهنا يقول: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء الذم والمدح من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، وترك اقتضاء ثواب العمل في الآخرة.

ولم يكن الإخلاص لدى ذي النون منفصلًا عن الخوف والمراقبة واليقين والتوكل والحياء والصدق والذكر، وكلها من مقامات المتصوفة وأحوالهم. فها هو يقول عن الأول: «الناس على الطريق، ما لم يزُلْ عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف، ضلوا عن الطريق». وسئل ذات مرة: متى يتيسر على العبد سبيل الخوف؟ فقال: «إذا أنزل نفسه منزلة السقيم يحتمي من كل شيء مخافة طول السقام». أما المراقبة فإن علامتها ودليل تحققها لديه هما «إيثار ما آثر الله تعالى، وتعظيم ما عظَّم الله تعالى، وتصغير ما صغر».

وفيما يخص اليقين يرى ذو النون أن ثمة «ثلاثة من أعلام اليقين: قلة مخالطة الناس في العشرة، وترك المدح في العطية، والتنزه عن ذمهم عند المنع. وثلاثة من أعلام يقين اليقين: النظر إلى الله تعالى في كل شيء، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال». أما التوكل فيعرّفه بأنه: «ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة، وإنما يقوى العبد على التوكل، إذا علم أن الله سبحانه وتعالى يعلم ويرى ما هو فيه». ويرى ذو النون أن الحياء هو: «وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك تعالى». ويؤمن بأن الصدق هو: «سيف الله، ما وضع على شيء إلا قطعه». وأخيرًا كان يرى أن: «مَنْ ذكر الله ذكرًا على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ

الله تعالى عليه كل شيء وكان له عوضًا عن كل شيء».

وقد ظل ذو النون وفيًّا لهذا الوجدان الصوفي الرائق حتى وافته المنية، بعد أن حفر علامة في تاريخ التصوف المصري خصوصًا، إذ يبدأ به حديث المؤرخين عن الصوفية على ضفاف النيل، ويركِّز عليه كحالة من «التصوف الفردي الجواني» قبل أن تتحول الصوفية المصرية إلى ظاهرة اجتماعية تسير في ركاب السلطة على يد صلاح الدين الأيوبي، حين أنشأ تكايا أو «خانقاوات» للمتصوفة توفر لهم الدولة فيها كل احتياجاتهم مقابل تفرغهم للعبادة، ورام الأيوبي من هذا استعمال أهل التصوف في محاربة المذهب الشيعي.

ويروي حيان بن أحمد السهمي أن ذا النون مات في الجيزة، وعبروا بجثمانه إلى مصر المحروسة في مركب خوفًا من زحمة الناس على الجسر، لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة ست وأربعين ومئتين، وقال آخر: مات سنة ثمان وأربعين، وهذا اختلاف بسيط قياسًا إلى الخلاف والجدل حول أفكار ذي النون ومواجيده وارتباطاته وتاريخه المتفرق على كتب قليلة.

رابعة العدويّة

شهيدة العشق الإلهي

حين يأتي ذكر المتصوّفات يقفز اسم رابعة العدوية إلى المقدمة، كامرأة فريدة في الثقافة الشعبية العربية مكلَّلة بتقدير وعرفان ومحبة، لكنها في الوقت نفسه محاطة بغموض شديد، حول رؤيتها ومسلكها. فرابعة مالت إلى التصوف العملي، ولم تترك لنا أي أثر مكتوب نستطيع من خلاله أن نحكم عليها، ونجلي بعض غموضها. وكل ما قيل عن رابعة أحيل إلى مصادر قليلة، منها «البيان والتبيين» و«البخلاء» للجاحظ و«تذكرة الأولياء» لفريد الدين العطار. أما مؤرخو الفرق والعقائد فلم يذكروا عنها إلا أمورًا متناثرة وقليلة، وركّزوا على تجربتها العملية.

وفي مثل هذا الوضع ينفتح الباب واسعًا للحكي والإضافة والترديد، وهو من السمات الأصيلة في الثقافة الشعبية، التي أخذت ما قيل عن رابعة العدوية، وراحت تضيف إليه كل ما يعظِّم صورتها، من دون أن تهتم بالحقيقة، التي لا يعرف عنها حتى المتخصصين الكثير، وهي مسألة ظاهرة من حيث المنشأ؛ إذ خلط بعض المؤرخين بين رابعة العدوية ورابعة الشامية، أو رابعة بنت إسماعيل التي توفيت في القدس عام 235هـ.

وتعبّر نفيسة عابد في كتابها «أصحاب الكرامات» عن صورة رابعة الشعبية قائلة: «هي أشهر النساء العارفات بالله تعالى. قصتها في حب الله تتناقلها الأجيال الإسلامية جيلًا بعد جيل، لكونها نموذجًا رائعًا وقدوة صالحة لمن ترغب في معرفة طريق الله والإصرار على التمسك بدينه. وحياتها سراج يضيء الطريق إلى حب الله، ولذا لقَّبها الناس بشهيدة العشق الإلهي».

امتد الغموض والخلاف إلى تاريخ ميلاد رابعة العدوية؛ إذ جزم البعض بأنه كان 135هـ، فيما أكد آخرون أنه كان بعد ذلك بخمسين عامًا كاملة، وكذلك إلى قضية زواجها؛ إذ قال فريق إنها تزوجت، وسموا زوجها بأنه أحمد بن أبي الحواري، لكن اتضح أن الأخير هو زوج رابعة الشامية، وأنه مات سنة 230هـ، ما يستبعد تمامًا فكرة زواجه من العدوية، وقال فريق آخر بأنها عاشت متبتلة ولم تتزوج من أحد، وكانت تعتبر الزواج شهوانية لا يمكنها أن تقع فيها.

وقيل إن أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمي عرض عليها الزواج وأغراها بالمال، لكنها كتبت إليه تقول: «الزهد في الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن. فهيئ زادك، وقدّم لمعادك، وكن وصي نفسك، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك، وصم الدهر، واجعل فطرك الموت. وأما أنا فلو خوَّلني الله أمثالك وحزت ما أضعافه فلم يسرني أن أشتغل عن الله طرفة عين».

وموقف رابعة هذا من الرجال، جعل مادحيها يتّكئون على أنها وجَّهت حبها إلى خالقها سبحانه وتعالى، وهنا يقول الدكتور فيصل بدر عون: «عاهدت رابعة نفسها منذ الصبا على ألا تقترن بأحد غير الله، حبيبها وأنيسها وسلوتها، برضاه ترضى، وبعشقه تهيم، وبشوقه تحيا. ومن هنا نجد طاقة الحب عند رابعة قد ولَّت وجهها تجاه الله. إن الحب بلا شك أقوى عواطف المرأة وأسلحتها. وقد كان على رابعة أن توجه هذه الطاقة نحو مرادها».

ويقال إن الحسن البصري سأل رابعة ذات يوم: هل ترغبين في النكاح؟

فقالت: إن عقد النكاح يجري على وجود. والوجود معدوم هنا، فإن نفسي أعدمتني الوجود، وإنني وُجدت به، وكُلِّيتي متعلقة به، وفي ظل حكمه.

فقال لها الحسن: كيف تعرفين ذلك؟

فقالت: يا حسن أنت تعرفه بدليل، ونحن نعرفه بلا دليل.

وقد سُلِّطت الأضواء على هذه النقطة في حياة رابعة، فظهرت في الأدب الشعبي امرأة طلقت شهوات الدنيا إلى غير رجعة، وودّعت حياة اللهو والخلاعة، وخلت إلى حبيبها العظيم تناجيه بأبيات

شعر تجري على ألسنة عوام المسلمين، وينشدها الأئمة على المنابر:

أحبك حبين، حب الهوى

وحبًّا لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى

فشغلي بذكرك عمَّن سواكا

وأما الذي أنت أهل له

فكشفك للحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي

ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وثمة بيتان من الشعر منسوبان لها أيضًا، وهما يدلان بصورة قوية على أن رابعة تخلت عن حاجات جسدها، وسخّرته لخدمة أشواق روحها المعلقة بالخالق العظيم. فها هي تنشد:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي

وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس

وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

ويحاول الفيلسوف الكبير عبد الرحمن بدوي أن يجد رابطًا بين زهد رابعة وبين علاقتها كامرأة بالرجل في ريعان شبابها؛ ليفترض أنها ربما تكون مرت بتجربة حب يائسة، أخفقت فيها أن تصل محبوبها، أو تتزوج منه، فطلقت الدنيا كلها، وخلتها وراء ظهرها، بمفاتنها وشهواتها، ويقول هنا: «ذكريات الماضي الداعي إلى التقوى والمواعظ مهما بلغ تأثيرها لا تكفي لتفسير ما حدث لديها. فلا مناص إذن من افتراض عامل الإخفاق في قصة حب إنسانية». لكن أقوال بدوي هذه لا تستند إلى أدلة دامغة، إنما هي مجرد استنتاجات لا يمكن أن يقطع بها أحد، أو يتخذ منها تفسيرًا وحيدًا لزهد رابعة وتصوّفها.

وثمة حوار ورد في «تذكرة الأولياء» يدل على ورع رابعة وزهدها. فقد رُوي أن مالك بن دينار، والحسن البصري، وشقيق البلخي، ذهبوا يعودون رابعة، وكانت تعاني من مرض شديد. فقال لها الحسن:

فقالت رابعة: هذا كلام يشم فيه رائحة الأنانية.

فقال شقيق: ليس بصادقٍ في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه.

فقالت رابعة: يجب أن يكون أحسن من ذلك.

فقال مالك: ليس بصادقٍ في دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه.

فقالت رابعة: يجب أن يقال أحسن من هذا.

فقالوا لها: تكلمي أنتِ يا رابعة.

فقالت: ليس بصادق في دعواه من لم ينسَ الضرب في مشاهدة مولاه.

ويقال أيضًا إن سفيان الثوري ذهب يعودها بصحبة عبد الواحد بن عامر، فقال لها الأول: ألا تدعين الله بدعاء يخفف عنك الألم؟

فقالت له رابعة: يا سفيان، إنك لا تعلم من الذي أراد بي هذا المرض؟ أليس هو الله؟

فقال: بلى.

فقالت: ما دمت تعلم، فلماذا تدعوني لأن أطلب منه شيئًا يخالف إرادته؟ فمخالفة المحبوب غير مستساغة.

فقال سفيان: وماذا تشتهين؟

فقالت: يا سفيان، إنك رجل من أهل العلم. فلماذا تتكلم بمثل هذا وتقول: ماذا تشتهين؟ فبعزة الله إن لِي اثني عشر عامًا وأنا أشتهي الرطب وهو ميسور في البصرة... وأنا لم أتناوله حتى الآن لأنني أَمَةٌ، وما شأن الأَمَةِ بالآمال واختيار الرغبات؟ ويكون هذا كفرا لو أردته أنا، ولم يُرده الله، فينبغي طلب شيء يريده هو حتى نكون بحق عبيده، فإذا أعطاه هو فذلك شيء آخر.

قال سفيان: فسكتُّ ولم أَفِهْ بشيء. ثم قلت لها: ما دمنا لا نستطيع التكلم في أمرك فتكلمي أنتِ في أمرنا، فقالت: إنك رجل صالح، أولًا إنك تحب الدنيا، إنك تحب رواية الحديث، وهذا نوع من طلب الجاه.

وهنا نطق الثاني وهو عبد الله بن عامر وقال: رب ارضَ عني.

فقالت رابعة له: ألا تستحي أن تطلب رضاء مَنْ لست راضيًا عنه؟ إن العبد يكون قد قام بشروط العبودية حين لا يشعر بألم ولا بسقم، أي لا يكون في درجة من الفناء في الله حتى ينسى ألمه.

لم تولد رابعة متصوِّفة، ولم تكن من بيت معروف عنه الزهد والورع، إنما كان لتصوُّفها وتعبُّدها وزهدها قصة تُروى، نقلتها من حال إلى حال. ويقال إن رابعة كانت ذات يوم تسير وحيدة في طريق، لا أنيس لها ولا حارس. وكان ثمة رجل يسير خلفها، ويحدق فيها، ويضمر لها السوء. لمحته رابعة فأسرعت الخطى، بقدر ما وسعتها قدماها، وهدها التعب فوقعت على وجهها، وراحت تناجي ربها: «يا إلهي إنني غريبة يتيمة، أرسف في قيود الرِّق، لكن همي الكبير هو أن أعرف، أراضٍ أنت عني أم غير راض؟ وعندها سمعت هاتفًا يناديها من عنان السماء: لا تحزني ففي يوم الحساب يتطلع المقربون في السماء إليكِ ويحسدونكِ على ما ستكونين فيه. فلما سمعت هذا الصوت عادت إلى بيت سيدها وصارت تصوم وتقوم وتعبد ربها من دون أن تكف عن خدمة سيدها من البشر، متحملة أذاه واضطهاده وتعذيبه لها.

لكن للنزعة الدينية لدى رابعة جذور لا يمكن نكرانها، فهي ابنة رجل معروف بتديّنه واعتزازه بكرامته، وثقته في ربه؛ إذ رفض في أشد ساعات حاجته أن يسأل الناس شيئًا. وعلى رغم أن حياتها الأسرية لم تستمر طويلًا، إلا أنها تركت فيها بعض قيم لم تسقط، والتي تنتقل من السلف إلى الخلف، وتمتد من الأجداد إلى الأحفاد.

كذلك، السياق الاجتماعي الذي أحاط برابعة ساقها إلى الزهد، أو على الأقل يسّر طريقها إليه. فقد اتسع نطاق الزهد في القرن الثاني الهجري، بصيغة لم تكن موجودة في عصر الصحابة والتابعين. وظهرت جماعات من الزاهدين في الكوفة والبصرة، في مقدّمهم إبراهيم بن أدهم، ومالك بن دينار، وبشر الحافي.

وتروي السير الكثير من «كرامات» السيدة رابعة العدوية، وهي غزيرة إلى درجة لافتة، ومشحونة بقصص مفعمة بالعظات والعبر. وتقول إحدى هذه القصص إن لصًّا دخل يومًا إلى حجرة رابعة وهي غارقة في نومها، فسرق ثيابها وراح يهم بالخروج فلم يجد الباب. فعاد ووضع الثياب على الأرض

فبان له الباب في مكانه. فرجع والتقط الثياب فعاد الباب إلى الاختفاء. وكرَّر فعلته مرات عدة، حتى ناداه هاتف: «دع الثياب فإنا نحفظها ولا ندعها لك».

وثمة قصة أخرى تُروى في كراماتها، أحد أطرافها سيّدها الغني. فهذا السيد قام ذات ليلة، وتسلل إلى باب غرفتها، وراح يتلصَّص عليها من ثقب في الباب، قاصدًا بها سوءًا، فإذا به يجدها وقد نهضت واقفة، والدموع تطفر من عينيها، وراحت تناجي ربها: إلهي أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك، ونور عيني في خدمة عتبتك. ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن خدمتك، ولكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادك. ووصل صوت مناجاتها إلى أذنيّ سيدها، بينما راحت عيناه تتابعان قنديلًا يحلق فوق رأسها من دون أن يكون مثبتًا في شيء، وينبعث منه نور غامر ملأ البيت. ففزع الرجل ونهض من مكانه، وتراجع إلى الخلف، وعاد إلى غرفته، لكنَّ النوم لم يَزُرْ عينيه. ظل سيد رابعة ساهرًا ورأسه مشغول بما سمع ورأى، حتى أطلّ النهار من خصاص النافذة، فاستدعى رابعة وقال لها: لقد وهبتك الحرية، فإن شئتِ بقيتِ هنا في بيتي ونكون جميعًا في خدمتكِ، وإن شئتِ فارحلي حرّة إلى أي مكان تريدين.

تروي خادمتها عبدة بنت أبي شوال أن رابعة حين حضرتها الوفاة دعتها وقالت لها: يا عبدة لا تؤذني بموتي أحدًا. وكفّنيني في جبّتي هذه. وهي جبّة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون. وقالت عبدة: فكفنَّاها في تلك الجبة، وفي خمار صوف كانت تلبسه. ثم رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها في منامي عليها حلة استبرق خضراء. وخمار من سندس أخضر لم أرَ شيئًا قط أحسن منه. فقالت لها: يا رابعة ما فعلتِ بالجبةِ التي كفنَّاك فيها والخمار والصوف؟ فردت رابعة: إنه والله نُزع عني وأُبدلت به ما ترينه عليَّ. فطُويت أكفاني وخُتم عليها، ورُفعت في عليين؛ ليكمل لي بها ثوابها يوم القيامة. فقالت لها عبدة: مُريني بأمر أتقرب به إلى الله، فردَّت رابعة: عليكِ بكثرة ذكره، يوشك أن تغتبطي بذلك في قبركِ.

يُعرف عن رابعة أن لها موقفًا خاصًّا من فريضة الحج، يختلف عما يريده العامة من أدائها. وفي بداية رحلاتها إلى الحج ناجت رابعة ربّها قائلة: «إلهي وعدت بجزاءين لأمرين، القيام بالحج، والصبر على الشدائد، فإن لم يكن حجي صحيحًا مقبولًا عندك، فياويلتاه، وما أشد هذه المصيبة عندي». ولما صعدت رابعة درجات في معراج التصوّف ناجت ربّها وهي في طريقها إلى الكعبة المشرفة: «إلهي، إن قلبي ليضطرب في هذه الوحشة، أنا لبنة والكعبة حجر وما أريد هو أن أشاهد وجهك الكريم’، فيقال إن صوتًا ناداها من السماء: يا رابعة أتطلبين وحدك ما يقتضي دم الدنيا بأسرها؟ إن موسى حين رام أن يشاهد وجه الله لم يُلْقِ إلا ذرة من نوره على جبل فخَّر صاعقًا. ويَقال أيضًا إنها صرخت في إحدى مرات حجها: «لا أريد الكعبة، فماذا أفعل بها؟»، ولم تَعْنِ بذلك إعراضًا عن الكعبة أو إنكارًا لها، لكنها كانت تطمع في المزيد، وهو الاتصال مباشرة بربِّ الكعبة، وخالق كل مَنْ يطوفون حولها، خاشعين متضرعين إليه.

وعلى رغم أن الكثير ممَّا يُنسب إلى رابعة من أقوال وأفعال لا يزال في حاجة إلى تدقيق وتحقق، فإن هذه الشخصية المذهلة صورت جانبًا لا يمكن لأحد نكرانه من تجربة المتصوفة المسلمين الروحية، يتعلق بإمكان أن تزهد المرأة وتهجر لذّات الدنيا، ويكون لها في عالم الصوفية «أسطورة» تتناقلها الأجيال، وتجذب صناع السينما العربية فيقدمون عنها فيلمًا لا يزال قادرًا على أخذ الناس إلى هذه التجربة الفريدة، كلما عُرض في المناسبات الدينية.

وتبقى رابعة هي الأشهر من بين النساء القانتات العابدات، اللاتي يحفل بهن تاريخ التصوف الإسلامي مثل: آمنة بنت موسى الكاظم، وآمنة الرملية، وأم أحمد القابلة المصرية، وأم الربيع الزبيدي، وأم سطل، وخديجة بنت الحافظ جمال الدين البكري، ورابعة بنت إسماعيل، وزهراء الوالهة، وست الملوك، وعائشة بنت عثمان النيسابوري، وفاطمة النيسابورية، وفاطمة العيناء، وفاطمة بنت المثنى، وفاطمة بنت عباس، وفخرية بنت عثمان، ومريم بنت عبد الله، وميمونة

السوداء، وغيرهن.

ويكفي لرابعة تلك الشهادة التي قالها فيها سفيان الثوري، وهو من المحدثين والفقهاء الورعين؛ إذ قابلها يومًا وهي زرية الحال، فقال لها: أرى حالًا رثة، فلو أتيتِ فلانًا جارك لغيَّر بعض ما أرى.

فقالت له: «يا سفيان، وما ترى من سوء حالي؟ ألستُ على الإسلام وهو العز الذي لا ذل معه، والغنى الذي لا فقر معه، والأنس الذي لا وحشة معه. والله إني لأستحي أن أسأل الدنيا ممَّن يملكها، فكيف أسألها ممَّن لا يملكها».

فقام سفيان وهو يقول: ما سمعت مثل هذا الكلام.

السري السقطي

واسطة العقد بين قطبين صوفيّين

أحد أكثر أهل زمانه ورعًا وتقوى. كُنِّي بـ «طيب الطعام»، وتحدث مريدوه عن كرامات خارقة، بعضها كان من معجزات الأنبياء، وهي مسألة ينكرها السلفيون ويرمونه بالشطح والتضليل، بينما أوضح الدارسون أنه كان ضحية لقانون الأسطورة الذي يهول كل صغيرة، وينفخ في القليل فيصير أكثر مما يتصور أحد.

إنه أبو الحسن سري بن المغلس السقَطي، خالُ الجنيد البغدادي وأستاذه، وهو تلميذ الزاهد العابد معروف الكرخي. عُرف عنه إلمامه بالسُّنة وعلوم التوحيد. ويُقال إن الكرخي، رحمه الله، دعا له، قائلًا: «أغنى الله قلبك»، فوقع الزهد في قلبه حينئذ.

ويروي أبو القاسم سليمان بن محمد حكاية في هذا المجال: «حدثني بعض إخواني أن سري السقطي مرت به جارية معها إناء فيه شيء، فسقط من يدها فانكسر، فأخذ سري شيئًا من دكانه فدفعه إليها بدل ذلك الإناء، فنظر إليه معروف الكرخي فأعجبه ما صنع فقال له معروف: بغَّض الله إليك الدنيا».

قال عنه الجنيد: «ما رأيت أعبدَ من السري، أتت عليه ثمانٌ وتسعون سنة ما رؤي مضطجعًا إلا في علة الموت». ووصفه الإمام القشيري في «رسالته»: بأنه «أوحد زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد».

وذكر عنه أبو عبد الرحمن السلمي: «هو أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال، وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته».

أما علي الحسن البزاز فقال: «سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن السري بعد قدومه من الثغر فقال: «أليس الشيخ الذي يعرف بطيب الغذاء؟ قلت: بلى. قال: هو على سيره عندنا قبل أن يخرج».

كان السري يُعرف بطيب الغذاء، وتصفية القوة، وشدة الورع، حتى انتشر ذلك عنه، وكان من ورعه ومحاسبته لنفسه يقول: «إنني أنظر إلى أنفي في اليوم كذا وكذا مرة مخافة أن يكون قد اسودَّ وخوفًا من الله أن يسود صورتي لما أفعله».

وقال الجنيد: «سمعت السري يقول: أعرف طريقًا مختصرًا قصدًا إلى الجنة، فقلت: ما هو؟ فقال: لا تسأل من أحد شيئًا، ولا تأخذ من أحد شيئًا ولا يكن معك شيء تعطي منه أحدًا».

وتابع: «دخلت عليه، وهو في النزع، فجلست عند رأسه، ووضعت خدي على خده، فدمعت عيناي، فوقع دمعي على خده، ففتح عينيه، وقال لي: مَنْ أنت؟ أجبت: خادمك الجنيد، فقال: مرحبًا. فقلت: «أوصني بوصية أنتفع بها بعدك!» قال: «إياك ومصاحبة الأشرار، وأن تنقطع عن الله بصحبة الأخيار».

كذلك روى الجنيد: «دخلت على السري السقطي وهو يبكي فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: جاءتني البارحة الصبية، فقالت: يا أبتِ هذه ليلة حارة وهذا الكوز أعلقه ههنا، ثم إنه غلبتني عيناي فنمت، فرأيت جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء فقلت: لمن أنت؟ فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان، ثم رفسته برجلها فكسرته. قال الجنيد: فرأيت الخزف لم يرفعه حتى عفا عليه التراب تمامًا».

وذكر علي بن الحسين بن حرب: «بعث بي أبي إلى السري بشيء من طبِّ السعال، فقال لي: كم ثمنه؟ أجبت: لم يخبرني بشيء، فقال: اقرأ عليه السلام وقل له: نحن نعلّم الناس منذ خمسين سنة ألا يأكلوا بأديانهم، ترانا اليوم نأكل بديننا؟».

ودخل عليه الجنيد يومًا فقال له السري: «يا جنيد، عصفور يجيء كل يوم أفتُّ له الخبز في يدي فيأكله، فنزل الساعة، ولم يسقط على يدي، فتذكرت أني أكلت ملحًا بابراز، فآليت ألا آكله بعدها فعاد كما كان».

وعلّق الدكتور جودة أبو اليزيد المهدي في كتابه «بحار الولاية المحمدية في مناقب أعلام الصوفية» على ذلك الأمر بقوله: «هذا هو دأب العارف السري، وقد كان يوصي به أصحابه ومريديه، وقد سمعه الجنيد يقول: إني أعرف طريقًا يؤدي الى الجنة قصدًا فقيل له ما هو يا أبا الحسن؟ فقال: أن تشتغل بالعبادة وتُقبل عليها حتى لا يكون لك فيها فضل». وقد فسَّر هو بنفسه معنى قوله: «حتى لا يكون لك فيها فضل» عمليًّا، وذلك بعبادته المتصلة ثمانية وتسعين عامًا أمضاها بين صيام وقيام وذكر وفكر حتى أنه كان يقول: «إذا فاتني جزء من وردي لا يمكن أن أقضيه أبدًا. وعلل ذلك الجنيد قائلًا: لأن السري كان متصل التنفل، وكان يقول: مَنْ قام بين يدي الله في الظلام نُشرت له يوم القيامة الأعلام».

وتميز منهج السري السلوكي بجوانب متعددة عميقة الغور والأبعاد، كانت في مجموعها تمثل حلقات متصلة تفضي في النهاية إلى بلوغ قمة النضج الروحي؛ إذ تحلق الروح في سماء المعرفة والولاية.

في هذا المجال روى سعيد بن عثمان: «سمعت سري بن المغلس يقول: غزونا أرض الروم، فمررت بروضة خضرة فيها الخيار وحجر منقور فيه ماء المطر، فقلت في نفسي لأن أكلت يومًا حلالًا فاليوم، فنزلت عن دابتي وجعلت آكل من ذلك الخيار وشربت من ذلك الماء فإذا هاتف يهتف بي: يا سري، النفقة التي بلغت بها إلى ها هنا من أين؟».

وقال الجنيد: «سمعت سري بن المغلس يقول: «أشتهي منذ 30 سنة جزرة أغمسها في الدبس وآكلها فما يصح لي». أما حسن المسوحي فذكر أن السري دفع إليه قطعة نقود، فقال: اشترِ لي باقلي من رجل قدره داخل الباب، فطفت الكرخ كله فلم أجد إلا من قدره خارج الباب، فرجعت إليه فقلت: خذ قطعتك فإني لا أجد إلا من قدره خارج».

تحرَّى السري الحلال دائمًا مع شدة الورع حتى تحمَّل في ورعه الكثير والكثير، وكان يقول دائمًا: «آه على لقمة ليس لله فيها تبعة، ولا لمخلوق فيها منة». وقد سمعه عبيد القاضي ذات اليوم يقول: «إني لأذكر مجيء الناس إليَّ فأقول: اللهم هب لهم من العلم ما يشغلهم عني؛ فإني لا أريد مجيئهم ولا أن يدخلوا عليَّ». وقال علي بن عبد الحميد الغضائري: «سمعت السري السقطي ودققت عليه الباب فقام إلى الباب فسمعته يقول: اللهم اشغل من يشغلني عنك بك».

وسأل أبو بكر العطشي ذات يوم السري السقطي: «ماذا أراد أهل الجوع بالجوع؟ فقال: ماذا أراد أهل الشبع بالشبع؟ إن الجوع أورثهم الحِكَم، وإن الشبع أورثهم الغم». ورُوي عن السري أنه قال: «المتصوف اسم لثلاثة معانٍ: هو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه الكتاب أو السنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله».

وأنشد السري مناجيًا ربه ذات مساء وقال:

القلبُ محترقٌ والدمعُ مستبق

والكربُ مجتمعٌ والشوقُ والقلق

ربِّي إن كانَ شيءٌ فيهِ لي فرج

فامنُن عليَّ بهِ ما دامَ بي رَمَقُ

ورفع السري إلى الجنيد يومًا رقعة وقال له : انظر ما فيها، فإذا فيها شعر يقول:

إذا ما شكوت الحب قال: كذبتني

فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا

فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشا

وتذبل حتى لا تجيب المناديا

وجاء رجل وقال يومًا للسقطي : كيف أنت ؟ فأجابه شعرًا بقوله:

مَنْ لم يبت والحب حشو فؤاده

لم يدرِ كيف تُفتت الأكباد

وذكر مظفر بن سهل المقري: «سمعت علان الخياط وجرى بيني وبينه مناقب سري السقطي فقال علان: كنت جالسًا مع سري يومًا فوافته امرأة فقالت: يا أبا الحسن، أنا من جيرانك، أخذ ابني الطائف وأنا أخشى أن يؤذيه، فإن رأيت أن تجيء معي أو تبعث إليه. قال علان: فتوقعت أن يبعث إليه فقام وكبر وطول في صلاته، فقالت المرأة: يا أبا الحسن الله الله فيَّ!! هو ذا أخشى أن يؤذيه السلطان، فسلم، وقال لها: أنا في حاجتك. قال علان: فما برحت حتى جاءت امرأة إلى المرأة فقالت: الحقي قد خلوا ابنك».

وثمة رواية شائعة في بعض كتب الصوفية تقول: «إن السري مكث عشرين عامًا، يطوف في الساحل، يطلب صادقًا، فدخل يومًا إلى مغارة، إذا قعود وعميان ومجذمين. فقال: ما تصنعون ها هنا؟! قالوا: ننتظر خصا يخرج لنا فنعافى، فقال: إن كان صادقًا فاليوم! فقعد، فخرج كهل عليه درعة من شعر، فسلَّم وجلس، ثم أمرَّ يده على عمي هذا فأبصر، وأمرَّ يده على مانة هذا فصحَّ، وأمرَّ يده على جذام هذا فبرئ. ثم قام موليًّا، فضربت بيدي إليه، فقال: سري! خلِّ عني، فإنه غيور. لا يطلع على سرك فيراك وقد سكنت إلى غيره، فتسقط من عينه».

ويُنسب إلى السري قول خارق للعادة، لا أحد يعرف على وجه اليقين مصدره، ولا مخبره، وهو: «رأيتُ كأنِّي وقفتُ بين يدي الله عزَّ وجل، فقال: يا سري خلقتُ الخلقَ فكلُّهم ادَّعوْا محبتي، فخلقتُ الدنيا فذهب منِّي تسعةُ أعشارهم وبقيَ معي العُشر، قال: فخلقتُ الجنَّة فهرب منِّي تسعةُ أعشار العُشر، فسلَّطتُ عليهم ذرةً مِن البلاء؛ فهرب تسعةُ أعشار عُشر العُشر! فقلتُ للباقين معي: لا الدنيا أردتم، ولا الجنَّة أخذتم، ولا مِن النَّار هربتم، فماذا تريدون؟ قالوا: إنَّك لَتعلم ما نريد، فقلتُ لهم: فإنِّي مسلِّطٌ عليكم مِن البلاء بعدد أنفاسكم، ما لا تقوم له الجبال الرواسي، أتصبرون؟ قالوا: إذا كنتَ أنتَ المبتلي لنا فافعل ما شئتَ. فهؤلاء عبادي حقًّا».

قال: «صليت وردي ليلة فمددت رجلي في المحراب فنوديت: يا سري كذا تجالس الملوك، قال: فضممت رجلي، ثم قلت: وعزتك لا مددت رجلي أبدا».

وأنكر عليه السلفيون مثل هذه الكرامات؛ إذ علّق أحد كبارهم وهو سفر الحوالي: «هذه هي الأقوال التي أقول إنَّها أساس الخلاف بيننا وبين الصوفية، وهو: التلقِّي، إنَّهم لا يتلقَّوْن مِن الكتاب والسنَّة، بل يتلقَّوْن مِن المخاطبة المباشرة علم الحقيقة، العلم اللدني، العلم المباشر عن الله كما يدَّعون أنَّ الله يكلِّمهم، ويخاطبهم مثل ما ذكر هؤلاء الأئمة خشيش، أو الرازي، أو السكسكي، أو الأشعري».

وأضاف الحوالي: ما هذا الكلام! متى خاطب الله السري؟ هل كلَّم اللهُ أَحَدًا بعد موسى عليه السلام؟ هل حصل هذا عن طريق الوحي؟ هل نزل جبريل على أحدٍ بعد محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ هذا الكلام نقله محمد علوي مالكي عن السري، فلنفرض أن السري أخذ هذا الكلام مِن كتاب بانتجل، كتاب الهند، الذي ذكره البيروني، أو كتاب زندأفستا، أو أي كتاب، أو أي مصدر، كيف ينقله محمد علوي مالكي؟» والسؤال هنا للمالكي: كيف تنقل هذا النصَّ وتقرُّه؟ وأين هم هؤلاء الذين يعبدون الله لا خوفًا مِن النَّار، ولا حبًّا في الجنَّة؟ هل هؤلاء أفضل مِن أنبياء الله الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: 90]. والأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم،

تعوَّذوا مِن البلاء، ومتى امتحن الله تعالى الخلقَ بعددِ أنفاسهم مِن البلاء ما لا تصبر له الجبال الرواسي؟ وهؤلاء هم، فحسب، مَن يحبُّون الله؟ وقد بيَّن الله تعالى لنا طريق محبتِه أعظمَ البيان، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: 54]، ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31].

واللافت أن السري نفسه قال: «من ادَّعى باطن علم ينقضه ظاهر حكيم فهو غالط»، وهذا يعني أن الرجل أقرّ مبدئيًا بأن الباطن يجب أن يوافق الظاهر، وإلا أصبح محض ادعاء وكذب. وعلى رغم ما يدافع به الصوفية عن كرامات الأولياء، ويقولون إن ثمة نصوصًا وردت بشأنها في القرآن الكريم والسنة النبوية، فإن أحدًا لا ينكر أن كثيرين تقوَّلوا على رموز التصوف، وشيوخه الكبار، فنسبوا إليهم من الأعمال ما هو خارق، ونسجوا حول بعضهم الأساطير، وتأثروا في تقييمهم لمسلكهم، وروايتهم لمسارهم بكثير من الفلسفات الغنوصية الشرقية، التي خالطت الفكر الإسلامي، وكان التصوف أحد الأبواب الوسيعة لحدوث ذلك.

إضافة إلى المراقبة والمحاسبة، كان السري متوكلًا على الله، راضيًا بقضائه وحكمه. وهو يعرف التوكل بأنه: «الانخلاع من الحول والقوة». أما الرضا فقال بشأنه: «رأس الأعمال الرضا عن الله وعمود الدين الورع، ومخ العبادة الجوع، وضبط اللسان حصن حصين، ومن شكر الله جرى في ميدان الزيادة».

وللسري أقوال تنضح بالحكمة العميقة من بينها:

- ثلاث مَنْ كُنَّ فيه استكمل الأمان: مَنْ إذا غضب لم يُخرجه غضبه من الحق، وإذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل؛ وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

- الشكر ثلاثة أوجه: للسان، وللبدن، وللقلب. فالثالث أن يعلم أن النعم كلها من الله، الثاني ألا يستعمل جوارحه إلا في طاعته بعد أن عافاه الله، والأول دوام الحمد عليه.

- من أراد أن يَسْلَمَ دينه، ويستريح قلبه وبدنه، ويقل غمَّه، فليعتزل الناس؛ لأن هذا زمان عزلة ووحدة.

- الأدب ترجمان العقل.

- مَنْ خاف اللهَ خافه كلُّ شيءٍ.

- من علامة الاستدراج للعبد عماه عن عيبه واطلاعه على عيوب الناس.

- لو أشفقت هذه النفوس على أبدانها شفقتها على أولادها للاقت السرور في معادها.

- المغبون مَنْ فنيت أيامه بالتسويف.

- احذر أن تكون ثناءً منشورًا وعيبًا مستورًا.

- التوكل الانخلاع عن الحول والقوة.

- أربع خصال ترفع العبد: العلم، والأدب، والعفة والأمانة.

- تصفية العمل من الآفات أشد من العمل.

- من استعمل التسويف طالت حسرته يوم القيامة.

- مَنْ لم يعرف قدر النِّعم سُلِبها من حيث لا يعلم، ومَنْ هانت عليه المصائب أحرز ثوابها.

- اجعل فقرك إلى الله تستغني به عمَّن سواه.

- أحسن الأشياء خمسة: البكاء على الذنوب، وإصلاح العيوب، وطاعة علام الغيوب، وجلاء الرين عن القلوب، وألا تكون لما تهوى ركوب.

ورأى السري أن التجرد لله تعالى أقرب ما يوصل إلى الله سبحانه وتعالى، فقد سُئل يومًا: «كيف الطريق إلى الله؟، فأوضح: إن أردت العبادة فعليك بالصيام والقيام، وإن أردته فاترك كل ما سواه تصل إليه».

ويُقال إنه كان يردِّد في آخر أيامه: «أشتهي أن أموت ببلد غير بغداد. فقيل: لمَ؟ فقال: أخاف ألا يقبلني قبري فأفتضح». وقد تُوفِّي في سنة 251هـ.

السهرورديّ

الإشراقيّ البارع الذي قتلته أفكاره

إنه أحد كبار فلاسفة «الإشراق» في تاريخ الفكر الإسلامي، دعا إلى الوصول إلى المعرفة عن طريق الذوق والكشف الروحاني. اطلع على الفلسفات التي خلفها كهنة مصر وفلاسفة الإغريق وبراهمة الهند وغيرها، فانتهى إلى المطالبة بالتأمل الروحاني للوجود، والتخلص من الوقوع التام تحت طائلة المصادر، والاعتماد على التفكير الذاتي والإبحار في النفس، جنبًا إلى جنب مع توسل البرهان العقلي في الوصول إلى الحقيقة.

إنه أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك، ويلقب بـ «شهاب الدين» ويوصف «بالحكيم»، و«المؤيد بالملكوت» ولقبه تلامذته بـ «الشهيد»، واشتهر بالشيخ المقتول تمييزًا له عن صوفيين آخرين هما: شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي البغدادي (632هـ)، ومؤلف كتاب «عوارف المعارف» في التصوف، وصاحب الطريقة الصوفية المنسوبة إليه وهي الطريقة السهروردية، أما الآخر فهو أبو النجيب السهروردي (ت: 563هـ).

ولد السهروردي عام 545هـ على الأرجح، في بلدة سهرورد بزنجان في أذربيجان، حيث تلقى مزيجًا من الثقافات الإسلامية وغيرها، يعتمد بعضها على إعمال العقل، وبعضها على التذوق. وكان السهروردي كثير الأسفار، وفي ترحاله التقى علماء وحكماء ومتصوفة كثيرين. وفي مطارحاته نقل عنه تلميذه الشهروري قوله عن هذه المرحلة من عمره: «قد بلغ سني إلى قرب ثلاثين سنة، وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار والتفحص عن مشارك مطلع على العلوم»، ثم قال: «سافر في صغره في طلب العلم والحكمة إلى مراغي، واشتغل بالحكمة علي مجد الدين الجيلي، ثم سافر إلى نواحٍ متعددة، وصاحب الصوفية، واستفاد منهم، وحصّل لنفسه ملكة الاستقلال بالفكر والانفراد، ثم اشتغلَ بنفسه حتى وصل إلى غايات مقامات الحكماء ونهايات مكاشفات الأولياء».

انتهى السفر بالسهروردي إلى الشام، حيث أقام في مدينة حلب ابتداءً من سنة 579هـ، وكانت آنذاك تحت إمرة الملك الظاهر ابن صلاح الدين. ونزل في المدرسة «الحلوية»، فباحث الفقهاء وناظر العلماء، وأدهشهم ببيانه وحجته، وظل في المدينة حتى وافته المنية، وفيها كتب أهم أعماله، التي كادت أن تُفقد لولا إخلاص تلامذته له، الذين تتبعوا كل ما ينتجه حتى صنفوا منه نحو تسعة وأربعين كتابًا ما بين منثور ومنظوم، أبرزها: «حكمة الإشراق، هياكل النور، اللمحات في الحقائق، الألواح العمادية، المشارع والمطارحات، المناجاة، مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم، التعرّف للتصوّف، كشف الغطا لإخوان الصفا، رسالة المعراج، اعتقاد الحكماء، صفير سيمورغ، كتاب اللمحات، كتاب التلويحات، كتاب المقاومات، كتاب المطارحات»، وغير ذلك من عشرات الكتب الثانوية والرسائل.

وأوضح قطب الدين الشيرازي في مقدمة كتاب «حكمة الإشراق للسهروردي» أن الفلسفة الإشراقية هي الحكمة المؤسسة على الإشراق الذي هو الكشف، أو حكمة المشارقة الذين من أهل فارس. ويرى الإشراقيون أن المعرفة لا تقوم على تجريد الصور، كما يقرر المشّاؤون، وهم أتباع فلسفة أرسطو، بل تقوم على الحدس الذي يربط الذات العارفة بالجواهر النورانية صعودًا كان أو نزولًا.

لكن السهروردي استعمل الإشراق استعمالًا خاصًا؛ إذ ذهب إلى أن «الله نور الأنوار»، ومن نوره خرجت أنوار أخرى هي عماد العالمَين المادي والروحي، وأن «النور الإبداعي الأول» فاض عن «نور الأنوار». وتصدر عن النور الإبداعي الأول أنوار طولية سماها «القواهر العالية»، وتصدر عن هذه القواهر أنوار عرضية سماها «أرباب الأنواع»، تدير شؤون العالم الحسي. وابتدع السهروردي عالمًا أوسط بين العالمَين العقلي «نور الأنوار» والمادي، الذي سماه «عالم البرزخ» و«عالم المُثُل». وميّز بين نوعين من الحكمة هما: الحكمة البحثية: وتعتمد على التحليل، والتركيب، والاستدلال البرهاني، وحكمة الفلاسفة. والحكمة الذوقية: وهي ثمرة مجاهدات روحية، يحياها الإنسان لكنه لا يستطيع التعبير عنها، وهي حكمة الإشراقيين.

ولا يرى السهروردي أي تعارض بين الحكمتين، فالإشراقي الحقيقي يتقن الحكمة البحثية، وينفذ في

الوقت نفسه إلى أسرار الحكمة الذوقية؛ لذا يعتبر أن الفكر الإنساني غير قادر وحده على امتلاك المعرفة التامة، ولا بد من أن يستعين بالتجربة الداخلية والذوق الباطني، إضافة إلى أن الاختبار الروحي لا يزدهر ويثمر إلا إذا تأسس على العلم والفلسفة.

وعن فلسفة السهروردي قال حسين مروَّة: «النظريات الإشراقية عند السهروردي المقتول نموذج حيٌّ للتداخل بين الفلسفة العقلانية (المشائية في شكل خاص) وبين فلسفة التصوف، إضافة إلى مصادر الفكر الإشراقي المتعددة (الزرادشتية، والفيثاغورية، والأفلاطونية، والهرمسية) في إطار الإسلام العام، إن من النصوص الأصلية التي يبدو أن السهروردي كان مستوعبًا إياها بوعي جيد موضوعه «العالمية» التي يقوم عليها تاريخ الفكر الفلسفي، بمختلف أشكاله وتجلِّياته، في مختلف بيئاته وأزمنته. وإنه بهذا الاستيعاب وهذا الوعي بنى مذهبه التصوفي الإشراقي؛ لذلك فإن «الحركة الإشراقية» مذ ظهرت في إطار التصوف الإسلامي وجدت في السهروردي المقتول منظمًا لنظريتها المتكاملة».

ولم يكتفِ السهروردي في بثِّ فلسفته الإشراقية على النثر، بل قدمها أيضًا في نظم شعري صاف؛ إذ نَظَم في العشق الإلهي أبياتًا تقول:

أبدًا تحـنّ إليكـمُ الأرواحُ

ووصالكمْ رَيحانُـها والـراحُ

وقلوبُ أهل وِدادكمْ تشتاقكمْ

وإلى لذيذ لقائكمْ ترتـاحُ

وارحمتًا للعاشقين! تكلّفـوا

سترَ المحبّة، والهوى فضّاح

بالسرّ إن باحوا تباحُ دماؤهم

وكذا دماءُ العاشقين تُبـاحُ

ونظم قصيدة أخرى على المنوال ذاته، جاء فيها:

أيّ ذَنبٍ جَناهُ فيكَ المُحبُّ	**كُلّ يومٍ يَروعُني مِنكَ عَتب**
إن تَكُن أَحدَثت وشاتي حَديثًا	**بِسلوّي هَواك حَشاي كذبُ**
وَضُلوعي لَها هَواك ضُلوعا	**بَل وَقَلبي لَها المَحبّة قَلبُ**
قَتلَ مَن لا لهُ سِوى العشقِ ذَنبُ	**مُتّ مِن جَورِ سادَة قد أَحلّوا**
صارَ لي في هَواهُ رُتبة ما	**حازَها في هَواهم قَطُّ صَبُّ**
عَبراتٌ تَهمي وَجِسمٌ نَحيلٌ	**وَفُؤادٌ عَلى التَّقاطعِ يَصبو**

وَدُموعٌ بِذائِبِ القَلبِ سكبُ وَضُلوعٌ مِنَ الجَوى واهِيات

قَط إلّا أجابَ عِشق وَحُبُّ يا سَميري وَلَم أَقُل يا سَميري

هَل لِمَيت الغَرام في الحُبّ طبُّ هَل لِداء الهَوى سَمعت دَواءً

الجفنِ وَالنَّوم عِندَما صَدّ حَربُ بَينَ جِسمي وَالسَّقم سلم وَبَينَ

ب لَهُ اليَوم فيهِ قَتلٌ وَنَهبُ مَن مُجيري مِن ظالِم وَلي القَل

نارها في قُلوبنا لَيسَ تَخبو جاءَ لِلنِّاس فتنة بِخدودٍ

ما لِدَمعي سِوى الجفن غَربُ إِنَّ عَيني لِشمس وَجهِكَ شَرق

وفي إحدى قصائده بيتًا يشبه ما سبق أن نظمته رابعة العدوية في العشق الإلهي:

وَلَولاكُم ما عَرَفنا الهَوى

وَلَولا الهَوى ما عَرفناكُم

وهذا العشق أزلي، مستقر في الأعماق، في الحشايا والخلايا والضلوع، إنه عشق مرتبط بالوجود، ومن دونه العدم والصمت واللا شيء:

ما زَلَّ إلى غَيرِ هَواكُم قَدَمي أَقسَمتُ بِصَفو حُبِّكُم في القدم

قَطعي صلتي وَفي وُجودي عَدَمي قَد أَمزِج حُبُّكم بِلَحمي وَدَمي

وفي إحدى قصائده يبث السهروردي لواعج حزنه على حال الناس ومسلكهم، حيث تردَّوا في النفاق، وخالف باطنهم ظاهرهم، وتحوَّل الدين لديهم إلى طقوس وقشور، فيقول:

تَوَلَّت بِهجَةُ الدُّنيا فَكُلُّ جَديدها خَلقُ

وَخانَ النَّاس كُلَّهُم فَما أَدري بِمَن أَثِقُ

رَأَيتُ مَعالِمَ الخَيراتِ سدَّت دونَها الطُّرقُ

فَلا حَسبٌ وَلا نَسَبٌ وَلا دينٌ وَلا خُلقُ

فَلَست مُصَدّق الأَقوامِ في شَيءٍ وَلَو صَدَقوا

وثمة قصيدة أخرى عن النور الغامر الذي يملأ القلب بحب الخالق الأعظم، صورها في بساطة عبر

التجسيد والتمثيل:

وَللسرّ في سرّ المُحبّين أَسرارُ لِأنوارِ نورِ اللهِ في القَلب أَنوارُ

وَخفَّ مِن عالم الغَيب أَسرارُ وَلمّا حَضَرنا للشِّراب بِمجلسٍ

يَطوفُ بِها مِن جَوهرِ العَقلِ خمارُ وَدارَت عَلَينا لِلمَعارف قَهوة

أَضاءَ لَنا مِنها شُموس وَأَقمارُ فَلَمّا شَرِبناها بإِقراه فمها

بِأَبصار صِدقٍ لا يُواريهِ أَستارُ وَكاشَفنا حَتّى رَأَيناهُ جَهرَةً

قَديمٌ عَليمٌ دائمُ العَفوِ جَبُّار وَخالَفنا في سكرِنا عِندَ نَحونا

بِرُؤيَتنا إِنّي أَنا لَكُم جارُ سَجَدنا سُجودًا حينَ قالَ تَمَتّعوا

ونور الأنوار عند السهروردي هو «نور محيط؛ لأنه يحيط بجميع الأنوار لشدة ظهوره وكمال إشراقه ونفوذه فيها بلطفه، وهو قيوم لقيام الجميع به، وهو مقدس لأنه منزه عن جميع صفات النقص، وهو الأعظم الأعلى؛ إذ لا أعظم ولا أعلى منه بين الأنوار جميعًا، وهو قهَّار لأنه يقهر ما دونه من الأنوار؛ ذلك لشدة إشراقه وقوة لمعانه، وهو غني مطلق إذ ليس وراءه شيء يفتقر إليه، ولا دونه شيء يستغني عنه، وهو قبل هذا كله وبعد هذا كله واحد»، هكذا ينتهي السهروردي إلى أن نور الأنوار يحكم طبيعته وحقيقته وأحديته، إنما هو واجب الوجود بنفسه، وما عداه واجب به ومفتقر إليه ومستمد وجوده منه.

وهكذا يكون الوجود بأسره عند السهروردي هو نور تتفاوت درجاته شدة ؛ ذلك لأن تجليات نور الأنوار تظهر في كل مكان فتشهد بالتالي جميع الأشياء بحضوره. وهنا يقول المستشرق الألماني كار بروكلمان في موسوعته عن تاريخ العرب: إن آراء السهروردي تلك ذات طبيعة غنوصية عرفانية قائمة على أساس الأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية الجديدة التي تقول إن ثمة نورًا روحيًّا يتخلَّل الكون كإشراق لدنيّ هو جوهر الأشياء جميعًا.

انطلق السهروردي من اعتقاد في أن النور مبدأ الوجود الوحيد، وأصل الأشياء، وأن الله هو نور الأنوار، وأن الظلمة ليست سوى انحدار الوجود عن المبدأ الخالد وهو النور، وكلما انحدر هذا الوجود اتجه نحو الظلمة؛ لذا كان الهدف الأسمى، أو قيمة الإنسان العليا أن يترقى صعودًا كي يتلاشى في مصدر الأنوار ويفنى تمامًا. وكانت قيمة هذا الاتجاه أنه يفارق الثنائيات التقليدية للفلسفة الشرقية التي تقوم على ثنائيات متقابلة مثل النور/الظلمة، والخير/الشر، والجنة/النار، والثواب/العقاب.

كان السهروردي أحيانًا يستبدل بالإشراق والمشاهدة فِعْلَي «العشق» و«القهر»، أي: العشق، به ينتظم الله الوجود صعودًا، وبالقهر ينتظمه نزولًا، والنفوس منطوية في قهر نورية العقول.

وكان من عادة السهروردي أن يفصل نظرياته ويشرحها عبر نصوص تبسيطية انطوت عليها رسائله الشهيرة، ومن بينها رسالة جناح جبريل التي يقول فيها :«تسللت من دار النساء، وتفلَّتُّ من بعض أحزمة الأطفال ولفائفهم عند المساء، وكنت أحمل مشعلًا، فتوجهت إلى حراس قصر أمي. وعند بزوغ الفجر نازعتْني الرغبةُ إلى سرداب أبي، وهو ذو بابين، فدخلت في أحدهما، فعاينت عشرة شيوخ صُباح. من أين جاء هؤلاء السادة؟ قال أقربُهم: «إننا قوم متجرِّدون أتينا من حيثٍ لا مكان» فلم أفهم كلامه، قلت: «كيف تشتغلون؟» قال: بالخياطة. واعلمْ أنه ليس لنا زوج؛ لكن لكلٍّ منا ولدٌ ورحى تدور، ولي أولادٌ كثر يعجز أمهر الحاسبين عن إحصائهم. ففي كل لحظة يتكوَّن لي عددٌ وافر منهم، فأرسل كلًّا إلى رحاه. فقلت للشيخ: من أين جاءك هذا الإخصاب؟ قال: اعلم أني لي جارية حبشية لا أنظر إليها أبدًا، تجلس بين الأرحاء وهي تحدِّق في رحاها الخاصة، ورحاها تدور؛ وكلما اتَّجهتْ نحوي حدقةُ عين الصبية السوداء تكوَّن في حشاها ولدٌ منِّي، من دون أن تبدر عني حركة أو يصيبني تغيُّر. استوضحتُه كيفية هذا النظام. قال: اعلم أن لي كلمات هي جزء من كلمته النورانية، بعضُها يقع فوق بعض، حتى اكتمال العدد».

وقد كان السهروردي ضحية عصره؛ فالقرن السادس الهجري لم يكن زمن تسامح، على النقيض من القرون التي خلت، بل كان عصر صراعات سياسية ومذهبية، سيطر فيه الأشاعرة، وتراخى الفكر المعتزلي، وساد فيه أهل الرواية على أهل الدراية، وأتباع المنقول على أصحاب المعقول، وحمل الفقهاء بشدة على الفلاسفة، وجاءت الأوضاع السياسية لتغذي هذا التعصب، فالعالم الإسلامي كان موزَّعا بين الخلافة العباسية السُّنية، والخلافة الفاطمية الشيعية، وكان البويهيون الشيعة قد هيمنوا على مقاليد الأمور في إيران، وكردستان، والعراق (334 - 447هـ)، وأبقوا على الخلافة العباسية في الظاهر بينما تحكموا في مقاليدها في الباطن. فلما اشتد ساعد السلاجقة الأتراك المعتنقين للمذهب السني، سارع العباسيون إلى الاستعانة بهم في مواجهة البويهيين. وكان من الطبيعي أن يبحث السلاجقة عن أيديولوجية لمواجهة تلك التي كانت تشكل إطارًا لأعدائهم، بذلك برزت أهمية الخط الأشعري.

في ظل هذه الأجواء جاء السهروردي إلى حلب ليجد أمامه الزنكيين، أتباع السلاجقة، يتحكمون في الأمر، بينما ضغط آخر سلاطينهم نور الدين زنكي على واليه في مصر صلاح الدين الأيوبي لإلغاء الخلافة الفاطمية، واتخاذ المذهب الشافعي بتوجهه الأشعري مذهبًا رسميًا للدولة.

لهذا نظر الفقهاء والحكام بعين الريبة إلى أفكار السهروردي وأحالوها إلى الدعاوى الباطنية. وما زاد الطين بلة أن السهروردي كان مأخوذًا بفورة الشباب، معتدًّا بذاته، واثقًا من علمه، شجاعًا في طرح أفكاره إلى حد التهور، فتحدى الفقهاء في سائر المذاهب، وعجزهم، واستطال على أهل حلب، وصار يكلّمهم كلام مَنْ هو أعلى قدرًا منهم، فتعصّبوا عليه، لا سيما أن طموحه كان بلا حدود؛ إذ يقول: «لا بدَّ أن أملك الأرض».

وأشار الشيخ سديد بن رقيقة إلى هذا الأمر فقال عن السهروردي: «كان يتردد عليَّ، وبيننا صداقة، وكان الشيخ فخر الدين يقول لنا: ما أذكى هذا الشاب وأفصحه، ولم أجد أحدًا مثله في زماني، إلا أني أخشى عليه؛ لكثرة تهوّره واستهتاره وقلة تحفّظه، أن يكون ذلك سببًا لتلفه».

وقال فخر الدين المارديني نفسه في هذا الشأن: «لما جاء شـهاب الدين السهروردي إلى حلب، وناظر بها الفقهـاء، ولم يُجارِهِ أحـد، فكثر تشنيعهم عليه، فاستحضره السلطان الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين بن يوسف بن أيوب واستحضر الأكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين؛ ليسمع ما يجري بينهم وبينه من المباحث والكلام، فتكلم معهم بكلام كثير، وبان له فضل عظيم وعلم باهر، وحَسُن موقعه عند الملك الظاهر، وقرّبه، وصار مكينًا عنده، مختصًّا به، فازداد تشنيع أولئك عليه، وعملوا محاضر بكفره، وسيّروها إلى دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين، وقالوا: إن بقي هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك، كذلك إن أُطلق فإنه يفسد أي ناحية كان بها من البلاد، وزادوا عليه أشياء

كثيرة من ذلك».

وكان من جملة ما دار في المناظرة بين الفقهاء والسهروردي ما يلي:

الفقهاء: أنت قلت في تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبيًا. وهذا مستحيل.

السهروردي: ما حدا لقدرته؟! أليس القادر إذا أراد شيئًا لا يمتنع عليه؟

الفقهاء: بلى.

السهروردي : فالله قادر على كل شيء.

الفقهاء: إلا على خلق نبي فإنه مستحيل.

السهروردي: فهل يستحيل مطلقًا أم لا؟!

الفقهاء: كفرت!

وتمَّ هذا الاستدراج للسهروردي فيما كان صلاح الدين الأيوبي في حاجة ماسة إلى توحد عناصر دولته مترامية الأطراف في مواجهة أعدائها من الفرنجة والسلاجقة وغيرهما، بينما كان الفقهاء يزدادون ضيقا من السهروردي، فزادوا في اتهامهم له، ودسوا ضده عند الملك الظاهر، فاستدعاه وعقد له مجلسًا من الفقهاء والمتكلمين يباحثونه ويناظرونه، فإذا هو يَظهرُ عليهم ويُظهرُ فضله وعلمه وقوة حججه أمام الملك، فلم يكن من الملك إلا أن زاد إقباله عليه وإكباره له وإعجابه به فاشتد ضيق الفقهاء، فكتبوا إلى صلاح الدين نفسه يحذرونه من خطر السهروردي على عقائد الناس وأيديولوجية الدولة التي تقف على حواف الخطر. ويُقال إن صلاح الدين أرسل إلى ولده الظاهر بحلب كتابًا بخط القاضي الفاضل يقول فيه: «إن هذا الشاب السهروردي لا بد من قتله، ولا سبيل أنه يُطلَق، ولا يبقى بوجه من الوجوه». واستفتى الظاهر في أمر السهروردي فقهاء حلب فأفتوا بقتله.

وقد ملك العجب المؤرخين والمفكرين مما أقدم عليه صلاح الدين الأيوبي، الذي كان معروفًا باعتداله وتسامحه إلى حد مصالحته لفرقة الحشاشين التي كان علماء السنة يرون في أفكارها الزندقة بعينها. ويفسر بروكلمان الأمر بقوله: «الواقع أن صلاح الدين لم يستشعر الحاجة إلى إقامة ديوان لامتحان الزنادقة إلا مرة في حلب. وتفصيل الأمر أن مهاجرًا فارسيًّا من آسيا الصغرى يُدعى السهروردي استقر في حلب، وكانت له آراء غنوصية... ما لبثت أن أثارت شكوك علماء السُّنة، فزعموا أنه يمثل عقيدة القرامطة المُعادين للدولة. وهكذا لم يكن في وسع صلاح الدين، رغم اعتداله، إلا أن وافق على حكم الموت الذي أصدره الفقهاء القضاة على الملحد عام 1191م».

واختلف المؤرخون والكتاب في ذكر الطريقة التي تم بها تنفيذ الحكم. فثمة من ذكر أنه قد قتل بتجويعه، وثمة من قال بالسيف، وقيل إنه أُحرق، أو خُنق بوتر. وأورد ابن أبي أصيبعة رواية متماسكة قال فيها: «لما بلغ الشهاب ذلك، وأيقن أنه يُقتل، وليس جهة إلى الإفراج عنه، اختار أن يُترك في مكان منفرد، ويُمنع من الطعام والشراب، إلى أن يلقى الله تعالى. ففُعل به ذلك، وكان في أواخر سنة 586هـ في قلعة حلب، وكان عمره نحو 36 عامًا».

شقيق البلخي

الزاهد المجاهد الذي أبكى هارون الرشيد

لم تغره الدنيا وكانت نعمتها تجري بين يديه. لم تفتنه الملذات وكانت طوع بنانه. عاش في مقتبل حياته موسرًا يرفل في نعم أهله من الأثرياء، لكنه امتلك دومًا قدرة هائلة على الإنصات والتدبر، والخشوع والتذكر، وهذا هو الذي جعله يغير مسار حياته حين سمع كلامًا لم يرد على أذنيه من قبل، فانتهى به الدرب إلى أن صار من كبار السالكين الزاهدين، الذين تُروى عنهم الحكم، وتُنسب إليهم المواقف المشهودة، ويُجمع عليهم المسلمون على اختلاف مذاهبهم.

هو أبو علي شقيق بن إبراهيم الأزدي البلخي، من أعلام التصوف في القرن الثاني الهجري، تعود جذوره وكنيته إلى مدينة بلخ في إقليم خراسان، صحب العابد الزاهد إبراهيم بن أدهم، نهل من عمله وذوقه، وعنه أخذ التصوف، وقد روى الحديث عن كثير بن عبد الله الأبلي، وإسرائيل ابن يونس، وعباد بن كثير، وكان كثير النفقة والجهاد في سبيل الله. وقد تتلمذ على يديه واحد من أعلام التصوف هو حاتم الأصم.

وأورد الإمام أبو القاسم القشيري في كتابه الأثير الشهير «الرسالة القشيرية» أن البلخي كان من عائلة ثرية يعيش الدنيا بملذاتها لاهيا عن طريق الصالحين السالكين. وذات يوم خرج للتجارة إلى أرض الترك، وهو شاب صغير، فدخل بيتًا للأصنام، فرأى خادمًا للأصنام فيه؛ قد حلق رأسه ولحيته، ولبس ثيابًا أرجوانية، فقال البلخي للخادم: إنَّ لك صانعًا حيًّا، عالمًا، قادرًا، فاعبده.. ولا تعبد هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع! فرد عليه الخادم: إن كان كما تقول، فهو قادر على أن يرزقك ببلدك، فلم تعنيت إلى هاهنا للتجارة؟ فانتبه شقيق.. وأخذ في طريق الزهد.

لكن هناك رواية أخرى لتوبته وزهده تقول: إنه رأى مملوكًا يلعب ويمرح في زمان قحط، وكان الناس مهتمين به، فقال شقيق: ما هذا النشاط الذي فيك؟ أما ترى ما فيه الناس من الجدب والقحط؟ فقال ذلك المملوك: وما عليَّ من ذلك، ولمولاي قرية خالصة يدخل له منها ما نحتاج نحن إليه، فانتبه شقيق، وقال: إن كان لمولاه قرية، ومولاه مخلوق فقير، ثم إنه ليس يهتم لرزقه، فكيف ينبغي أن يهتم المسلم لرزقه ومولاه غني؟!

وهناك رواية ثالثة يرويها القشيري تقول: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي - رحمه الله - يقول: سمعت أبا الحسين بن أحمد العطار البلخي يقول: سمعت أحمد بن محمد البخاري يقول: قال حاتم الأصم: كان شقيق بن إبراهيم موسرًا، وكان يُفتي ويعاشر الفتيان، وكان علي بن عيسى ابن ماهان أمير بلخ، وكان يحب كلاب الصيد، ففقد كلبًا من كلابه، فسعى برجل أنه عنده، وكان الرجل في جوار شقيق، فطلب الرجل، فهرب... فدخل دار شقيق مستجيرًا، فمضى شقيق إلى الأمير، وقال: خلوا سبيله، فإن الكلب عنيد أرده إليكم إلى ثلاثة أيام. فخلوا سبيله، وانصرف شقيق مهتما لما صنع، فلما كان اليوم الثالث كان رجل من أصدقاء شقيق غائبًا من بلخ فرجع إليها، فوجد في الطريق كلبًا عليه قلادة، فأخذه، وقال: أهديه إلى شقيق، فإنه يشتغل بالتفتى، فحمله إليه، فنظر شقيق فإذا هو كل الأمر، فسُرَّ به وحمله إلى الأمير، وتخلّص من الضمان فرزقه الله الانتباه، وتاب مما كان فيه، وسلك طريق الزهد.

ويقول شقيق البلخي عن نفسه: كانت لجدي ثلاثمئة قرية، ثم مات بلا كفن، قال : وسيفه إلى اليوم يتباركون به... لقد كنت شاعرًا، فرزقني الله التوبة، وخرجت من ثلاثمئة ألف درهم، ولبست الصوف عشرين سنة، ولا أدري أني مراءٍ حتى لقيت عبد العزيز بن أبي رواد، فقال: ليس الشأن في أكل الشعير ولبس الصوف، الشأن أن تعرف الله بقلبك، ولا تُشرك به شيئًا، وأن ترضى عن الله، وأن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في أيدي الناس.

ويقول أيضا عن نفسه: أخذت لباس الدون عن سفيان، وأخذت الخشوع من إسرائيل، وأخذت العبادة من عباد بن كثير، والفقه من زفر.

وللبلخي أقوال خالدة عميقة الأثر، جلية المعنى، حوى بعضها كتاب «الفوائد» لابن القيم، منها:

- لو أن رجلا عاش مئتي سنة لا يعرف هذه الأربعة لم ينجُ: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة أمر الله ونهيه، ومعرفة عدو الله وعدو النفس.

- جعل الله أهل طاعته أحياء في مماتهم، وأهل المعاصي أمواتًا في حياتهم.

- مَنْ أراد أن يعرف معرفته بالله، فلينظر إلى ما وعده الله ووعده الناس، بأيهما قلبه أوثق.

- التوكل أن يطمئن قلبك بموعود الله.

- إذا أَردت أن تعرف الرجل فانظر إلى ما وعده الله ووعده الناس، فبأيهما يكون قلبه أوثق؟

- تعرف تقوى الرجل في ثلاثة أشياء: في أخذِه، ومنعِه، وكلامِه.

- مثل المؤمن مثل من غرس نخلة يخاف أن تحمل شوكا، ومثل المنافق مثل من زرع شوكا يطمع أن يحمل تمرًا، هيهات.

- ليس شيء أحب إليَّ من الضيف؛ لأن رزقه على الله، وأجره لي.

- علامة التوبة البكاء على ما سلف، والخوف من الوقوع في الذنب، وهجران إخوان السوء، وملازمة الأخيار.

- من شكا مصيبة إلى غير الله، لم يجد حلاوة الطاعة.

- أُغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء : اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل، والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم، وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، وإقبال الآخرة عليهم وهم مُعرضون عنها.

وقد تعلَّم حاتم الأصم من البلخي أشياء، رواها الأول له حين سأله الأخير عمَّا عرفه منه بعد طول صحبة قائلا: تعلمت ثمانية مسائل هي:

الأولى: فإني نظرت إلى الخلق فإذا كل شخص له محبوب، فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه، فجعلت محبوبي حسناتي؛ لتكون معي بالقبر.

والثانية: فإني نظرت إلى قوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: 40] فأجهدتها في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله.

أما الثالثة: فإني رأيت كل من معه شيء له قيمة عنده يحفظه، فنظرت إلى قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96] فكلما وقع معي شيء له قيمة وجَّهته إلى الله ليبقى لي عنده.

والرابعة: فإني رأيت الناس يرجعون إلى المال والحسب والشرف وليست بشيء، فنظرت إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13] فعملت بالتقوى حتى أكون عند الله كريمًا.

والخامسة: فإني رأيت الناس يتحاسدون، فنظرت إلى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: 32] فتركت الحسد بالكلية؛ لأن الحسد اعتراض على الله.

أما السادسة: رأيت الناس يتعادون، فنظرت إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6] فتركت عداوتهم، واتخذت الشيطان وحده عدوا.

والسابعة: رأيتهم يذلون أنفسهم في طلب الرزق، فنظرت إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6]فاشتغلت بما له عليَّ، وتركت ما لي عنده ثقة به، ويقينا بما عنده.

أما الثامنة: رأيتهم متوكلين على تجارتهم وصنائعهم وصحة أبدانهم، فتوكلت على الله.. ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159].

ومن المواقف المشهودة للبلخي أنه دخل على هارون الرشيد ذات يوم فقال له الرشيد: أنت شقيق الزاهد؟ فقال: أنا شقيق، ولست بزاهد. قال هارون: أوصني. فقال له شقيق: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قد أجلسك مكان الصديق رضي الله عنه، وإنه تعالى يطلب منك مثل صدقه، وإنه تعالى أعطاك مكان عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه، وهو يطلب منك الفرق بين الحق والباطل مثله، وإنه تعالى أقعدك مكان ذي النورين عثمان رضي الله عنه، وإنه يطلب منك حياءه وكرمه، وإنه أقعدك موضع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وإنه يطلب منك العلم والعدل كما يطلب منه.

فقال له الرشيد: زدني من وصيتك. فقال شقيق: نعم، إن لله دارًا تعرف بجهنم، وإنه جعلك بواب تلك الدار، وأعطاك ثلاثة أشياء لترد عباده عنها: أعطاك بيت المال، والسوط، والسيف، وأمرك أن تمنع الخلق من دخول النار بهذه الثلاثة، فمن جاءك محتاجًا إلى طعام حلالٍ فلا تمنعه حقه في بيت المال، حتى لا يسرق ويقتل. ومن خالف أمر دينه تعالى، وخرج على حُدود الله فأدِّبْه بالسوط. ومن قتل نفسًا بغير حق فاقتله بالسيف، بإذن ولي المقتول. فإن لم تفعل ما أمرك الله فأنت تكون الغريم لأهل النار، والمتقدم إلى أهل البوار.

فقال له الرشيد: زدنا. فقال له شقيق: يا أمير المؤمنين، مثلك كمثل معين الماء، ومثل سائر العلماء كمثل السواقي على منبع الماء، فإذا كان المعين صافيا لا يضر كدر السواقي، وإذا كان المعين كدرًا لا ينفع صفاء السواقي. وهنا بكي هارون الرشيد، وأمر بمال وفير للبلخي، لكنه أبى أن يأخذه، وتركه وانصرف.

وعلى العكس من لقائه الرشيد فقد أبى أن يلتقي المأمون، حيث يروي الحاكم أن البلخي قدم ذات يوم من نيسابور في ثلاثمئة من الزهاد، فطلب المأمون أن يلقاه، فامتنع.

ويقول البلخي: رأيت في طريق مكة مقعدًا يزحف على الأرض، فقلت له: من أين أقبلت؟ قال: من سمرقند، قلت: وكم لكِ في الطريق؟ فذكر أعوامًا تزيد على العشرة، فرفعت طرفي إليه أنظر متعجبًا، فقال لي: يا شقيق، مالكَ تنظر إليَّ، فقلت متعجبًا: من ضعف مهجتك وبعد سفرك، فقال لي: يا شقيق، أما بعد سفرتي فالشوق يقربها. وأما ضعف مهجتي فمولاي يجملها. يا شقيق أتعجب من عبد ضعيف يحمله المولى اللطيف، وأنشد يقول :

أزوركم والهوى صعب مسالكه	**والشوق يحمل مَنْ لا مال يسعده**
ليس المحب الذي يخشى مهالكه	**كلا ولا شدة الأسفار تقعده**

والبلخي في نظر أهل السنة والجماعة هو واحد من المتصوفة الملتزمين. أما الشيعة فيقربونه منهم ويحمِّلونه روايات عن سادتهم، منها تلك التي تخص الإمام موسى بن جعفر الذي يعود نسبه إلى علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه. وقد رُوي عن البلخي في هذا القبيل قوله: خرجت حاجًّا سنة مئة وتسعة وأربعين للهجرة فنزلت القادسية، و إذا بشاب حسن الوجه شديد السمرة، عليه ثوب صوف مشتمل، وفي رجليه نعلان، فجلس منفردًا عن الناس، فقلت في نفسي، هذا الفتى من الصوفية يريد أن يكون كلًّا على الناس، و الله لأمضين إليه وأوبخه! فدنوت منه فلما رآني مقبلا، قال: يا شقيق، اجتنبوا كثيرًا من الظن إن بعض الظن إثم! فقلت في نفسي: هذا عبد صالح قد نطق بما في خاطري، لألحقنه

وأساله أن يجالسني، فغاب عن عيني، فلما نزلنا واقصة، إذا به يصلي وأعضاؤه تضطرب ودموعه تتحدر على خديه، فقلت في نفسي أمضي إليه وأعتذر منه، فأوجز في صلاته، وقال: يا شقيق، وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى.

فقلت: هذا من الأبدال قد تكلم عن سري مرتين.فلما نزلنا زيالا، إذا به قائم على البئر و بيده ركوة يريد أن يستقي الماء، فسقطت الركوة في البئر، فرفع طرفه إلى السماء وقال: أنت ربي إذا ظمئت إلى الماء، وقوتي إذا أردت الطعام. فوالله لقد رأيت البئر قد ارتفع ماؤها فأخذ الركوة وملأها وتوضأ وصلى أربع ركعات ثم مال إلى كثيب رمل هناك فجعل يقبض بيده ويطرحه في الركوة و يشرب!! فقلت: أطعمني من فضل ما رزقك الله وما أنعم عليك، فقال: يا شقيق، لم تزل نعم الله ظاهرة و باطنة فأحسن ظنك بربك، ثم ناولني الركوة فشربت منها فإذا سويق وسكر ما شربت والله ألذ منه ولا أطيب ريحا فشبعت ورويت، وأقمت أياما لا أشتهي الطعام ولا الشراب، ثم لم أرَه حتى دخلت مكة فرأيته ليلة إلى جانب قبة الشراب نصف الليل يصلي بخشوع وأنين وبكاء فلم يزل كذلك حتى ذهب الليل، فلما طلع الفجر جلس في مصلاه يُسبِّح، فلما انتهى قام إلى صلاة الفجر، وطاف بالبيت سبعًا وخرج، فتبعته لأعرف أين ذهب، فإذا له حاشية وأموال وغلمان وهو على خلاف ما رأيته في الطريق ودار به الناس يسلمون ويتبركون به!! فسألت لبعضهم: مَنْ هذا؟ فقالوا: هو موسى بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

وقد رويت هذه الواقعة بإفراط، لدرجة أن بعضهم نظمها شعرًا منها ذلك الذي أنشد صاحبه يقول:

سَلِ البلخي عنه بما شاهد منه	**ومـا الـذي كـان أبصـر**
قال لما حججت عاينت شخصًا	**نـاحـل الجسـم أسمـر**
سائرًا وحده و ليس له زاد	**فمـا زلـت دائبـا أتفكـر**
وتوهمت أنه يسأل الناس	**ولم أدرِ أنه الحج الأكبر**
ثم عاينته ونحن نزول	**دون فيدٍ على الكثيب الأحمر**
يضع الرمل في الإناء ويشرب	**فنـاديته وعقلـي محيـر**
اسقني شربة فلما سقاني منه	**عـاينتـه سـويقـا وسكــر**
فسألت الحجيج مَنْ يَكُ هذا	**قيل هذا الإمام موسى بن جعفر**

وجاء في الرسالة القشيرية أن حاتم الأصم قال: كنا مع شقيق في مصاف نحارب الترك في يوم لا نري فيه إلا رؤوسًا تندر، ورماحًا تنقصف، وسيوفًا تنقطع، فقال لي شقيق: كيف ترى نفسك يا حاتم في هذا اليوم؟ تراه مثل ما كنت في الليلة التي زفّت إليك امرأتك؟ فقال: لا والله. قال: لكني والله أرى نفسي في هذا اليوم مثلَ ما كنت تلك الليلة، ثم نام بين الصفَّين ودرقته تحت رأسه حتى سمعت

غطيطه. وهناك مَنْ يكمل هذه القصة ناسبًا إلى الأصم قوله: فأخذني تركي، فأضجعني للذبح، فبينما هو يطلب السكين من خفه، إذ جاءه سهم عائر ذبحه. وقد استشهد البلخي في هذه الموقعة المعروفة بغزوة كولان، وكان ذلك سنة 194هـ.

الفضيل بن عياض

أروع الناس وحجة أهل زمانه

الإمام القدوة الراسخ، شيخ الإسلام، كان لصًّا قاطع طريق، فتاب الله عليه، وصار واحدًا من عشرة كانوا يأكلون الحلال، لا يُدخلون بطونهم إلا حلالًا ولو استفُّوا ترب الأرض أو لعقوا الرماد. هو من أبكى هارون الرشيد ذات يوم، وردد دائمًا: «لو أن لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلا في إمام، فصلاح الإمام صلاح البلاد والعباد».

هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني، ولد في سمرقند سنة 107هـ، ونشأ في أبِيْوَرْد، وما إن تاب عن المعصية حتى شدّ رحاله في طلب العلم، فبدأ كاتبًا للحديث، ثم رواه، فحدَّث عنه ابن المبارك، وابن وهب، ويحيى القطان، وعبد الرحمن ابن مهدي، وابن عيينة، والأصمعي، وابن داود البلخي، وغيرهم، بل روى عنه شيخه سفيان الثوري.

قال شُريك: «لم يزل لكل قوم حجة في أهل زمانهم، وإن الفضيل ابن عياض حجة لأهل زمانه، فقام فتى من مجلس الهيثم، فلما توارى، قال الهيثم: إن عاش هذا الفتى يكون حجة لأهل زمانه، قيل: مَنْ كان الفتى؟ قال: أحمد بن حنبل».

وصفه ابن مهدي بأنه «رجل صالح»، وقال عنه سفيان بن عيينة إنه «ثقة»، أما العجلي فأشار إلى أنه «ثقة متعبد، رجل صالح»، فيما وصفه أبو حاتم بأنه «صدوق»، وزاد النسائي على ذلك ونعته بأنه «ثقة مأمون» وهي الصفة التي وافقه عليها الدارقطني راوي الحديث. كذلك قال عنه عبد الله بن المبارك: «ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل ابن عياض... لقد رأيت أعبد الناس عبد العزيز بن أبي روَّاد، وأورع الناس الفضيل بن عياض، وأعلم الناس سفيان الثوري، وأفقه الناس أبا حنيفة، ما رأيت في الفقه مثله... لقد صدق الفضيل الله فأجرى الحكمة على لسانه، فالفضيل ممَّن نفعه علمه... ما بقي في الحجاز أحد من الأبدال إلا فضيل، وابنه علي، وعليّ مقدم في الخوف، وما بقي أحد في بلاد الشام إلا يوسف ابن أسباط، وأبو معاوية الأسود، وما بقي أحد في خراسان إلا شيخ حائك يقال له معدان».

ووصفه عبيد الله القواريري بأنه أحد أفضل من رأى من المشايخ. ورأى نصر بن المغيرة البخاري أنه أحد أحفظ الناس وأفقههم وأورعهم، مثل وكيع وابن المبارك. وينسب إلى الخليفة هارون الرشيد قوله: «ما رأيت في العلماء أهيب من مالك، ولا أورع من الفضيل».

وقال عنه إسحاق بن إبراهيم الطبري: «ما رأيت أحدًا أخوف على نفسه، ولا أرجى للناس من الفضيل. كانت قراءته حزينة، شهية، بطيئة، مسترسلة، كأنه يخاطب إنسانًا، وكان إذا مرّ بآية فيها ذكر الجنة يردد فيها، وكانت صلاته بالليل أكثر ذلك قاعدًا، يُلقى له الحصير في مسجده، فيصلي من أول الليل ساعة، ثم تغلبه عينه، فيلقي نفسه على الحصير، فينام قليلًا، ثم يقوم، فإذا غلبه النوم نام، ثم يقوم، هكذا حتى يصبح. وكان دأبه إذا نعس أن ينام، ويقال: أشد العبادة ما كان هكذا. وكان صحيح الحديث، صدوق اللسان، شديد الهيبة للحديث إذا حدَّث، وكان يثقل عليه الحديث جدًّا، وربما قال لي: لو أنك طلبت مني الدنانير كان أيسر عليَّ من أن تطلب مني الحديث. فقلت: لو حدثتني بأحاديث فوائد ليست عندي، كان أحب إليَّ من أن تهب لي عددها دنانير. قال: إنك مفتون، أما والله لو عملت بما سمعت، لكان لك في ذلك شغل عما لم تسمع، سمعت سليمان بن مهران يقول: إذا كان بين يديك طعام تأكله، فتأخذ اللقمة، فترمي بها خلف ظهرك متى تشبع؟».

وذكر إبراهيم بن الأشعث: «ما رأيت أحدًا كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذَكر الله، أو ذُكر عنده، أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من يحضره، وكان دائم الحزن، شديد الفكرة، ما رأيت رجلًا يريد الله بعلمه وعمله، وأخذه وعطائه، ومنعه وبذله، وبغضه وحبه، وخصاله كلها غيره. كنا إذا خرجنا معه في جنازة لا يزال يعظ، ويذكر، ويبكي، كأنه مودع أصحابه، ذاهب إلى الآخرة، حتى يبلغ المقابر، فيجلس مكانه بين الموتى من الحزن والبكاء، حتى يقوم وكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها».

وقال عنه علي بن الحسن: «ما رأيت أنصح للمسلمين، ولا أخوف منه، ولقد رأيته في المنام قائمًا على صندوق يعطي المصاحف، والناس حوله، فيهم: سفيان بن عيينة، وهارون أمير المؤمنين، فما رأيته يودّع أحدًا، فيقدر أن يتم وداعه».

وتروى إحدى القصص في أسباب توبة ابن عياض؛ إذ قيل إنه عشق امرأة، وكان يذهب إليها خلسة في الليل البهيم. وذات ليلة، وبينما كان يصعد الجدران، سمع هاتفًا يناديه ويتلو عليه الآية الكريمة التي يقول فيهـا رب العـزة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: 16]. فلما سمع الصوت قال: بلى يا رب قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: نمكث حتى الصباح، فإن فُضَيلا على الطريق يقطع علينا. وهنا قال الفضيل: ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا، يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام».

وعلّق الإمام الذهبي على هذه القصة قائلًا: وبكل حال: فالشرك أعظم من قطع الطريق، وقد تاب من الشرك خلق صاروا أفضل الأمة. فنواصي العباد بيد الله، وهو يضل من يشاء، ويهدي إليه من أناب».

ثمة قصة أخرى تدلّ على مدى شجاعة ابن عياض وتعففه وزهده، وقدرته على مواجهة السلطة، من دون وجل ولا تردد. فبينما كان هارون الرشيد في الحج؛ حدَّث وزيره الفضل بن الربيع قائلًا: «ويحك، قد حكَّ في نفسي شيء، فانظر لي رجلًا أسأله. فقلت: ها هنا سفيان بن عيينة، فقال: اِمْضِ بنا إليه، فأتيناه، فقرعت بابه، فقال: مَنْ ذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعًا، فقال: يا أميرَ المؤمنين، لو أرسلت إليَّ أتيتك. فقال :خذ لما جئتك له، فحدثه ساعة، ثم قال له: عليك دَين. قال: نعم. فقال لي: اِقْضِ دينه، فلما نهضنا إليه قال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا. قلت: ها هنا عبد الرزاق. قال: امْضِ بنا إليه، فأتيناه، فقرعت الباب فخرج، وحادثه ساعة، ثم قال: عليك دين؟ قال: نعم، قال: أبا عباس، اقضِ دينه. فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، انظر لي رجلًا أسأله، قلت: هاهنا الفضيل بن عياض، قال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فإذا هو قائم يصلي، يتلو آية يرددها، فقال: اقرع الباب، فقرعت، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. قال: ما لي ولأمير المؤمنين؟ قلت: سبحان الله! أما عليك طاعة، فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية، فدخلنا، فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف هارون قبلي إليه، فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غدًا من عذاب الله، فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقيّ من قلب تقيّ، فقال له: خذ لما جئناك له - رحمك الله - فقال: إن عمر ابن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد اُبتليت بهذا البلاء، فأشيروا عليّ. فعد الخلافة بلاءً، وعددتها أنت وأصحابك نعمة. فقال له سالم: إن أردت النجاة، فصم الدنيا وليكن إفطارُك منها الموت. وقال له ابن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك أبًا، وأوسطهم أخًا، وأصغرهم ولدًا، فوقّر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك. وقال له رجاء: إن أردت النجاة من عذاب الله، فأحبّ للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت، وإني أقول لك هذا، وإني أخاف عليك أشد الخوف يومًا تزل فيه الأقدام، فهل معك، رحمك الله، مَن يشير عليك بمثل هذا. فبكى بكاءً شديدًا حتى غُشي عليه. فقلت له: اُرفق بأمير المؤمنين، فقال: يا ابن أم الربيع تقتله أنت وأصحابك، وأرفق به أنا؟ ثم أفاق، فقال له: زدني، رحمك الله، فقال: بلغني أن عاملًا لعمر ابن عبد العزيز شُكي إليه، فكتب إليه: يا أخي أذكرك طول سهَر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء، فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله، فبكى هارون بكاء شديدًا فقال: يا أمير المؤمنين، إن العباس عم النبي جاء إليه فقال: أمّرْني، فقال له: إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميرًا فافعل. فبكى هارون، وقال: زدني. قال: يا

حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار، فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي عليه الصلاة والسلام قال: مَنْ أصبح لهم غاشًا لم يَرح رائحة الجنة. فبكى هارون، وقال له: عليك دَين؟ قال: نعم، دين لربي، لم يحاسبني عليه. فالويل لي إن ساءلني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم أُلهم حجتي. قال: إنما أعني من دَين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]. فقال: هذه ألف دينار خذها، فأنفقها على عيالك، وتقوَّ بها على عبادة ربك، فقال: سبحان الله! أنا أدلك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا. سلَّمك الله، ووفقك. ثم صمت، فلم يكلمنا، فخرجنا، فقال هارون: أبا عباس، إذا دللتني، فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين. فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت: قد ترى ما نحن فيه من الضيق، فلو قبلت هذا المال. قال: إنما مثلي ومثلكم كمثل قوم لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه، فأكلوا لحمه، فلما سمع هارون هذا الكلام قال: ندخل فعسى أن يقبل المال، فلما علم الفضيل، خرج فجلس في السطح على باب الغرفة، فجاء هارون، فجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء، فقالت: يا هذا، قد آذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف، فانصرفنا».

كان الفضيل يتحسب رواية الحديث كي لا يكذب على الرسول ، وهنا نصح: «إن استطعت ألا تكون محدثًا ولا قارئًا، ولا متكلمًا، إن كنت بليغًا قالوا: ما أبلغه! وأحسن حديثه! وأحسن صوته! فيعجبك ذلك، فتنتفخ، وإن لم تكن بليغًا، ولا حسن الصوت قالوا: ليس يُحسن يُحدّث، وليس صوته بحسن، أحزنك ذلك، وشقّ عليك، فتكون مرائيًا، وإذا جلست، فتكلمت، فلم تُبالِ من ذمك ومن مدحك، فتكلم، ثم يقول: «وددت أنه طار في الناس أني مت حتى لا أذكر. إني لأسمع صوت أصحاب الحديث، فيأخذني البول فرقا منهم». وكان يتوجه إلى أصحاب الحديث ويقول لهم: لم تكرهوني على أمر تعلمون أني كاره له؟ لو كنت عبدًا لكم، فكرهتكم كان نَوْلي أن تبيعوني، لو أعلم أني إذا دفعت ردائي هذا إليكم ذهبتم عني لفعلت».

وهنا قال يحيى بن أيوب: «دخلت مع زافر بن سليمان على الفضيل، فإذا معه شيخ، فدخل زافر وأقعدني على الباب. قال زافر: فجعل الفضيل ينظر إليّ ثم قال: هؤلاء المحدثون يعجبهم قرب الإسناد، ألا أخبرك بإسناد لا شك فيه: عن رسول الله، عن جبريل، عن الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: 6]، فأنا وأنت يا أبا سليمان من الناس، ثم غُشي عليه وعلى الشيخ، وجعل زافر ينظر إليهما، ثم خرج الفضيل، وقمنا والشيخ مغشي عليه.

رأى ذات مرة قومًا من أصحاب الحديث يمرحون ويضحكون، فناداهم: «مهلًا يا ورثة الأنبياء، مهلًا ثلاثًا، إنكم أئمة يقتدى بكم».

وقيل لابن عياض: ما الزهد؟، أجاب: القنوع، قيل: ما الورع؟ أجاب: اجتناب المحارم. قيل: ما العبادة؟ أجاب: أداء الفرائض. قيل: ما التواضع؟ أجاب: أن تخضع للحق. وقال: أشد الورع في اللسان. هكذا هو، فقد ترى الرجل ورعًا في مأكله وملبسه ومعاملته، وإذا تحدث يدخل عليه الداخل من حديثه، فإما أن يتحرى الصدق، فلا يكمل الصدق، وإما أن يصدق، فينمق حديثه لِيُمْدَح على الفصاحة، وإما أن يُظهر أحسن ما عنده ليعظم، وإما أن يسكت في موضع الكلام، لِيُثْنَى عليه. ودواء ذلك كله الانقطاع عن الناس إلا من الجماعة.

وسأله عبد الله بن مالك ذات يوم: يا أبا علي ما الخلاص مما نحن فيه؟ قال: أخبرني، من أطاع الله هل تضره معصية أحد؟ قال: لا. قال: فمن يعصي الله هل تنفعه طاعة أحد؟ قال: لا، قال: هو الخلاص إن أردت الخلاص.

وكان ابن عياض يحضّ على الزهد ويقول لأتباعه: «حرام على قلوبكم أن تصيب حلاوة الإيمان

حتى تزهدوا في الدنيا»، قال: «رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله، وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة، من عمل بما علم استغنى عما لا يعلم، ومن عمل بما علم وفَّقه الله لما لا يعلم، ومن ساء خلقه شأن دينه وحسبه ومروءته. وكان يقول أيضًا: «لا يسلم لك قلبك حتى لا تبالي من أكل الدنيا».

وللفضيل أقوال أخرى في ذم الدنيا، من بينها:

- لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة، وحتى لا يحب أن يحمد على عبادة الله.

- إذا أحبّ الله عبدًا، أكثر غمه، وإذا أبغض عبدًا، وسع عليه دنياه.

وثمة أقوال مأثورة عدة للفضيل، نقلها عنه الرواة، وهي جميعها تدل على حكمته وعمق إيمانه ونفاذ بصيرته وورعه. ومن بينها:

- إنما أمس مثلٌ، واليوم عمل، وغدا أمل.

- من خاف الله لم يضره أحد، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد.

- أكذب الناس العائد في ذنبه، وأجهل الناس المُدِلّ بحسناته، وأعلم الناس بالله أخوفهم منه، لن يكمل عبد حتى يؤثر دينه على شهوته، ولن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه.

- ترْك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله عنهما.

- والله ما يحل لك أن تؤذي كلبًا ولا خنزيرًا بغير حق، فكيف تؤذي مسلمًا؟

- لا يكون العبد من المتقين حتى يأمنه عدوه..

- بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله.

- لو خيرت بين أن أعيش كلبًا وأموت كلبًا، ولا أرى يوم القيامة، لاخترت ذلك.

- من أحب أن يُذكر لم يُذكر، ومن كره أن يُذكر ذُكر.

- لو حلفت أني مراءٍ كان أحب إليَّ من أن أحلف أني لست بمراءٍ، ولو رأيت رجلًا اجتمع الناس حوله لقلت: هذا مجنون، من الذي اجتمع الناس حوله، لا يحب أن يجود كلامه لهم؟

- إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار، فاعلم أنك محروم، كبَّلتك خطيئتك.

- يُغْفر للجاهل سبعون ذنبًا ما لا يُغفر للعالم ذنب واحد.

يُقال إن الفضيل بن عياض قدم إلى الكوفة وهو مسن، فسمع الحديث، ثم تعبد، وانتقل إلى مكة ونزلها إلى أن مات فيها في أول سنة سبع وثمانين ومئة في خلافة هارون الرشيد.

هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري الخراساني النيسابوري الشافعي الصوفي. ولد في بلدة أستوا، لقبيلة عربية قدمت من خراسان، سنة 376هـ. توفي والده وهو صغير، وترك له أرضًا، دفعته أعباؤها ذات يوم إلى نيسابور لتعلم الحساب بما يعينه على حماية أهل قريته من ظلم عمال الخراج، لكن القدر ساقه إلى مجلس الشيخ «الدقاق»، الذي كان وقتها علمًا من أعلام الصوفية، فاستمع إليه، وأنصت جيدًا ووعى، فأخذه ما وعاه إلى درب التصوف، لاسيما بعد أن نصحه أستاذه بأن يسلك طريق العارفين.

فسَّر القرآن فأجلى إرشاداته، وكتب رسالة من أعظم وأخلد ما ترك المتصوفة الكبار من آثار. اعتبره الكتاب المعاصرون من أفضل نماذج التصوف السني، وكان له باع في علوم شتَّى. حارب البدع، وزاوج بين الشريعة والحقيقة، وشهد له أهل زمانه بالصلاح والتقوى والورع.

وقد تزوج القشيري بابنة الدقاق، وأنجب منها أولادًا نجباء. وكما يقول الذهبي في «سير أعلام النبلاء» فإن أولاده عبد الله وعبد الواحد وأبو نصر وعبد الرحيم وعبد المنعم وزاهر والشحامي، حدثوا عنه، وشاركهم في هذا إخوته وجيه ومحمد بن الفضل الفراوي وعبد الوهاب بن شاه وعبد الجبار ابن محمد الخواري وعبد الرحمن بن عبد الله البحيري وحفيده أبو الأسعد هبة الرحمن وآخرون.

ثم درس على يد أبي بكر الطوسي، وتعلم منه المذهب الشافعي، ثم اختلف إلى ابن فورك فأخذ منه علم الأصول حتى أتقنه على مذهب الأشعريين، وتردد أيضًا على مجلس أبي إسحـق الأسفراييني، فتعلم منه ضروبًا من الفقه. ولم يكتفِ بهؤلاء بل راح ينهل من علم كثيرين، من بينهم علي بن أحمد الأهوازي، وأبو الحسين الخفاف، وأبو نعيم أحمد ابن محمد المهرجاني، وأبو بكر بن عبدوس، وعلي بن أحمد الأهوازي، وابن باكويه الشيرازي وغيرهم، حتى صار واحدًا من العلماء الكبار، وراح كثيرون يأتون إليه من شتى البقاع؛ لينهلوا من معارفه.

وقد دعا القشيري في مشروعه الإصلاحي إلى الملازمة بين علوم الشريعة والتصوف، بعد أن قبل هو هذا الشرط وعكف على دراسة الفقه عند أئمته، بناءً على نصيحة أستاذه الدقاق، الذي قال له عن التصوف : هذا العلم لا يُحصَّل بالسماع، فأعاد عليه ما سمعه منه، فقال له: لست تحتاج إلى دروسي بل يكفيك أن تطالع مصنفاتي، وتنظر في طريقتي وإن أشكل عليك شيء طالعني به. وبذلك صار القشيري بارعًا في الفقه، والأصول وعلم الكلام، بل كان محققا ومفسرًا، متفننا نحويًّا ولغويًّا، أديبًا كاتبًا شاعرًا، وكان أيضًا فارسًا شجاعًا، شهد له من عرفه في فن الفروسية واستعمال السلاح.

وقد شهد للقشيري كثيرون، في مطلعهم التاج السبكي، الذي قال في طبقاته: «أبو القاسم القشيري الملقب زين الإسلام، الإمام مطلقًا وصاحب الرسالة التي سارت مغربًا ومشرقًا، والبسالة التي أصبح بها نجم سعادته مشرقًا، والأصالة التي تجاوز بها فوق الفرقد ورقًا، أحد أئمة المسلمين علمًا وعملًا وأركان الملة فعلًا ومقولًا، إمام الأئمة ومجلي ظلمات الضلال المدلهمة، أحد مَنْ يقتدى به في السُّنة ويتوضح بكلامه طرق النار وطرق الجنة، شيخ المشايخ وأستاذ الجماعة ومقدم الطائفة الجامع بين أشتات العلوم».

ووصفه السمعاني بأنه «شيخ ظريف، مستور الحال، سليم الجانب، غير مداخل للأمور، رباه أخوه أبو نصر، وحجَّ معه، وخرج ثانيًا، فأقام ببغداد، ومضى إلى كرمان، سمعت منه مسند أبى عوانة، وأحاديث السراج مجلدة، والرسالة لأبيه، وكان حسن الإصغاء لما يقرأ عليه، وكان ابن عساكر يفضله في ذلك على الفراوي.

ومدحه عبد الغافر بن إسماعيل قائلًا: «الإمام مطلقًا، الفقيه، المتكلم، الأصولي، المفسر، الأديب، النحوي، الكاتب، الشاعر، لسان عصره، وسيد وقته، وسرّ الله بين خلقه، شيخ المشايخ، وأستاذ

الجماعة، ومقدّم الطائفة، ومقصود سالكي الطريقة، وشعار الحقيقة، وعين السعادة، وحقيقة الملاحة، لم يَرَ مثل نفسه، ولا رأى الراؤون مثله في كماله وبراعته، جمع بين علم الشريعة والحقيقة وشرح أحسن الشرح أصول الطريقة».

أما ابن النجار فقال عن أخباره وأحواله: «لزم البيت، واشتغل بالعبادة، وكتابة المصاحف، وكان لطيف المعاشرة، ظريفًا كريمًا، خرج له أخوه فوائد عشرة أجزاء، مات بين العيدين سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة رحمه الله».

ويقول الخطيب البغدادي: «لقد صار رأسا في الأشاعرة.. كتبنا عنه، وكان ثقة، وكان يقص، وكان حسن الموعظة مليح الإشارة، وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي». ويؤكد ابن ماكولا هذا الأمر، ويقول في كتابه «الإكمال» إن القشيري كان واعظا، وأحد المتكلمين على الأشعرية، وله فيها تصانيف كثيرة.

وذكره أبو الحسن علي الباخرزي في «دمية القصر» وبالغ في الثناء عليه فقال: «الإمام زين الإسلام أبو القاسم جامع لأنواع المحاسن، ينقاد إليه صعابها، ذلل المراسن، فلو قُرع الصخر بسوط تحذيره لذاب... وله فصل الخطاب في فضل النطق المستطاب، ما هو في التكلم على مذهب الأشعري، كلمته للمستفيدين فوائد، وعتبات منبره للعارفين وسائد، وله شعر يتوج به رؤوس معاليه إذا خُتِمَتْ به أذناب أماليه».

وقال ابن الجوزي في «المنتظم» عن المصادر التي أخذ عنها القشيري العلم: لقد اختلف إلى بكر بن فورك فأخذ عنه الكلام، وصار رأسًا في الأشاعرة، وصنّف التفسير الكبير وخرج إلى الحج في رفقة فيها أبو المعالي الجويني، وأبو بكر البيهقي، فسمع معهما الحديث ببغداد والحجاز، ثم أملى الحديث، وكان يعظ.

وقد عني القشيري بتفسير القرآن، وقدم في هذا مصنفا سماه «التيسير في علم التفسير» بدا مختلفا عن كثير من التفاسير التي سبقته، أو عاصرته، أو حتى تلك التي لحقت به وجاءت بعده. فعلى سبيل المثال، نجده يفسر «بسم الله الرحمن الرحيم» على النحو التالي:

«الباء في بسم الله حرف التضمين؛ أي بالله ظهرت الحادثات، وبه وجدت المخلوقات، فما من حادث مخلوق، وحاصل منسوق، من عين وأثر وغبر، وغيرٍ من حجر ومدر، ونجم وشجر، ورسم وطلل، وحكم وعلل إلا بالحق وجوده، والحق مَلِكُه، ومن الحقِّ بدؤه، وإلى الحق عوده، فبه وَجَدَ من وَحَّد، وبه جحد من ألحد، وبه عرف من اعترف، وبه تخلَّف من اقترف. وقال: «بسم الله» ولم يقل بالله على وجه التبرك بذكر اسمه عند قوم، وللفَرْقِ بين هذا وبين القَسَم عند الآخرين، ولأن الاسم هو المسمى عند العلماء، ولاستصفاء القلوب من العَلائق ولاستخلاص الأسرار عن العوائق عند أهل العرفان؛ ليكون ورود قوله «الله» على قلبٍ مُنقى وسرٍّ مُصَفى. وقوم عند ذكر هذه الآية يتذكرون من الباء (بره) بأوليائه، ومن السين سره مع أصفيائه، ومن الميم مِنَّتِه على أهل ولايته، فيعلمون أنهم ببره عرفوا سرّه، وبمنَّتِه عليهم حفظوا أمره، وبه سبحانه وتعالى عرفوا قدره. وقوم عند سماع بسم الله تذكروا بالباء براءة الله سبحانه وتعالى من كل سوء، وبالسين سلامته سبحانه عن كل عيب، وبالميم مجده سبحانه بعز وصفه، وآخرون يذكرون عند الباء بهاءه، وعند السين سناءه، وعند الميم ملكه، فلما أعاد الله- سبحانه وتعالى- هذه الآية أعني: بسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة وثبت أنها منها أردنا أن نذكر في كل سورة من إشارات هذه الآية كلمات غير مكررة، وإشارات غير معادة، فلذلك نستقصي القول ها هنا وبه الثقة».

وبالإضافة إلى تفسيره القرآن عرف القشيري بتصانيف عديدة، منها «التحبير في التذكير» و«آداب الصوفية»، و«لطائف الإشارات»، وكتاب «المناجاة»، وكتاب «القلوب الصغير والكبير»، و«شكاية أحكام السماع»، و«كتاب الأربعين في الحديث» و«ناسخ الحديث ومنسوخه» و«القصيدة

الصوفية» و«ديوان شعر» و«الحقائق والرقائق» و«رسائل ترتيب السلوك» و«بلغة المقاصد» و«منثور الخطاب في مشهور الأبواب» و«المنشور في الكلام على أبواب التصوف» و«عيون الأجوبة في أصول الأسئلة» و«شرح أسماء الله الحسنى». وهناك كتب مفقودة منها «دأب الصوفية» و«كتاب الجواهر» و«كتاب المناجاة».

وأهم مؤلفاته على الإطلاق «الرسالة القشيرية» وهي كتاب في التصوف، يسهم في التعرف على مذهب الصوفية المعتدلة وشرح ألفاظها ومصطلحاتها فيما بينهم، بأسلوب شيق ولغة سلسة قربت مفاهيم الصوفية إلى العقول والقلوب معًا. وقد امتازت هذه الرسالة عن كثير من كتب التصوف، في كونها تقدم تلخيصا لتطور الصوفية منذ فجرها الأول وحتى زمن القشيري. وتم هذا عبر نقل أقوال رموز التصوف وسلوكياتهم، وكيف يمكن أن تشكل نموذجا يحتذى به، عبر منهج التغيير النفسي، وقد عرض القشيري قائمة بثلاثة وثمانين نموذجا من نماذج السلوك البشري التي تكاد تفوق في أغلبها طرق الإدراك الحسي الطبيعي. ويفرد القشيري فصولا أخرى تتضمن مسائل تتصل بمسألة التصوف كإثبات كرامات الأولياء، ومعنى الولي، وما إذا كان معصوما من عدمه، وما ينبغي للمريد في التعامل مع مشايخه ومع المسلمين والفقراء وغير ذلك من الآداب والخصال التي يطلب من المريد التحلي بها بغية الوصول إلى أعلى الدرجات على سلم السالكين.

ولهذا اعتبرت الرسالة القشيرية «أفضل وثيقة علمية، وتاريخية في موضوعها لا يدانيها في مستواها كتاب آخر. لكن هناك مَنْ يأخذ عليها اقتصارها على نماذج التصوف السني فحسب.

ويبدأ القشيري رسالته بالقول: «ثم اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبقَ في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم... وقَلَّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة فعدُّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ودنوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة وركضوا في ميدان الغفلات... ولما أبى الوقت إلا استصعابًا وأكثر أهل العصر بهذه الديار لما زادوا إلا تماديًا فيما اعتادوه واغترارًا بما ارتادوه، أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر على هذه الجملة بنى قواعده وعلى هذا النحو سار سلفه، فعلقتُ هذه الرسالة إليكم أكرمكم الله وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم».

ولم يكن القشيري من القائلين بالحلول أو الاتحاد، فقد قال في رسالته إن «العالم محدث مخلوق وله صانع وهو الله، سبحانه وتعالى». وكان يحيل الكلام عن أسماء الله تعالى وصفاته إلى القرآن الكريم، والسنة النبوية، فيقول عنها: «ومنها ما ورد الخبر به إما في القرآن وإما ببيان المصطفى- ﷺ - كالوصف بأن له يدين، والوصف بأن له وجها، وكما ورد النص بأنه «على العرش استوى» وقوله سبحانه وتعالى: «ولتصنع على عينى»، وقوله تعالى: «وجاء ربك»، وقوله عز وجل: «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام»، وقوله عز وجل: «ويحذركم الله نفسه»، وكما ورد في الخبر بالقول: «ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا» وفى الخبر: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»، وأمثال هذا من الأخبار الواردة بألفاظ متشابهة لا نزيد عما ورد ولا ننقص مما ورد في الكتاب والخبر فما كان ظاهرا معناه تحققناه وما كان مشكلا معناه وكلنا علمه إلى الله تعالى. ولا نتعرض لتأويله وآمنا به على الجملة. وجهلنا بتفصيله لا يقدح في صحة إيماننا به وتحققه في الجملة».

ويمضي القشيري: «إنه سبحانه أحدي الذات ليس يشبه شيئًا من المصنوعات ولا يشبهه شيء من المخلوقات، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا صفاته أعراض، ولا يتصور في الأوهام ولا يتقدر في العقول، ولا له جهة ولا مكان ولا يجري عليه وقت وزمان، ولا يجوز في وصفه زيادة ولا نقصان، ولا يخصه هيئة وقد، ولا يقطعه نهاية حد، ولا يحله حادث، ولا يحمله على الفعل باعث،

ولا يجوز عليه لون ولا كون، ولا ينصره مدد ولا عون، ولا يخرج عن قدرته مقدور ولا ينفك عن حكمه مفطور، ولا يعزب عن علمه معلوم، ولا هو على فعله كيف يصنع وما يصنع ملوم، لا يقال له أين ولا حيث ولا كيف، ولا يستفتح له وجود فيقال متى كان، ولا ينتهي له بقاء فيقال استوفى الأجل والزمان، ولا يقال لِمَ فعل ما فعل إذ لا علة لأفعاله، ولا يُقال ما هو إذ لا جنس له فيميزه بأمارة عن الأشكال، يُرى لا عن مقابلة، ويَرى غيره لا عن مماقلة، ويضع لا عن مباشرة ومزاولة، له الأسماء الحسنى والصفات العلا، يفعل ما يريد ويذل لحكمه العبيد، لا يجري في سلطانه إلا ما يشاء، ولا يحصل في ملكه إلا ما سبق به القضاء، ما علم أنه يكون من الحادثات أراد، وما علم أنه لا يكون مما جاز أراد ألا يكون خالق أكساب العباد خيرها وشرها، ومبدع ما في العالم من الأعيان والآثار قلها وكثرها، مرسل الرسل إلى الأمم من غير وجوب عليه، ومتعبد الأنام على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا سبيل لأحد اللوم والاعتراض عليه، ومؤيد نبينا محمد - ﷺ - بالمعجزات الظاهرة والآيات الزاهرة بما أزاح به العذر وأوضح به اليقين».

ويؤمن القشيري بوجود كرامات لأولياء الله تعالى، لكنه، على غرار أهل السنة والجماعة، لا يغالي فيها، ولا يذهب بها إلى حد الأساطير والخوارق. فها هو يقول عن الكرامات: «قد تكون إجابة دعوة، وقد تكون إظهار طعام في أوان فاقة من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في زمان عطش، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة، أو تخليصًا من عدو، أو سماع خطاب من هاتف، أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة. وأعلم أن كثيرًا من المقدورات يعلم اليوم قطعًا أنه لا يجوز أن يظهر كرامة للأولياء، وبضرورة أو شبه ضرورة يعلم ذلك، فمنها حصول إنسان لا من أبوين، وقلب جمادٍ بهيمة أو حيوان، وأمثال هذا كثير».

ومن الأمور التي تذكر على الدوام للقشيري فتواه الشهيرة بشأن الإمام الأشعري. فقد حدثت في زمن القشيري فتنة عظيمة حيكت ضد الأشاعرة فكثر سَبُّهم وسبُّ الإمام أبي الحسن الأشعري، فاستُفْتيَ الإمام عن عقيدة الأشعري فكتب القشيري إليه: «اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن علي ابن إسماعيل الأشعري كان إمامًا من أئمة أصحاب الحديث، ومذهبه مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة، ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدع، وكان على المعتزلة والمبتدعين من أهل القبلة والخارجين من الملة سيفًا مسلولًا. ومَنْ طعن فيه أو قدح أو لعنه أو سبَّه فقد بسط لسان السوء في جميع أهل السنة».

وتوفي الإمام القشيري سنة أربعمئة وخمس وستين للهجرة، وفقدت برحيله الأمة الإسلامية أحد أعلامها الكبار، في الفقه والتصوف.

عبد القادر الجيلاني

صاحب الوصايا الذي ظلمه مريدوه

القادر بن أبي صالح بن عبد الله الجيلي البغدادي. يعود نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنه. ولد بجيلان في منطقة كردستان سنة 470هـ، ووفد إلى بغداد شابا يافعا سنة 488هـ، ليتتلمذ على يد الشيخ أبي سعيد المخرمي، الذي كان على مذهب الإمام أحمد بن حنبل. وقد صار التلميذ أستاذا فجلس يعلم الناس وهو في الثانية والثلاثين من عمره، فأقبلوا عليه، واقتنعوا بصلاحه وورعه، وانتفعوا بأقواله ووعظه، وخرج من تحت يده تلاميذ صاروا جنودا بواسل في جيوش صلاح الدين الأيوبي.

هو من أعظم أهل زمانه أمرًا بالتزام الشرع، والأمر والنهي، وتقديمه على الذوق والقدر، ومن أعظم من طالبوا بترك الهوى. كان عدلا وقطب وقته، وكان ورعا ونسيجا وحده. تقّولوا عليه، ونسجوا حوله الأساطير، لكنه يجد في كل زمان ومكان، من يبحث عن حقيقته، ويقف على رؤيته، ويخلص سيرته ومساره مما علق به بأيدي من يألفون كل غريب، ويبحثون عن كل شاذ.

وتبحر الجيلاني في العلم فترك وراءه مصنفات عديدة في الأصول والفروع، وفي الأحوال والحقائق، من بينها «إغاثة العارفين وغاية منى الواصلين» و«آداب السلوك» و«تحفة المتقين وسبيل العارفين» و«جلال الخاطر في الباطن والظاهر» و«حزب الرجاء والانتهاء» و«الغنية لطالبي الحق» و«الفتح الرباني والفيض الرحماني» و«الفيوضات الربانية» و«يواقيت الحكم» و«فتوح الغيب» و«الطريق إلى الله» و«بهجة الأسرار» و«الرد على الرافضة» و«كيمياء السعادة لمن أراد الحسنى وزيادة» وغيرها.

ومن أعظم ما ترك الجيلاني وصيته للمريدين والسالكين في طريق الله، ويعتبرها أتباعه بمثابة الدستور الذي يحكم سلوكهم وتصوراتهم، وهنا يعظ عبدالقادر مريده قائلا له:

- أوصيك بتقوى الله، وحفظ طاعته، ولزوم ظاهر الشرع، وحفظ حدوده.

- إن طريقتنا هذه مبنية على: سلامة الصدر، وسماحة النفس، وبشاشة الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى، والصفح عن عثرات الإخوان.

- أوصيك بالفقر وهو: حفظ حرمات المشايخ، وحسن العشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر، والشفقة على الأكابر، وترك الخصومة مع الناس، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، وترك الصحبة مع من ليس منهم ومن طبقتهم، والمعاونة في أمر الدين والدنيا، وحقيقة الفقر ألا تفتقر إلى من هو مثلك، وحقيقة الغنى أن تستغني عمن هو مثلك.

- إن التصوف ما هو مأخوذ عن القيل والقال، بل هو مأخوذ من ترك الدنيا وأهلها، وقطع المألوفات والمستحبات، ومخالفة النفس والهوى، وترك الاختيارات والإرادات والشهوات، ومقاسات الجوع والسهر، وملازمة الخلوة والعزلة.

- وأوصيك إذا رأيت الفقير ألا تبتدئه بالعلم، بل ابتدئه بالحلم والرفق؛ فإن العلم يوحشه، والرفق يؤنسه.

- إن التصوف مبني على ثماني خصال: السخاء وهي لإبراهيم، والرضا وهي لإسحاق، والصبر وهي لأيوب، والإشارة لزكريا، والغربة ليحيى، ولبس الصوف لآدم وموسى، والسياحة لعيسى، والفقر لمحمد، عليهم جميعا السلام.

- وأوصيك ألا تصحب الأغنياء إلا بالتعزز، ولا الفقراء إلا بالتذلل. وعليك بالإخلاص، وهو: نسيان رؤية الخلق ودوام رؤية الخالق، ولا تتهم الله عز وجل في الأمور، واسكن إليه في كل حال، ولا تضيع حقوق أخيك اتكالًا لما بينك وبينه من المودة والصداقة، فإن الله عز وجل فرض لكل مؤمن حقوقًا عليك، فأقل الحال ها هنا الدعاء لهم، وخدمة الفقراء لازمة على الطالب بالنفس والمال.

- والزم نفسك بثلاثة أشياء: بالتواضع لله سبحانه وتعالى وبحسن الأدب مع الخلق كلهم، وبسخاء

النفس.

- وأمت نفسك حتى تحيا، وإن أقرب الخلق إلى الله أوسعهم صدرًا وأحسنهم خلقًا، وإن أفضل الأعمال مخالفة النفس والهوى، ودوام التوجه إلى الله سبحانه وتعالى، والإعراض عما سواه.

- وحسبك في الدنيا شيئان: صحبة فقير عارف، وخدمة ولي كامل.

- واعلم أن الفقير هو الذي لا يستفتي بشيء من دون الله تعالى، وطريقه جد كله، فلا يخالطه بشيء من الهزل.

- وجانب أهل البدع. فلا تنظر إليهم جملة، وإن كنت قادرًا عليهم فامنعهم عنها وازجرهم.

- وعليك بترك الاختيار، وملازمة التسليم، وتفويض الأمر إلى الله.

وقد كان الجيلاني متمكنا في الفقه، ومما يدل على تمكنه في الفقه وبراعته فيه ما حكاه عنه ابنه عبد الرزاق، قال: «جاءت فتوى من العجم إلى علماء بغداد لم يتضح لأحد فيها جواب شافٍ، وصورتها: ما يقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث، أنه لابد أن يعبد الله عز وجل عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها، فما يفعل من العبادات؟ قال: فأتي بها إلى والدي فكتب عليها على الفور: يأتي مكة، ويُخْلى له المطاف، ويطوف أسبوعًا وحده وتنحل يمينه، قال: فما بات المستفتي ببغداد».

وقد شهد للجيلاني كثيرون من أهل زمانه والتابعون له، فها هو محيي الدين بن عربي يصفه بأنه «كان عدلا وقطب وقته» وها هو ابن السمعاني يصفه بأنه «إمام الحنابلة وشيخهم في عصره، ديّن خيّر، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة». وها هو الحافظ ابن كثير يقول عنه «كان له سمت حسن، وصمت غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان فيه زهد كثير، وله أحوال صالحة ومكاشفات، ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات، وكان صالحا وورعا».

لكن ابن كثير يأخذ على أتباعه أنهم نسبوا إليه أقوالا مكذوبة، وهو ما يتفق معه الإمام الذهبي إذ يختتم ترجمة الشيخ عبد القادر بقوله: «وفي الجملة الشيخ عبد القادر كبير الشأن، وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه، واللهُ الموعد، وبعض ذلك مكذوب عليه».

ومن هذه الأقوال التي نسبت إلى الشيخ عبد القادر الكثير من القصص والحكايات منها زعمهم أنه قال: إن أزمَّة أهل الزمان على قلبي، وأنا المتصرف في عطائهم ومنعهم، وكذلك قوله: إن قلوب الناس في يدي، إن أردتُ صرفها عني صرفتها، وإن أردتُ صرفتها إليّ. ويعتقد بعض مريدي القادرية المتأخرين أن الرجل كان يمشي في الهواء على رؤوس الأشهاد في مجلسه، ويقول: ما تطلع الشمس حتى تسلم عليَّ.

وهناك قصة يرويها مريدو الطريقة القادرية عن شيخهم تقول: إن اثنين من شيوخ الجيلاني يدعيان صدقة وعبد الله طلبا منه أن يصطحبهما لزيارة شخص يدعي أنه الغوث الأكبر، أو «غوث الزمان الذي لا يخلو منه الزمان».

وفي الطريق تحدث عبد الله وقال: سوف أسأل هذا المدعي سؤالا لن يعرف له جوابا أبدا؟ وتحدث صدقة فقال: أما أنا فسأسأله سؤالا ربما عرف جوابه وربما لا. وهنا قال الجيلاني: أما أنا فسأذهب معكم إليه وأطلب الدعاء منه.

وعندما أصبحوا جميعا داخل الحضرة فإذا بالغوث يظهر أمامهم فجأة من حيث لا يدرون وتوجه نحو عبد الله قائلا: ويحك يا عبد الله، تقول بإنك ستسألني سؤالا لن أعرف له جوابا أبدا؟ إن سؤالك هو كذا وكذا، وجواب سؤالك هو كذا وكذا، وأما أنت فستموت كافرا في بلاد الروم والله أعلم. ثم توجَّه إلى الثاني وقال: أما أنت يا صدقة فقد قلت بإنك ستسألني سؤالا ربما أعلم له جوابا وربما لا.

وسؤالك هو كذا وكذا وجوابه كذا وكذا وستموت فاسقا، والله أعلم.

وأما أنت يا ولدي يا عبد القادر فتعالَ واجلس بجانبي، فلما جلس قال له: سيأتي عليك زمان تقول فيه: قدمي هذه على رقبة كل ولي.

ودار الزمن، فأُرسل عبد الله إلى بلاد الروم موفدا، وهناك افتتن بامرأة رائعة الحسن، لكنها رفضت الزواج به إلا إذا بدَّل دينه إلى دينها وقد فعل عبد الله ذلك ومضت الأيام وأصيب بالفالج فرمته هذه السيدة إلى الطرقات ومات شريدا على الكفر وهو لا يستطيع أن يقول لا إله إلا الله.

أما صدقة فقد تولى رئاسة المعارف والأوقاف في دمشق وابتلي بلعب الميسر والقمار ومات وهو في دور اللهو.

وأما شيخنا عبد القادر فقد أخذه الحال في يوم من الأيام فصاح: قدمي هذه فوق رقبة كل ولي لله. وكان الشيخ أحمد الرفاعي في هذه الأثناء يلقي الدرس على طلابه في البصرة فتوقف عن الكلام، وأحنى رأسه وقال: وعلى رقبتي يا عبد القادر».

ولم يقتصر المنسوب إلى الشيخ عبد القادر على الأقوال والقصص المسرودة، إنما امتد أيضا إلى الشعر. وها هي قصيدة ربما تعبر تعبيرا واضحا عن كل ما اعتقده أتباعه المتأخرون فيه:

فَهَامُوا بِهِ مِنَ سِرِّ سِرِّي وَإِعْلاَنِي ... عَلَى الأَوْلِيَا أَلْقَيْتُ سِرِّي وَبُرْهَانِي

سَكَارَى حَيَارَى مِنْ شُهُودِي وَعِرْفَانِي ... فَأَسْكَرَهُمْ كَأْسِي فَبَاتُوا بِخَمْرَتِي

تَطُوفُ بِي الأَكْوَانُ وَالرَّبُّ سَمَّانِي ... أَنَا كُنْتُ قَبْلَ القَبْلِ قُطْبًا مُبَجَّلاَ

مَقَامًا بِهِ قَدْ جِدِّي لَهُ دَانِي ... خَرَقْتُ جَمِيعَ الْحُجْبِ حَتَّى وَصَلْتُهُ

وَمِنْ خَمْرَةِ التَّوْحِيدِ بِالْكَاسِ أَسْقَانِي ... وَقَدْ كَشَفَ الأَسْتَارَ عَنْ نُورِ وَجْهِهِ

فَلاَحَتْ لِيَ الأَنْوَارُ والرَّبُ أَعْطَانِي ... نَظَرْتُ إِلَى الْمَحْفُوظِ والْعَرْشِ نَظْرَةً

أَنَا بَازُهُمْ وَالكُلُّ يُدْعَى بِغِلْمَانِي ... أَنَا قُطْبُ أَقْطَابِ الْوُجُودِ بِأَسْرِهِ

لغَارَتْ وَرَاحَ الْمَاءُ مِنْ سِرِّ بُرْهَانِي ... فَلَوْ أَنَّنِي أَلْقَيْتُ سِرِّي بِدَجْلَةٍ

لأُخْمِدَتِ النِّيرانُ مِنْ عُظْمِ سُلْطَانِي ... وَلَوْ أَنَّنِي أَلْقَيْتُ سِرِّي إِلَى لَظَىً

لقَامَ بِإِذْنِ اللهِ حَيًّا وَنَادَانِي ... وَلَوْ أَنَّنِي أَلْقَيْتُ سِرِّي لِمَيِّتٍ

سَلوا عَنَيَ القَاصِى سَلوا عَنَيَ الدَّانِي سَلوا عَنَيَ السُّرَى سلوا عَنَيَ المُنَى

وَمَا كَانَ تَحْتَ التَحْتِ وَالإِنْسِ وَالجَانِ سَلُوا عَنِّيَ العَليَا سَلُوا عَنِّيَ الثَّرَى

وَطُوفُوا بِحَانَاتِي وَاسْعُوا لأَرْكَانِي فَيَا مَعْشَرَ الأَقْطَابِ لُمُّوا بِحَضْرَتِي

وتِبْرِي وَيَاقُوتِي وَدُرِّي وَمَرْجَانِي وَغُوصُوا بِحَارِي تَظْفَرُوا بِجَوَاهِرِي

وَفَكَّكْتُ فِي التَّوْرَاةِ رَمْزَةَ عِبْرانَي وَقَفْتُ عَلَى الإِنْجِيلِ حَتَّى شَرَحْتُهُ

بِهِ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَالرَّمْزُ سُرْيَانِي وَحَلَّلتُ رَمْزًا كَانَ عِيسَى يَحُلُّهُ

أَخِي وَرفَيقِي كَانَ مُوسَى بْنِ عِمْرَانِ وَخُضْتُ بِحَارَ الْعِلْمِ مِنْ قَبْلِ نَشْأَتِي

وَجَدِّي رَسُولُ اللهِ فِي الأَصْلِ رَبَّانِي فَمَنْ فِي رِجَالِ اللهِ نَالَ مَكَانَتِي

أُكَنَّى بِمُحْيِي الدِّينِ وَالأَصْلُ جِيلاَنِي أَنَا قَادِرِيُّ الْوَقْتِ عَبْدُ الْقَادِرِ

وهناك قصيدة أخرى تعبر عن هذا التصور في أذهان القادريين عن شيخهم:

طَرَبًا وَفِي الْعَلْيَاءِ بَازٌ أَشْهَبُ أَنَا بُلْبُلُ الأَفْرَاحِ أَمْلأَ دَوْحَهَا

طَوْعًا وَمَهْمَا رُمْتُهُ لاَ يَعْزُبُ أَضْحَتْ جُيُوشُ الحُبِّ تَحْتَ مَشِيئَتِي

أَرْجُو وَلاَ سَوْعُودةً أَتَرَقَّبُ أَصْبَحْتُ لاَ أَمَلًا ولاَ أُمْنِيَّةً

حَتَّى بَلَغْتُ مَكَانَةً لاَ تُوهَبُ مَا زِلْتُ أَرْتَعُ فِي مَيَادِينِ الرِّضَا

نَزْهُو وَنَحْنُ لَهَا الطِّرَازُ المُذْهَبُ أَضْحَى الزَّمَانُ كَحُلَّةٍ مَرْقُومَةٍ

أَبَدًا عَلَى فَلَكِ الْعُلَى لاَ تَغْرُبُ أَفَلَتْ شُمُوسُ الأَوَّلِينَ وَشَمْسُنَا

وفي قصيدة أخرى يقول:

فَأَسْكَرَنِي حَقًّا فَغِبْتُ عَلَى وَجْدِي　　سَقَانِي حَبِيبِي مِنْ شَرَابِ ذَوِي الْمَجْدِ

مِنْبَرِ التَّخْصِيصِ فِي حَضْرَةِ الْمَجْدِ　　وَأَجْلَسَنِي فِي قَابَ قَوْسَيْنِ سَيِّدِي عَلَى

فَغِبْتُ بِهِ عَنْهُمْ وَشَاهَدْتُهُ وَحْدِي　　حَضَرْتُ مَعَ الأَقْطَابِ فِي حَضْرَةِ اللِّقَا

وَفَضْلَةُ كَاسَاتِي بِهَا شَرِبُوا بَعْدِي　　فَمَا شَرِبَ الْعُشَّاقُ إِلاَّ بَقِيَّتِي

مِنَ الْحَضْرَةِ الْعَلْيَاءِ صَافِيَ مَوْرِدِي　　وَلَوْ شَرِبُوا مَا قَدْ شَرِبْتُ وَعَايَنُوا

وَأَمْسَوْا حَيَارَى مِنْ مُصَادَمِةِ الوِرْدِ　　لأَمْسَوْا سُكَارَى قَبْلَ أَنْ يَقْرَبُوا الْمُدَامَ

وَكُلُّ فَتىً يَهْوَى فَذَلِكُمْ عَبْدِي　　أَنَا البَدْرُ فِي الدُّنْيَا وَغَيْرِي كَوَاكِبٌ

وَعِلْمِي حَوَى مَا كَانَ قَبْلِي وَمَا بَعْدِي　　وَبَحْرِي مُحِيطٌ بِالبِحَارِ بِأَسْرِهَا

كَزَجْرِ سَحَابِ الأُفْقِ مِنْ مَلَكِ الرَّعْدِ　　وَسِرِّي لَهُ الأَسْرَارُ تُزْجَرُ فِي الدُّجَا

لَكَ الأَمْنُ فِي الدُّنْيَا لَكَ الأَمْنُ فِي غَدِ　　فَيَا مَادِحِي قُلْ مَا تَشَاءُ وَلاَ تَخَفْ

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي معتذرًا لما نسب إلى الشيخ عبد القادر: «ومن ساق الشيوخ المتأخرين مساق الصدر الأول، وطالبهم بطرائقهم، وأراد منهم ما كان عليه الحسن البصري وأصحابه مثلًا من العلم العظيم، والعمل العظيم، والورع العظيم، والزهد العظيم، مع كمال الخوف والخشية، وإظهار الذل والحزن والانكسار، والازدراء على النفس، وكتمان الأحوال والمعارف والمحبة والشوق ونحو ذلك، فلا ريب أنه يزدري المتأخرين، ويمقتهم، ويهضم حقوقهم، فالأولى تنزيل الناس منازلهم، وتوفيتهم حقوقهم، ومعرفة مقاديرهم، وإقامة معاذيرهم، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا».

وقد برَّأ ابن تيمية الجيلاني مما نُسب إليه، وسرد في أحد كتبه ما يدل على هذا حين روى قصة عن الجيلاني يقول فيها: «رأيت عرشًا بين السماء والأرض، فناداني صوت قال: يا عبد القادر أنا ربك قد أسقطت عنك الفرائض، وأبحت لك المحارم كلها، أسقطت عنك جميع الواجبات، قال: فقلت له: اخسأ يا عدو الله، فتمزق ذلك العرش، وذلك النور، وقال: نجوت مني بحلمك وعلمك يا عبد القادر وقد فتنت بهذه الفعلة سبعين صديقا أو كما قال. قيل له: كيف عرفت يا عبد القادر أنه شيطان. قال: عرفت بقوله: أسقطت عنك الواجبات، وأبحت لك المحرمات، وعرفت أن الواجبات لا تسقط عن أحد إلا من فقد عقله، وقال: إنه لم يستطع أن يقول: أنا الله، بل قال: أنا ربك».

وقد روى ابنه موسى هذه الواقعة بطريقة أخرى قال فيها: «سمعتُ والدي يقول: خرجتُ في بعض سياحاتي إلى البرية، ومكثت أيامًا لا أجد ماءً، فاشتد بي العطش، فأظلتني سحابة نزل عليَّ منها شيء يشبه الندى، فترويت منه، ثم رأيت نورًا أضاء به الأفق، وبدت لي صورة، ونوديت منها: يا عبد القادر أنا ربك، وقد أحللت لك المحرمات، أو قال: ما حرمتُ على غيرك، فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اخسأ يا لعين، فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني وقال: يا عبد القادر نجوتَ مني بعلمك بحكم ربك وفقهك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق، فقلتُ: لربي الفضل والمنة، قال: فقيل له: كيف علمتَ أنه شيطان؟ قال: بقوله: وقد أحللتُ لك المحرمات».

ويعلق ابن تيمية: «وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون من القدماء، مثل الجنيد بن محمد وأتباعه، ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله فهؤلاء من أعظم الناس لزوما للأمر والنهي، وتوصية باتباع ذلك، وتحذيرا من المشي مع القدر كما مشى أصحابهم أولئك... والشيخ عبد القادر كلامه كله يدور على اتباع المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور، ولا يثبت طريقا تخالف ذلك أصلا».

وهناك قصائد عديدة منسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني منها تلك التي ينشد فيها:

وَنَادَمَنِي صَحْوِي بِفَتْحِ الْبَصِيرة	**لَما صَفَا قَلْبي وَطَابَتْ سَرِيرَتِي**
وَقَدْ مَنَّ بِالتَّصْرِيفِ في كُلِّ حَالَةِ	**شَهِدْتُ بِأَنَّ الله مَوْلَى الْوِلاَيَةِ**
فَأَسْكَرَنِي حَقًا فَهِمْتُ بِسَكْرتِي	**سَقَانِي إِلهِي مِنْ كؤوس شَرَابِهِ**

كما ينشد في قصيدة أخرى منسوبة إليه:

إِلاّ وَلِي فِيهِ اْلأَلَذُّ الأَطْيَبُ	**مَا في الصَبابَةِ مَنْهَلٌ مُسْتعْذَب**
إِلاَّ وَمَنْزلَتِي أَعَزُّ وَأَقْرَبُ	**أَوْ في الْوِصَالِ مَكَانَةٌ مَخْصُوصَةٌ**
فَحَلَتْ مَنَاهِلُهَا وَطَابَ الْمَشْرَبُ	**وَهَبَتْ لِيَ الأَيَّام رَوْنَقَ صَفْوِهَا**
لاَ يَهْتَدي فِيهَا اللَّبِيبُ فَيَخْطُبُ	**وَغَدَوْتُ مَخْطُوبًا لِكُلِّ كَرِيمةٍ**
رَيْبَ الزَّمَانِ وَلاَ يَرى مَا يَرْهَبُ	**أَنَا مِنْ رِجَالٍ لاَ يَخَافُ جَليسُهُمْ**
عُلْوِيَّةٌ وَبِكُلِّ جَيْشٍ مَوْكِبُ	**قَوْمٌ لَهُمْ في كُلِّ مَجْدٍ رُتْبَةٌ**

عاش الشيخ عبد القادر الجيلاني واحدا وتسعين عاما، وتوفي سنة 561هـ، ودفن بمدرسة بغداد، التي ظل طيلة حياته معلما فيها. ويقال إن آخر ما خرج من لسانه أوصى به ولده قائلا: «لا تخف أحدًا ولا ترجه، وأوكل الحوائج كلها إلى الله، واطلبها منه، ولا تثق بأحدٍ سوى الله عز وجل، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه. التوحيد، وجماع الكل التوحيد».

عبد الكريم الجيلي

عفيف الدين الباحث عن

«الإنسان الكامل»

شاعر وفيلسوف صوفي، لا يقل في شعره عن ابن الفارض، وتقترب فلسفته في «وحدة الوجود» من الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي والإشراقي العميق شهاب الدين السهروردي، يميل في كتاباته إلى الغموض والرمز، منحازا إلى الإشارة قبل العبارة، والتلويح قبل التصريح، ومولعا بتقديم رؤيته الفلسفية في أبيات شعرية، مثلما تنبئنا قصيدته المعروفة «النادرات العينية». ومثل كتاباته الفلسفية يتسم شعره بالغموض مع رهافته، حيث يميل إلى الصور المفتعلة والتراكيب المعقدة، الغارقة في الاستعارة والتشبيه. ورغم مناداته بالعودة الدائمة إلى القرآن والسنة لأنهما الأصل والأساس لم يسلم الجيلي من تجريح خصومه، الذين ربما أساءوا فهم ما كتب، أو تعمدوا القدح فيه، واتهموه بأنه من المنادين بالحلول ووحدة والوجود، أو ربما لم يرق لهم ما طرحه من أفكار رمزية، واعتبروها تجديفا، أو خروجا على ما يرونه هم «الطريق المستقيم».

هو عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي، يعود نسبه إلى الصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني. ولد ببغداد سنة 767هـ، ولقب بـ «عفيف الدين» و«قطب الدين»، وقد سار على درب التصوف هاربا من الصراع السياسي الضاري، والسباق المتوحش على منافع الدنيا وملذاتها، في ظل حكم التركمان. وقد اضطرته الظروف إلى أن يهاجر من بلد إلى آخر، وهو لا يجد ما يخفف من آلام نفسه، حتى استقر به المقام عند باب الشيخ إسماعيل بن الجبرتي في مكة المكرمة سنة 790هـ، فوجد لديه ما يريد، واتبع خطاه، وحين عاد شيخه إلى مسقط رأسه، وهي بلدة زبيد باليمن، لم يصبر الجيلي على فراقه، فشد الرحال وراءه، وجلس إليه منصتا، حتى تعلم وتربى على النحو الذي أراد.

وفي أسفاره التي شملت الهند وبلاد البراهمة طالع الجيلي فلسفات شرقية، لاسيما تلك التي تتحدث عن «الكمال الإنساني» وتأثر بها، وأعاد إنتاجها من منظور إسلامي أو قام بغرسها في المعرفة الإسلامية، فرآها في ضوء النص القرآني والصوفي والأدبي، ولهذا نجد آثار تلك الفلسفات إلى جانب المعارف الإغريقية بتصوراتها ومصطلحاتها منعكسة في كتب الجيلي أو في مشروعه الذي ينطلق من أن المعرفة تمشي على عكازين، الأول هو العلم الضروري لخواص الناس وليس لعوامهم، والثاني هو العلوم اللدنية التي تقوم على الإلهام والأذواق وما ينجم عن الإيمان العميق بالله سبحانه وتعالى. وقد أتقن الجيلي اللغة الفارسيّة، حين حط به الرحال في بلاد فارس، وبها ألف كتابه الصغير «جنّة المعارف وغاية المريد والعارف».

وهناك من يرى أن تأثر الجيلي بهذه الفلسفات الشرقية أو الأذواق والمواجيد الصوفية لا تعني أنه كان يجنح بعيدا عما يؤمن به المسلمون عموما من أن أساس الإسلام وأصله الثابت هو القرآن الكريم والسنة، حيث يقول: «ثم ألتمس من الناظر في هذا الكتاب بعد أن أعلمه أني ما وضعت شيئًا في هذا الكتاب إلا وهو مؤيد بكتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه إذا لاح له شيء في كلامي بخلاف الكتاب والسنة فليعلم أن ذلك من حيث مفهومه لا من حيث مرادي الذي وضعت الكلام لأجله، فليتوقف عن العمل به مع التسليم إلى أن يفتح الله تعالى عليه بمعرفته، ويحصل له شاهد ذلك من كتاب الله تعالى أو سنة نبيه. وفائدة التسليم هنا وترك الإنكار أن لا يحرم الوصول إلى معرفة ذلك، فإن من أنكر شيئًا من علمنا هذا حرم الوصول إليه ما دام منكرًا، ولا سبيل إلى غير ذلك، بل ويخشى عليه حرمان الوصول إلى ذلك مطلقًا بالإنكار أول وهلة، ولا طريق له إلا الإيمان والتسليم. واعلم أن كل علم لا يؤيده الكتاب والسنة فهو ضلالة، لا لأجل ما لا تجد أنت له ما يؤيده، فقد يكون العلم في نفسه مؤيدًا بالكتاب والسنة، ولكن قلة استعدادك منعتك من فهمه فلن تستطيع أن تتناوله بهمتك من محله فتظن أنه غير مؤيد بالكتاب والسنة، فالطريق في هذا التسليم وعدم العمل به من غير إنكار إلى أن يأخذ الله بيدك».

لكن هناك من يرى أن هذا محض ادعاء، ويقولون إن الجيلي «لم يضع في كتابه شيئًا مطلقًا وافق الكتاب والسنة، بل جمع فيه من الكفر والزندقة أعظم من كل كفر الأولين والآخرين، كيف لا وقد جعل كل من عبد شيئًا في الأرض فما عبد إلا الله. بل زعم أنه ليس في الوجود إلا الله، الذي خلق

الوجود من نفسه لنفسه فليس هناك إلا هو فهو الرب والعبد، والشيطان والراهب، والسماء والأرض، والظلمات والنور، والحمل الوديع والذئب الكاسر».

وفي نظرة أكثر عمقا، يجب الإقرار بأن الجيلي لم يقتصر على منهل واحد لمعارفه، فعلاوة على مطالعته للفلسفات الشرقية احتك في رحلاته بمدرستين دينيتين أساسيتين في العالم الإسلامي، ففي مكة المكرمة التي وصلها أواخر سنة 799هـ، التقى بعض كبار المتصوفة، وأدار معهم حوارا عميقا حول مسائل عديدة، كما جلس إلى علماء الأزهر الشريف حين جاء إلى القاهرة سنة 803هـ- 1302م، وتبادل معهم النقاش في أمور الدين، وبها أنجز كتابه في علوم التصوّف المسمى «غنية أرباب السماع»، ثم غادرها متوجها إلى غزة.

وفي العشرين من عمره التقى الجيلي الفقيه جمال الدِين المكدش (ت 790هـ- 1288م) وتلقى عنه العلم، وبعده جلس إلى فقيه آخر وشاعر هو أبو محمّد الحكاك، لكن يبقى الجبرتي، شيخ الطريقة القادرية، هو الأكثر تأثيرا في الجيلي، حيث حببه في الذكر والسماع والمجاهدات الروحية. وعقب وفاة الجبرتي تولى مشيخة الطريقة خليفته أحمد بن أبي الرداد، فلازمه الجيلي سنوات، وتأثر بطريقته الفلسفية في التصوف.

وطيلة رحلته العلمية وضع الجيلي ما يزيد على ثلاثين مؤلَّفا، في مختلف المواضيع الصوفيَّة والفلسفيَّة. منها ما رأى النور وتداوله الناس، ومنها ما لا يزال مخطوطًا مركونا على أرفف المكتبات. ومن أهم هذه الكتب: «المناظرات الإلهية» و«الكهف والرقيم» و«جنة المعارف وغاية المريد والعارف» و«القاموس الأقدم والناموس الأعظم» و«القصيدة العينية» و«قطب العجائب وفلك الغرائب» و«مراتب الوجود» و«الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية» و«لوامع البرق الموهن» و«شرح الفتوحات المكية وفتح الأبواب المغلقات من العلوم اللدنية» و«كتاب الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل».

ويصف الجيلي تجربته الصوفية في ثلاثة أبيات من الشعر، تبين أنه من كبار العاشقين الهائمين الذائبين في ربهم، وأن له تجربة في هذا الصنف من الهوى يعجز عن قراءتها وفهم أسرارها حتى أهل الاختصاص، فها هو ينشد:

وأنا وربك ذو العجائب **لي في الغرام عجائب**

فلك تدور به الغرائب **قطبي يدور على رحى**

رمزي الذي في الهوى **أعيا قراءة كل كاتب**

ولا يكتفي الجيلي بالشعر تعبيرا عن فلسفته، بل يذهب في مشاهداته إلى رسم لوحات فنية بديعة، تعكس ما يزعم أنه قد رآه بعينه وعايشه بنفسه، وهي قطع أشبه بما يبدعه كتاب «الواقعية السحرية»، وما تحفل به الملاحم والسير والأساطير الشعبية. فها هو يقول عما يسميها مشاهداته في السماء: «ثم إني رأيت ملائكة هذه السماء مخلوقة على سائر أنواع الحيوانات، فمنهم من خلقه الله تعالى على هيئة الطائر وله أجنحة لا تتحصر للحاصر، وعبادة هذا النوع خدمة الأسرار ورفعها من حضيض الظلمة إلى عالم الأنوار، ومنهم من خلقه الله تعالى على هيئة الخيول المسومة، وعبادة هذه

الطائفة المكرمة رفع القلوب من سجن الشهادة إلى فضاء الغيوب، ومنهم من خلقه الله تعالى على هيئة النجائب وفي صورة الركائب، وعبادة هذا النوع رفع النفوس إلى عالم المعاني من عالم المحسوس، ومنهم من خلقه الله تعالى على هيئة البغال والحمير!! وعبادة هذا النوع رفع الحقير وجبر الكسير والعبور من القليل إلى الكثير، ومنهم من خلقه الله تعالى على صورة الإنسان وعبادة هؤلاء حفظ قواعد الأديان، ومنهم من خلق على صفة بسائط الجواهر والأعراض وعبادة هؤلاء إيصال الصحة إلى الأجسام المراض، ومنهم من خلق على أنواع الحبوب والمياه وسائر المأكولات والمشروبات، وعبادة هؤلاء إيصال الأرزاق إلى مرزوقها من سائر المخلوقات، ثم إني رأيت في هذه السماء ملائكة مخلوقة بحكم الاختلاط مزجًا، فالنصف من نار والنصف من ماء عقد ثلجًا، فلا الماء يفعل في إطفاء النار ولا النار تغير الماء عن ذلك القرار».

ويعطي الجيلي القلب مكانه، ويربط الإيمان به، ويراه الأصل، بينما العالم كله الفرع، ويرى أن معرفة الإيمان مطلقة؛ لأنها متعلقة بالأسماء والصفات، وأن معرفة العقل متعلقة بالآثار، ويقول إن القلب يسع ثلاثة أشياء، أولها: وسع العلم، الذي يبلغ نهايته بمعرفة الله؛ إذ لا شيء في الوجود يعقل آثار الحق ويعرف ما يستحقه أكثر من القلب. وثانيها: وسع المشاهدة، حيث يمتلك القلب الإلهام الذي يمكنه من الإطلاع على محاسن الله، فيذوق لذّة أسمائه وصفاته بعد أن يشهدها. وثالثها وسع الخلافة، وتعني التحقق بأسماء الله وصفاته، حتى أنه يرى ذاته ذاته، فتكون هوية الحق عين هوية العبد، فينطلق في الوجود متصرفا فيه تصرف الوارث فيما ورثه.

وتدور فلسفة الجيلي في جزء منها حول مذهب وحدة الوجود، لكنه يطرح هذا بطريقة يمتزج فيها التصوف بالعلم، والعقل بالحدس، والبرهان بالعرفان، لينطلق من أنه لا وجود في الكون لغير الله، والإنسان جزء منه أو هو صورة من صور الله. والله عين الموجودات، وكلّ ما يفعله الإنسان هو فعل الله سبحانه وتعالى.

وكان للجيلي نظرة إلى الأديان غير السماوية تستحق النظر والتدبر؛ إذ كان يرى أن أتباع هذه الديانات يعبدون الله أيضا، لكن على طريقتهم الخاصة، ويطلقون على الله أسماءً وصفات تقترب من تلك التي وردتفي الكتب السماوية، بل تتطابق معها أحيانا، من حيث الرحمة والجلال والقدرة.

وفي حوار دار بينه وبين أهل الصوفية في مكة حول اسم الله الأعظم، الذي لا يعرفه إلاّ أولياء الله وقد اتّفقوا أنّ اسم الله الأعظم «هو». فجادلهم الجيلي بقوله «هو» اسم إشارة إلى الغائب. أما الله فهو حاضر في كل ما حوله. وفي هذا ما يدل على أن الجيلي وصل إلى معنى أعمق في إدراك كنه الله، الخالق الباري، من ذلك الذي كان يفهمه مشايخه.

ويبقى من أهم ما تركه الجيلي هو كلامه عن «الإنسان الكامل» في كتاب حمل الاسم ذاته، ألفه في ذروة نضوجه الفكري، وبعد اكتمال تجربته الروحية، فحوى أسرارا من العلم اللدني، وصار سبب ذيوع صيت صاحبه في الأوساط الصوفية، لاسيما أنه تناول مقامات الأولياء أو أهل الله وخاصته، ثم شرح مقام الإنسان الكامل الذي هو في نظره «القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين»، ويرى أن الرسول الكريم نموذجا عظيما للكمال الإنساني، فهو الإنسان الكامل بالاتفاق وليس لأحد من الكمال ماله من الخلق والأخلاق، وأن الأولياء هم النماذج البشرية الأقرب إليه. ويمدح الجيلي كمال الرسول في قصيدة طويلة تنتهي بالأبيات التالية:

الله حسبي ما لأحمد منتهى

وبمدحه قد جاءنا فرقانه

حاشاه لم تدرك لأحمد غاية

إذ كل غايات النهى بدآنه

صلى عليه الله مهما زمزمت

كلم على معنى يريح بيانه

والآل والأصحاب والأنساب وال-

أقطاب قوم في العلا إخوانه

ثم يستفيض في شرح خصائص هذا الصنف من البشر فيقول: «الإنسان الكامل مقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه، فيقابل الحقائق العلوية بلطافته، ويقابل الحقائق السفلية بكثافته، فأول ما يبدو في مقابلته للحقائق الخلقية يقابل العرش بقلبه، قال ﷺ: «قلب المؤمن عرش الله»، ويقابل الكرسي بآنيته، ويقابل سدرة المنتهى بمقامه، ويقابل القلم الأعلى بعقله، ويقابل اللوح المحفوظ بنفسه، ويقابل العناصر بطبعه، ويقابل الهيولي بقابليته، ويقابل البهاء بحيز هيكله، ويقابل الفلك الأطلس برأيه، ويقابل الفلك المكركب بمدركته، ويقابل السماء السابعة بهمته، ويقابل السماء السادسة بوهمه، ويقابل السماء الخامسة بهمه، ويقابل السماء الرابعة بفهمه، ويقابل السماء الثالثة بخياله، ويقابل السماء الثانية بفكره، ويقابل السماء الأولى بحافظته... ويقابل القمر بالقوى السامعة، ثم يقابل فلك النار بحرارته، ويقابل فلك الماء ببرودته، ويقابل فلك الهواء برطوبته، ويقابل فلك التراب بيبوسته، ثم يقابل الملائكة بخواطره، ويقابل الجن والشياطين بوسواسه، ويقابل البهائم بحيوانيته، ويقابل الأسد بالقوى الباطشة، ويقابل الثعلب بالقوى الماكرة، ويقابل الذئب بالقوى الخادعة، ويقابل الفرد بالقوى الحاسدة، ويقابل الفأر بالقوى الحريصة، وقس على ذلك باقي قواه، ثم إنه يقابل الريح بالمادة الدموية، ويقابل التراب بالمادة السوداوية، ثم يقابل السبعة الأبحر بريقه ومخاطه وعرقه ونقاء أذنه ودمعه وبوله... ويقابل الجوهر بهويته وهي ذاته، ويقابل العرض بوصفه، ثم يقابل الجمادات بأنيابه، فإن الناب لا يلتحم بشيء، ثم يقابل الناب بشعره وظفره، ويقابل الحيوان بشهوانيته، ويقابل مثله من الآدميين ببشريته وصورته، ثم يقابل أجناس الناس، فيقابل الملك بروحه».

وفي كتابه «عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية» يمدح د. يوسف زيدان نظرية «الإنسان الكامل» تلك، ويرى أن الرجل نجح في أن يعرضها بشمول وبساطة رغم عمقها وتجريدها. ويرى أن هذا الإنسان هو الولي، عند الجيلي، وهو شخص داوم على ممارسة رياضة روحية ومجاهدة نفسية حتى قربه الله إليه واجتباه، وتجلى عليه بذاته. وحتى يصل الإنسان إلى هذا المقام الرفيع فعليه أن يمر بثلاث مراحل، أو بمعنى أدق برازخ، الأول هو التحقق بالأسماء والصفات الإلهية، فينزع عن نفسه الخصال السيئة كالبخل والجبن ويستبدلها بخصال حميدة كالكرم والشجاعة. والثاني هو إفاضة الحقائق الإلهية على الإنسان، وهي جليلة لا تكاد توصف، والثالث هو بلوغ مقام «كن» الذي يعني الإتيان بأمور تبدو عجيبة على سائر الخلق، وخرق العادات التي ألفها البشر، وهي ما تسمى بالكرامات.

وبعد رحلات وأسفار طويلة استقر المقام بالجيلي في زبيدة باليمن، وفيها لقي ربه. واختلف الناس في تحديد تاريخ وفاته، فأقر البغدادي في «الهداية» أنه توفي سنة 828هـ، فيما يقول حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» إن تاريخ الوفاة هو 805هـ. وبينما يؤكد البعض أن مدفنه كان في اليمن، يقول آخرون إن مدفنه في بغداد، وله فيها قبر يزار.

أجلُّ أهل زمنه وأعلاهم تحليًا بالخصال الحميدة. حرص على أن يقطف كل ما في وسعه من مختلف بساتين المعرفة. لم يجنح به زهده إلى ما يخالف شرع ربه. تجاذبه الجميع، فضمه السلفيون إلى طليعة «أهل السنة والجماعة» لفقهه وروايته الحديث النبوي، وجذبه المتصوفة إلى ساحتهم متمثلين بزهده وورعه وكراماته، فعدّوه أحد رعيلهم الأول. أما هو فقد قدم نموذجًا للمتصوف العامل، الذي لا تكفيه الحقيقة عن الشريعة، ولا تمنعه الشريعة من الحقيقة، ولا يسقطه أحواله في البدع.

هو عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن المروزي مولى بني حنظلة. تنتسب أمه إلى خوارزم، وأبوه إلى تركيا. ولد سنة 118هـ بمرو في خراسان، وحفظ القرآن، ودرس الفقه والحديث، وألَمَّ باللغة العربية، بلاغة ونحوًا وصرفًا. ولما بلغ الثالثة والعشرين رحل إلى بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، واستقر فيها، وغادرها مرات عدة إلى الحجاز.

تداول جماعة من معاصريه أمره وصفاته وخصاله الحميدة، فقالوا إنه: «جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة والزهد والورع والإنصاف وقيام الليل والعبادة والحج والغزوة والفروسية والشجاعة والشدة في بدنه وترك الكلام فيما لا يعنيه، وقلة الخلاف على أصحابه» ولهذا قال عنه ابن حبان: «كان فيه خصال لم تجتمع في أحد من أهل العلم في زمان في الأرض كلها»، وقال عنه إسماعيل بن عباس: «ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها فيه»، وقال عطاء بن مسلم: «ما رأيت مثله، ولا ترى مثله»، وقال عنه الجليلي في الإرشاد: «له من الكرامات ما لا يحصى.. إنه من الأبدال».

وقال الخطيب البغدادي: «كان ابن المبارك من الربانيين في العلم الموصوفين بالحفظ ومن المذكورين بالزهد»، وقال عبد الرحمن بن المهدي: «ما رأيت أعلم بالحديث من سفيان الثوري، ولا أحسن عقلًا من مالك، ولا أقشف من شعبة، ولا أنصح لهذه الأمة من عبد الله بن المبارك» وقال الأسود بن سالم : «كان ابن المبارك إمامًا يقتدى به، وكان من أثبت الناس في السُّنة، إذا رأيت رجلا يغمز ابن المبارك بشيء فاتهمه على الإسلام»

ومدحه الشاعر عمار بن الحسن فقال:

إذا سار عبد الله من مرو ليلة

فقد سار منها نورها وجمالها

إذا ذكر الأخيار في كل بلدة

فهم أنجم فيها وأنت هلالها

واتفقت جميع المصادر على أنه كان لا يكف عن طلب العلم، وأنه كان نادر المثال في هذا السبيل؛ إذ رحل إلى جميع الأقطار التي كان مشهودًا لها بالنشاط العلمي في عصره، وقد أتيح له أن يأخذ العلم عن بعض أعلامه مثل الإمام مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وأبي حنيفة النعمان، وهنا قال عنه عبد الرحمن بن أبي حاتم: «كان ابن المبارك ربع الدنيا بالرحلة في طلب الحديث، لم يدع اليمن ولا مصر ولا الشام ولا الجزيرة والبصرة ولا الكوفة» وقد شهد له أحمد بن حنبل بذلك أيضًا، وأثنى عليه، إذ قال: «لم يكن أحد في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه».

وبلغ ولع ابن المبارك بتدوين العلم مبلغًا جعل الناس يعجبون منه، فقد سأله أحدهم مرة: «كم تكتب؟»، فأجاب: «لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أكتبها بعد!»، وعابه قومه على كثرة طلبه للحديث فقالوا: «إلى متى تسمع؟»، فقال: «إلى الممات».

وقد كان الزهد القيمة الأسمى في مسلك ابن المبارك واعتقاده، فقد آمن بأن الزهاد هم الملوك الحقيقيون، وأن «سلطان الزهد أعظم من سلطان الرعية؛ لأن سلطان الرعية لا يجمع الناس إلا

بالعصا، والزاهد ينفر من الناس فيتبعوه»، والزهد عنده يجب أن يكون عميقًا ودقيقًا، متجسدًا في الأعمال لا في الأقوال، فقد كان ينصح من يتبعه: «دعواك الزهد لنفسك يخرجك من الزهد»، وكان يردد دومًا: «لأن أرد درهمًا من شبهة أحب إليَّ من أن أتصدق بستمئة ألف». وتتجلى دقة حساب النفس على كل صغيرة، وإمالتها على كل ما يفضي إلى الزهد والورع، في قوله أيضًا: «لو أن رجلًا اتقى مئة شيء، ولم يتورع عن شيء واحد، لم يكن ورعًا، ومن كان فيه خلة من الجهل، كان من الجاهلين» وكان يقول كذلك: «كيف يدعي رجل أنه أكثر علمًا، وهو أقل خوفًا وزهدًا؟».

وشهد له الناس بهذه العناية وهذا الحرص الشديدين على تجنب أي قدر من حرام حتى ولو كان تافهًا أو صغيرًا. وأوضح الحسن: «رأيت في منزل ابن المبارك حمامًا طائرًا، فقال لي: كنا ننتفع بفراخ هذه الحمام، فليس ننتفع بها اليوم. فسألته: ولم ذلك؟ فقال :اختلطت بها حمام غيرها، فتزاوجت بها، فنحن نكره أن ننتفع بشيء من فراخها».

وكان ابن المبارك على صلاحه وورعه متواضعًا إلى أقصى حد، وإلى درجة أنه كان ينكر على نفسه الورع والتقوى، بل كان يقول: «أحب الصالحين ولست منهم، وأبغض الطالحين، وأنا أشر منهم»، ثم ينشد:

الصمت أزين بالفتى

من منطق في غير حينه

والصدق أجمل بالفتى

في القول عندي من يمينه

وعلى الفتى بوقاره

سمة تلوح على جبينه

فمن الذي يخفى عليك

إذا نظرت إلى قرينه

رُبَّ امرئ متيقن

غلب الشقاء على يقينه

فأزاله عن رأيه

فباع دنياه بدينه

أحد مظاهر الزهد عند ابن المبارك عدم التكالب على الدنيا التي كان يقول عنها: «الدنيا سجن المؤمن، وأعظم أعماله في السجن الصبر وكظم الغيظ، وليس للمؤمن في الدنيا دولة، وإنما دولته في الآخرة»، وكان كل ما يطلبه في حياته هو ما يقيم أوده، يومًا بيوم، فلديه «ليس من الدنيا إلا قوت اليوم فقط». كذلك يتجلى زهده في الصمت والعزلة، فقد سئل يومًا عن قول لقمان لابنه: «إن كان الكلام من فضة فإن الصمت من ذهب»، فقال: «معناه لو كان الكلام بطاعة الله من فضة، فإن الصمت عن معصية الله من ذهب»، وكان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته فسأله أحدهم: «ألا تستوحش؟»، فأجاب: «كيف أستوحش وأنا مع النبي وأصحابه؟»، كذلك كان يعتزل مجالس المنكر واغتياب الناس فقيل له: «إذا صليت معنا لِمَ لا تجلس معنا؟»، فردّ: «أذهب مع الصحابة والتابعين» قيل له: «ومن أين الصحابة والتابعين؟»، فأجاب: «أذهب أنظر في علمي فأدرك آثارهم وأعمالهم، فما أصنع معكم وأنتم تغتابون الناس».

وكان يقول: «أهل الدينا خرجوا منها قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها» فسأله الناس: «وما أطيب ما فيها؟»، فأجاب: «المعرفة بالله عز وجل».

وكان من حوله يلاحظون أنه كلما ازداد علمًا، ازداد خوفًا من الله وزهدًا في الدنيا، وكان إذا قرأ أحد كتب الوعظ يُذكِّره بالآخرة وبالجنة والنار، وبالوقوف بين يدي الله للحساب، بكى بكاءً شديدًا، واقشعر جسمه، وارتعدت فرائصه، وسرى في نفسه حزن، ولا يكاد يتكلم أحد معه.

ولم يكن زهد ابن المبارك وتصوفه يجافي مذهب «أهل السنة والجماعة»، بل على النقيض من ذلك كانت له مواقف صارمة من أهل البدع والأهواء، وهو موقف المؤمن الواعي لما يدور حوله وما يحاك من الدس والتشويه والتحريف لعقيدة المسلمين؛ لذلك نجده يوصي أحد تلامذته فيقول: «ليكن مجلسك مع المساكين وإياك أن تجلس مع صاحب بدعة»، وثمة مواقف عدة تدل على هذا؛ إذ قيل إن رجلًا سأله: «قد خفت الله تعالى من كثرة ما أدعو على الجهمية (وهم أهل إحدى الفرق)، فأجابه: لا تخف فإنهم يزعمون أن إلهك الذي في السماء ليس بشيء». وكان ابن المبارك يؤمن إيمانًا جازمًا بضرورة تطابق الفعل مع القول، فها هو يقول: «الإيمان قول وعمل» كذلك كان يتبرأ من عقائد الرافضة والخوارج والجهمية والمعتزلة والقدرية والفلاسفة، ويبين فساد مقالاتهم ومذاهبهم، وطالما صرّح ببطلان هذه التصورات. وعلى النقيض من ذلك لم يغفل منهج أهل السنة والجماعة في الإيمان بالله بأسمائه وصفاته التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ، والوقوف عند نصوص الكتاب والسنة والتسليم لهما، وعدم تقديم العقل عليهما أو تحكيمه فيهما، وفي احترام الصحابة والترضي عنهم وعدم الخوض في ما جرى بينهم، وكان يحذر من الرواية عمن يسبهم رضي الله عنهم. وفي هذا الشأن روى الإمام مسلم عن علي بن شقيق: «سمعت ابن المبارك يقول على رؤوس الناس: دعوا حديث عمرو بن ثابت فإنه كان يسب السلف».

وإحدى أشهر القصص المرتبطة بعبد الله بن المبارك هي التي حاور فيها من وصفت بـ «المرأة القرآنية»، فقد نقل الرواة عنه قوله: «خرجت حاجًّا إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر المصطفى () فيما أنا في بعض الطريق، فإذا بسواد عليها، كان لعجوز عليها درع وخمار من صوف فقلت لها: السلام عليكِ ورحمة الله وبركاته، فقالت: سلام قولًا من رب رحيم. فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ فقالت: من يضلل الله فلا هادي له. فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها: أين تريدين؟ فقالت: سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس فقلت لها: كم لك في هذا الموضع؟ فقالت: ثلاث ليال سويًّا. فقلت لها: ما أرى معك طعامًا تأكلين منه؟ فقالت: هو يطعمني ويسقيني. فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟ فقالت: فإن لم تجدوا ماءً فتيمموا صعيدًا طيبًا. فقلت لها: إن معي طعامًا فهل لك في الأكل منه؟ فقالت: ثم أتموا الصيام إلى الليل، فقلت لها: ليس هذا شهر صيام رمضان. فقالت: ومن تطوّع خيرًا فإن الله شاكر عليم، فقلت: قد أبيح لنا الإفطار في السفر، فقالت: وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون. فقلت: لم لا تكلميني مثل ما أكلمك؟ فقالت: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، فقلت: فمن أين الناس أنت؟ فقالت: ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولًا. فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حل، فقالت: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم. فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة؟ فقالت: وما تفعلوا من خير يعلمه الله. قال: فأنختها، فقالت: قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم. فغضضت بصري عنها، لكن لما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها، فقالت: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم، فقلت لها اصبري حتى أعقلها، فقالت: ففهمناها سليمان. فعقلت الناقة وقلت لها: اركبي، فلما ركبت قالت: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون. قال: فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت: أقصد في مشيك واغضض من صوتك. فجعلت أمشي رويدًا رويدًا وأترنم بالشعر، فقالت: فاقرؤوا ما تيسر من القرآن، فقلت لها: لقد أوتيت خيرا، فقالت: وما يذكر إلا أولو الألباب. فلما مشيت بها قلت

لها: ألك زوج؟ فقالت: يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوؤكم. فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها: هذه القافلة فما لك فيها؟ فقالت: المال والبنون زينة الحياة الدنيا. فعلمت أن لها أولادًا، فقلت: وما شأنهم في الحج؟ فقالت: وعلامات وبالنجم هم يهتدون. فعلمت أنهم أدلاء الركاب فقصدت بها الخيام وقلت: هذه الخيام فما لك فيها؟ فقالت: واتخذ الله إبراهيم خليلًا، وكلم الله موسى تكليمًا، يا يحيى خذ الكتاب بقوة. فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيي فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلما استقر منهم الجلوس قالت: فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعامًا فليأتكم برزق منه وليتلطف. فمضى أحدهم فاشترى طعامًا فقدمه بين يدي، فقالت: كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية. قلت: الآن طعامكم عليَّ حرام حتى تخبروني بأمرها، فقالوا: هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن، فقلت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

كان ابن المبارك مجاهدًا في سبيل الله بنفسه وماله ومعرفته؛ إذ رابط في الثغور طويلًا، وكان يحج عامًا ويغزو عامًا، وما نزل بلدًا في رحلته لطلب العلم ثم سمع منادي الجهاد إلا تجهز وخرج. وطالما دعا الناس إلى نصرة دين الله، حتى تصبح كلمة الله هي العليا في الأرض. وكان يعيب على النساك والزهاد قعودهم عن الجهاد، وسوء فهمهم لمعنى العبادة، فقدم بذلك نموذجًا يُحتذى في «التصوف العملي» وها هو يقول للمتصوفة القاعدين:

أيها الناسك الذي لبس الصوف

وأضحى يُعد في العباد

الزم الثغر والتعبد فيه

ليس بغداد مسكن الزهاد

إن بغداد للملوك مَحَل

مناخ للقارئ الصياد

وذات مرة نظم ابن المبارك قصيدة وأودعها رسالة إلى الفضيل بن عياض بينما كان يرابط في ثغر من الثغور، قال له فيها:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا

لعلمت أنك في العبادة تلعبُ

من كان يخضب خده بدموعه

فنحورنا بدمائنا تتخضبُ

أو كان يتعب خيله في باطل

فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا

رهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبينا

قول صحيح صادق لا يكذب

لا يستوي وغبار خيل الله في

أنف امرئ ودخان نار تلهب

هذا كتاب الله ينطق بيننا

ليس الشهيد بميت لا يكذب

في أحد أيام شهر رمضان سنة 181هـ تُوفي عبد الله بن المبارك، وهو راجع من الجهاد، وكان عمره 63 عامًا. ويقال: إن هارون الرشيد لما بلغه نبأ موته، قال: «مات اليوم سيد العلماء».

ويقال إن رجلًا دخل على الرشيد وروى له أنه كان قادمًا من هيت بالعراق، فوجد الناس قد اجتمعوا على جنازة رجل، فسألهم عن المتوفى فقالوا له: عبد الله بن المبارك الخراساني. فقال الرشيد: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم نادى وزيره الفضل ابن الربيع: أذن في الناس من يعزينا في عبد الله بن المبارك فأظهر الفضل تعجبًا، فقال له: ويحك، إن عبد الله هو الذي يقول:

الله يدفع بالسلطان معضلة

عن ديننا رحمة منه ورضوانا

لولا الأئمة لم يأمن لنا سبل

وكان أضعفنا نهبا لأقوانا

من سمع هذا القول من مثل ابن المبارك مع فضله وزهده وعظمه في صدور العامة، ولا يعرف حقنا.

أما الفضل بن عياض فقال لما بلغه نبأ موت ابن المبارك: «رحمه الله، إنه ما خلف بعده مثله». وبعد موته روى زكريا بن عدي قائلًا: «رأيت ابن المبارك في المنام فقلت: ما فعل الله بك ؟ قال: غفر لي برحلتي في الحديث».

عمر بن الفارض

سلطان العاشقين

سلطان العاشقين، وصاحب أناشيد الحب الإلهي، الصافية الراقية. هام في الله وصلا فألهمه بيانًا، كالدر المنظوم، ألقاه على آذان المريدين، فتغنت به الألسنة، وذابت بين حروفه الفياضة قلوب الذاكرين. هو الشاعر المعتمد في مجالس الذكر، والمستقر في خيال من طالتهم حرفة الأدب، وهو الصوفي صاحب الأحوال والمقامات العالية، والفيلسوف الذي ارتدت معه الفلسفة ثوب البلاغة، والأديب الذي امتلأت سطوره بما يغذي الروح.

وعلى رغم تقدّم الزمن، وتبدُّل الأحوال، لم يبلَ ما جاد به ابن الفارض من أشواق ومعارف، أدت إلى أن يصفه شيخ الأزهر، وأحد فلاسفته وعلمائه المستتيرين، الدكتور مصطفى عبد الرازق، بأنه «الصوفي المصري الأول بلا منازع، ورأس شعراء التصوف، الذين نظموا قصائدهم بالعربية، وقيل إن شعره من أرق الدواوين، وأسرعها إلى القلوب؛ إذ هو صادر عن نفثة مصدور، وعاشق مهجور».

وابن الفارض هو الشاعر الصوفي الثاني بعد جلال الدين الرومي، ويُروى أنه كان يغوص في غيبوبة تسكره لأيام، فإن أفاق منها تدفق لسانه شعرًا، حتى أنه كان يملي على من يكتب عنه نحو أربعين أو خمسين بيتًا دفعة واحدة. وأعلى مراتب شعره حواها ذلك الديوان المعروف باسم «التائية الكبرى»، والذي يتكون من سبعمئة وستين بيتًا. وقد عده الشعراء والنقاد ترجمة لروح من أبدعه، والتي شربت من بحار التصوف حتى ارتوت، ففيها وصف رياضاته الروحية ومجاهداته التي كان ينشد منها الوصول إلى الكمال الإنساني الخالص، الذي يصل إلى أصفى صوره وأعلى مراتبه حين ينال الإنسان رضا ربه، أو حين يتم «رضاء الحبيب عن محبوبه» كما يقول ابن الفارض نفسه.

وهذه القصيدة الطويلة التي تنتهي بالتاء المكسورة أثارت قريحة المتصوفة وألهبت مشاعرهم، فأثنوا عليها ثناءً طويلًا، ومن بين هؤلاء عبد الرازق الكاشاني صاحب معجم اصطلاحات الصوفية، الذي قال فيها: لما تصفحت التائية مرارًا، وقلبتها أطوارًا، واحتظيت بمعانيها على قدر ما وسعني من الاستعداد، واجتليت مبانيها على ما وفق لي من النظر بالفؤاد، وجدتها مبنية على قواعد العلم والعرفان، منبئة عن نتائج الكشف والوجدان، مشيرة إلى ما أطلع الله ناظمها عليه، ووصل قدمه إليه، عن حقائق التوحيد، ودقائق التفريد، والمواجيد الصحيحة، والمكاشفات الصريحة، والمعاملات النفسية، والمنازلات القلبية، والموصلات الروحية».

ولابن الفارض قصيدة أخرى مطولة اسمها «الميمية»، نظرًا إلى أن أبياتها تنتهي بحرف الميم، والتي اشتهرت بقصيدة «الخمر»، والذي لا يعني به الشراب الذي يذهب العقل ويورد الخبل والغياب، إنما عني به السكر الناجم عن العشق الإلهي، والذي يعد أحد المواجيد الأساسية للتصوف والمتصوفة، والذي يلقى صاحبه غافلًا عن الدنيا، منتبهًا فحسب إلى كل ما يصل الإنسان بربه.

وهاتان القصيدتان دارت أبياتهما على مئات الملايين من متذوقي الشعر الرهيف، بعد أن لاقت ذيوعًا في شتى أرجاء بلاد المسلمين، بل امتد صيتهما إلى العالم بأسره بعد ترجمتهما إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

وعلى رغم صعوبة أشعار ابن الفارض وغموضها، فإن بعض البسطاء، خصوصًا في مصر المعاصرة، حفظها عن ظهر قلب، ووعى معانيها ومراميها، بفضل منشدي الطرق الصوفية، الذين يروق لهم أن يصدحوا بها في حضرات الذكر وموالد الأولياء. وبرز في هذا المسار المنشد المصري المعروف ياسين التهامي، الذي جاب القرى والمدن، يتغنى بالتائية والميمية وغيرهما، فمنحه شعر ابن الفارض عمقًا، ومنح هو الشعر ذيوعًا وتدفقًا، حين خالطه باللحن الصوفي، الذي يأكل الروح.

وُلد أبو حفص أو أبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي، المعروف بابن الفارض، في مصر عام 1181م، لأب جاء إلى أرض الكنانة من بلاد الشام، وقيل إن كنيته (ابن الفارض)

مستمدة من طبيعة حرفة والده، الذي كان يثبت الفروض للنساء على الرجال فسمِّي «فارض»، وقد عُرض عليه منصب قاضي القضاة فامتنع واعتزل الناس زاهدًا ومتعبدًا.

في كنف مثل هذا الأب الورع، وفي رعاية علمية وحياة طيبة نشأ عمر وأخذ جلّ علومه، وكان منذ صغره يستأذن والده لينقطع للعبادة في بعض المساجد، وبعض مغارات جبل المقطم. وظل على حاله هذه إلى أن نصحه أحد المتعبدين بالسفر إلى مكة، فخرج إليها وأكثر من الانعزال في واد بعيد عن هذا البلد المبارك، وفي تلك الأيام نظم معظم شعره، والأفضل منه. واستمر في الديار المقدسة خمسة عشر عامًا تقريبًا عاد بعدها إلى القاهرة، وأقام بقاعة الخطابة في الأزهر. ولورعه وفصاحة بيانه كثر المعجبون والمتبركون به. وكان العلماء والحكام يجالسونه، حتى أن الملك الكامل طلب زيارته وقصده.

وبعض من أتيح له معاشرة ابن الفارض أو رؤيته، وصف هيئته قائلًا إنه كان معتدل القامة، جميل المحيا، مشربًا بحمرة وكان حسن الهيئة، مهتمًّا بهندامه، وكان حسن الصحبة والعشرة، فصيح العبارة، كثير الخير، كما يقول عنه المؤرخ الكبير ابن خلكان. وكان ابن الفارض يحب مشاهدة البحر، خصوصًا مساءً.

وفتح عمر عينيه على القاهرة العامرة بالحكايا، ونيلها المنساب في وقار جليل، فأحبها، وعشق ترابها، وأنشد فيها قائلًا:

وطني مصر وفيها وطري

ولنفسي مشتهاها مشتهاها

لكن هذا الحب لم يشفع له، حين استغلقت رؤيته على العامة، فأثاروا حوله الجدل، وانقسم بشأنه الناس، بين من لم يرق لهم شعره وقوله ووضعوه في مصاف محيي الدين بن عربي وابن سبعين، وقالوا إنه واحد من الذين أخذهم التصوف إلى خارج حدود الشرع، وأوقعهم في ظلمة التجديف. ومن هؤلاء ابن خلدون وابن تيمية. وبين من رفعوا شأنه، ودافعوا عن رؤيته، ورأوا أنه صحيح العقيدة، سليم الطوية، وأن ما جعل الناس تلتبس فيه حول انغلاق شعره عن أصحاب العقول المتهافتة، والمعرفة المحدودة، والنفوس التي بها هوى. ومن الذين دافعوا عنه، الفقيه والمفسّر وعالم اللغة جلال الدين السيوطي، والصوفي المصري الكبير عبد الوهاب الشعراني، والقاضي زكريا بن محمد الأنصاري.

ويلخص لنا الدكتور عبد المنعم الحفني الرؤية الفلسفية لابن الفارض بقوله: «تدور أغراض شعر ابن الفارض حول الحب الإلهي، الذي يقوم على الاتحاد، أي الاعتقاد أن كل ما في الوجود يتساوى في الشرف؛ لأنه يمثل جوانب من الحقيقة الإلهية. فالمسجد والكنيسة وبيت الأصنام والنار كلها جوانب لله. وشارب الخمر والمتعبد في بيت عبادته، كلاهما يمثل حقيقة واحدة في مظهرين، والله يتبدى لكل محب في محبوبه. وهنا يكون مذهب ابن الفارض هو وحدة الوجود مثله مثل ابن عربي».

ولهذا وجّه أعداء ابن الفارض إليه تهمًا عدة في مطلعها «القول بالحلول والاتحاد»، لكن المستشرق الشهير ماسينيون، المختص بدراسة التصوف الإسلامي، يفرق بين فكرة «الاتحاد» مع الذات الإلهية، مثلما تبنى ابن عربي، وبين ما قاله ابن الفارض؛ إذ إن حديث الأول يدور حول مسائل فلسفية مجردة، أما الثاني فأخذت هذه المسألة لديه بعدًا نفسيًّا، وتوسلت بالشعر.

إلا أن ابن الفارض، وعلى النقيض من الحلاج والسهروردي، لم يجد كارهوه ومنتقدوه إليه سبيلًا؛ لأنه كان يحظى بحماية السلطان قايتباي، الذي أحبه، وقربه منه، وجعل ساعده يشتد في مواجهة من ناصبوا شعره ورأيه وشخصه العداء.

ولم يعمر ابن الفارض، الذي يعد الشاعر الصوفي الثاني بعد جلال الدين الرومي؛ إذ وافته المنية عام 1235م، وهو لم يتجاوز الرابعة والخمسين من عمره.

مقتطفات من شعر ابن الفارض:

قلْبي يُحدِّثني بأنَّك مُتلِفي

روحي فداكَ عرفتَ أمْ لمْ تعرفِ

لم أقضِ حقَّ هَوَاكَ إن كُنتُ الذي

لم أقضِ فيهِ أسى ً ومِثْلي مَن يَفي

ما لي سِوى روحي، وباذِلُ نفسِهِ،

في حبِّ منْ يهواهُ ليسَ بمسرفِ

فَلَئنْ رَضيتَ بها، فقد أسْعَفْتَني؛

يا خيبةَ المسعى إذا لمْ تسعفِ

يا مانِعي طيبَ المَنامِ، ومانحي

ثوبَ السِّقامِ بهِ ووجدي المتلفِ

عَطفًا على رمَقي، وما أبْقَيْتَ لي

منْ جِسميَ المُضْني، وقلبي المُدنَفِ

فالوَجْدُ باقٍ، والوِصالُ مُماطِلي،

والصَّبر فانٍ، واللِّقاء مُسَوّفي

لم أخلُ من حَسدٍ عليكَ، فلا تُضعْ

سَهَري بتَشنيعِ الخَيالِ المُرْجِفِ

واسألْ نُجومَ اللّيلِ: هل زارَ الكَرَى

جَفني وكيفَ يزورُ مَن لم يَعرِفِ؟

لا غَروَ إنْ شَحّتْ بِغُمضِ جُفونـها

عيني وسحَّتْ بالدُّموعِ الذُّرَّفِ

وبما جرى في موقفِ التَّوديعِ منْ

ألمِ النّوى، شاهَدتُ هَولَ المَوقِفِ

إن لم يكُنْ وَصْلٌ لَدَيكَ، فَعِدْ بِهِ

أملي وماطلْ إنْ وعدتَ ولا تفي

فالمطلُ منكَ لديَّ إنْ عزَّ الوفا

يحلو كوصلٍ منْ حبيبٍ مسعفِ

أهفو لأنفاسِ النَّسيم تعلَّة ً

ولوجهِ منْ نقلتْ شذاهُ تشوُّفي
فلَعَلَّ نارَ جَوانحي بهُبوبِها
أنْ تَنطَفي، وأوَدّ أن لا تنطَفي
يا أهلَ ودِّي أنتمُ أملي ومنْ
ناداكُمُ يا أهْلَ وُدّي قد كُفي
عُودوا لَما كُنتمْ عليهِ منَ الوَفا،
كرمًا فإنِّي ذلكَ الخلُّ الوفي
وحياتكمْ وحياتكمْ قسمًا وفي
عُمري، بغيرِ حياتِكُمْ، لم أحْلِفِ
لوْ أنَّ روحي في يدي ووهبتها
لمُبَشّري بِقَدومِكُمْ، لم أنصفِ
لا تحسبوني في الهوى متصنِّعًا
كلفي بكمْ خلقٌ بغيرِ تكلُّفِ
أخفيتُ حبَّكمُ فأخفاني أسىً حتى
لعَمري، كِدتُ عني أختَفي
وكَتَمْتُهُ عَنّي، فلو أبدَيْتُهُ
لَوَجَدْتُهُ أخفى منَ اللُّطْفِ الخَفِي
ولقد أقولُ لِمن تَحَرَّش بالهَوَى
عرَّضتَ نفسكَ للبلا فاستهدفِ
أنتَ القتيلُ بأيِّ منْ أحببتهُ
فاخترْ لنفسكَ في الهوى منْ تصطفي
قلْ للعذولِ أطلتَ لومي طامعًا
أنَّ الملامَ عنِ الهوى مستوقفي
دعْ عنكَ تعنيفي وذقْ طعمَ الهوى
فإذا عشقتَ فبعدَ ذلكَ عنِّفِ
بَرَحَ الخَفاءَ بحُبّ مَن لو، في الدّجى
سفرَ اللِّثامَ لقلتُ يا بدرُ اختفِ
وإن اكتفى غَيْري بِطيفِ خَيالِهِ،
فأنا الَّذي بوصالهِ لا أكتفي

وَقفا عَليْهِ مَحَبّتي، ولِمِحنَتي،
بأقَلّ مِنْ تَلَفي بِهِ، لا أشْتَفي
وهَواهُ، وهوَ ألِيّتي، وكَفَى بِهِ
قَسَمًا، أكادُ أُجِلُّه كالمُصْحَفِ
لوْ قالَ تِيهًا: قِفْ على جَمْرِ الغَضا
لوقفتُ ممتثِلًا ولمْ أتوقفِ
أوْ كانَ مَنْ يَرْضَى، بخدّي، موطِئًا
لوضعتهُ أرضًا ولمْ أستنكفِ
لا تنكروا شغفي بما يرضى وإنْ
هوَ بالوصالِ عليَّ لمْ يتعطَّفِ
غَلَبَ الهوى، فأطَعتُ أمرَ صَبابَتي
منْ حيثُ فيهِ عصيتُ نهيَ معنِّفي
مني لَهُ ذُلّ الخَضوع، ومنهُ لي
عزُّ المنوعِ وقوَّةُ المستضعفِ
ألِفَ الصَّدود، ولي فؤادٌ لم يَزلْ،
مُذْ كُنْتُ، غيرَ وِدادِهِ لم يألَفِ
يا ما أميلِحَ كلَّ ما يرضى بهِ
ورضابهُ يا ما أحيلاهُ بفي
لوْ أسمعوا يعقوبَ ذكرَ ملاحة
في وجههِ نسيَ الجمالَ اليوسفي
أوْ لوْ رآهُ عائدًا أيُّوبُ في سِنَةِ
الكَرَى، قِدمًا، من البَلْوَى شُفي
كلُّ البدورِ إذا تجلّى مقبلًا،
تَصبُو إلَيهِ، وكُلُّ قَدٍّ أهيَفِ
إنْ قُلْتُ: عِندي فيكَ كل صَبابة؛
قالَ: المَلاحةُ لي، وكُلُّ الحُسْنِ في
كَمَلتْ مَحاسِنُهُ، فلو أهدى السّنا
للبدرِ عندَ تمامهِ لمْ يخسفِ
وعلى تَفَنُّنِ واصِفيهِ بِحُسْنِهِ،

يَفْنى الزّمان، وفيهِ ما لم يُوصَفِ

ولقدْ صرفتُ لحبِّهِ كلِّي على

يدِ حسنهِ فحمدتُ حسنَ تصرُّفي

فالعينُ تهوى صورةَ الحسنِ الَّتي

روحي بها تصبو إلى معنىً خفي

أسْعِدْ أُخَيَّ، وغنِّني بِحَديثِهِ،

وانثُرْ على سَمْعي حِلاهُ، وشَنِّفِ

لأرى بعينِ السِّمع شاهِدَ حسْنِهِ

معنىً فأتحفني بذاكَ وشرِّفِ

يا أختَ سعدٍ منْ حبيبي جئتني

بِرسالَةٍ أدّيْتِها بتَلَطُّف

فسمعتُ ما لمْ تسمعي ونظرتُ ما

لمْ تنظري وعرفتُ ما لمْ تعرفي

إنْ زارَ، يومًا يا حَشايَ تَقَطَّعي،

كَلَفًا بهِ، أو سارَ، يا عينُ اذرِفي

ما للنّوى ذَنْبٌ، ومَنْ أهوى مَعي،

إنْ غابَ عنْ إنسانِ عيني فهوَ في

وهناك قصيدة أخرى يقول فيها:

شربنا على ذكرِ الحبيبِ مدامةً

سَكِرْنا بها، من قبلِ أن يُخلق الكَرمُ

لها البدرُ كأسٌ وهيَ شمسٌ يديرها

هِلالٌ، وكم يبدو إذا مُزِجَتْ نَجمُ

ولولا شذاها ما اهتديتُ لحانها

ولولا سناها ما تصوَّرها الوهمُ

ولم يُبْقِ مِنها الدَّهْرُ غيرَ حُشاشَةٍ

كأنَّ خَفاها، في صُدورِ النُّهى كَتْمُ

فإنْ ذكرتْ في الحيِّ أصبحَ أهلهُ

نشاوى ولا عارٌ عليهمْ ولا إثمُ

ومنْ بينِ أحشاءِ الدِّنانِ تصاعدتْ

ولم يَبْقَ مِنّها، في الحَقيقة، إلاّ اسمُ
وإنْ خَطَرَتْ يَومًا على خاطِرِ امرِيءٍ
أقامَتْ بِهِ الأفْراحُ، وارتحلَ الهَمُّ
ولو نَظَرَ النُّدمانُ خَتْمَ إنائِها،
لأسكرهمْ منْ دونها ذلكَ الختمُ
ولو نَضَحوا مِنها ثَرى قَبْرِ مَيتٍ،
لعادَتْ إليهِ الرُّوحُ، وانْتَعَشَ الجسْمُ
ولو طرحوا في فيءِ حائطِ كرمها
عليلًا وقدْ أشفى لفارقهُ السُّقمُ
ولوْ قرَّبوا منْ حلها مقعدًا مشى
وتنطقُ منْ ذكري مذاقتها البكمُ
ولوْ عبقتْ في الشَّرقِ أنفاسُ طيبها
وفي الغربِ مزكومٌ لعادَ لهُ الشَّمُّ
ولوْ خضبتْ منْ كأسها كفُّ لامسٍ
لما ضلَّ في ليلٍ وفي يدهِ النَّجمُ
ولوْ جُليتْ سرًّا على أكمهٍ غدَا
بصيرًا ومنْ راووقها تسمعُ الصُّمُّ
ولو أنّ ركْبًا يَمَّموا تُرْبَ أرْضِها،
وفي الرَّكبِ ملسوعٌ لما ضرَّهُ السمُّ
ولوْ رسمَ الرَّقي حروفَ اسمها على
جبينِ مصابٍ جنَّ أبرأهُ الرَّسمُ
وفوقَ لِواء الجيشِ لو رُقِمَ اسمُها،
لأسكرَ منْ تحتَ اللوا ذلكَ الرَّقمُ
تُهَذِّبُ أخلاقَ النّدامى، فيَهْتَدي،
بها لطريقِ العزمِ منْ لا لهُ عزمُ
ويَكْرُمُ مَنْ لم يَعرِفِ الجودَ كَفُّهُ،
ويَحلُمُ، عِندَ الغيظِ، مَن لا لَهُ حِلْمُ
ولو نالَ فَدْمُ القَوْمِ لَثْمَ فِدامِها،
لأكسَبَهُ مَعنى شَمائِلِها اللّثْمُ

يقولونَ لي صفها فأنتَ بوصفها
خَبيرٌ، أجَلْ! عِندي بأوصافِها عِلْمُ
صفاءٌ، ولا ماءٌ، ولُطْفٌ، ولاهَوًا،
ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسمُ
تقدَّمَ كلَّ الكائناتِ حديثُها
قديمًا، ولا شَكلٌ هناكَ، ولا رَسْمُ
وقامَتْ بِها الأشْياءُ، ثَمّ، لحِكْمَة ٍ
بها احتجبتْ عنْ كلِّ منْ لا لهُ فهمُ
وهامتْ بها روحي بحيث تمازجا اتّ-
حادًا ولا جرمٌ تخلَّلهُ جرمُ
وكَرْمٌ ولا خَمْرٌ، ولي أُمُّها أُمُّ
وكرمٌ ولا خمرٌ وفي أمِّها أمٌّ
ولُطْفُ الأواني، في الحَقيقَة ِ تابِعٌ
للطفِ المعاني والمعاني بها تنمو
وقدْ وقَعَ التَّفريقُ، والكُلُّ واحِدٌ،
فأرواحنا خمرٌ وأشباحنا كرمُ
ولا قبلها قبلٌ ولا بعدَ بعدها
وقبليَّة ُ الأبعادِ فهيَ لها حتمُ
وعَصْرُ المَدى منْ قَبْلِهِ كان عصْرها،
وعهدُ أبينا بعدها ولها اليتمُ
محاسِنُ، تَهْدي المادِحينِ لِوَصْفِها،
فَيَحسُنُ فيها مِنهمُ النَّثرُ والنُّظم
ويَطرَبُ مَن لم يَدرِها، عندَ ذِكرِها،
كمُشْتاقِ نُعْمِ، كلّما ذُكِرَتْ نُعْمُ
وقالوا شربتَ الإثمَ كلاَّ وإنَّما
شَرِبتُ التي، في تَرْكِها، عندي الإثمُ
هنيئًا لأهلِ الديرِ كمْ سكروا بها
وما شربوا منها ولكنَّهمْ همُّوا
وعنديَ منها نشوة ٌ قبلَ نشأتي

معي أبدًا تبقي وإنْ بلي العظمُ

عليكَ بها صرفًا وإنْ شئتَ مزجها

فعدلكَ عنْ ظلمِ الحبيبِ هوَ الظُّلمُ

فدونَكَها في الحانِ، واسْتَجلِها بهِ،

على نغمِ الألحانِ فهيَ بها غنمُ

فما سَكَنَتْ والهَمّ، يومًا، بِمَوضِعٍ،

كذلِكَ لم يَسكُنْ، معَ النّغْمِ، الغَمُّ

وفي سكرةٍ منها ولو عمرَ ساعةٍ

تَرى الدَّهْرَ عَبدًا طائِعًا، ولَكَ الحُكْمُ

فلا عيشَ في الدُّنيا لمنْ عاشَ صاحيًا

ومنْ لمْ يمتْ سكرًا بها فاتهُ الحزمُ

على نفسهِ فليبكِ منْ ضاعَ عمرهُ

وليسَ لهُ فيها نصيبٌ ولا سهمُ

ويقول في قصيدة أخرى:

زِدني بفرط الحب فيك تحيرًا

وارحم حشى بلظى هواك تسعرا

وإذا سألتك أن أراك حقيقةً

فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى

يا قلب أنتَ وعدتني في حبهم

صبرًا فحاذر أن تضيق وتضجرا

إن الغرام هو الحياة فمت به

حبًّا فحقُّكَ أن تموت وتُعذرا

شاعر صوفي بارع أثر في جلال الدين الرومي، واحد من شهداء الحب الإلهي الذين عانوا من تضييق المتشددين من الحنابلة، وأحد أعلام القصص في تاريخ الحضارة الإسلامية، انشغل بسير الأولياء وأخبارهم، وقاده انشغاله إلى أن يجاهد في سبيل الوصول إلى عمق الأشياء والأمور ومحاولة الفناء في ذات الله. كان متيمًا بالحلاج ورآه مثالا للتفاني الصوفي. انشغل مستشرقون كثيرون بما تركه من أعمال وأحوال، ومنهم الألمانية آنا ماري شميل، والألماني هلموت ريتر.

هو فريد الدين محمد العطار، الذي اختلف المؤرخون حول سنة ميلاده، لكن الأرجح في أغلب المراجع أنه ولد سنة 513هـ، 1119م، في قرية كدكن بمدينة نيسابور من أعمال إيران، وقضى بها ثلاثة عشر عاما من عمره، جاور فيها ضريح الإمام الرضا، ثم ارتحل إلى الري والكوفة ودمشق ومصر ومكة والمدينة والهند وبلاد تركستان، ثم عاد إلى قريته وظل بها تسعة وثلاثين عاما عاكفا على جمع أشعار المتصوفة وأقوالهم.

وسُمِّي العطار نسبة إلى بيع العطارة، أو الأدوية الشعبية والتوابل والعطور، لكن هناك من يقول إن الرجل عمل بتطبيب الناس، حيث كانت تأتيه المرضى فيفحصهم، ويصف لهم الدواء، ويقوم على تركيبه وتحضيره، ويتابعهم حتى يتماثلوا للشفاء، مستفيدا مما تعلمه كم طب على يد الشيخ مجد الدين البغدادي، وهو تلميذ للشيخ نجم الدين كبرى. و قد روي في اشترنامه بأنه رأي النبي في أحد أحلامه وأن النبي باركه.

وقد لاقى العطار عنتا من الفقهاء، لاسيما بعد أن ألف كتابه «مظهر العجائب» الذي انطوى على مدائح في الإمام علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، حيث رأى هؤلاء أن الكتاب به ميل واضح إلى التشيع، وأمر أحدهم بإحراق الكتاب، واتهم صاحبه بالكفر، بل طالب بقتله، وحرَّض العوام على هدم منزله، وسرقة أمتعته، فاضطر إلى الهروب لمكة، وهناك استقر به المقام ليؤلف كتابه «لسان الغيب». كما ألف طيلة حياته العديد من الكتب في مطلعها «شرح القلب» و«مظهر العجائب» و«النصيحة أو يندنامة» و«إلهي نامة» و«تذكرة الأولياء» و«مختار نامة» وغيرها. أما أشهر كتبه فهو «منطق الطير» الذي استلهمه من الشيخ أحمد الغزالي الأخ الأصغر لأبي حامد الغزالي، وهو يحوي قصة رمزية عميقة عن هجرة سرب من الطير نحو الحضرة الإلهية، فلما يصلوا إليها، بعد رحلة معاناة أو مجاهدة قاسية، يذوبون فيها تماما.

ويمكن في هذا المقام اختيار حكاية من حكايات «منطق الطير» لنعطي بها مثلا عن شكل ومضمون هذا الكتاب العبقري. تقول الحكاية: «جميع طيور الزمان كانت لها قصة مع تلك الفراشة، حيث قالت جميعها للفراشة: أيتها الضعيفة إلامَ تخاطرين بروحك الشريفة؟ ما دمتِ لا تحققين مع الشمعة أي وصال، فلا تخاطري بروحك جهلا، ما دام هذا محالا. ثملت الفراشة بهذا الكلام وانتشت، وأجابت على الطير بسرعة، حيث قالت: يكفيني أنا الولهانة على الدوام، أن أصل إلى المعشوق وأدور حوله على الدوام، وإذا كان الجميع يصيبهم الموت في عشقه، فقد أقبلوا وهم غرق في الآلام، ومع أن الاستغناء يفوق كل إحصاء، فإن لطفه كان ذا جدة كذلك، فقد جاء حاجب اللطف، وفتح الباب، وأزاح في كل لحظة مئة حجاب، فظهرت الدنيا بلا حجاب، ثم واصلت الظهور في نور النور. ثم أجلس الحاجب الجميع على مسند القربة، أجلسهم على سرير العزة والهيبة، ووضع رقعة أمامهم كلهم، وقال: اقرأوها كلها عن آخرها. وما إن علم القوم ما بهذه الرقعة، حتى تملك الاضطراب أحوالهم...».

ويرى العطار أن هناك سبعة أودية، إن مر بها الإنسان بسلام، يصل إلى الأعتاب العلية، حيث حضرة القدس وبساط الأنس. وهذه الأودية تباعا هي:

1 - **وادي الطلب**: عندما تتقدم إلى وادي الطلب، سيعترض طريقك في كل زمان مئة تعب، فهناك مئة بلاء في كل لحظة، وهناك تصبح ببغاء الفلك مجرد ذبابة، وهناك يلزمك الجد والاجتهاد عدة

سنوات، وذلك لأن الأحوال انقلبت رأسًا على عقب، وهناك يلزمك طرح المال جانبًا، كما يجب عليك هناك أن تدع الملك جانبا... بل عليك أن تتقدم متخليًا عن الكل... وإن لم يبق لك علمٌ بشيء، فواجبك أن يتطهر قلبك من كل شيء، فإن يتطهر قلبك من الفات، فسرعان ما يستمد من الحضرة نور قبلك ألفًا، وإن تبد النار في طريقه أو تبد مئة وادٍ رهيب؛ فستجد نفسك من الشوق إليه كالمجنون، وتلقي بنفسك في النار كالفراشة، ويصبح طلبك نابعًا من اشتياقك إليه، فتطلب جرعةً من ساقيه، وعندما تتيسر لك شربةً من خمره، يتم لك نسيان كلا العالمين، وتبقى صادي الشفة وأنت غريق في البحر، كما ستطلب من الحبيب سر الأحبة، ولن تخشى التنانين الفتاكة في اندفاعك لمعرفة السر...إن يجتمع الكفر والإيمان أمامك فستقبل كليهما حتى يفتح لك الباب، وحينما يفتح لك الباب، يتساوى الكفر والدين، حيث لن يبقى هذا ولا ذاك.

2 - **وادي العشق** :بعد ذلك يتضح وادي العشق، ومن يصل هناك يغرق في الحرقة فلا تجعل يا إلهي أي فردٍ في هذا الوادي بلا حرقة ولا تجعل عيش من لا يتردى في الحرقة سعيدًا مسرورًا فالعاشق من يكون في نارٍ وحرقة، كما يكون متقد القلب ملتهبًا ثائرًا. العاشق من لا يفكر لحظة في العاقبة، إنما يكون غارقًا في النار كبرق الدنيا وفي لحظة لا يعرف الكفر ولا الدين، كما لا يعرف ذرة من شكٍ أو يقين، الخير والشر متساويان في طريقه، فإذا جاء العشق نفسه، فلا وجود لهذا أو ذاك. يا من لا تكترث، إن هذا الكلام ليس لك، فأنت مرتد، وهذا الذوق لم يتوفر لروحك فكل من يتطهر، يطرح المادة جانبًا، ثم يقامر بروحه في وصال الحبيب، لقد وعد الآخرون بالغد أما هو فيأخذ حسابه في التو والحال، وطالما لم يحرق نفسه دفعةً واحدةً فكيف يستطيع التخلص من الآلام والهموم؟ وطالما لم يحرق الجواهر في وجوده، فكيف يمكن أن يضيء قلبه فرحًا وسرورًا إنه يختلج دائمًا في حرقةٍ وانصهار، حتى يعود أدراجه مرةً أخرى كالسمكة إذا ما انتزعت من الماء إلى اليابسة، تملكها الاضطراب، لعلها تلقى في البحر ثانية، العشق نارٌ هناك، أما العقل فدخان، فبما أن يُقبل العشق حتى يفر العقل مسرعًا والعقل ليس أستاذًا في مجال العشق، وليس العشق وليد العقل وحتى لو منحت حق الاطلاع على عالم الغيب، فلن تدرك من أين ينبت هناك أصل العشق وكل ورقة في عالم العشق، ستطرح رأسها على كتف أختها ثملةً بالعشق وإن منحت فرصة الاطلاع على الغيب مرة أخرى أصبحت ذرات الدنيا قرينة لك. إن تنظر إلى الأمور بعين العقل، سترى العشق لا أول له ولا آخر، وهو ضرورة لكل حصيف كما أن العشق ضرورة لكل حر، ولكنك لست حصيفًا ولا عاشقًا وإنما أنت ميت، فكيف تكون للعشق لائقًا؟ ولابد من رجلٍ حي القلب لهذا الطريق حتى يقدم مئة روح نثارًا في كل لحظةٍ.

3 - **وادي المعرفة**: بعد ذلك يتضح أمام نظرك وادي المعرفة، وهو واد لا بداية له ولا نهاية ولا يوجد شخص قط في هذا المقام يشك في طول الطريق، وفيه يختلف كل طريقٍ عن الآخر وفيه يختلف السالك بالجسد، عن السالك بالروح، وفيه تداوم الروح والجسد الترقي والزوال وذلك عن طريق النقصان والكمال.. فلا جرم أن وضح الطريق لكل سالك قدر طاقته؛ إذ كيف يكون العنكبوت المبتلي رفيقًا للفيل في هذا الطريق الجليل ؟! فسلوك كل شخصٍ مرهونٌ بكماله، ويتم قرب كل شخصٍ حسب حاله، فإن تطر بعوضة هناك بكل قوتها، فكيف يستطيع أن تساوي الريح الصرصر في قوتها، فلا جرم إن كان السير فيه مختلفا، فلن يصير كل طائرٍ فيه سالكا.. وهنا تتفاوت المعرفة، حيث يدرك هذا المحراب، ويدرك ذاك الصنم، وعندما تضيء شمس المعرفة من فلك هذا الطريق العالي الصفة فسيصبح كل فردٍ مبصرًا قدر استطاعته، ثم يجد صدره في الحقيقة وعندما يشرق سر ذاته عليه، يصبح موقد حمام الدنيا روضة لديه ويرى لبه في دخيلته لا في جسده، كما لن يرى نفسهُ لحظة، حيث يرى الحبيب وحده ومهما يرى، فسيرى وجهه على الدوام، وسيرى محلته ذرة ذرة على الدوام وستظهر مئات الألوف من الأسرار وجهها له كالشمس من تحت النقاب وسيفنى آلاف الخلق دومًا حتى يتضح سرٌّ واحدٌ تمامًا.. لابد لهذا الطريق من إنسانٍ كاملٍ، حتى يغوص في هذا البحر العميق وإن يظهر ذوق من الأسرار لك، فسيتولد في كل زمانٍ

شوق جديد لديك وسيسود الظمأ الكل هنا، وستسفك مئات الألوف من الأرواح حلالًا هنا.. كي تصل إلى العرش المجيد، لا تكف مطلقًا عن ترديد: هل من مزيد؟ وأغرق نفسك في بحر العرفان، وإلا فأقل شيء هو أن تنثر التراب على مرفقك وإن لم تكن أيها الغافل من أهل التهنئة، فلم لا تعزي نفسك؟ وإن تعدم السعادة في وصل الحبيب، فلا أقل من أن تقيم مأتم الهجران وإن تحرم من جمال محبوبك، فانهض ولا تجلس، وداوم الطلب بحثًا عن الأسرار وإن تجهل الطلب، فليتملكك الخجل، وإلام تظل كالحمار بلا زمام؟

4 - **وادي الاستغناء**: وهو خالٍ من كل دعوى ومعنى، وفيه تسرع الريح العاتية مما بها من قوة، حيث تشمل كل إقليم في لحظة. والبحار السبعة ما هي إلا بركة ماء هنا، والكواكب السبعة ما هي إلا ومضة ضوءٍ هنا، تكون فيه الجنات السبع في موتٍ مطبق، كما تصبح النيران السبعة فيه كالثلج المتجمد، وفيه تصبح النملة، ويا للعجب، قوة مئة فيل بلا أدنى سبب، ولكي يصبح الغراب ممتلئ الحوصلة فلن يبقى أحدٌ قط على قيد الحياة من مئة قافلة، ولقد احترق مئات الألوف من الملائكة حتى أضاء مصباحٌ لآدم، وخلت آلاف الأجسام من الروح، حتى أصبح نوحٌ نجارًا في تلك الحضرة. وهجم العديد من البعوض على الجيش، حتى سما إبراهيم فوق الجميع. وسُفك دم العديد من الأطفال، حتى أصبح كليم الله صاحب رؤية. وعقد مئات الألوف من البشر الزنار، حتى أصبح عيسى محرم الأسرار، واضطربت مئات الألوف من الأرواح والقلوب، حتى أدرك محمد ذات ليلة المعراج. الجديد والقديم هنا لا قيمة لهما، فلا ترغب في شيء هنا مطلقًا، وإن كنت قد رأيت الدنيا مكتوية القلب، فما رأيته ليس إلا حلمًا، وإذا سقطت آلاف الأرواح في هذا البحر فكأنها قطرة ندى سقطت في هذا البحر اللا نهائي، وإذا استسلم مئات الألوف إلى النوم فإنهم يصبحون بفعل الشمس كذرةٍ مع الظل، وإذا تساقطت الأفلاك والأنجم قطعة قطعة فكأنما سقطت ورقة شجر واحدة في هذه الدنيا، وإذا أصبحت الدنيا من البحر إلى القمر عدمًا في عدم، فكأنما عرجت نملة في قاع بئر، وإذا خرب العالمان دفعةً واحدةً، فهب أن حبة رمل قد انعدمت من الأرض. وإذا لم يبقَ أدنى أثر للناس والشيطان، فكأنما سقطت قطرة مطر واحدة، وإذا سار الكل إلى التراب، فأي بأسٍ إن اختفت شعرة كائن حي واحدة. وإذا ضاع الجزء والكل هنا، فقد نقصت ورقة تبن واحدة على وجه الأرض. إذا نقصت هذه الأفلاك التسعة مرة واحدة، فعما نقصت غير قطرة ماءٍ من البحار السبعة.

5 - **وادي التوحيد**: بعد ذلك يأتيك وادي التوحيد، فيقبل عليك منزل التجريد والتفريد. وعندما تسحب الوجوه من هذه الدنيا إلى صحراء التيه، فسيرفع الجميع رؤوسهم من فتحةٍ واحدة، وسواء رأيت كثرة أم قلة، فسيكون الكل واحدًا بلا شك، فإن يكثر تداخل الواحد في الواحد، دومًا فسيتوحد الواحد في الواحد تمامًا، ولن يتم لك هذا الفرد الأحد؛ لأن ما يتم لك هو الفرد المتعدد، وإذا خرج ذلك عن الحد والعد فاقطع النظر عن الأزل والأبد، وإذا تلاشى الأزل، فالأبد خالد ولا أهمية لهما معًا في حد ذاتهما، فإذا كان الكل عدمًا فهذا كله عدم أيضًا وما هذه كلها إلا عد في الأصل.

6 - **وادي الحيرة**: بعد ذلك يأتيك وادي الحيرة، وفيه تصاب بالعمل المتواصل والألم والحسرة، وهنا يكون كل نفس سيفًا مصوبًا إليك، وهنا تحمل كل لحظة الأسى إليك وفيه تكثر الآهات والحركة والآلام، ويكون النهار والليل لا ليلًا ولا نهارًا كذلك، وفيه يتخيل الشخص أنه يقطر دمًا، لا من السيف، ولكن جذر كل شعرة، ويا للعجب! والنار تؤلم رجل هذا الوادي، فيحترق في الحيرة من آلام هذا الوادي، وعندما يصل الرجل الحيران إلى هذه الأعتاب، يظل في حيرة ويضيع منه الطريق كما يضيع منه كل ما حصلته روحه من توحيد. وإذا قيل له: أأنت موجود أم لا ؟؟ ألا يليق بك أن تقول أموجود أنت أم لا ؟ أأنت بين الخلق أم خارج عنهم، أم تتخذ منهم جانبًا؟ أأنت خفي أم ظاهر؟ أأنت فانٍ أم باق، أم كلاهما معًا ؟ أم أنت لست الاثنين؟ أأنت أنت أم أنك لست أنت؟ فإنه يقول: إنني - في الحقيقة - لا أعرف كنهي. كما أنني لا أعرف نفسي، إنني عاشق، ولكن لا أعرف من أعشق. ولست مسلمًا ولا كافرًا. فماذا أكون؟ ولكنني لست عالمًا بعشقي، ولا أعرف أقلبي مليء

بالعشق أم أنه خلو منه.

7 - **وادي الفقراء والفناء** :وبعد ذلك يأتي وادي الفقراء والفناء، ومتى جاز الكلام هنا ؟ فعين هذا الوادي هي النسيان والبكم والصم وذهاب العقل والوجدان، وسترى مئات الظلال الخالدة تتلاشى أمام شعاع واحد شمسك الوضاءة. وإذا هاج وماج البحر الكلي، فهل تبقى نقوش على صفحة ذلك البحر؟ وكلا العالمين مجرد نقش على سطح هذا البحر، فكل من يقول لا، كلامه هراء، وكفى، وكل من أصيب بالفناء في بحر الكل، فقد فني تمامًا وأصابه البلى والقلب في هذا البحر المليء بالفناء، لا يجد شيئًا سوى الفناء، فإذا منح الفناء ثانية، أحاط علمًا بالخلق، وتكشف له أسرار كثيرة.

حينما يمضي السالكون المجربون وعظام الرجال إلى ميدان الألم، يفنون في أول خطوة، وأي تقدم بعد ذلك؟ لا جرم ألا يكون للإنسان خطوة ثانية بعد ذلك. وإن أصابهم الفناء من أول خطوة، فاعتبرهم من الجماد ولو كانوا من الخلق ! فعندما تلقى الأعواد والحطب إلى النار تتحول كلها معًا إلى رماد، ويظهر لك الاثنان صورة الواحد، مع ما يبدو من فروق في صفاتها. وإن يفن نجسٌ في بحر الكل، يسقط إلى القاع ذليلًا بصفاته، ولكن إن ينزل إلى هذا البحر رجل طاهر، فسيفنى فناءً حقيقيًّا ولن يبقى له أثر، حيث تصبح حركته هي حركة البحر. وعندما يفنى، يكون غارقًا في مجال الحسن والطهر، وإن يحدث هذا، يكن فانيًا وهو موجود، وهذا يخرج عن نطاق الخيال والعقل.

وأخيرًا، اختلف المؤرخون حول تاريخ وفاة العطار مثلما اختلفوا حول تاريخ ميلاده، فقد قال البعض إن المغول قتلوه سنة 627هـ، 1230م، أثناء اجتياحهم لنيسابور، لكن هذا يعني أنه عاش 114 سنة؛ لذا يبقى التاريخ الأكثر دقة لموته هو سنة 586هـ، 1190م، وهو المكتوب بالفعل على قبره كما يقول ألكسندر كينش، وإن كان القاضي نور الله التستري يجعله في سنة 589هـ، والله تعالى أعلى وأعلم.

مالك بن دينار

عَلم الأبرار وكاتب المصاحف

ناسخ المصحف وقارئ القرآن، الذي تمثَّل آياته وجسَّدها في حياته الزاهدة البسيطة على قدر استطاعته. هو الباحث عن الحكمة في أي كتاب، ولذا طالما اقتطف من التوراة ورجع إليها، وألقى منها على مسامع الناس. كان محدثا وصوفيا، هداه الله بعد ضلال، وألزمه بعد انحلال، وربط على قلبه بعد زيغ، وانتشله من الضياع، وثبته بعد أن كان قشة في مهب الريح، فخلى الدنيا وراء ظهره، وعاش على فتات الطعام، وخشن الفراش، غير راغب في شيء سوى مرضاة الله، وغير نادم على شيء سوى الأيام التي قضاها بعيدا عن ربه.

هو أبو يحيى مالك بن دينار البصري، ولد في البصرة بالعراق، أيام ابن عباس، وسمع من أنس بن مالك، وشهد له كثيرون، فوصفه الذهبي بأنه علم العلماء الأبرار، معدود في ثقات التابعين. ومن أعيان كتبة المصاحف، وحدث عنه سعيد بن جبير، والحسن البصري، وآخرون، وحدث عنه سعيد ابن أبي عروبة وطائفة سواه، وقد وثقه النسائي وغيره، واستشهد به البخاري. وقال في حقه سليمان التيمي: ما أدركت أحدا أزهد من مالك بن دينار.

وقد تأثر ابن دينار بكثيرين من أخيار التابعين، في مطلعهم محمد ابن واسع، الذي كان له معه حكايات تروى. وقد اجتمع الاثنان فتذاكرا العيش، فقال مالك: ما شيء أفضل من أن يكون للرجل غلة يعيش فيها، فقال محمد: طوبى لمن وجد غداء ولم يجد عشاء، ووجد عشاء ولم يجد غداء وهو عن الله راضٍ أو قال: والله عنه راضٍ.

وذات يوم قدم أمير من أمراء البصرة على قراء المدينة، فبعث إلى مالك بن دينار فقبل وأبى محمد بن واسع فقال: يا مالك قبلت جوائز السلطان؟ فقال: يا أبا بكر، سل جلسائي؟ فقالوا: يا أبا بكر اشترى بها رقابا فأعتقهم، فقال له محمد: أنشدك الله أقلبك الساعة له علي ما كان عليه قبل أن يجزيك، قال: اللهم لا، قال: ترى أي شيء دخل عليك؟ فقال مالك لجلسائه: إنما مالك جمار، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع.

ولم يكن ابن دينار عابدا أو زاهدا أو ملتزما بحقوق الدين عليه منذ مقتبل حياته، بل على النقيض من هذا تماما، حتى جاءت لحظة في حياته جعلته ينتقل من النقيض إلى النقيض. وقد سُئل عن سبب توبته فقال: «كنت شرطيًّا وكنت منهمكًا على شرب الخمر، ثم إنني اشتريت جارية نفيسة ووقعت مني أحسن موقع، فولدت لي بنتا فشغفت بها، فلما دبت على الأرض ازدادت في قلبي حبا وألفتني وألفتها، فكنت إذا وضعت المسكر بين يدي جاءت إلي وجاذبتني عليه وهرقته من ثوبي، فلما تم لها سنتان ماتت فأكمدني حزنها، فلما كانت ليلة النصف من شعبان وكانت ليلة الجمعة بتُّ ثملًا من الخمر ولم أصل فيها عشاء الآخرة، فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت ونُفِخَ في الصور وبُعثِرَت القبور وحُشِرَ الخلائق وأنا معهم فسمعت حسًّا من ورائي فالتفت فإذا أنا بتنين أعظم ما يكون أسود أزرق قد فتح فاه مسرعًا نحوي، فمررت بين يديه هاربًا فزعًا مرعوبًا، ولقيت في طريقي شيخًا نقي الثوب طيب الرائحة فسلمت عليه فرد السلام فقلت: أيها الشيخ، أجرني من هذا التنين أجارك الله، فبكى الشيخ وقال لي: أنا ضعيف وهذا أقوى مني وما أقدر عليه، ولكن مر وأسرع فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه، فوليت هاربًا على وجهي فصعدت على شرف من شرف القيامة فأشرفت على طبقات النيران فنظرت إلى هولها وكدت أهوي فيها من فزع التنين، فصاح بي صائح: ارجع فلست من أهلها فاطمأننت إلى قوله، ورجعت ورجع التنين في طلبي فأتيت الشيخ فقلت: يا شيخ، سألتك أن تجيرني من هذا التنين فلم تفعل فبكى الشيخ وقال: أنا ضعيف ولكن سر إلى هذا الجبل فإن فيه ودائع المسلمين فإن كان لك فيه وديعة فستنتصرك، قال: فنظرت إلى جبل مستدير من فضة، وفيه كوى مخرمة وستور معلقة على كل خوخة وكوة مصراعان من الذهب الأحمر مفصلة باليواقيت مكوكبة بالدر على كل مصراع ستر من الحرير، فلما نظرت إلى الجبل وليت إليه هاربًا والتنين من ورائي؛ حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع وأشرفوا فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه، فإذا الستور قد رفعت والمصاريع قد فتحت فأشرف عليَّ من تلك المخرمات

أطفال بوجوه كالأقمار، وقرب التنين مني فتحيرت في أمري فصاح بعض الأطفال ويحكم أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه فأشرفوا فوجًا بعد فوج، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أشرفت عليَّ معهم، فلما رأتني بكت وقالت: أبي والله ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت بين يدي فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى فتعلقت بها ومدت يدها اليمنى إلى التنين فولَّى هاربًا، ثم أجلستني وقعدت في حجري وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي وقالت: يا أبتِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: 16]، فبكيت وقلت: يا بنية، وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت: يا أبتِ نحن أعرف به منكم، قلت: فأخبريني عن التنين الذي أراد أن يهلكني؟ قالت: ذلك عملك السوء قويته فأراد أن يغرقك في نار جهنم، قلت: فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي؟ قالت: يا أبت ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء، قلت: يا بنية وما تصنعون في هذا الجبل، قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم، قال مالك: فانتبهت فزعًا وأصبحت فأرقت المسكر وكسرت الآنية، وتبت إلى الله.

وكان ابن دينار ينسخ المصاحف، ويتلو منها على الناس، ويقول: يا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض فقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحش فتكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضر. فيا حملة القرآن! ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟

ويروي ابن دينار عن حرفته تلك حكايات تدل على أنه كان راغبا فيها، ومقبلا عليها، رغم أن كسبه منها كان قليلا، ومنها تلك التي يقول فيها: دخل عليَّ جابر بن زيد، وأنا أكتب، فقال: يا مالك ما لك عمل إلا هذا؟ تنقل كتاب الله، هذا والله الكسب الحلال. وعن شعبة، قال: كان أدم مالك ابن دينار في كل سنة بفلسين ملح.

وقال جعفر بن سليمان: كان ابن دينار ينسخ المصحف في أربعة أشهر، فيدع أجرته عند البقال فيأكله. وعنه: لو استطعت لم أنم مخافة أن ينزل العذاب. يا أيها الناس النار النار». وعُرف عن مالك بن دينار حفظه للقرآن وتعلقه به، فكان من أحفظ الناس له، وكان يقرأ على أصحابه كل يوم جزءًا منه حتى يختم، فإن أسقط حرفًا قال: ذنب مني وما الله بظلام للعبيد.

وهنا يوصي أتباعه: إن من الناس ناسًا إذا لقوا القراء ضربوا معهم بسهم، وإذا لقوا الجبابرة وأبناء الدنيا أخذوا معهم بسهم، فكونوا من قراء الرحمن بارك الله فيكم.

وقد حدث جعفر بن سليمان قال: سمعت مالك بن دينار يقول: يا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض. فإن الله ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحسَّ فتكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها من أن تهتز وتخضر وتحسن، فيا حملة القرآن: ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحاب سورة؟ أين أصحاب سورتين؟ ماذا عملتم فيهما؟.

ويقول هشام بن حسان واصفًا خوف مالك بن دينار من الله وهو يقرأ القرآن: انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ ﴿وَالطُّورِ...﴾ [الطور: 1] حتى بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور:7 ، 8] فبكى الحسن وبكى أصحابه فجعل مالك يضطرب حتى غشي عليه.

ويقول الحارث بن سعيد: كنا عند مالك بن دينار وعنده قارئ يقرأ فقرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: 1] فجعل مالك ينتفض وأهل المجلس يبكون ويصرخون حتى انتهى إلى هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7] فجعل مالك والله يبكي ويشهق حتى غشي عليه، فحمل من بين القوم صريعًا!

كما طالع ابن دينار التوراة، وردد منها أقوالًا عديدة مثل تلك التي تذكر: «أيها الصديقون تنعموا بذكر الله في الدنيا، فإنه لكم في الدنيا نعيم، وفي الآخرة جزاء عظيم»، ومنها أيضا: «سبحوا الله أيها

الصديقون بأصوات حزينة»، و«زمرنا لكم فلم ترقصوا» أي نصحناكم فلم تستجيبوا لنا.

ومن الأقوال التي كان يذكرها من التوراة أيضا على مسامع الناس: «يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يديَّ في صلاتك باكيا، فإني أنا الله الذي اقتربت لقلبك، وبالغيب رأيت نوري». ومنها ما ينسب إلى نبي الله داود عليه السلام: «يا معاشر الأتقياء تعالوا أعلمكم خشية الله أيما عبد منكم أحب أن يحيا ويرى الأعمال الصالحة فليحفظ عينيه أن ينظر إلى السوء ولسانه أن ينطق بالإفك عين الله إلى الصديقين وهو يسمع لهم».

وكان ابن دينار شجاعا لا يخشى في الحق لومة لائم، فها هو يدخل ذات مرة على والي البصرة، فقال له: ادعُ لي. فنظر إليه وقال: كم من مظلوم بالباب يدعو عليك.

وهناك حكاية أخرى تدل على شجاعته وثباته، فقد دخل عليه لص فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك لم تجد شيئا من الدنيا، أترغب في شيء من الآخرة؟ قال: نعم، قال: توضأ وصلِّ ركعتين، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد فسُئل: من ذا؟ قال: جاء ليسرق فسرقناه.

وطالما حضَّ مالك بن دينار على الصدق، بوصفه القيمة الأساسية في الإسلام، وعبر عن هذا قائلا: «الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يُخرج أحدهما صاحبه»، ثم ضرب مثلا شارحا فيه ما يعنيه في هذا المقام فقال: «الصدق يبدو في القلب ضعيفا كما يبدو نبات النخلة، يبدو غصنا واحدا، فإذا نتفها صبي ذهب أصلها وإن أكلتها عنز ذهب أصلها، فتسقى فتنتشر، وتسقى فتنتشر، حتى يكون لها أصل أصيل يوطأ، وظل يستظل به، وثمرة يؤكل منها، كذلك الصدق يبدو في القلب ضعيفا فيتفقده صاحبه، ويزيده الله تعالى، ويتفقده صاحبه فيزيده الله، حتى يجعله الله بركة على نفسه، ويكون كلامه دواء للخاطئين».

وكان ابن دينار عابدا قانتا، يقوم الليل، ذاكرا مسبحا ومتبتلا لله تعالى. وهنا يحكي لنا المغيرة بن حبيب حكاية تدل على هذا، حيث قال: «يموت مالك بن دينار وأنا معه في الدار ولا أدري ما عمله. قال: فصليت العشاء الآخرة ثم جئت فلبست قطيفة في أطول ما يكون الليل. قال: وجاء مالك فقرب رغيفه فأكل ثم قام إلى آخر الصلاة، فاستفتح ثم أخذ بلحيته فجعل يقول: «إذا جمعت الأولين والآخرين فحرم شيبة مالك بن دينار على النار» فو الله ما زال كذلك حتى غلبتني عيني، ثم انتبهت فإذا هو على تلك الحال يقدم رجلًا ويؤخر أخرى يقول: يارب إذا جمعت الأولين والآخرين فحرّم شيبة مالك بن دينار على النار» فما زال كذلك حتى طلع الفجر».

كما كان ابن دينار زاهدا في المال والجاه، ولم يكن يرى في الدنيا شيئا أو أمرا يستحق أن ينشغل به العبد سوى معرفة الله، ولهذا قال: «نظرت في أصل كل إثم فلم أجده إلا حب المال، فمن ألقى عنه حب المال فقد استراح». أما رفض التكالب على متع الدينا الزائلة فقد عبَّر عنه ذات يوم حين خاطب بعض الناس: «يا هؤلاء إن الكلب إذا طرح إليه الذهب والفضة لم يعرفهما، وإذا طرح إليه العظم أكب عليه، كذلك سفهاؤكم لا يعرفون الحق».

وقال جعفر بن سليمان، سمعت مالكا يقول: وددت أن الله يجمع الخلائق، فيأذن لي أن أسجد بين يديه، فأعرف أنه قد رضي عني، فيقول لي: كن ترابا». وكان يقول أيضا: «وددت أن رزقي في حصاة أمتصها لا ألتمس غيرها حتى أموت».

ويقول سلام بن أبي مطيع: دخلنا على مالك بن دينار ليلًا وهو في بيت بغير سراج، وفي يده رغيف يكدمه فقلنا: أبا يحيى ألا سراج؟ ألا شيء تضع عليه خبزك؟ فقال: دعوني فو الله إني لنادم على ما مضى.

وعن أبو داود صاحب الطيالسة قال: سمعت شيخًا كان جارًا لمالك ابن دينار، قد روى عنه قال: كنت مع مالك في طريق مكة فقال: إني داعٍ بشيء فأمنوا عليه، ثم قال: اللهم لا تدخل بيت مالك بن

دينار من الدنيا قليلًا ولا كثيرًا.

واشتهى رغيفًا بلبن رائب فلما ناله جعل مالك يقلبه وينظر إليه ثم قال: اشتهيتك منذ أربعين سنة فغلبتك؛ حتى كان اليوم وتريد أن تغلبني؟ إليك عني، وأبى أن يأكله.

ووقع حريقٌ في بيت مالك فأخذ المصحف وأخذ القطيفة فأخرجهما، فقيل له: يا أبا يحيى البيت، قال: ما لنا فيه السدانة ما أبالي أن يحترق.

وإلى جانب الزهد والذكر كان ابن دينار يرى أن الحزن خصلة من خصال المؤمن؛ لأنه يكون دوما مطاردا بشعور التقصير في حق الله عليه، وخائفا من أهوال يوم القيامة، ولهذا كان يقول: «إذا لم يكن في القلب حزن خرب، كما إذا لم يكن في البيت ساكن يخرب». وكان يقول أيضا: «بقدر ما تحزن للدنيا كذلك يخرج همّ الآخرة».

ومر المهلب على مالك بن دينار متبخترا، فقال: أما علمت أنها مشية يكرهها الله إلا بين الصفين ؟ فقال المهلب : أما تعرفني؟

قال: بلى، أوَّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة. فانكسر، وقال: الآن عرفتني حق المعرفة.

وقال: مذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم، ولم أكره ذمهم؛ لأن حامدهم مفرط، وذامهم مفرط، إذا تعلم العالم العلم للعمل كسره، وإذا تعلمه لغير العمل زاده فخرًا.

وكانت لابن دينار أقوال تنطق بالحكمة والزهد، وتنطوي على معان عميقة، وبصيرة نافذة، وتنبع من تجربة حياتية ذات بال، ومن بينها:

- ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله.

- من تباعد من زهرة الدنيا فذاك الغالب هواه.

- من علامة حب الدنيا : أن يكون دائم البطنة.

- الخوف على العمل أن لا يتقبل أشد من العمل.

- من علامات المنافق : يحب أن ينفرد بالصيت.

- كان الأبرار يتواصون بثلاث: بسجن اللسان، وكثرة الاستغفار، والعزلة.

ولم يقطع المؤرخون بوقت رحيل ابن دينار عن الدنيا، فهناك من يقول إنه توفي بالبصرة سنة 130هـ، 748م، وهناك من يؤكد أنه مات في السنة التي تلتها، وذلك قبل انتشار الطاعون في البصرة.

محيي الدين بن عربي

الشيخ الأكبر وسلطان العارفين

ابن عربي إحدى العلامات في تاريخ الفكر الإنساني كله، وكذلك في تاريخ الآداب والفنون. وهو جسر واصل بين حضارتين، وقنطرة بين المغرب والمشرق الإسلامي في القرون الوسطى، وهو وجه مألوف في معارف اجتماعية شتى؛ لأن عطاءه لم ينقطع بموته، وستظل الإحالة إليه، والاقتباس منه، والاستفادة مما تركه وراءه من صدقة العلم الجارية، قائمة ودائمة إلى قيام الساعة.

ما إن يُذكر محيي الدين بن عربي حتى تحل في العقل معارفه الواسعة وإنتاجه الفكري الغزير، وتحل في النفس سماحته وتسامحه، وترد إلى الخاطر كنيته التي لم يسمَّ بها غيره وهى «الشيخ الأكبر»، ويفيض القلب بنور العشق الإلهي الغامر، ويقفز إلى الذاكرة بعض عطاء حضارة عظيمة، قادت الدنيا في القرون الوسطى، وأنارت للعالم طريقه إلى النهضة الحديثة. لكن هذا كله يرد إلى العقل والقلب والخاطر مشوبًا بجدل وغموض، بل ربما تحيّر، من بعض آرائه، التي لا يمكن هضمها بسهولة ويسر.

في موسوعته عن الفلسفة والفلاسفة يذكر الدكتور عبد المنعم الحفني أن ليس ثمة من يضاهي ابن عربي في تاريخ الفكر قديمه وحديثه في الإنتاج المعرفي، إذ إن الرجل ألّف نحو مئتين وتسعة وثمانين كتابًا ورسالة كما يقول هو عن نفسه، أو خمسمئة كتاب كما يذكر عبد الرحمن جامى صاحب كتاب «نفحات الأنس»، أو أربعمئة كتاب حسب إحصاء الشيخ عبد الوهاب الشعراني في متن كتابه «اليواقيت والجواهر».

ويقول أبو العلا عفيفي في هذا المضمار: «للشيخ ابن عربي من المؤلفات ما لا يكاد العقل يتصور صدوره عن مؤلف واحد، لم ينفق كل لحظة من لحظات حياته في التأليف والتحرير، بل شغل شطرًا غير قليل منها فيما يشغل به الصوفية أنفسهم من ضروب العبادة والمجاهدة والمراقبة والمحاسبة. ولو قيس ابن عربي بغيره من كبار مؤلفي الإسلام المتفلسفين من أمثال ابن سينا والغزالي لبزَّهم جميعًا في ميدان التأليف من ناحية الكم والكيف على السواء».

أما الدكتور فيصل بدير عون فيقيّم مؤلفات ابن عربي قائلًا: «يصعب على المرء أن يتصور كيف أن ابن عربي بمفرده استطاع أن يدوّن هذه المؤلفات المتباينة، وأن يقف على كل فرع من موضوعاتها موقف الباحث المتمكن من موضوع بحثه».

وقد راقت أفكار ابن عربي وفيوضاته الصوفية لكثير من المستشرقين، فقال عنه الألمانى بروكلمان إنه من «أخصب المؤلفين عقلًا وخيالًا»، فيما قال عنه نيكلسون: «إنه عبقري الإسلام في الأندلس بدراساته الجريئة في الإلهيات، والتى عبّدت الطريق أمام اللاهوت المسيحي، فاقتدي به، فكان له عظيم الأثر في النهضة الأوربية الحديثة».

ولذا يصف آسين بلاثيوس ابن عربي بأنه: «الأستاذ الحقيقي للنهضة الصوفية في أوربا». وقد تتلمذ دانتي على كتب ابن عربي في المنهج والأسلوب، وفي الصور والأمثال والمصطلحات.

هو أبو بكر محمد بن علي محيي الدين الحاتمي الطائي (نسبة إلى حاتم الطائي رمز الكرم العربي) ولد سنة 1164م في مدينة مرسية من أعمال الأندلس. وكان يعرف هناك باسم «ابن سراقة»، لكن كنيته في المشرق كانت «ابن عربى». رحل إلى إشبيلية وهو في الثامنة من عمره، ليمكث فيها نحو ثلاثين عامًا، عاكفًا على دراسة الفقه والحديث، اللذين أتم دراستهما في مدينة «سبتة»، ليزور تونس، ومنها إلى المشرق بغير رجعة، حيث جال على مكة وبغداد وحلب والموصل وآسيا الصغرى، لتنتهى رحلته في دمشق، التي لقي فيها ربه عام 1240م، ودفن في جبل قاسيون.

ينتمي ابن عربي إلى أسرة ذات دين وتقوى، تميل إلى الزهد والتصوّف، وهو ما يشرحه الشيخ الأكبر نفسه في «الفتوحات المكية» كتابه ذائع الصيت، حيث يقول عن خاله أبو مسلم الخولاني «كان يقوم الليل، فإذا أدركه العياء ضرب رجليه بقضبان كانت عنده، ويقول لرجليه: أنتما أحق

بالضرب من دابتي». ويقول عن عمه عبد الله بن محمد العربي: «كان له هذا المقام حسًّا ومعنى. شاهدت ذلك قبل رجوعي لهذا الطريق في زمان جاهليتى». ولم يكن والد ابن عربي نفسه استثناءً من ذلك، إذ عرف عنه الورع والصلاح، وألهمه الله بعلم لدني، يستشف من قول الابن عنه: «كان قبل أن يموت بخمسة عشر يومًا أخبرني بموته يوم الأربعاء. وكذلك كان. فلما كان يوم موته وكان مريضًا شديد المرض، استوى قاعدًا غير مستند، وقال لي: يا ولدي، اليوم يكون الرحيل واللقاء! فقلت له: كتب الله سلامتك في سفرك هذا، وبارك لك في لقائك.

ففرح بذلك وقال لي: جزاك الله يا ولدي عني خيرًا، فكل ما كنت أسمعه منك تقوله ولا أعرفه، وربما كنت أنكر بعضه، هو ذا أنا أشهده... فقبلت يده وودعته، وخرجت من عنده، وقلت له: أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن يأتيني نعيك. فقال لي: رح ولا تترك أحدًا يدخل عليَّ. وجمع أهله وبناته، فلما جاء الظهر جاءني نعيه، فجئت إليه فوجدته على حاله، يشك الناظر فيه بين الحياة والموت، وعلى تلك الحال دفناه، وكان له مشهد عظيم».

ويضع ابن عربي في كتابه «تحفة السفرة» عشرة شروط للتصوّف هي: القعود في بيت مظلم ضيق، المداومة على الوضوء، المداومة على ذكر لا إله إلا الله، تفريغ الخواطر عن جميع الشواغل، المداومة على الصوم، المداومة على قلة الكلام، المراقبة لطلب الهمة والمعاونة، ترك الاعتراض على الله تعالى لحصول القبض والبسط، والألم والراحة، والصحة والسقم، انقطاع النظر عن كل ما سوى الله تعالى، والصبر على الشدائد. ويعوّل ابن عربي على ضرورة أن يتعلم المريد التصوف على يد شيخ، يكون ملمًا بكل صغيرة وكبيرة في شؤون الدين، ولديه تجربة روحية خالصة ومشهودة، تجعله أهلًا للنصح والإرشاد، ولديه صرامة في الأدب والأخلاق، تجعله مهابًا في نفس المريد، مقنعًا له، قادرًا على أن يعاقبه عن كل ما يبدر منه من أخطاء.

ويحدّد ابن عربي صفات عدة للمريد، منها العزلة والصمت والجوع والسهر والتوبة والإخلاص والمحبة واليقين. والعزلة تنصرف إلى عزلة الحال التي تعني اعتزال المريد كل صفة مذمومة وكل خلق دني، وعزلة القلب التي تعني عدم التعلق بأحد أو شيء من خلق الله، سواء امرأة أو مال أو ولد أو أي كائن حي، وعزلة الحس التي تروم الانقطاع عن الناس في خلوة أو عبر السياحة والسير في مناكب الأرض. وعلى المريد أن يستغل هذه الخلوة في الذكر وقراءة القرآن الكريم، من دون أن يستزيد في هذا، بل يكفيه حزب كل ليلة يقيم به صلاته، ولا يستغرق في الأوراد والطقوس، بل يجعل جل ذكره في قلبه، يؤديه صامتًا، سابحًا في ملكوت الله تعالى.

وهنا تأتي الصفة الثانية وهي الصمت، التي تفرض على المريد ألا يتكلم مع أي مخلوق، إلا عند الضرورة القصوى، وألا يتكلم مع نفسه، أي لا يحدّثها بشيء مما يرجوه من الله سبحانه وتعالى. ويقوم الترغيب في الصمت لدى ابن عربي على أن «القلب لا يتسع للحديث والذكر معًا». والصفة الثالثة وهي الجوع مردّها إلى أن ملء البطن يثقل الروح، ويطغى على الجوارح؛ لذا فإن العابد الزاهد عليه التقليل من الطعام، إلى الحد الذي لا يزيد على ما يحتاجه من جهد في العبادة.

أما الرابعة فتتعلق بالسهر الذي هو زاد للعبادة؛ لأنه يجلي البصيرة. وبعدها تأتي التوبة التي هي ماء المريد وهواؤه، وهي تختلف من إنسان إلى آخر حسب درجة علمه وتعلمه، ودينه وتدينه، وهي تصعد من العامي إلى المتدين إلى الولي إلى النبي. وثمة توبة الفاسقين التي تتطلب ندم الفاسق على ما اقترف من ذنوب، وتركه لها في الحال، ورده الحق إلى أصحابه، ويؤدي ما فاته من فرائض، ثم يتماهى في طاعة الله تعالى. وتوجد توبة الكافرين، التي تعني رجوعهم إلى الإسلام والإيمان. وثمة توبة خاصة الخاصة، التي تعني التوبة من الغفلة عن ذكر الله، والانشغال بغيره.

ويشترط ابن عربي أن يكون المريد مخلصًا، لا يرائي ولا ينافق، يحرص على أن يتسق فعله مع قوله، ويوجه عمله خالصًا لوجه الله تعالى، ويصفيه من كل ما يشوبه من نقائص أو شرك خفي. كذلك

يشترط في المريد أن يكون محبًّا لله، ولا يتسع قلبه لحب سواه.

من القضايا الرئيسية في فكر ابن عربي «وحدة الأديان»، فالرجل يؤمن بأن القول بالكثرة والتعدد وهم وخداع للحواس وقصور من العقل البشري؛ لأن الحق واحد، والمنهل والمآل واحد، والحقيقة واحدة وهي الذات الإلهية، ولهذا يرى ابن عربي أن العابد الحق هو من يعبد الله في كل هذه الصور، ومن يتسع لصدره كل ما يقرب من الله من مظاهر العبادة وطقوسها، لأن عبادة أي موجود من الموجودات وفي أي مكان، وأي زمان، وعلى أي صورة، هي عبادة لله الواحد، ولهذا يقول: «العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء... العارف من رأى كل معبود مجل للحق يعبد فيه. ولذلك سموه كلهم «إلهًا» مع اسمه الخاص بحجر أو شجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو ملك». وهذا الرأى جعل كثيرين يرمون ابن عربي بالتجديف والتساهل في عقيدته.

وفي هذا المضمار أنشد ابن عربي مقطوعة شعرية تتناقلها الأمم كشعار للتسامح الديني، ورآها آخرون تفريطًا واضحًا، ألا وهي:

لقد صار قلبى قابلًا كل صورة

فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف

وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنَّى توجهت

ركائبه فالدين ديني وإيماني

ميّز ابن عربي بين مفهوم الناس للألوهية وبين ذاتها أو «عين الله»، ففي نظره فإن الذات واحدة لا تعدّد فيها ولا تجزئة ولا انقسام، وهي لا يمكن إدراكها بأي سبيل للإدراك. أما الألوهية كمفهوم فتتصورها الأذهان على هيئات متعددة. وهنا يقول: «كان الله ولا شيء معه، إنما هو الألوهية لا الذات. وكل حكم يثبت في باب العلم الإلهي للذات إنما هو للألوهية، وهي نسب وإضافات وأسلوب. فالكثرة في النسب لا في العين. وهنا زلت أقدام من شرك، بين ما يقبل التشبيه، وبين ما لا يقبله».

كذلك يؤمن ابن عربي بـ «وحدة الوجود» إيمانًا راسخًا، جعل من هذا التصور العمود الفقري لفكره وفلسفته الصوفية برمتها. ويبدأ هذا التصور من اعتقاده في أن الوجود الإلهي هو الوحيد الذي يتسم بالأصالة وينطوي على الحقيقة، فهو الوجود الحق والمطلق والثابت والواحد، والذي لا يحتاج إلى برهان، فهو أفصح وأوضح من أي دليل، وأعلى من أي إثبات؛ لأن الله تعالى موجود في كل الأمكنة والأزمنة، وهو أقرب لعباده من حبال أوردتهم.

وتنطلق هذه الرؤية من أن الوجود واحد، وهذا هو الجوهر، وأن الكثرة التي يبدو عليها مجرد عوارض، وهى وهم وخداع كبير من خداع الحواس، فالأصل في العالم الوحدة لا الكثرة، وتلك الكثرة تستمد وجودها من الوحدة، وهي تعبير عنها. والحق والخلق ممتزجان، لا انفصال بينهما. وهنا ينظم ابن عربي:

فالكل مفتقر ما الكل مستغن

هذا هو الحق قد قلناه لا نكني

فإن ذكرت غنيا لا افتقار به

فقد علمت الذي بقولنا نعني

فالكل بالكل مربوط فليس له

عنه انفصال خذوا ما قلته عني

وفي فصوص الحكم يوضح ابن عربي هذه الرؤية بقوله: «للحق في كل خلق ظهور، فهو الظاهر في كل مفهوم، وهو الباطن عن كل فهم إلا عن فهم من قال إن العالم صورته وهويته. وهو الاسم الظاهر، كما أنه بالمعنى روح ما ظهر. فهو الباطن. فنسبته لما ظهر من صور العالم نسبة الروح المدبرة للصورة. فيؤخذ في حد الإنسان، مثلًا، ظاهره وباطنه، وكذلك كل محدود. فالحق محدود بكل حد. وصورة العالم لا تنضبط ولا يحاط بها، ولا تعلم حدود كل صورة منها إلا على قدر ما حصل لكل عالم من صورته، فلذلك يجهل حد الحق، فإنه لا يعلم حده، إلا بعلم حد كل صورة. وهذا محال حصوله، فحد الحق محال. وكذلك من شبهه وما نزهه، فقد قيده وحدده وما عرفه، ومن جمع في معرفته بين التنزيه والتشبيه بالوصفين على الإجمال؛ لأنه يستحيل ذلك على التفصيل لعدم الإحاطة بما في العالم من الصور، فقد عرفه مجملًا لا على التفصيل».

يروم ابن عربي في فلسفته الوصول إلى «الإنسان الكامل»، الذي يحمل من كل صفات الله تعالى، ويصبح «عين العالم»، وكما أن الحضرة الإلهية جامعة الأسماء كلها، فكذلك الحضرة الإنسانية، والإنسان هو عين الحق وعين صفاته، فهو حق وخلق، وأحد وكثير. ومن ثم فالإنسان يجمع بين لونين من الصفات، فهو أزلي أبدي بوصفه عين الحق، وهو عارض حادث، باعتباره نموذجًا للخلق.

ويعود ابن عربي في هذا إلى ما نص عليه القرآن الكريم ذاته من أن الإنسان هو خليفة الله في أرضه، ويذهب المفسّرون والفقهاء في شرح شروط وصفات هذه «الخلافة» بما يشير إلى أن البشر يحملون من كل صفات الله، لكن بقدر إمكانات الإنسانية، التي لا ترتقي ولا يمكن أن تقارن بإمكانات الألوهية، وأن غاية ما يفعله الفرد هو أن يصل إلى الكمال الإنساني. أما ابن عربي فيذهب إلى ما هو أبعد من هذا حين يقول: «أما إنسانيته فلمعلوم نشأته، وحصر الحقائق كلها، وهو للحق بمنزلة إنسان العين من العين، الذي يكون به النظر، وهو المعبر عنه بالبصر، فلهذا سمي إنسانًا، فإنه به ينظر الحق إلى خلقه فيرحمهم. فهو الإنسان الحادث الأزلي والنشء الدائم الأبدي، والكلمة الفاصلة الجامعة. قيام العالم بوجوده. فهو من العالم كفص الخاتم من الخاتم. وهو محل النقش والعلامة التي يختم بها الملك على خزانته».

لكن الإنسان في رؤية ابن عربي ليس مسؤولًا عن شيء؛ لأن هذه المسؤولية التي تنبع من التكليف تتطلب حرية في الاختيار، وقدرة على الفعل أو الإحجام عن الفعل، وبناء عليه يعتقد ابن عربي - على النقيض مما يبين الشرع الإلهي في الأديان السماوية كافة - أنه لا ثواب على الخير، ولا عقاب على الشر، وأن كل ما في العالم خير عميم، يعبر عن العدل الإلهي، وأن الحديث عن الخطأ والسوء والخطيئة هو من قبيل الجهل بالقوانين الإلهية، ولذا فلابد من أن تختفي من قواميسنا مصطلحات الندم على الخطأ، والقلق من الإقدام على بعض الأفعال، والخوف من أي عقاب.

ومثل هذا التصور قاد ابن عربي إلى حديث مستفيض عن القضاء والقدر، أو الجبر والاختيار، يقول فيه: «فسر القدر من أجل العلوم. وما يفهمه الله تعالى إلا لمن اختصه بالمعرفة التامة. فالعلم به تعطى الراحة الكلية للعالم به. ويعطى العذاب الأليم للعالم به أيضًا. فهو يعطى النقيضين، وبه وصف الحق نفسه بالغضب والرضا، وبه تقابلت الأسماء الإلهية. فحقيقته تحكم في الوجود المطلق والوجود المقيد لا يمكن أن يكون شيئًا أتم منها، ولا أقوى ولا أعظم لعموم حكمها المتعدي وغير المتعدي». وهذا يجعل ابن عربي مؤمنًا بـ «الجبرية» راضيًا تمامًا بقضاء الله وقدره، وجبريته تنبع من «الوحدة» أو «الاتحاد»، التي تجعل الإنسان يطيع الإرادة الإلهية؛ لأنه لا يأتي على أي فعل إلا ما يوافقها.

وترك ابن عربي وراءه مؤلفات عديدة من أهمها: الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والمكية، فصوص الحكم، ترجمان الأشواق، مشكاة الأنوار فيما روي عن النبي من أخبار، حلية

الأبدال، الدرة الفاخرة، مشاهدة الأسرار، كتاب المصباح في الجمع بين الصحاح في الحديث، اختصار مسلم، اختصار الترمذي، اختصار المحلي، الجمع والتفصيل في أسرار معاني التنزيل، التنزلات الموصلية، تاج الرسائل، عنقاء مغرب، التدابير الإلهية، تفسير الشيخ الأكبر، تحفة السفرة في حضرة البررة، مفتاح السعادة في معرفة الدخول إلى طريق الإرادة، سر الأسماء الحسنى، الشفاء العليل في إيضاح السبيل، الحكمة الإلهية، عقلة المستوفر، جلاء القلوب، شجرة الكون، السراج الوهاج في شرح كلام الحلاج، إنزال الغيوب على سائر القلوب، أسرار قلوب العارفين، مشاهدة الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية.

معروف الكرخي

العارف المتسامح

قال إن الطريق إلى الطاعة لله عزّ وجلّ هو بخروج الدنيا من القلوب، رأى فتيانًا يعزفون ويشربون الخمر فرفع يديه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة، فلما تعجب أصحابه قال: إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضركم شيء. سار وراء جنازته ثلاثمئة ألف شخص فلما دفنوه تحولوا إلى جنازة أبو نواس وصلوا عليه فقيل قد غفر له بصلاة مشيّعي معروف الكرخي.

لم يكن غزير العلم، لكنه كان كثير العطاء، قرن قوله بفعل، كره الجدل، وروى الناس عنه كرامات عدة. كان كثير الصيام والقيام والمجاهدة، لكن أهم قيمة تركها لمن عاصروه وجاءوا بعده هي التسامح. فقلب شيخنا كان مفتوحًا للجميع، وعقله لم يغلق يومًا أمام أحد حتى ولو من كارهيه أو من ناصبوه العداء. في حياته ومماته دليل دامغ على أن المسلمين في زمن ازدهار حضارتهم عرفوا وألفوا التعايش المذهبي، وتركوا الأبواب مفتوحة على مصاريعها أمام كل ما رام معرفة، أو سعى إلى هداية.

هو معروف بن فيروز الكرخي ويكنَّى بـ «أبو محفوظ»، كان أحد رموز الصوفية الكبار في بغداد، واشتهر بزهده وورعه وتقواه. وكان خليفة القطب المعروف أبو سليمان داود الطائي. ويقال إنه أخذ الطريقة من مسلكين، الأول عن الشيخ داود الطائي عن الشيخ الحبيب العجمي عن الشيخ الحسن البصري عن الإمام علي. والثاني عن الإمام علي الرضا عن الإمام موسى الكاظم عن الإمام جعفر الصادق عن الإمام محمد الباقر عن الإمام علي زين العابدين عن الإمام الحسين عن الإمام علي. وقد روى عن داود الطائي وابن السماك وعلي الرضا وبكر بن خنيس.

وُلد الكرخي مسيحيًّا، لكنه تحوّل إلى الإسلام في ميعة الصبا، وتسبب في إدخال والديه إلى هذا الدين. وكان مؤدب الصبي، يقول له: «ثالث ثلاثة» فيرد معروف في ثقة: «بل هو الواحد الصمد»، فعنفه لذلك تعنيفًا شديدًا، وضربه ضربًا مفرطًا، فهرب منه، وانقطعت أخباره لفترة، تركت في قلبَي والديه حزنًا دفينًا. وكان الأبوان يقولان: ليته يرجع إلينا، على أي دين كان، فنوافقه إليه. فلما رجع ذات يوم ودق الباب، قيل: من؟ قال: معروف، فقالا: على أي دين؟ قال: دين الإسلام؛ فأسلم أبواه.

وتُروى الواقعة ذاتها بدقة على لسان أخيه عيسى؛ إذ يقول: كنتُ أنا وأخي معروف في الكُتَّاب وكنا نصارى، وكان المعلم يعلم الصبيان «أب» و«ابن»، فيصيح أخي معروف «أحد أحد»، فيضربه المعلم على ذلك ضربًا شديدًا، حتى ضربه يومًا ضربًا عظيمًا، فهرب على وجهه. فكانت أمي تقول: لئن ردَّ الله عليَّ ابني معروفًا لأتبعنه على أي دين كان. فقدم عليها معروف بعد سنين كثيرة فقالت له: يا بُني على أي دين أنت؟ قال: على دين الإسلام، قالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فأسلمت أمي، وأسلمنا كلنا.

ويقال إنه دخل الإسلام عن طريق الإمام علي بن موسى الرضا، وظل قائمًا على بابه، فبات بذلك قريبًا من الشيعة، ثم تحوّل إلى باب الإمام أحمد بن حنبل، فصار قريبًا من السنّة.

وشهد للكرخي أهل زمانه من العلماء والفقهاء والصالحين وأهل الطريق. فقد ذكر معروف لدى الإمام أحمد بن حنبل فوصفه أحدهم بأنه قصير العلم، فقال ابن حنبل: «أمسك وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف».

ويقول عنه تلميذه الصوفي الكبير السري السقطي: هذا الذي أنا فيه من بركات معروف، انصرفت من صلاة العيد فرأيت مع معروف صبيًا شعثًا، فقلت: من هذا؟ قال: رأيت الصبيان يلعبون وهذا واقف منكسر فسألته: لمَ لا تلعب؟ قال: أنا يتيم، قال سري: فقلت له: فما ترى أنك تعمل به؟ قال: لعلّي أخلو فأجمع له نوى يشتري بها جوزًا يفرح به، فقلت له: أعطنيه أغير من حاله، فقال لي: أوَتفعل؟ فقلت: نعم، فقال لي: خذه أغنى الله قلبك، فسويت الدنيا عندي بأقل من كذا.

وفي رواية أخرى، قال العباس بن مسروق: بلغني أن السري السقطي، كان يتجر في السوق وهو من أصحاب معروف الكرخي، فجاء معروف يومًا ومعه صبي يتيم، فقال له: أكْسُ هذا اليتيم قال السري: فكسوته، ففرح به معروف وقال: بغَّضَ الله إليك الدنيا وأراحك مما أنت فيه. فقمت من الحانوت وليس شيء أبغض إليَّ من الدنيا، وكل ما أنا فيه من بركات معروف.

وسأل سفيان بن عيينة رجالًا من أهل بغداد ذات يوم: ما فعل ذلك الحبر الذي فيكم ببغداد؟ قالوا: من هو؟ قال: أبو محفوظ معروف. قلنا: بخير. قال: لا يزال أهل تلك المدينة بخير ما بقي فيهم.

وقال يحيى بن جعفر: رأيت معروفًا يؤذن فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله، رأيت شعر لحيته وصدغه قائمًا كأنه زرع.

وقال عنه إبراهيم البكار: كان رضي الله عنه من السادات الأجلاء، وشيخًا عظيمًا مبجلًا، وكان كلامه حِكمًا وعِبرًا، كلامه في الزهد والتصوف أخذ بالقلوب، وأثرت مواعظه في أفئدة الرجال، ترى في كلامه عبارات إنسان عاقل فطن أخذته الشفقة على الخلق.

وقد شهد أبو حيان التوحيدي له بالتسامح في كتابه «مثالب الوزيرين» حين تحدث عن موقف الوزير الصاحب بن عباد، من المتكلمين، حين قال: «ما قولي هذا فيهم إلا قولك يوم اجتماعنا في مقبرة معروف الكرخي لبعض الشيعة». وفي هذا دلالة على أن ضريح الكرخي كان مقرًّا لمناظرات بين المختلفين في المذاهب والرؤى والتصوّرات والتأويلات.

ويقول الباحث المسيحي يعقوب سركيس في «مباحث عراقية»: كان معروف الكرخي متسامحًا، وقريبًا من الجميع.

وما نُسب إلى الكرخي من أقوال وأفعال تبيّن زهده وإخلاصه، وحرصه على محاسبة نفسه، ومواصلة ذكر الله تعالى بلا كلل ولا ملل. فقد كان يرى أن الدنيا أربعة أشياء هي: المال، والكلام، والمنام، والطعام. فالمال يُطغي، والكلام يُلهي، والمنام يُنسي، والطعام يسقي. وكان يرى أن «قيام الليل نور للمؤمن يوم القيامة يسعى بين يديه ومن خلفه، وصيام النهار يبعد العبد من حر السعير».

وسئل كيف تصوم؟ فغالط السائل، وقال: «صوم نبينا كان كذا وكذا وصوم داود كذا وكذا» فألح عليه فقال: «أصبح دهري صائمًا فمن دعاني أكلت ولم أقل إني صائم».

ويروي عبيد بن محمد الوراق أن معروف مرّ وهو صائم بسقاء يقول: رحم الله من شرب، فشرب رجاء الرحمة.

وكان الكرخي يدعو إلى الفهم والصدق والعمل، فها هو يروي: «سمعت بكر بن خنيس يقول كيف تتقي وأنت لا تدري ما تتقي»، ثم يردد: «ما أكثر الصالحين، وأقل الصادقين في الصالحين». وفي هذا سئِل: ما علامة الأولياء؟ فقال: ثلاثة: همومهم للهِ، وشغلهم فيه، وفرارهم إليه. وسئل أيضًا عن الطائعين بأي شيء قدروا على الطاعة لله عز و جل؟ فقال: «بخروج الدنيا من قلوبهم».

أما بالنسبة إلى فضل الفعل على القول، فيحدث أصحابه قائلًا: «إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فتح عليه باب العملِ، وأغلق عنه باب الجَدل. وإذا أراد الله بعبدٍ شرًّا، أغلق عنه باب العملِ، وفَتح عليهِ باب الجَدلِ».

وكان الكرخي مشغولًا دائمًا بذكر الله، فها هو يقول: ينادي منادٍ يوم القيامة يا مادح الله قم فلا يقوم إلا من كان يكثر قراءة «قل هو الله أحد». ويطبق هذا على نفسه في واقعة يرويها البعض عنه، من أن إنسانًا قصّ شارب معروف فلم يفتر من الذكر، فقال: كيف أقص؟ فقال: أنت تعمل وأنا أعمل. وقال محمد بن منصور الطوسي: قعدت مرة إلى معروف فلعله قال: واغوثاه يا الله عشرة آلاف مرة وتلا: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم».

وكان معروف مخلصًا في عبادته، حريصًا على أن يتجنب الذنوب جميعًا، ويتّقي الله تعالى في كل حركاته وسكناته، فها هو يقول: «إذا كنت لا تحسن تتقي، أكلت الربا، ولقيت المرأة فلم تغض عنها، ووضعت سيفك على عاتقك... إلى أن قال: ومجلسي هذا ينبغي لنا أن نتقيه فتنة للمتبوع وذلة للتابع». ويقول أيضا: «غضوا أبصاركم، ولو عن شاةٍ أنثى». وكان يقول كذلك: «ما أبالي رأيت امرأة أو رأيت حائطًا».

وقيل أتى رجل بعشرة دنانير إلى معروف فمر سائل فناوله إياها وكان يبكي ثم يقول: «يا نفس كم تبكين أخلصي تخلصي». وقيل اغتاب رجل لدى معروف، فقال له: «اذكر القطن إذا وضع على عينيك».

وكان يقول: «من كابر الله صرعه، ومن نازعه قمعه، ومن ماكره خدعه، ومن توكل عليه منعه، ومن تواضع له رفعه، كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله».

وقد أنشد مرة في السحر وهو ينوح ويبكي:

أي شيء تريد مني الذنوب

شغفت بي فليس عني تغيب

ما يضر الذنوب لو أعتقتني

رحمة لي فقد علاني المشيب

ومن الوقائع التي تدلّ على تسامحه، وسعة أفقه، أنه نزل يومًا إلى دجلة يتوضأ ووضع مصحفه وملحفة فجاءت امرأة فأخذتهما، فتبعها، وقال لها: أنا معروف، لا بأس عليكِ، ألكِ ولد يقرأ القرآن؟ قالت: لا، قال: فزوج، قالت: لا، قال: فهاتِ المصحف، وخذي الملحفة. وكان قاعدًا على دجلة ببغداد حين مرّ به غلمان في زورق، يضربون الملاهي ويشربون الخمر؛ فقال له أصحابه: ما ترى هؤلاء يعصون! ادعُ الله عليهم!، فرفع يديه إلى السماء، وقال: إلهي وسيدي، كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرّحهم في الآخرة. فقال له أصحابه: إنما قلنا لك: ادعُ عليهم، فقال: إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا، ولم يضركم شيء.

وفي واقعة أخرى تدل على تسامحه، قال الحنفي في «الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية»: «لما اعترض أحد مريدي الشيخ معروف على أسفه لعدم تمكنه من الصلاة على جنازة الإمام أبي يوسف بقوله: أنت تأسف على رجل من أصحاب السُّلطان يلي القضاء، ويرغب في الدنيا إن لم تحضر جنازته؟ أجابه بالقول: رأيت البارحة كأني دخلت الجنة، فرأيت قصرًا قد فرشت مجالسه، وأرخيت ستوره، وقام ولدانه، فقلت لمن هذا القصر؟ فقالوا ليعقوب بن إبراهيم الأنصاري أبي يوسف، فقلت سبحان الله بِمَ استحق هذا من الله؟ فقالوا: بتعليمه الناس العلم، وصبره على أذاهم».

مما روي عن كراماته أن أحدهم في بغداد فقد ابنًا له، فشكى ذلك إلى صديقه، فنصحه بأن يذهب إلى معروف الكرخي كي يدعو الله له حتى يرد عليه ولده. فلما جاء الرجل إلى الكرخي رفع يده إلى السماء وقال: اللهم إن الأرض أرضك، والسماء سماؤك، وما بينهما ملكك، فاردد عليه ولده. فذهب الرجل إلى أحد أبواب بغداد فوجد ابنه واقفًا مذهولًا فقال له: يا أبت إني كنت الآن بالأنبار.

وقال ابن شيرويه: قلت لمعروف بلغني أنك تمشي على الماء، قال: ما وقع هذا، ولكن إذا هممت بالعبور جمع لي طرفا النهر فأتخطاه.

وروى أبو العباس بن مسروق عن محمد بن منصور الطوسي: «كنت عند معروف ثم جئت وفي وجهه أثر فسئل عنه، فقال للسائل: سل عما يعنيك عافاك الله. فأقسم سائله عليه، فتغير وجهه، ثم قال: صليت البارحة، ومضيت، فطفت بالبيت، وجئت لأشرب من زمزم، فزلقت، فأصاب وجهي هذا.

وقال ابن مسروق نفسه: حدثنا يعقوب ابن أخي معروف أن معروفًا استسقى لهم في يوم حار، فما استتموا رفع ثيابهم حتى مطروا.

وعن عامر بن عبد الله الكرخي أنه قال: كان في جواري نصراني فقال لي: ما حصلت من عمري ثمرة ولا ولد لي فانطلق إلى ولي ليهب لي ربي ولدًا فأتيت به إلى مجلس معروف الكرخي فذكرت حاله، فكلفه أولا بالإسلام، فقال النصراني: ما تقدر على إسلامي بغير هداية الله تعالى. فدعا الشيخ ورفع كفيه وقال: اللهم إني أسألك أن ترزقه ولدًا يكون بارًا بوالديه ويكون سبب إسلامهما. فاستجاب الله دعوة الشيخ، وولد له ولد فشب وصار لايقًا للتعليم فأجلسه أبوه عند معلم، فقال المعلم: القلب ما أقول، فقال الولد: لساني عن التثليث معقول وقلبي بحب الواحد مشغول. فقال المعلم: حصِّل الذي عليه ملتك ودع الذي لا دليل له فإن لساننا كليل عن ذلك. فلما ابتدأ بحروف الهجاء قفا كل حرف بتوحيد الله تعالى فوافق التوفيق المعلم فأجرى كلمة الشهادة في قلبه وذهب بالصبي إلى أبويه ووصف لهما فطنته وذكاءه وكمال عقله واستدلاله ودعاهما للإسلام فكسرا الصليب وأسلما وتبعهما قدر خمسمئة نفس للإسلام. فهذا ببركة دعائه وفيض أنفاسه لذلك الصبي.

وقد أفرد ابن الجوزي قسطًا وافرًا في الحديث عن كرامات الكرخي، في كتابه الشهير «صفة الصفة».

سكن الكرخي بغداد ومات فيها ودُفن عام 200هـ، 815م، في مقبرة الشونيزية على جانب الكرخ من بغداد، وسميت فيما بعد «مقبرة الشيخ معروف».

ويقول ابن نباتة في «سرح العيون»، شيعت بغداد في ساعة واحدة معروف الكرخي وأبا نواس، وربما دُفنا في مكان واحد. وقال أبو العتاهية: تُوفي أبو نواس ببغداد سنة مئتين هو ومعروف الكرخي في يوم واحد، فخرج مع جنازة معروف ثلاثمئة ألف، ولم يخرج مع جنازة أبي نواس غير رجل واحد، فلما دفن معروف، قال قائل: أليس جمعنا وأبا نواس الإسلام! ودعا الناس فصلوا عليه، فرئي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بصلاة الذين صلوا على معروف وعليَّ.

وعلى رغم تقادم الزمن، وتوالي الغزاة على بغداد، وتخريب الكثير من آثارها على أيدي المغول والعثمانيين والإيرانيين، فإن قبر الكرخي بقي مصانًا إلى الآن، وهو ما يفسره رشيد خيون بقوله: لعلَّ في ذلك إيماءة أخرى إلى أن صاحب الضريح ظل معروفًا بين الناس فوق الميول والاتجاهات.

ويقول أبو بكر الزجاج: قيل لمعروف الكرخي في عِلَّتِه: أوصِ، فقال: إذا متُّ فتصدقوا بقميصي هذا فإني أحب أن أخرج من الدنيا عريانًا كما دخلت إليها عريانًا.

النفــري

الصوفي الذي اتسعت رؤيته
فضاقت عبارته

صوفي وفيلسوف كبير ترك خلفه رؤى وتصورات غاية في العمق والتركيب، استغلقت على أفهام كثيرين، فحرمته من شهرة يستحقها، واهتمام كان سيفتح بابا وسيعا للاستفادة من عطائه المختلف، إلا أنه وبعد زمن التقطه أولو الألباب الباحثون عن الحكمة المصفاة، واهتدى إليه أصحاب الأفئدة العامرة بالإيمان لينهلوا من مواقفه ومخاطباته، واكتشفه المحتفون بالجمال من شعراء هذا الزمن ليقولوا من خلاله للغرب، عرفنا «شعر الحداثة» قبلكم بقرون، والدليل ما تركه لنا النفري.

وكانت لهذا الصوفي أحوال متفردة، وطقوس خاصة؛ إذ كان يعشق الترحال الدائم، لا يستقر في مكان، ولا يأنس إلى إنسان، إنما يمضي متوحدا مع ذاته، هائما في ملكوت الله تفكرا وتدبرا، ولذا يصفه رينولد نيكلسون بأنه «درويش جوَّاب آفاق، مغامر في أقطار الأرض». وقد كان يتعمد التخفي عن العيون، ملتزما بالصمت، غير منشغل بشيء ولا بأحد، مستكف ومستغن بالله عن العالمين. ويقال إنه قد عاصر محنة الحلاج ومأساته، فآثر، كغيره من أهل التصوف، الكتمان، ومارس التقية بصرامة شديدة.

هو محمد بن عبد الجبار بن حسن الملقب بالنفري، نسبة إلى بلدة «نِفَّر» بالقرب من الكوفة في العراق، والتي يعود أصل اسمها إلى مدينة بابلية قديمة اسمها Nippur، كانت مركزًا دينيًّا مهمًّا قبل نحو أربعة آلاف سنة، وكان فيها معبد آكور الذي يُعبَد به «الرب إنليل»، سيد الهواء. ومن بعدُ أصبحت مركزًا للديانة المانوية، ثم المسيحية في القرن السابع الميلادي.

لكن أحدًا لا يعرف على وجه اليقين متى ولد النفري، بل إن تاريخ وفاته غير متفق عليه، والأدهى من ذلك أن هناك اختلافا حول نسبة وتصنيف كتابه الشهير «المواقف والمخاطبات»؛ إذ ينسبه البعض لشخص آخر هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله النفري، ويقولون إن حفيده محمد هو الذي قام بتجميع أشتاته، وتنظيم شذراته، أثناء حياة جده وبعد وفاته، من دون أن ينشغل بترتيب هذا تاريخيا.

وقد بات المرجع الأساسي في التعرف على حياة النفري هو ما كتبه عفيف الدين التلمساني الذي عاش في القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي أي بعد رحيل النفري بثلاثة قرون على الأقل. وهناك من يقول إن النفري لم يكتب شيئا، وأن كل ما تركه هو كلام شفاهي التقطه تلاميذه ودونوه عن طيب خاطر. ويعتقد كثيرون أنه لولا الإشارات التي أوردها محيي الدين ابن عربي عن النفري في كتابه الأشهر «الفتوحات المكية» وكذلك كتابه «رسالة عين الأعيان» ما كان يمكن الالتفات بسهولة إلى نسب «المواقف والمخاطبات» للنفري. وقد اكتشف كتابَ المواقف والمخاطبات للنفَّري المستشرق آرثر جون آربري سنة 1934، ففتح الباب أمام كثيرين ليطالعوا ما ورد فيه، ويتناولوه شرحا وتحليلا، في إعجاب واندهاش، لاسيما من الأدباء عموما، والشعراء خصوصا.

وهناك من يرى أن النفري ربما يكون قد اعتنق المذهب الشيعي، وهذا يعزى إلى عدة مؤشرات، أولها أن قد أتى على ذكر «الإمام الغائب» أو «المهدي المنتظر» في نصه، والذي تؤمن «الرواية الشيعية» بأنه سيظهر في آخر الزمان ويملأ الأرض عدلا. وثانيها أنه ولد في بلدة قريبة من الكوفة، التي كانت مركزا علميا للشيعة أيامها مثل ما هي عليه الآن. وثالثها هي ممارسة النفري للتقية، وعيشه متخفيا، وعدم تدوينه لأفكاره وخواطره ومواجيده حتى لا تكون حجة ضده في يد مناهضي المتصوفة أو كارهي الشيعة، لا سيما من الفقهاء الذين يرمونهم بالكفر ويطلقون عليهم لقب «الرافضة»، ويهيجون عليهم عوام الناس من أهل السنة.

وبعد طول إهمال للنفري جاء في زماننا من يشهد له بوصفه متصوفا عميقا وعاشقا للغة، فها هو الكاتب الراحل الدكتور مصطفى محمود يقول في كتابه «رأيت الله» إن «مكاشفات النفري تعد مدخلًا مهما إلى الحداثة الشعرية و«قصيدة النثر».

ويقول الناقد الأدبي سعيد الغانمي: «تضيء شعرية النفري على صعوبة ترويضها أو تصنيفها تبعًا

لأي مقولات جاهزة، فهو يريد اجتراح لغة تتخطى دائمًا مواصفات اللغة المألوفة، وتبشر بما وراء الحرف والمجاز، أي بما وراء اللغة الحقيقية واللغة الاستعارية».

ويصف أدونيس النفري بأنه «السلف الشرعي لقصيدة النثر العربية»، ويرى أن كتابته تمثّل «شعرية الفكر الحقيقي» ويقول: إنها «تجربة قلبية لا تجربة عقلية، وتجربة كتابية بدءًا من القطيعة مع الواقع، ومن الصلة مع المتخيَّل.. إنها تجربة تتجاوز إمكانات الواقع، من أجل أن تُحسِنَ الغوص في داخله، وتُحسن استقصاءَ ما يُضمره، فهي تجربةُ رموزٍ وإشارات وتلميحات. النص هنا يقول أكثر مما يقول ظاهر كلماته، وتتقاطع فيه أبعاد ودلالات تجسّد لغة تفرض التواصل معها ذوقيا، أو حدسيا».

ويمضي أدونيس قائلا: «يرفعُ النفّري الكتابة إلى مستوى الأسطورة. فكتابته تدعونا لكي نفهمها بحركة الأحشاء، ونبضات القلب، كما لو أن علينا أن ننصهر فيها؛ أن نتماهى معها كما نتماهى مع طفولتنا ولاشعورنا.. إنه نصّ يقول لنا إن الحقيقة شوقٌ، وهي غير موجودة بوضوحها الكامل، أي بغموضها الكامل إلا في اللغة، أعني الشعر».

ويرى الكاتب والناقد عبده وازن أن شعرية النفري تتمتع بالإيقاع الداخلي للمفردات والجمل ولعبة التكرار، وظهور بعض السجع اللطيف والرقيق، ناهيك عن الجناس المهذب والإيجاز والابتعاد عن شرائك الفصاحة والبلاغة والكلفة والتصنع.

ويصف الأب اليسوعي بولس نويا، الذي أنجز عددًا من الدراسات عنه، النفري بأنه من أعمق المفكرين في تاريخ المسلمين، ويثني على قريحته اللغوية، وقدراته الفذة على صياغة الأفكار والمواجيد العميقة في عبارات قصيرة مسبوكة بإحكام، تخاطب العقل والعاطفة معا.

وهناك من يرى أن شعرية النفري تدلنا على اصطلاح «اختلاف الأضداد» الذي سبق ما أشار إليه الناقد الكبير باختين عن «تكافؤ الأضداد» بل إن إشارات النفري طالت ما أبدعه الشاعر الفرنسي ستيفان مالارميه. والمفردات التي زخر بها نص النفري تظهر هذا التضاد بجلاء، من قبيل: القرب والبعد، والفرق والجمع، والظاهر والباطن، والنطق والصمت، والليل والنهار، والحياة والموت، والمعرفة والجهل، والعبد والرب، والنور والظلام، والنار والماء.

وربما تكون بداية معرفة كثيرين بالنفري هي جملته ذائعة الصيت التي تقول: «إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة» والتي يقف أمامها أهل العلم مندهشين؛ ليتأملوا ما تنطوي عليه من حكمة ومنهج وما تدل عليه من طريقة في التفكير والتعبير. وربما لم يدرِ النفري وقت أن نطق بها أن هذه الجملة ستسكنه ويسكنها، وتصبح قرينته وقرينها، فما إن يأتي أحد على ذكر اسمه حتى يستدعيها، وما إن تُستدعى حتى نتذكر «المواقف والمخاطبات» ورحلة رجل جار عليه التاريخ طويلا، وأخفى مكنوناته عن الأعين والأذهان، مثلما سعى هو وقصد أن يعيش مع ذاته، فيجنبها الشقاء والبلاء.

وتنطوي فلسفة النفري على «الوقفات» و»الرؤيا»، والأولى تعني في نظره إدراك الكون والأشياء من منظور يفوق كل علم بشري، وكل معرفة صوفية أو حدسية، أي ما يفوق البرهان والعرفان، ويأتي من الحضرة الإلهية مباشرة، حيث يقول النفري: «قال لي: الوقفة جواري وأنا غير الجوار». والواقف قبل العارف، فها هو يقول: «قال لي: الواقفون أهلي. والعارفون أهل معرفتي» وهذا يعني أن الواقفين أعلى مرتبة من العارفين، بل إن الوقفة تعني تحصيل المعرفة بالفعل، بينما لا تعني المعرفة بالضرورة بلوغ الوقفة فـ «كل واقف عارف. وما كل عارف واقف» و«لا يقدر العارف قدر الواقف» و«الوقفة عمود المعرفة. والمعرفة عمود العلم» وقال لي: «العلم حجابي، والمعرفة خطابي، والوقفة حضرتي»، بل يذهب النفري إلى ما هو أبعد حين لا يجد الحرية إلا في الوقفة: «قال لي: العالم في الرق. والعارف مكاتب. والواقف حر».

وهنا يصبح الواقف في نظر النفري من دخل في زمن الذات الإلهية أو رحابها، وتهيأ لتلقي الخطاب الإلهي المطلق، أو هو ذلك الذي ترقى على سلم الواصلين حتى بات يدور في عالم الغيب والشهادة بلا قيود ولا أستار، ويبلغ أعلى مراتب الفناء في ذات الله. والفناء عند المتصوفة يعني «سقوط الأوصاف المذمومة.. فمن فني عن جهله بقي بعلمه، ومن فني عن شهوته بقي بإنابته، ومن فني عن رغبته بقي بزهادته، ومن فني عن منيته بقي بإرادته تعالى».

أما الرؤيا عند النفري فهي أعلى مراتب الكشف، وهي منفذ خاص جدا للارتباط بخطاب الله، والاطلاع على ما يجود به على عبده من أسرار.

وعلى غرار «إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة» يقتطع البعض جملا من مخطابات النفري ووقفاته لتصبح حكما عميقة راسخة، مثل قوله في المخاطبات: «سدَّ باب قلبك الذي يدخل منه سواي؛ لأن قلبك بيتي» و«يا عبدُ، من صبر عن سواي أبصر نعمتي، وإلا فلا». ومثل قوله في المواقف: «غششتُك إن دللتُك على سواي» و«آليتُ لا أقبلك وأنت ذو سبب أو نسب» و«لا يجاورني وجدٌ بسواي، إن عرفتني بمعرفة أنكرتني من حيث عرفتني».

وكل هذه بالقطع خطاب متخيل من الله سبحانه وتعالى إلى الإنسان، حيث يتخيل النفري أن هناك من يخاطبه باسم الملكوت الأعلى، فيبدأ «وقفاته» بعبارة «قال لي»، مثل ما يأتي:

- وقال لي: لا يكون المنتهى حتى تراني من وراء كل شيء.

- وقال لي: نَمْ لتراني، فإنك تراني؛ واستيقظ لتراك، فإنك لا تراني.

- وقال لي: كل واقف عارف، وليس كل عارف واقف.

- وقال لي: فإن العارف كالمَلِك يبني قصوره من المعرفة فلا يريد أن يتخلّى عنها.

- وقال لي: المعرفة نارٌ تأكل المحبة.

- وقال لي: من علوم الرؤيا أن تشهد صمت الكل، ومن علوم الحجاب أن تشهد نطق الكل.

وقد يبدأ النفري «الوقفة» بشرح الحالة والظرف الذي يكون عليه قبل أن يبدأ قول أو مخاطبة الهاتف الذي يأتيه من الملكوت الأعلى، قبل أن ينطق بـ «قال لي» وهو ما يمكن أن نضرب عليه مثلا في «الوقفة 16» وعنوانها «موقف من الموت»، والتي تأتي على النحو التالي:

«أوقفني في الموت فرأيت الأعمال كلها سيئات، ورأيت الخوف يتحكم على الرجاء، ورأيت الغنى قد صار نارا ولحق بالنار، ورأيت الفقر خصما يحتج، ورأيت كل شيء لا يقدر على شيء، ورأيت الملك غرورا، ورأيت الملكوت خداعا، وناديت يا علم، فلم يجبني، وناديت يا معرفة فلم تجبني، ورأيت كل شيء قد أسلمني، ورأيت كل خليفة قد هرب مني، وبقيت وحدي، وجاءني العمل فرأيت فيه الوهم الخفي والخفي الغابر، فما نفعني إلا رحمة ربي، وقال لي أين علمك؟ فرأيت النار.

وقال لي: أين عملك؟ فرأيت النار.

وقال لي: أين معرفتك، فرأيت النار. وكشف لي عن معارفه الفردانية، فخمدت النار.

وقال لي: أنا وليك فثبت.

وقال لي: أنا معرفتك فنطقت.

وقال لي: أنا طالبك، فخرجت».

أما المخاطبات فتختلف عن «الوقفات» إذ يختفي فيها الوسيط، الذي يتلقى الهاتف من الملكوت

الأعلى، ويذهب الخيال إلى أن الله يخاطب الإنسان مباشرة، في صيغة تشبه ما توصف بأنها «أحاديث قدسية». ويمكن هنا أن نعرض اثنتين من هذه المخاطبات، الأولى هي الثامنة، وتقول:

- يا عبد من لم يستح لزيادة العلم لم يستح أبدا.

- يا عبد لا تتصرف فيك أخدمك كل شيء على عين ترعاه من حسن الاختيار.

- يا عبد، إن أردت أن تنظر إلى قبح المعصية فانظر إلى ما جرى به الطبع، وحالفه الهوى.

- يا عبد، علامة مغفرتي في البلاء أن أجعله سببا لعلم.

- يا عبد، جعلت لكل شيء وجها، وجعلت فتنته في وجهه، وجعلت وجهك وجدك بك، ووجه الآخرة ما عاد عليك، وأمرتك بالغض عن كل وجه لتنظر إلى وجهي، وأنت بينك وبين سببك واختياري، ولا أنت ولا سببك، وأنا ولا ظهور اختياري لك ولا فيك.

- يا عبد، عبدي الأمين عليَّ هو الذي رد سواي إليَّ.

أما المخاطبة الثانية التي اخترتها في هذا المقام لطرح الدلالة على ما ذكرته فهي العاشرة، والتي تأتي على النحو التالي:

- يا عبد، كم شيء دفعته بيدك جعلته رزقك، وكم ثبتّ يدك على رزق هو لغيرك، فكن عندي وانظر إليَّ كيف أجري القسم ترى العطاء والمنع اسمين لتعرفي إليك.

- يا عبد، مبلغك من العلم ما به تطمئن.

- يا عبد، حاجتك ما يقلبك عن الحاجة.

- يا عبد، كيف تستجيب لعلمك وأنا الرب؟

- يا عبد، ما منعتك لضنى عليك، وإنما منعتك لأعرض عليك الجزء المبتلى منك؛ لتعرفه، فإذا عرفته، جعلته سببا من أسباب تعرفي إليك، فسويت بين الاختلاف والائتلاف، فرأيتني وحدي، وعلمت أنني لك أظهرت ما أظهرت، ولك أسررت ما أسررت.

- يا عبد، لو علمتك ما في الرؤية، لحزنت على دخول الجنة.

- يا عبد، ما أنت بعامل في الرؤية إنما أنت مستعمل.

- يا عبد، قم إليَّ لا إلى مسافة تقطع بضعفك، ولا حاجة تعجز فقرك.

- يا عبد، عذرتك ما بقي العلم في، لا وبلا.

- يا عبد، لا أرفع العلم عذرتك على كل حال.

- يا عبد، قم إليَّ، تتبع سببا مواصلا.

- يا عبد، قم إليَّ أعطك ما تسأل، لا تقم إلى ما تسأل، أحتجب ولا أعطي.

- يا عبد، كيف أنت إذ ندبت، كذلك أنا إذا دعوت.

- يا عبد، تحذيرا وحكمة مقام، أنا رؤوف بك أين فلت، وأنا المقيل لك أين عثرت.

- يا عبد، ألم ترني لم أرضك لشكري، ولا ذكري، حتى أشهدتك رؤيتي فكان وراء ظهرك، إنما اصطفيتك لنفسي، وارتضيتك لرؤيتي، لكن طبعتك على الغيب عني، فرقا بيني وبين مداومتي، فإذا رجعت إلى الغيبة، فما رجعتك عن رؤيتي لك، وإنما رجعتك عن رؤيتي لي. هناك جعلت لك الغيبة

مسرحا، فاذكرني فيها بذكري الذي أحببت أن أذكرك به، فإني لا أقفك في الغيبة، ولا أرضى بمثواك في العبادة، فأنصبها لك أبوابا وطرقا، أوصلك منها إلى الرؤية، فإذا رأيتني أحرقت ما جئت به.

وبعد حياة يلفها الغموض توفي النفَّري في عام 375هـ، 965م، كما ذكره التلمساني الشارح لكتاب المواقف والمخاطبات على هامش الغلاف من المخطوطة المصرية، ويبين أنه توفي في القاهرة، لكنه لا يجزم بذلك، مكتفيًا بالقول: «الله العالم في مماته».

يحيى بن معاذ

الواعظ الذكار نسيج وحده

الواعظ الذكار، والقانع الصبار، والمادح الشكار، نسيج وحده في وقته، وصاحب الأقوال العميقة في الرجاء، وسيد الكلام الراسخ في المعرفة. هو الغريب على الدنيا والناس، الداعي إلى تطابق السر والعلن. كان حكيم زمانه، دوَّن الناس كلامه الأخاذ، وجمعوا ألفاظه التي تنطوي على سحر البيان، لزم الحداد اجتنابا للعباد، واستلذ السهاد طلبا للوداد، واحتمل الشداد توصلا إلى المراد، وكان ينادي: «يا جهول يا غفول، لو سمعت صرير القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك لَمت طربًا».

هو أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي، الذي لقب بـ «الواعظ» لأنه كان أول من وعظ الناس من فوق المنبر. ويقال إنه اعتلى المنبر ذات يوم، وحضر لسماعه أربعة آلاف رجل، فنظر في وجوههم مليًّا، ثم نزل، وقال: إن الرجل الذي اعتلينا المنبر من أجله ليس حاضرا.

وقد اتصل بزين العارفين أبي يزيد البسطامي، فرأى من حالاته ما جعله يتحير، لكنه أدرك أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فلازم خدمته، وروى عنه حكايات عجيبة. ويقال إن الواعظ قد ألف كتبا كثيرة، لكن يبدو أنها قد فقدت، وإن بقيت الكثير من أقواله في الرجاء والأمل والزهد والمعرفة والمحبة، وهي ما سنفرد لها الجزء الأكبر في هذا المقام، نظرا لعمقها وبلاغتها.

وشهد لابن معاذ كثيرون، فقال عنه ابن النديم في «الفهرست»: كان من الزهاد المتهجدين، وكان عابدا زاهدا، ووصفه السُّلَمي في «طبقات الصوفية» بأنه أحد الأوتاد، وأوحد وقته في فنه. وقال عنه القزويني في «آثار البلاد وأخبار العباد»: كان شيخ الوقت وصاحب اللسان في الوعظ والقبول عند الناس، ووصفه في «هدية العارفين»: بأنه الزاهد الواعظ من رجال التصوف. وقال عنه الذهبي في «تاريخ الإسلام» وفي كتابه «العبر في أخبار من غبر»: إنه كان عابدًا صالحًا حكيم زمانه وواعظ عصره.

ويمكن أن نضرب مثالا على مواعظه بتلك التي يتوجه بها إلى المريدين كي يسلكوا الطريق المستقيم، فيقول لهم: «أيها المريدون طريق الآخرة والصدق، والطالبون أسباب العبادة والزهد، اعلموا أنه من لم يحسن عقله لم يحسن تعبد ربه، ومن لم يعرف آفة العمل لم يحسن أن يحترز منه، ومن لم تصح عنايته في طلب الشيء لم ينتفع به إذا وجده، واعلموا أنكم خلقتم لأمر عظيم وخطر جسيم، وأن العلم لم يرد ليعلم إنما أريد ليعلم ويعمل به؛ لأن الثواب على العمل بالعلم يقع لا على العلم، ألا ترى أن العلم إذا لم يعمل به عاد وبالا وحجة، وانظروا ألا تكونوا معشر المريدين ممن قد تركوا لذة الدنيا ونعيمها، ثم لا يصدق طلبكم الآخرة فلا دنيا ولا آخرة، وفكروا فيما تطلبون فإن من لم يعرف خطر ما يطلب لم يسهل عليه الجهل في جنب طلبه، واعلموا أنه من لم يهن عليه الخلق لم يعظم عليه الرب، ومن لم يكن طلبه في طريق الرغبة والرهبة والشوق والمحبة كان متحيرا في طلبه، مخلطا في عمله، لا يجد لذة العبادة، ولا يقطع طريق الزهادة، فاتقوا الله الذي إليه معادكم، وانظروا ألا تكونوا ممن يعرفهم جيرانهم وإخوانهم بالخير والإرادة والزهادة والعبادة وحالكم عند الله على خلاف ذلك، فإن الله إنما يجزيكم على ما يعرف منكم لا على ما يعرفه الناس، ولا تكونوا ممن يولع بصلاح الظاهر الذي إنما هو للخلق، ولا ثواب له بل عليه العقاب، ويدع الباطن الذي هو لله وله الثواب ولا عقاب عليه».

وهناك موعظة أخرى مؤثرة ألقاها على آذان سامعيه يقول فيها: «عذبوا أنفسكم في طاعة الله بترك شهواتها قبل أن تلقي الشهوة منها أجسامكم في ديار عاقبتها، واعلموا أن القرآن قد ندبكم إلى وليمة الجنة، ودعاكم إليها، فأسرع الناس إليها أتركُهم لدنياه، وأوجدُكم لذة لطعم تلك الوليمة : أشدهم تجويعًا لنفسه، ومخالفة لها، فإنه ليس أمر من أمور الطاعة إلا وأنتم تحتاجون أن تخرجوه من بين ضدين مختلفين بجهد شديد، وسأظهر لكم هذا الأمر: فإني وجدت أمر الإنسان أمرًا عجيبًا، قد خالف ما كُلِفَّ سائر الخلق من أهل الأرض والسماء فأحسن النظر فيه، وليكن العمل منك فيه على حسب الحاجة منك إليه، واستعن بالله فنعم المعين، واعلم أنك لم تسكن لتتنعم فيها جاهلًا، وعن الآخرة غافلًا، ولكنك

أسكنتها لتتعبد فيها عاقلَا وتمتطي الأيام إلى ربك عاملًا، فإنك بين دنيا وآخرة، ولكل واحدة منهما نعيم وفي وجود أحدهما يطول الآخر، فانظر أن تحسن طلب النعيم، فقد حكي عن إبراهيم بن آدم أنه قال: غلط الملوك طلبوا النعيم فلم يحسنوا».

وكان الواعظ يعبر أحيانا عما يدور في نفسه من أذواق، وما في رأسه من حكمة، بأبيات من الشعر، مثل قوله:

يا ليته لم يكن في اللوح مسطورا

ذنب على عبده قد كان مقدورا

كيف النجاة بعبد أنت خالقه

ماذا تريد به يا رب مفطورا

يا ويحه يوم يستدعي صحائفه

إليك من خمدة الأموات منشورا

وهناك أشعار أخرى، يتحدث فيها عن انشغال قلبه بالذنوب التي اقترفها وسعيه إلى الشفاء من العلل الروحية التي ألمت به، يقول فيها:

أنا مشغول بذنبي يا رجل

كف عني إن قلبي في شغل

كيف أرجو توبة تدركني

وأرى قلبي بويلي يشتغل

ذهبت نفسي بلا شك على

أنني أدفع دهري بالعلل

ومن أول المقامات الصوفية التي انشغل بها يحيى بن معاذ مقام «الرجاء» الذي برع في التعبير عنه إلى حد بعيد، وترك لنا بشأنه أقوالا عميقة، منها هذا الدعاء: «إلهي، أحلى العطايا في قلبي رجاؤك، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك، وأحب الساعات إليَّ ساعة يكون فيها لقاؤك». ومنها هذه المناجاة: «يكاد رجائي لك مع الذنوب، يغلب رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها، وأنا بالآفة معروف. وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف». و«إلهي لا تنسَ لي دلالتي عليك، وإشارتي بالربوبية إليك، رفعت يدًا بالذنوب مغلولة، وعينًا بالرجاء مكحولة، فاقبلني لأنك ملك لطيف، وارحمني لأني عبد ضعيف». و«مَنْ عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادكار». و «كيف أمتنع بالذنب من رجائك، ولا أراك تمتنع للذنب من عطائك».

ومن أقوال الواعظ في الرجاء أيضا: «أوثق الرجاء رجاء العبد ربه، وأصدق الظنون حسن الظن بالله» و»لا تقع للمؤمنين سيئة إلا وهو خائف أن يؤخذ بها، والخوف حسنة فيرجو أن يعفى عنها والرجاء حسنة».

كما انشغل الواعظ بمسألة «الفقر» التي لا تعني طلب الفاقة والمسكنة، إنما الشعور الدائم بالحاجة الماسة إلى الله، والرضا بالقليل من متاع الدنيا، سواء الطعام أو الشراب، أو الشهوات الجسدية.

ويطالب الناس أن يخافوا من الآخرة خوفهم من الفقر، ويجعلوا المخافة الأولى مقدمة على الثانية، بل قد تجبها تماما مع توكل الإنسان على ربه، كما يتوكل الطير، الذي يغدو خماصا ويعود بطانا. وقد سئل ذات يوم: متى يكون الرجل متوكلا؟ فأجاب: إذا رضي بالله وكيلا.

ومن أقواله في شأن الفقر:

- استشعرت الفقر فاتهمتَه، ووثقت بعبد مثلك فقير فائتمنتَه، ثم صرخ وقال: واسوءتاه منك إذا شاهدتني وهمتي تسبق إلى سواك، أم كيف لا أضنى في طلب رضاك. قلب المحب يهم بالطيران، وتَكمُله لدغات الشوق والخفقان.. إلهي، إن كانت ذنوب عظمت في جنب نهيك فإنها قد صغرت في جنب عفوك.. إلهي، لا أقول لا أعود لما أعرف من خلقي وضعفي.. إلهي إنك إن أحببتني غفرت سيئاتي، وإن مقتني لم تقبل حسناتي ثم قال: أواه قبل استحقاق قول أواه.

- طوبى لعبد أصبحت العبادة حرفته، والفقر مُنيته، والعزلة شهوته، والآخرة هِمته، وطلب العيش بُلغَتُه، وجعل الموت فكرته، وشغل بالزهد نيته، وأمات بالذل عزته، وجعل إلى الرب حاجته، يذكر في الخلوات خطيئته، وأرسل على الوجنة عبرته، وشكا إلى الله غربته، وسأله بالتوبة رحمته. طوبى لمن كان ذلك صفته، وعلى الذنوب ندامته. جأر الليل والنهار، وبكاء إلى الله بالأسحار، يناجي الرحمن، ويطلب الجنان، ويخاف النيران.

- إنما صار الفقراء أسعد على الذكر من الأغنياء لأنهم في حبس الله، ولو أطلقوا من حصار الفقر لوجدت من ثبت منهم على الذكر قليلًا.

- مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة.

- حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

قيل إنه تكلم ذات مرة في بلخ عن مسألة تفضيل الغنى على الفقر، فأعطي ثلاثين ألف درهم، فقال بعض المشايخ: لا بارك الله له في هذا المال، فخرج إلى نيسابور، فوقع عليه لص وأخذ منه ذلك المال.

والكلام عن الفقر لا بد أن يأتي في ركاب الحديث عن الزهد، الذي هو جوهر التصوف وعموده، وللواعظ أقوال مشهودة في الزهد منها:

- كيف يكون زاهدا من لا ورع له؟ تورع عما ليس لك، ثم ازهد فيما لك.

- الزهد ثلاثة أشياء: القلة والخلوة والجوع.

- جوع التوابين تجربة، وجوع الزاهدين سياسة، وجوع الصديقين تكرمة.

- الجوع للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللزهاد سياسة، وللعارفين مكرمة.

- الدنيا بحر التلف، والنجاة منها الزهد فيها.

- طلبوا الزهد في بطن الكتب، وإنما هو في بطن التوكل لو كانوا يعلمون.

- الدنيا أميرُ من طلبها، وخادمُ من تركها، الدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلبها رفضته، ومن رفضها طلبته، الدنيا قنطرة الآخرة فاعبروها ولا تعمروها، ليس من العقل بنيان القصور على الجسور، الدنيا عروس وطالبها ماشِطتها، وبالزهد يُنتف شعرها، ويُسَود وجهها، وتُمزق ثيابها. ومن طلق الدنيا فالآخرة زوجته، فالدنيا مطلقة الأكياس لا تنقضي عدتها أبدًا، فخل الدنيا ولا تذكرها، واذكر الآخرة ولا تنسها.

- لا تجعل الزهد حرفتك لتكتسب بها الدنيا، ولكن اجعلها عبادتك لتنال بها الآخرة، وإذا شكرك أبناء الدنيا ومدحوك فاصرف أمرهم على الخرافات. ترى الخلق متعلقين بالأسباب، والعارف متعلق بولي الأسباب، إنما حديثه عن عظمة الله وقدرته وكرمه ورحمته، يحترف بهذا دهره ويدخل به قبره.

- الدرجات التي يسعى إليها أبناء الآخرة سبعة: التوبة ثم الزهد ثم الرضا ثم الخوف ثم الشوق ثم المحبة ثم المعرفة، فبالتوبة تطهروا من الذنوب، وبالزهد خرجوا من الدنيا، وبالرضا ألبسوا حُلل العبودية، وبالخوف جازوا قناطر النار، وبالشوق إلى الجنة استوجبوها، وبالمحبة عقلوا النعيم، وبالمعرفة وصلوا إلى الله.

- اعلموا أنه لا يصح الزهد والعبادة ولا شيء من أمور الطاعة لرجل أبدًا وفيه للطمع بقية، فإن أردتم الوصول إلى محض الزهد والعبادة فأخرجوا من قلوبكم هذه الخصلة الواحدة، وكونوا – رحمكم الله – من أبناء الآخرة، وتعاونوا واصبروا وأبشروا تظفروا إن شاء الله، واعلموا أن ترك الدنيا هو الربح نفسه الذي ليس بعده أمر أشد منه، فإن ذبحتم لتركها نفوسكم أحييتموها، وإن أحييتم أنفسكم بأخذها قتلتموها، فارفضوها من قلوبكم تصيروا إلى الروح لراحة في الدنيا والآخرة، وتصيبوا شرف الدنيا والآخرة، وعيش الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون.

- من أحب زينة الدنيا والآخرة فلينظر في العلم، من أحب أن يعرف الزهد فلينظر في الحكمة، ومن أحب أن يعرف مكارم الأخلاق فلينظر في فنون الآداب، ومن أحب أن يستوثق من أسباب المعايش فليستكثر من الإخوان، ومن أحب أن لا يؤذى فلا يُؤذِين، من أحب رفعة الدنيا والآخرة فعليه بالتقوى.

- الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح.

- لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة.

- الاقتصاد في العيش ضيعة لم تتكلف منها : تمتع القلوب في الدنيا غفلتها عن الآخرة، الزهد حلو مُر، أما حلاوته فاسمه والمذاكرة به، وأما مرارتُه فمعالجته.

- قال رجل ليحيى: متى أدخل حانوت التوكل، وألبس رداء الزهد، وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حدٍّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح.

كما كانت للواعظ حكم رائقة عن المعرفة الحدسية، وكان يرى أن «أهل المعرفة وحش الله في الأرض لا يأنسون إلى أحد، والزاهدون غرباء في الدنيا، والعارفون غرباء في الآخرة»، وفي نظره «يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطره من شيئين: بكاؤه على نفسه، وثناؤه على ربه عز وجل». و«العارف قد يشتغل بربه عن مفاخرة الأشكال ومجالس العطايا، وعن منازعة الأضداد في مجالس البلايا». وسئل ذات مرة عن العارف، فقال: «رجل كائن بائن» أو «كان بان»، وهذا يعني أن العارف هو كائن مع الناس ببدنه، لكنه بعيد عنهم بقلبه؛ لأنه مشغول بخالقه». وكان يصف العارف بأنه «جسم ناعم، وقلب هائم، وشوق دائم، وذكر لازم». وكان يطالب العارفين بأن يتأدبوا مع منبع المعرفة ومصدرها الأول ويقول: «إذا ترك العارف أدبه مع معروفه، فقد هلك مع الهالكين». وكان يقول: «لو لم يكن للعارفين إلا هاتان النعمتان لكفاهم مِنة : متى رجعوا إليه وجدوه، ومتى ما شاءوا ذكروه».

وله أقوال راقية صافية عميقة مؤثرة، تكاد تترجم ما قاله النفري من أنه: «إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»، ويمكن هنا أن نقدم أمثلة من الكلام الأخاذ ليحيى بن معاذ:

- علامة الشوق: فطام الجوارح عن الشهوات.

- الوحدة جليس الصديقين.

- الوقوف على حد العلم من غير تأويل.

- التواضع حسن في كل أحد، لكنه في الأغنياء أحسن. والتكبر سمج في كل أحد، لكنه في الفقراء أسمج.

- الفوت أشد من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق... لست أبكي على نفسي إن ماتت إنما أبكي على حاجتي إن فاتت.

- مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب.

- قد غرق في بلائه وهو يريد أن ينجو من ربه بصفائه.

- في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق.

- من استفتح باب المعاش بغير مفتاح الأقدار وكل إلى المخلوقين.

- الإخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم.

- ما في القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا فجارًا وللبخلاء إلا بغض، ولو كانوا أبرارًا.

- معاشر الصديقين! جوِّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس.

- الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئًا فيجيء في طلبه فيأخذك.

- الدنيا بلغ شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله، فكيف الوقوع فيها.

- إن وضع عليهم عدله لم تبقَ لهم حسنة، وإن أنالهم فضله لم تبقَ لهم سيئة.

- الجنة حبيبة المؤمن فكيف يبيعها منه بالبغيضة؟

- لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طرقاتها بالذنوب.

- لا يفلح من شُمَّت منه رائحة الرياسة.

- لا تسكن إلى نفسك وإن دعتك إلى الرغائب.

- من كانت الحياة قيده كان طلاقه منها موته.

وِتوفي يحيى بن معاذ في نيسابور سنة 258هـ الموافق لسنة 872م بعد أن نزل في مدينتي الري وبلخ، وأقام بهما سنوات عديدة.

مصادر الكتاب

- ابن سعد: «الطبقات الكبرى»، (القاهرة: مطبعة دار التحرير).

- ابن عطاء الله السكندري، «بهجة النفوس»، تصنيف الأستاذ: على حسن العريض، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية)، سلسلة دراسات إسلامية، 1969م.

- أبو بكر العيدروسي: «النجم الساعي في مناقب الرفاعي»، الطبعة الأولى، 1970م.

- أبو بكر الكلاباذري، «التعرف لمذهب أهل التصوف»، تحقيق: محمود أمين النواوي، (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية)، الطبعة الأولى، 1969م.

- أبو حامد الغزالي، «إحياء علوم الدين»، (بيروت: دار القلم)، الطبعة الأولى.

- أبو حامد الغزالي، «المنقذ من الضلال»، تحقيق: د.جميل صليب ود.كامل عياد، بيروت: دار الأندلس).

- أبو سعيد الخراز، «الطريق إلى الله»، تحقيق: د.عبد الحليم محمود، (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية).

- أبو العباس أحمد بن حمد زروق: «قواعد التصوف»، تصحيح وتنقيح: محمد زهدي النجاري، (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية).

- أبو القاسم هوازن القشيري، «الرسالة القشيرية»، تحقيق: د.عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، (القاهرة: دار الكتب الحديثة)، الطبعة الأولى، 1966م.

- أبو نصر السراج الطوسي: «اللمع»، تحقيق: د.عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، (القاهرة: دار الكتب الحديثة)، لجنة نشر التراث الصوفي، 1967م.

- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني: «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»، (بيروت: دار الكتاب العربي)، الطبعة الثانية، 1967م.

- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: «التصوف والفقراء»، تحقيق: محمد عبد الله السمان، سلسلة الثقافة الإسلامية، (23)، نوفمبر 1960م.

- أحمد أبو كف: «آل بيت النبي في مصر»، (القاهرة: دار المعارف)، 1988م.

- أنور الجندي، «الموسوعة الإسلامية العربية»، الجزء الرابع: «العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والثقافي»، (القاهرة/بيروت: دار الكتاب المصري اللبناني)، الطبعة الأولى، 1979م.

- د. جميل محمد أبو العلا: «التصوف الإسلامي: نشأته وتطوره»، (القاهرة: مطبعة قاصد جبر).

- الحارث المحاسبي: «المسائل في إعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل»، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، (القاهرة: عالم الكتب)، الطبعة الأولى، 1980م.

- حسن كامل الملطاوي: «منهاج الصوفية»، (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية)، سلسلة دراسات في الإسلام، 1993م.

- السيد محمود أبو الفيض المنوفي: «المدخل إلى التصوف الإسلامي»، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر)، سلسلة مذاهب وشخصيات، 1970م.

- شاخت وبوزوث: «تراث الإسلام»، ترجمة د.حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، سلسلة عالم المعرفة، الطبعة الثانية، مايو 1988م.

- شهاب الدين السهروردي: «عوارف المعارف»، تحقيق د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن شريف، (القاهرة: دار الكتب الحديثة).

- الشوكاني: «قطر الولي على حديث الولي»، تحقيق إبراهيم هلال، (القاهرة: دار الكتب الحديثة).

- طه عبد الباقي سرور: «من أعلام التصوف الإسلامي»، (القاهرة: مكتبة نهضة مصر).

- د. عامر النجار: «التصوف النفسي»، (القاهرة: دار المعارف)، 1984م.

- د. عامر النجار: «الطرق الصوفية في مصر: نشأتها ونظمها وروادها»، (القاهرة: دار المعارف)، الطبعة الرابعة، 1990م.

- د. عبد الحليم محمود، «سلطان العارفين: أبو بكر الشبلي: حياته وآراؤه»، (القاهرة: دار المعارف)، 1985م.

- د. عبد الحليم محمود، «سلطان العارفين: أبو يزيد البسطامي»، (القاهرة: دار المعارف)، 1985م.

- د. عبد الحليم محمود، «قضية التصوف: المدرسة الشاذلية»، (القاهرة: دار المعارف)، 1983م.

- د. عبد الحليم محمود، «قضية التصوف المنقذ من الضلال»، (القاهرة: دار المعارف)، 1980م.

- د. عبد الحكيم عبد الغني قاسم، «المذاهب الصوفية ومدارسها»، (القاهرة: مكتبة مدبولي)، 1989م.

- د. عبد الرحمن بدوي، «تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني الهجري»، (الكويت: وكالة المطبوعات)، الطبعة الأولى، 1975م.

- فيصل بدير عون، «التصوف الإسلامي: الطريق والرجال»، (القاهرة: مكتبة سعيد رأفت/جامعة عين شمس)، 1983م.

- د. كامل مصطفى الشيبي، «الصلة بين التصوف والتشيع»، (القاهرة: دار المعارف)، 1969م.

- محمد الصادق عرجون، «التصوف في الإسلام: منابعه وأطواره»، (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية)، الطبعة الأولى، 1994م.

- د. مصطفى غلوش، «التصوف الإسلامي بين الأشراق والفلسفة»، مذكرات مقررة على طلبة كلية أصول الدين، جامعة الأزهر.

- المناوي، «الكواكب الدرية في مناقب السادة الصوفية»، بدون بيانات.

- نور الدين بن جرير الشطنوفي، «بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب عبد القادر الجيلاني»، (القاهرة: مكتبة البابي الحلبي).

- إبراهيم إبراهيم هلال «التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة» – القاهرة: دار النهضة العربية، 1979م، ص 303.

- إبراهيم بسيوني «الإمام القشيري: سيرته، آثاره، مذهبه في التصوف» – القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية، 1972م.

- أبو العباس أحمد زروق «قواعد التصوف» – بيروت: دار الجيل، 1992م، ص 166.

- أبو عبد الرحيم المريد «تعرف على حقيقة الصوفية والتصوف» – دمشق: دار المحبة، 2003م، ص 600.

- أبو بكر محمد الكلاباذي «التعرف لمذهب أهل التصوف» – بيروت: دار صادر، 2001م.

- أحمد الشرباصي «الغزالي والتصوف الإسلامي» – القاهرة، دار الهلال.

- أحمد ساعد الدين على البساطي، «حقيقة التصوف في الإسلام» – القاهرة: دار الطباعة المحمدية، 1988م.

- أحمد محمود صبحي خليل، «التصوف إيجابياته وسلبياته» - القاهرة: دار المعارف، 1984م.

- أسعد السحمراني، «التصوف منشأه ومصطلحاته» – بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، 1987م.

- حسن عباس زكي، «مذاقات في عالم التصوف» – القاهرة: دار البيان العربي، 1999م.

- حسن محمد الشرقاوي، «أصول التصوف الإسلامي» – الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1991م.

- رشيد ناجي الحسن «هذا هو التصوف» – اللاذقية: دار الحوار، 1996م.

- سيد عبد الستار ميهوب، «في العقيدة والتصوف عند عبد القادر الجيلاني»، القاهرة: دار الهداية، 2000م.

- صهيب سعران، مقدمة في التصوف» – دمشق: دار المعرفة، 1989م.

- عبد الحفيظ ملك عبد الحق المكي، «موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية»، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2001م.

- عبد الحميد الزهراوي، «الفقه والتصوف» – القاهرة: المكتب الفني للنشر، (سلسلة الثقافة الإسلامية)، 24، 1960م.

- عبد الرحمن عميرة، «التصوف الإسلامي: منهجا وسلوكا» – القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1982م.

- عبد الرزاق نوفل، «التصوف والطريق إليه» – القاهرة: دار الشعب، 1972م.

- عبد العزيز أحمد منصور، «التصوف الإسلامي الصحيح» - القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1996م.

- عبد الفتاح أحمد الفاوي محمود، «التصوف عقيدة وسلوكا» – القاهرة: مكتبة الزهراء، 1992م.

- توفيق عامر، «دراسات في الزهد والتصوف» – طرابلس، ليبيا: الدار العربية للكتاب، 1981م.

- حسين القوتلي، «التصوف العقلي في الإسلام: نموذج المحاسبي في كتابه القصد والرجوع إلى الله» – باولا: دار اقرأ، 1988م.

- داود الفاعوري، «فلسفة التصوف» – عمان: دار زهران، 2000م.

- زكي مبارك، «التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق» – دمشق: دار سعد الدين، 2002م.

- سعيد مراد، «التصوف الإسلامي: رياضة روحية خالصة» – القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1989م.

- طلعت غنام، «أضواء على التصوف: دراسة موضوعية: تحليل ونقد من وجهة النظر الإسلامية والفكرية» – القاهرة: عالم الكتب، 1979م.

- عادل كامل الألوسي، «الحب والتصوف عند العرب» – بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1999م.

- محمد عقيل على المهدلي، «دراسة في التصوف الفلسفي الإسلامي» – القاهرة: دار الحديث، 1993م.

- محمد غازي عرابي، «النصوص في مصطلحات التصوف» – دمشق: دار قتيبة، 1985م.

- مصطفى حلمي، «الحب الإلهي في التصوف الإسلامي» – القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (سلسلة قضايا إسلامية)، 1986م.

- مصطفى عبد الرازق، «الإسلام والتصوف» بالاشتراك مع ماسينون – القاهرة: دار الشعب، 1979م.

- محمد عبد السلام كفافي، «مثنوي جلال الدين الرومي شاعر الصوفية الأكبر»، - بيروت: المكتبة العصرية، 1966م.

- أحمد النقشبندي الخالدي «معجم الكلمات الصوفية» – القاهرة: دار الشروق، 2004م.

- أنور فؤاد أبي خزام «معجم المصطلحات الصوفية: مستخرج من أمهات الكتب الينبوعية: ترجمة جورج متري عبد المسيح»- بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1993م.

- أيمن حمدي، «قاموس المصطلحات الصوفية: دراسة تراثية مع شرح اصطلاحات أهل الصفا من كلام خاتم الأولياء» – القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2000م.

- حسن محمد الشرقاوي، «معجم ألفاظ الصوفية» – القاهرة: مؤسسة المختار، 1992م.

- عبد الرازق الكاشاني، «معجم اصطلاحات الصوفية»، تحقيق وتقديم د.عبد العال شاهين.

- د. عبد المنعم الحفني، «موسوعة الصوفية»، (القاهرة: دار الرشاد)، الطبعة الأولى، 1992م.

- عدد من المستشرقين، «دائرة المعارف الإسلامية»، تعريب: إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي ود. عبد الحميد يونس، (القاهرة: مؤسسة دار الشعب).

- د. جوزيبي سكاتولين ود. أحمد حسن أنور، «التجليات الروحية في الإسلام: نصوص صوفية عبر التاريخ»، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) 2008م.

المؤلف في سطور

* ولد بقرية الإسماعيلية محافظة المنيا بجمهورية مصر العربية في 21 ديسمبر من عام 1967م.

* تخرج في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، عام 1989م وحصل على الدكتوراه في العلوم السياسية عام 2001م بمرتبة الشرف الأولى.

* عضو اتحاد الكتاب في مصر، وعضو نقابة الصحفيين.

* * *

صدرت له الأعمال الإبداعية الآتية:

1- عرب العطيات، مجموعة قصصية.

2 - حكاية شمردل، رواية.

3 - الأبطال والجائزة، قصة للأطفال.

4 - أحلام منسية، مجموعة قصصية.

5 - جدران المدى، رواية.

6 - زهر الخريف، رواية.

7 - شجرة العابد، رواية

8 - التي هي أحزن، مجموعة قصصية.

9 - سقوط الصمت، رواية.

* * *

له تحت الطبع:

1 - حكايات الحب الأول، أقاصيص.

2 - السلفي، رواية.

* * *

صدرت له الكتب الآتية:

1 - بهجة الحكايا: على خطى نجيب محفوظ.

2 - النص والسلطة والمجتمع: القيم السياسية في الرواية العربية.

3 - وزارة العدل المصرية: سيرة مؤسسية.

4 - ممرات غير آمنة: تهديد الراديكاليين الإسلاميين لوسائط نقل الطاقة.

5 - التحديث ومسار البنى الاجتماعية التقليدية: حالة اليمن.

6 - الفريضة الواجبة: الإصلاح السياسي في محراب الأزهر والإخوان المسلمين.

7 - العلاقات الخليجية - المصرية: جذور الماضي ومعطيات الحاضر وآفاق المستقبل.

8 - أمة في أزمة: من أمراض العرب السياسية في الفكر والحركة.

9 - التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر: ثقافة الديمقراطية ومسار التحديث لدى تيار ديني تقليدي.

10 - الأيديولوجيا: المعنى والمبنى.

11 - حناجر وخناجر: دراسات حول الدين والسياسة والتعليم في مصر.

12 - العودة إلى المجهول: راهن الإصلاح في مصر ومستقبله.

13 - التغيير الآمن: المقاومة السلمية من التذمر إلى الثورة.

14 - الطريق إلى الثورة: التباشير والنبوءة، الانطلاق والتعثر.

15 - القرية والقارة: دراسات في النظم السياسية والعلاقات الدولية.

16 - فرسان العشق الإلهي.

17 - أصناف أهل الفكر.

18 - عشت ما جرى: شهادة على ثورة يناير.

19 - انتحار الإخوان: انطفاء الفكرة وسقوط الأخلاق وتصدع التنظيم. * * *

الجوائز

1 - جائزة الدولة للتفوق في العلوم الاجتماعية، 2012م.

2 - جائزة الشيخ زايد، فرع التنمية وبناء الدولة، 2010م.

3 - جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي في القصة القصيرة 2011م.

4 - جائزة في مسابقة «القصة القصيرة» التي نظمتها جريدة أخبار الأدب المصرية عام 1994م، وسلمها الأستاذ نجيب محفوظ.

5 - جائزة «القصة والحرب» التي نظمتها أخبار الأدب بالتعاون مع الشؤون المعنوية بالقوات المسلحة المصرية عام 1995م.

6 - الجائزة التشجيعية في القصة القصيرة عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية عام 1992م.

7 - جائزة غانم غباش للقصة القصيرة عام 2002م.

8 - جائزة هزاع بن زايد لأدب الأطفال عن قصة «الأبطال والجائزة» عام 2003م.

9 - جائزة جامعة القاهرة في القصة القصيرة سنة 1988م.

10 - جائزة «الفقه والدعوة الإسلامية» التي تشرف عليها هيئة قضايا الدولة في مصر، ويشارك في تحكيمها مفتي مصر، ورئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وبعض مشايخ الأزهر ومستشارون من الهيئة، وبعض الشخصيات الفكرية والفقهية المرموقة، وذلك عن عامي 1991 و1992م على التوالي.

11 - نوط الواجب العسكري من الطبقة الثانية عن حصوله على المركز الثاني في نهاية تخرج الدفعة 89 من كلية الضباط الاحتياط، أثناء فترة تجنيده.

القشيـري

زين الإسلام الجامع بين أشتات العلوم